الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

لشيخ الإسلام

أحمد بن تيمية

الجزء الثاني

تحقيق

مجدي قاسم

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل فى بطلان قياس كتبهم على القرآن

فحينئذ فقولهم : إنا نعجب من هؤلاء القوم على علمهم وذكائهم ومعرفتهم ، كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول ؟.

وذلك أنّا أيضاً إذا قلنا واحتججنا عليهم بمثل هذا القول : إن الكتاب الذي بأيديهم - يومنا هذا - قد غيروه وبدلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا هل كانوا يُجوّزون كلامنا ؟ قال الحاكي عنهم : فقلت لهم : هذا ممالايجوز ، ولايمكن لأحد أن يقوله ، ولايمكن تغييره ، ولاتبديل حرف واحد منه .

فقالوا: سبحان الله العظيم ! إذا كان الكتاب الذي لهم ، الذي هو باللسان الواحد لايمكن تبديله ، ولاتغيير حرف واحد منه ، فكيف يمكن تغيير كتبنا التى هى مكتوبة باثنين وسبعين لساناً ؟ وفى كل لسان منها كذا وكذا ألف نسخة ؟ وجاز عليها إلى مجئ محمد أكثر من ستمائة سنة ، وصارت فى أيدى الناس يقرءونها باختلاف ألسنتهم على تشاسع بلدانهم .

فمن الذي تكلم باثنين وسبعين لساناً ، ومن هو الذى حكم على الدنيا جميعها ملوكها وقساوستها وغالبها حتى حكم على جميعها فى أقطار الأرض ، وجميعها فى أربع زوايا العالم حتى يغيرها ؟

وإن كان غيّر بعضها وترك بعضها ، فهذا لايمكن أن يكون لأن كلها قول واحد،ولفظ واحد في جميع الألسن ، فهذا مما لايجوز لقائل أن يقوله أبداً .

والجواب : أن يقال أولاً : هذا الكلام منهم يدل على غاية جهلهم بما تقوله المسلمون في كتبهم ، وتبين أنهم - لفرط جهلهم - يظنون أن المسلمين يقولون مقالة لايخفى فسادها على من له أدنى عقل ومعرفة ، والمسلمون لا يشك أحد من الأمم أنهم أعظم الأمم عقولاً وأفهاماً وأتمهم معرفة وبياناً ، وأحسن قصداً وديانة وتحرياً للصدق والعدل ، وأنهم لم يحصل في النوع الإنسانى أمة أكمل منهم ، ولا ناموس أكمل من الناموس الذي جاء به نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وحذاق الفلاسفة معترفون لهم بذلك ، وأنه لم يقرع العالم ناموس أكمل من هذا الناموس .

وقد جمع الله للمسلمين جميع طرق المعارف الإنسانية وأنواعها فإن الناس نوعان :

أهل كتاب ، وغير أهل كتاب كالفلاسفة والهنود .

والعلم يُنال بالحس والعقل ، ومايحصل بهما ، ويوحى الله إلى أنبيائه الذي هو خارج عما يشترك فيه الناس من الحس والعقل .

ولهذا قيل : الطرق العلمية : البصر والنظر . والخبر : الحس ، والعقل ، والوحى : الحس ، والقياس ، والنبوة .

فأهل الكتاب امتازوا عن غيرهم بما جاءهم من النبوة ، مع مشاركتهم لغيرهم فيما يشترك فيه الناس من العلوم الحسية ، والعقلية .

والمسلمون حصل لهم من العلوم النبوية والعقلية ما كان للأمم قبلهم ، وامتازوا عنهم بما لاتعرفه الأمم ، وما اتصل إليهم من عقليات الأمم هذبوه لفظاً ومعنى ، حتى صار أحسن مما كان عندهم ، ونَفَوْا عنه من الناموس وضموا إليه من الحق مما امتازوا به على من سواهم .

وكذلك العلوم النبوية أعطاهم الله منها مالم يعطه أمة قبلهم ، وهذا ظاهر لمن تدبر القرآن ، مع تدبر التوارة والإنجيل ، فإنه يجد من فضل علم القرآن ما لايخفى إلا على

العميان .

فكيف يظن مع هذا بالمسلمين أن يخفى عليهم فساد هذا الكلام الذى ظنه بهم هؤلاء الجهال .

ويقال : ثانياً الجواب من وجوه :

أحدها : أن المسلمين لم يدّعوا أن هذه الكتب حُرفت بعد انتشارها ، وكثرة النسخ بها ولكن جميعهم متفقون على وقوع التبديل والتغيير في كثير من معانيها وكثير من أحكامها .

وهذا مما تسلمه النصارى جميعهم فى التوراة والنبوات المتقدمة ، فإنهم يسلّمون أن اليهود بدّلوا كثيراً من معانيها وأحكامها .

ومما تسلمه النصارى فى فرقهم أن كل فرقة تخالف الأخرى فيما تفسر به الكتب المتقدمة ، ومما تسلمه اليهود أنهم متفقون على أن النصارى تفسر التوارة والنبوات المتقدمة على الإنجيل بما يخالف معانيها ، وأنها بدلت أحكام التوراة فصار تبديل كثير من معانى الكتب المتقدمة مُتفَقاً عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

وأما تغيير بعض ألفاظها ففيه نزاع بين المسلمين .

والصواب الذي عليه الجمهور أنه بُدّل بعض ألفاظها ،كما ذكر ذلك في مواضعه .

الوجه الثاني : أن قياسهم كتبهم على القرآن ، وأنه كما لاتسمع دعوى التبديل فيه ، فكذلك فى كتبهم قياس باطل فى معناه ولفظه .

أما معناه : فكل ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعاً ظاهراً معروفاً عندهم فهو منقول عن الرسول نقلاً متواتراً ، بل معلوماً بالاضطرار من دينه ، فإن الصلوات الخمس ، والزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت العتيق ، ووجوب العدل ، والصدق ، وتحريم الشرك ، والفواحش والظلم ، بل وتحريم الخمر ، والميسر ، والربا ،

وغير ذلك منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً متواترا كنقل ألفاظ القرآن الدالة على ذلك .

ومن هذا الباب عموم رسالته صلى الله عليه وسلم ، وأنه مبعوث إلى جميع الناس : أهل الكتاب وغير أهل الكتاب بل إلى الثقلين : الإنس والجن ، وأنه كان يُكفِّر اليهود والنصاري الذين لم يتبعوا ما أنزل الله عليه ، كما كان يكفر غيرهم ممن لم يؤمن بذلك ، وأنه جاهدهم وأمر بجهادهم .

فالمسلمون عندهم ـ منقولاً عن نبيهم نقلا متواتراً ـ ثلاثة أمور : لفظ القرآن ومعانيه التى أجمع المسلمون عليها ، والسنة المتواترة ، وهى الحكمة التى أنزلها الله عليه غير القرآن .

كما قال تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة] ، [سورة البقرة : ١٥١] . وقال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة النساء : ١١٣] وقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣١] . وقال تعالى : ﴿ واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٣٤] .

وبذلك دعى الخليل حيث قال لما بنى - هو وإسماعيل - الكعبة بأرض « فاران » المذكورة في الكتاب الأول ، قال تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبَّل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . [سورة البقرة : ١٢٧ - ١٢٩] .

وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « ألا إنى أوتيت الكتاب ، ومثله معه » .

---

(١) « حديث صحيح » عن المقدام بن معدى كرب

رواه أبو داود فى كتاب « السنة » باب « فى لزوم السنة » (١٢/٣٥٤ : ٣٥٦ ح٤٥٨٠) =

فالمسلمون عندهم نقل متواتر عن نبيهم بألفاظ القرآن ومعانيه المتفق عليها ، وبالسنة المتواترة عنه مثل كون الظهر والعصر والعشاء أربعاً وكون المغرب ثلاث ركعات ، وكون الصبح ركعتين ، ومثل الجهر في العشائين والفجر ، والمخافتة في الظهر والعصر ، ومثل كون الركعة فيها سجدتان ، وكون الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة سبعاً ، ورمى الجمرات كل واحدة سبع حصيات وأمثال ذلك .

وأيضاً فالمسلمون يحفظون القرآن في صدورهم حفظاً يستغنون به عن المصاحف كما ثبت فى الصحيح الذى رواه مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) « إن ربى قال لى : إنى منزل عليك كتاباً لايغسله الماء ، تقرأه نائماً ويقظاناً » .

=ورواه أيضًا فى كتاب « الأطعمة » باب « النهى عن أكل السباع » (١٠/٢٧٧: ٢٧٨ ح ٣٧٨٦) دون ذكر الشاهد

ورواه الترمذى فى كتاب « باب » ما نهى عن أن يقال عند حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧/٤٢٦ ح ٢٨٠١)

وقال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » وفى بعض نسخ الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » ورواه ابن ماجه فى « المقدمة » تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (١/٦ ح ١٢) ورواه أحمد (٤/١٣١، ١٣٢) ، وصححه الألبانى فى « صحيح سنن أبى داود (٣/٨٧٥، ٨٧١ح ٣٨٤٨) وله شاهد من حديث جابر بن عبد الله :

ورواه الخطيب فى الكفاية (ص ٤٢) وابن عبد البر فى جامع بيان العلم (٢/١٨٩)

وله شاهد آخر عن أبى رافع :

ورواه أبو داود والترمذى

وانظر الشريعة للآخرى (ص٥٠، ٥١) ، وانظر تخريج صحيح ابن حبان (١/١٨٨٩) وتخريج شرح أصول الاعتقاد للألبانى (١/٨٢،٨٣) ومفتاح الجنة للسيوطى (ص ٣٢)

(١) (حديث صحيح عن عياض بن حمار المجاشعى)

رواه مسلم فى كتاب « الجنة وصفة نعيمها » باب « الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار » (٤/٢١٩٧ : ٢١٩٩ ح ٢٨٦٥)

ورواه النسائى فى سنن الكبرى فى كتاب « فضائل القرآن » باب « قراءة القرآن على كل الأحوال (٥/٢٦ح ٨٠٧٠)

—

يقول : ولو غسل بالماء من المصاحف لم يغسل من القلوب كالكتب المتقدمة ، فإنه لو عدمت نسخها لم يوجد من ينقلها نقلاً متواتراً محفوظة فى الصدور .

والقرآن مازال محفوظاً في الصدور نقلا متواتراً ، حتى لو أراد مريد أن يغير شيئاً من المصاحف ، وعرض ذلك على صبيان المسلمين لعرفوا أنه قد غير المصحف لحفظهم للقرآن من غير أن يقابلوه بمصحف ، وأنكروا ذلك .

وأهل الكتاب يقدر الإنسان منهم أن يكتب نسخاً كثيرة من التوراة والإنجيل ، ويغير بعضها ويعرضها على كثير من علمائهم : ولايعرفون ماغيرمنها إن لم يعرضوه على النسخ التى عندهم .

ولهذا لما غير من نسخ التوراة راج ذلك على طوائف منهم لم يعلموا التغيير .

وأيضاً فالمسلمون لهم الأسانيد المتصلة بنقل العدول الثقات لدقيق الدين ، كما نقل العامة جليله ، وليس هذا لأهل الكتاب .

وأيضاً فما ذكروه من أن كتبهم مكتوبة باثنين وسبعين لساناً هو أقرب إلى التغيير من الكتاب الواحد باللغة الواحدة ، فإن هذا مما يحفظه الخلق الكثير ، فلايقدر أحد أن يغيره .

وأما الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لساناً ، فإذا قدر أن بعض النسخ الموجودة ببعض الأسئلة غُيِّرَ مافيها ، لم يعلم ذلك سائر أهل الألسن الباقية بل ولم يعلم بذلك سائر أهل النسخ الأخرى ، فالتغيير فيها ممكن ، كما يمكن في نظائر ذلك .

وما ادعوه من تعذر جمع جميع النسخ ، هو حجة عليهم فإن ذلك إذا كان متعذراً لم يمكن الجزم باتفاق جميع النسخ لواحد حتى يشهد بأنها كلها متفقة لفظاً ومعنى ،

=ورواه أحمد (٤/١٦٢)

ورواه أبو داود الطيالسى فى مسنده (ص ١٤٥ : ١٤٦ ح ١٠٧٩)وانظر تحفة الأشراف (٨/٢٥٢ ح ١١٠١٦)

بل إمكان التغيير فيها أيسر عن إمكان الشهادة باتفاقها .

ولهذا لا يمكن أحداً تغيير القرآن مع كونه محفوظاً في القلوب منقولا بالتواتر مع أنا لانشهد لجميع المصاحف بالاتفاق ، بل قد يقع في بعض نسخ المصاحف ماهو غلط يعلمه حفاظ القرآن ، ولايحتاجون إلى اعتبار ذلك بمصحف آخر .

وتلك الكتب لا يحفظ كلا منها قوم من أهل التواتر حتى يعتبر النسخ بها ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام فيهم موجودين ، كانوا هم المرجع للناس فيما يعتمدون عليه إذا غير بعض الناس شيئاً من الكتب ، فلما انقطعت النبوة فيهم أسرع فيهم التغيير .

فلهذا بدل كثير من النصارى كثيراً من دين المسيح عليه السلام ، بعد رفعه بقليل من الزمان ، وصاروا يبدلون شيئاً بعد شئ ، وتبقى فيهم طائفة متمسكة بدين الحق إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقد بقى من أولئك الذين على الحق طائفة قليلة كما في الحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى صحيحه عن عياض بن حمار المشاجعي عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أنه قال (١) : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا قبيل مبعثه صلى الله عليه وسلم » .

وقد أدرك سلمان الفارسي (٢) - وكان قد تنصر بعد أن كان مجوسياً - طائفة ممن كانوا متبعين لدين المسيح عليه السلام ، واحد بالموصل ، وآخر بنصيبين وآخر بعمرويه .

---

(١) كما فى الحديث السابق

(٢) هذا حديث إسلام سلمان ، وقد ورد : أولا : من طريق ابن عباس : ورواه أحمد (٥/ ٤٤١-٤٤٤)
ورواه ابن سعد فى « الطبقات » (٤/١/٥٣-٥٧)
ورواه ابن هشام فى « السيرة » (١/٢٧٣ - ٢٨٢)
-

وكل منهم يخبر بأنه لم يبق على دين المسيح عليه السلام إلا قليل ، إلى أن قال له آخرهم : لم يبق عليه أحد ، أخبره أنه يبعث نبى بدين إبراهيم من جهة الحجاز ، فكان ذلك سبب هجرة سلمان إليه وإيمانه به .

فالدين الذى اجتمع عليه المسلمون اجتماعاً ظاهراً معلوما هو منقول عن نبيهم نقلا متواتراً نقلوا القرآن ، ونقلوا سنته ، وسنته مفسرة للقرآن مبينة له كما قال تعالى له : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزِّل إليهم ﴾ ، [سورة النحل : ٤٤] . فبين ما أنزل الله لفظه ومعناه فصار معانى القرآن التى اتفق عليها المسلمون اتفاقا ظاهراً مما توارثته الأمة عن نبيها كما توارثت عنه ألفاظ القرآن فلم يكن - ولله الحمد - فيما اتفقت عليه الأمة شئ محرف مبدل من المعانى ، فكيف بألفاظ تلك المعانى ؟ فإن نقلها والاتفاق عليها أظهر منه فى الألفاظ فكان الدين الظاهر للمسلمين الذين اتفقوا عليه مما نقلوه عن نبيهم لفظه ومعناه فلم يكن فيه تحريف ولاتبديل لا للفظ ولا للمعنى ، بخلاف التوراة والإنجيل فإن من ألفاظها مابدل معانيه وأحكامه اليهود أو النصارى أو مجموعهما تبديلاً ظاهراً مشهوراً فى عامتهم كما بدلت اليهود مافى الكتب

=ورواه أبو نعيم فى الدلائل » (١/٣٣٩-٣٤٧ح ١٩٩)
ورواه الطبرانى فى « الكبير » (٦/ ٢٢٢- ٢٢٦ ح ٢٦٥)
والخطيب فى تاريخه » (١/١٦٤- ١٦٩)
والبيهقى فى « الدلائل » (٢/٩٢ - ٩٧)
وقال الهيثمى فى « المجمع » (٩/٣٣٦) : « رواه أحمد والطبرانى فى الكبير بنحوه بأسانيد وإسناد الرواية الأولى عند أحمد والطبرانى رجالها رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع » وهذا الإسناد جميعه من طريق ابن إسحاق وهو إسناد قوى وقد صرح بالتحديث فانتفت شبهة تدليه
من طريق « أبى قرة الكندى » رواه أحمد (٥/٤٣٨)
وابن سعد فى طبقاته (٤/١/٥٨-٥٩)والطبرانى فى الكبير » (٦/٢٥٩ ح ٦١٥٥)
ورواه ابن حبان كما فى « الإحسان » (١٦/٦٤-٦٦ح ٧١٢٤)
وقال البيهقى فى « المجمع » (٩/٣٣٦) » رجال هذه الرواية
انفرد بها أحمد ورجالها رجال الصحيح غير عمرو بن أبى قرة الكندى وهو ثقة ورواه البزار »

المتقدمة من البشارة بالمسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم وما فى التوراة من الشرائع وأمره فى بعض الأخبار ، وكما بدلت النصارى كثيراً مما فى التوراة والنبوات من الأخبار ومن الشرائع التى يغيرها المسيح ، فإن مانسخه الله على لسان المسيح من التوراة يجب اتباع المسيح فيه .

وأما مابدل بعد المسيح مثل استحلال لحم الخنزير وغيره مما حرمه الله ، ولم يبحه المسيح ومثل إسقاط الختان ومثل الصلاة إلى المشرق وزيادة الصوم ونقله من زمان إلى زمان ، واتخاذ الصور في الكنائس ، وتعظيم الصليب واتباع الرهبانية ، فإن هذه كلها شرائع لم يشرعها نبي من الأنبياء لا المسيح ولاغيره خالفوا بها شرع الله الذي بعث به الأنبياء من غير أن يشرعها الله على لسان نبي .

الوجه الثالث : أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر المعلوم بالضرورة للموافق والمخالف أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنه كلام الله لا كلامه ؟ وأنه مبلغ له عن الله ، وكان يفرق بين القرآن ، وبين مايتكلم به من السنة ، وإن كان ذلك مما يجب اتباعه فيه تصديقاً وعملا.

فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وعلم أمته الكتاب والحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٦٤] . وقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكُم به ﴾ [سورة البقرة : ٢٣١] ، وقال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم ﴾ ، [سورة النساء : ١١٣] ، وقال تعالى : ﴿ واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٣٤] . وقال تعالى عن الخليل وابنه اسماعيل : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة وأرِنا مناسكنا وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم ﴾ ، [سورة البقرة :

١٢٨ ، ١٢٩] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) : « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه » فكان يعلم أمته الكتاب وهو القرآن العزيز الذى أخبرهم أنه كلام الله ، لا كلامه ، وهو الذى قال عنه ، قال : ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٨] ، وهو الذى شرع لأمته أن تقرأة فى صلاتهم فلا تصح صلاة إلا به ، وعلمهم مع ذلك الحكمة التى أنزلها الله عليه وفرق بينها وبين القرآن من وجوه :

منها : أن القرآن معجز .

ومنها : أن القرآن هو الذى يقرأ في الصلاة دونها .

ومنها : أن ألفاظ القرآن العربية منزلة على ترتيب الآيات ، فليس لأحد أن يغيرها باللسان العربي باتفاق المسلمين ، ولكن جوز تفسيرها باللسان العربي ، وترجمتها بغير العربي .

وأما تلاوتها بالعربي بغير لفظها ، فلا يجوز باتفاق المسلمين ، بخلاف ماعلمهم من الحكمة ، فإنه ليس حكم ألفاظها حكم ألفاظ القرآن .

ومنها : أن القرآن ﴿ لايمسُّهُ إلاَّ المطهرون ﴾ ، [سورة الواقعة : ٧٩].

ولايقرأه الجنب كما دلت عليه سنته عند جماهير أمته ، بخلاف ماليس بقرآن .

والقرآن تلقته الأمة منه حفظاً فى حياته ، وحفظ القرآن جميعه فى حياته غير واحد من أصحابه ، وما من الصحابة إلا من حفظ بعضه ، وكان يحفظ بعضهم مالا يحفظه الآخر ، فهو جميعه منقول سماعا منه بالنقل المتواتر ، وهو يقول إنه مبلغ له عن الله ، وهو كلام الله لا كلامه .

---

(١) تقدم تخريجه .

وفي القرآن ـ مايبين أنه كلام الله ـ نصوص كثيرة ، وكان الذين رأوا محمداً صلى الله عليه وسلم ونقلوا ماعاينوه من معجزاته وأفعاله وشريعته وماسمعوه من القرآن وحديثه ألوفا مؤلفة أكثر من مائة ألف رأوه وآمنوا به .

وأما الأناجيل التى بأيدي النصارى ، فهى أربعة أناجيل : إنجيل متّى ، ويوحنا ، ولوقا ، ومرقس . وهم متفقون على أن لوقا ومرقس لم يريا المسيح ، وإنما رآه متى ويوحنا ، وأن هذه المقالات الأربعة التى يسمونها الإنجيل ، وقد يسمون كل واحد منهم إنجيلا إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح فلم يذكروا فيها أنها كلام الله ، ولا أن المسيح بلغها عن الله ، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح وأشياء من أفعاله ومعجزاته .

وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ماسمعوه منه ورأوه فكانت من جنس مايرويه أهل الحديث والسير والمغازى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من أقواله وأفعاله التى ليست قرآنا .

فالأناجيل التى بأيديهم شبه كتاب السيرة ، وكتب الحديث ، ومثل هذه الكتب ، وإن كان غالبها صحيحاً ، وماقاله المسيح عليه السلام فهو مبلغ له عن الله يجب فيه تصديق خبره ، وطاعة أمره ، كما قاله الرسول من السنة فهو يشبه ماقاله الرسول من السنة . فإن منها ما يذكر الرسول أنه قول الله كقوله يقول الله تعالى :(١) « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » ونحو ذلك .

---

(١) « صحيح »

رواه البخارى فى كتاب « الرقائق » ، باب « التواضع » (٣٤٨/١١، ٣٤٩ ح ٦٥٠٢)

ورواه البغوى فى شرح السنة فى كتاب « الدعوات » (١٩/٥ ح ١٢٤٨) وقال : « هذا حديث صحيح ورواه ابن حبان (٥٨/٢ ح ٣٤٧) وقال : « لا يعرف لهذا الحديث إلا طريقان اثنان : هشام الكنانى عن أنس ، وعبد الواحد بن ميمون عن عروة عن عائشة ، وكلا الطريقين لا يصح ، وإنما الصحيح ما ذكره »

ورواه أبو نعيم فى الحيلة (٤/١:٥) ، والبيهقى فى الزهد الكبير (ص٢٩٠ ح ٦٩٠) وأيضًا فى الأسماء والصفات ٠ص ٤٩٠ ، ٤٩١)

والحديث قد توسعنا فى تخريجه فى تحقيقنا لكتاب « استنشاق نسيم الأنس » لابن رجب طبع مكتبة الصحابة بطنطا (ص ٥١: ٥٣: ٢٧٠) ، وانظر : فتح البارى (ح٦٥٠٢) ، ومجمع الزوائد (٢٦٩/١) ، وجامع العلوم والحكم (٩/٦) ، والسلسلة الصحيحة للألبانى (ح ١٦٤٠)

ومنها ما يقول هو ، ولكن هو أيضاً مما أوحاه الله إليه ، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، فهكذا ماينقل في الإنجيل وهو من هذا النوع فإنه وإن كان أمراً من المسيح فأمر المسيح أمر الله ، ومن أطاع المسيح فقد أطاع الله .

وما أخبر به المسيح عن الغيب فالله أخبره به ، فإنه معصوم أن يكذب فيما يخبر به ، وإذا كان الإنجيل يشبه السنة المنزلة ، فإنه قد يقع في بعض ألفاظها غلط ، كما يقع في كتاب السيرة ، وسنن أبي داود والترمذى ، وابن ماجه ، ثم هذه الكتب قد أشتهرت واستفاضت بين المسلمين ، فلايمكن لأحد - بعد اشتهارها وكثرة النسخ بها - أن يبدلها كلها .

لكن في بعض ألفاظها غلط وقع فيها قبل أن تشتهر ، فإن المحدث وإن كان عدلا فقد يغلط ، لكن ماتلقاه المسلمون بالقبول والتصديق والعمل من الأخبار فهو مما يجزم جمهور المسلمين بصدقه عن نبيهم .

هذا مذهب السلف ، وعامة الطوائف ، كجمهور الطوائف الأربعة ، وجمهور أهل الكلام من الكلابية والكرامية والأشعرية وغيرهم ، ولكن ظن بعض أهل الكلام أنه لايجزم بصدقها لكون الواحد قد يغلط أو يكذب ، وهذا الظن إنما يتوجه في الواحد الذي لم يعرف صدقه وضبطه .

أما إذا عرف صدقه وضبطه ، إما بالمعجزات كالأنبياء ، وإما بتصديق النبى له فيما يقول ، وإما باتفاق الأمة المعصومة على صدقه ، وإتفاقهم على العمل بخبره أو اتفاقهم على قبول خبره وإقراره ، وذكره من غير نكير أو ظهور دلائل وشواهد وقرائن احتفت بخبره ، ونحو ذلك من الدلائل الدالة على صدق المخبر ، فهذه يجب معها الحكم بصدقه ، بأنه لم يكذب ولم يغلط وإن كان خبره لو تجرد عن تلك الدلائل أمكن كذبه ، أو غلطه كما أن الخبر المجرد لايجزم بكذبه إلا بدليل يدل على ذلك .

أما قيام دليل عقلى قاطع أو سمعى قاطع على أنه بخلاف مخبره ، فيجزم ببطلان مخبره وحينئذ فالمخبر إما كاذبا أو غالط قد يعلم أحدهما بدليل .

فالمسلمون عندهم من الأخبار عن نبيهم ماهو متواتر ومااتفقت الأمة المعصومة على تصديقه ، وما قامت دلائل صدقه من غير هذه الجهة مثل أن يخبر واحد أو اثنان أو ثلاثة بحضرة جمع كثير لا يجوز أن يتواطئوا على الكذب بخبر يقولون : إن أولئك عاينوه وشاهدوه ، فيقرونهم على هذا ولا يكذب به منهم أحد ، فيعلم بالعادة المطردة أنه لو كان كاذباً لامتنع اتفاق أهل التواتر على السكوت عن تكذيبه ، كما يمتنع اتفاقهم على تعمد الكذب .

وإذا نقل الواحد والإثنان ماتوجب العادة اشتهاره وظهوره ولم يظهر ونقلوه مستخفين بنقله لم ينقلوه على رءوس الجمهور ، علم أنهم كذبوا فيه .

ودلائل صدق المخبر وكذبه كثيرة متنوعة ليس هذا موضع بسطها ، ولكن المقصود هنا أن المسلمين تواتر عنهم عن نبيهم ألفاظ القرآن ومعانيه المجمع عليها ، والسنة المتواترة ، وعندهم عن نبيهم أخبار كثيرة معلومة الصدق بطرق متنوعة ، كتصديق الأمة المعصومة ، ودلالة العادات ، وغير ذلك ، وهم يحفظون القرآن في صدورهم ، ولايحتاجون في حفظه إلى كتاب مسطور ، فلو عدمت المصاحف من الأرض لم يقدح ذلك فيما حفظوه .

بخلاف أهل الكتاب فإنه لو عدمت نسخ الكتب لم يكن عندهم به نقل متواتر بألفاظها ، إذ لايحفظها إلا قليل لايوثق بحفظهم ، فلهذا كان أهل الكتاب بعد انقطاع النبوة عنهم يقع فيهم من تبديل الكتب ، إما تبديل بعض أحكامها ومعانيها ، وإما تبديل بعض ألفاظها مالم يقوموا بتقويمه .

ولهذا لايوجد فيهم الإسناد الذى للمسلمين ، ولا لهم كلام في نقلة العلم ، وتعديلهم وجرحهم ، ومعرفة أحوال نقلة العلم ما للمسلمين ، ولا قام دليل سمعى ولا عقلى على أنهم لايجتمعون على خطأ ، بل قد علم أنهم اجتمعوا على الخطأ لما كذبوا المسيح ، ثم كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإذا كانت الكتب المنقولة

عن الأنبياء من جنس الكتب المنقولة عن محمد ، ولم تكن متواترة عنهم ولم يكن تصديق غير المعصوم حجة ، لم يكن عندهم من العلم بالتمييز بين الصدق والكذب ماعند المسلمين ، فهذه الأناجيل التى بأيدى النصارى من هذا الجنس فيها شئ كثير من أقوال المسيح وأفعاله ومعجزاته ، وفيها ماهو غلط عليه بلاشك ، والذى كتبها في الأول إذا لم يكن ممن يتهم بتعمد الكذب ، فإن الواحد والاثنين والثلاثة والأربعة لايمتنع وقوع الغلط والنسيان منهم .

لاسيما ما سمعه الإنسان ورآه ، ثم حدث به بعد سنين كثيرة ، فإن الغلط في مثل هذا كثير ، ولم يكن هناك أمة معصومة يكون تلقيها لها بالقبول والتصديق موجباً للعلم بها ، لئلا تجتمع الأمة المعصومة على الخطأ ، والحواريون كلهم اثنا عشر رجلا .

وقصة الصلب مما وقع فيها الاشتباه ، وقد قام الدليل على أن المصلوب لم يكن هو المسيح عليه السلام ﴿ بل شبه ﴾ وهم ظنوا أنه المسيح ، والحواريون لم يرَ أحد منهم المسيح مصلوباً ، بل أخبرهم بصلبه بعض من شهد ذلك من اليهود .

فبعض الناس يقولون : إن أولئك تعمدوا الكذب ، وأكثر الناس يقول : اشتبه عليهم ، ولهذا كان جمهور المسلمين يقولون في قوله ﴿ ولكن شبّه لهم ﴾ عن أولئك ، ومن قال بالأول جعل الضمير في ﴿ شبّه لهم ﴾ عن السامعين لخبر أولئك ، فإذا جاز أن يغلطوا في هذا ، ولم يكونوا معصومين في نقله ، جاز أن يغلطوا في بعض ماينقلونه عنه ، وليس هذا مما يقدح في رسالة المسيح ، ولا فيما تواتر نقله عنه بأنه رسول الله الذى يجب اتباعه ، سواء صلب أو لم يصلب ، وماتواتر عنه ، فإنه يجب الإيمان به . سواء صلب أو لم يصلب .

والحواريون مصدقون فيما ينقلونه عنه لايتهمون بتعمد الكذب عليه لكن إذا غلط بعضهم في بعض ماينقله لم يمنع ذلك أن يكون غيره معلوماً ، لاسيما إذا كان ذلك الذى غلط فيه مما تبين غلطه فيه في مواضع أخر .

وقد اختلفت النصارى في عامة ما وقع فيه الغلط ، حتى في الصلب ، فمنهم من يقول المصلوب لم يكن المسيح ، بل الشبه كما يقول المسلمون ، ومنهم من يقر

بعبوديته لله وينكر الحلول والاتحاد كالأريوسية ، ومنهم من ينكر الاتحاد وإن أقر بالحلول كالنسطورية .

وأما الشرائع التى هم عليها فعلماؤهم يعلمون أن أكثرها ليس عن المسيح عليه السلام ، فالمسيح لم يشرع لهم الصلاة إلى المشرق ولا الصيام الخمسين ، ولا جعله في زمن الربيع ، ولا عيد الميلاد و الغطاس ، وعيد الصليب ، وغير ذلك من أعيادهم ، بل أكثر ذلك مما ابتدعوه بعد الحواريين ، مثل عيد الصليب فإنه مما ابتدعته « هيلانة الحرانية » أم قسطنطين ، وفي زمن قسطنطين غيروا كثيراً من دين المسيح والعقائد ، والشرائع فابتدعوا « الأمانة » التى هى عقيدة إيمانهم ، وهى عقيدة لم ينطق بها شئ من كتب الأنبياء التى هى عندهم ، ولا هى منقولة عن أحد من الأنبياء ، ولا عن أحد من الحواريين الذين صحبوا المسيح ؛ بل ابتدعها لهم طائفة من أكابرهم قالوا : كانوا ثلاث مائة وثمانية عشر .

واستندوا فى ذلك إلى ألفاظ متشابهة فى الكتب . وفي الكتب ألفاظ محكمة تناقض ماذكروه : كما قد بسط فى موضع آخر . وكذلك عامة شرائعهم التى وضعوها فى كتاب « القانون » بعضها منقول عن الأنبياء ، وبعضها منقول عن الحواريين ، وكثير منها مما ابتدعوه ليست منقولة عن أحد من الأنبياء ، ولا عن الحواريين ، وهم يجوزون لأكابر أهل العلم والدين أن يغيروا ما رأوه من الشرائع ، ويضعوا شرعا جديداً ، فلهذا كان أكثر شرعهم مبتدعا ، لم ينزل به كتاب ، ولا شرعه نبي .

فصل في أن الغلط
إنما وقع في الترجمة

وأما قولهم : كيف يمكن تغيير كتبنا التى هى مكتوبة باثنين وسبعين لسانا ، وفي كل لسان منها كذا كذا ألف مصحف ، ومضى عليها إلى مجئ محمد أكثر من ستمائة سنة ؟

فيقال : أما بعد انتشارها هذا الانتشار فلم يقل المسلمون ، بل ولاطائفة معروفة

منهم أن ألفاظ جميع كل نسخة في العالم غيرت ، لكن جمهور المسلمين الذين يقولون إن في ألفاظها ما غير ، إنما يدعون تغيير بعض ألفاظها قبل المبعث ، أو تغيير بعض النسخ بعد المبعث لا تغيير جميع النسخ ، فبعض الناس يقول : إن ذلك التغيير وقع في أول الأمر ، ويقول بعضهم : إن منها ما غير بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يقولون : إنه غير كل نسخة في العالم ، بل يقولون : غير بعض النسخ دون البعض ، وظهر عند كثير من الناس النسخ المبدلة دون التى لم تبدل .

والنسخ التى لم تبدل هى موجودة عند بعض الناس .

ومعلوم أن هذا لايمكن نفيه فإنه لايمكن أحداً أن كل نسخة في العالم بكل لسان مطابق لفظها سائر النسخ لسائر الألسنة إلا من أحاط علما بذلك ، وهم قد سلموا أن أحداً لايمكنه ذلك .

وأما من ذكر أن التغيير وقع في أول الأمر فهم يقولون : إنما أخذت الأناجيل عن أربعة : اثنان منهم لم يريا المسيح ، بل إنما رآه اثنان من نقلة الإنجيل : متى ويوحنا .

ومعلوم إمكان التغيير في مثل ذلك .

وأما قولهم : إنها مكتوبة باثنين وسبعين لساناً فمعلوم باتفاق النصارى أن المسيح لم يكن يتكلم إلا بالعبرية كسائر أنبياء بنى إسرائيل ، وأنه كان مختوناً ختن بعد السابع كما يختن بنو اسرائيل ، وأنه كان يصلى إلى قبلتهم لم يكن يصلى إلى الشرق ، ولا أمر بالصلاة إلى الشرق .

ومن قال : إن لسانه كان سريانياً ، كما يظنه بعض الناس فهو غالط ، فالكلام المنقول عنه في الأناجيل إنما تكلم به عبريا ، ثم ترجم من تلك اللغة إلى غيرها .

والترجمة يقع فيها الغلط كثيراً ، كما وجدنا فى زماننا من يترجم التوراة من العبرية إلى العربية ، ويظهر في الترجمة من الغلط مايشهد به الحذاق الصادقون ممن يعرف اللغتين .

والنصاري يقولون : إنما كتبت بأربع لغات : بالعبرية ، والرومية ، واليونانية والسريانية ، وأما قولهم : إنها كتبت باثنين وسبعين لغة ، فهذا إن كان صحيحا فإنما كتبت بعد أن كتبت تلك الأربعة ، فإذا كان الغلط وقع في مواضع من تلك الأربعة ، لم يرفعه بعد كتابتها باثنين وسبعين لغة ، فإن المسلمين لا يقولون : إنها كتبت باثنين وسبعين لغة غير لفظها في جميع الألسن الإثنين وسبعين لغة في كل نسخة من ذلك . وإنما يقال التغيير وقع قبل ذلك كما يقال فى سائر ماورد عن المسيح وموسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه من الحديث مثل سيرة ابن إسحاق ، وأحاديث السنن ، والمسانيد المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن في العالم بكل كتاب منها نسخ كثيرة ، لا يمكن أن يغير منها فصل طويل ، ولكن في نفس السيرة وقع غلط في مواضع وأحاديث وقعت في السنن هي غلط في الأصل وهذه كتب التفسير والفقه والدقائق مامن كتاب إلا وبه نسخ كثيرة في العالم لايمكن تغيير فصل طويل منها ، وفيها أحاديث غلط في الأصل .

والأناجيل التى بأيدي النصارى تشبه هذا ، ولهذا أمروا أن يحكموا فيها ، فإن فيها أحكام الله ، وعامة مافيها من الأحكام لم يبدل لفظه وإنما بدلت بعض ألفاظ الخبريات ، وبعض معانى الأمريات ، كما نؤمر نحن أن نعمل بأحاديث الأحكام المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن العلماء اعتنوا بضبطها أكثر من اعتنائهم بضبط الخبريات ، كأحاديث الزهد والقصص والفضائل ، ونحو ذلك ، إذ حاجة الأمم إلى معرفة الأمر والنهى أكثر من حاجتهم إلى معرفة التفاصيل بالخبريات التى يكتفى بالإيمان المجمل بها .

وأما الأمر والنهى . فلابد من معرفته على وجه التفصيل ، إذ العمل المأمور لايكون إلا مفصلا والمحظور الذى يجب اجتنابه لابد أن يميز بينه وبين غيره كما قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليضلَّ قوماً بعد إذْ هداهم حتى يبيِّن لهم ما يتَّقون ﴾ ، [التوبة : ١١٥] .

والنصارى لايحتاجون عند أنفسهم إلى هذا ، فإنه لايجب عندهم أن يتمسكوا بشرع منقول عن المسيح عليه السلام ، وعندهم لأكابرهم أن يشرعوا ديناً لم يشرعه المسيح ، ويقولون : ماشرعه هؤلاء فقد شرعه المسيح فلم يكن لهم عناية ولامعرفة بشرع المسيح ، كما للمسلمين عناية ومعرفة بشرع محمد صلى الله عليه وسلم .

فصل فيما حدث
في التوراة من تغيير

وأما التوراة ، فمن المعلوم عند المسلمين واليهود والنصارى أن بيت المقدس خرب الخراب الأول ، وخلا أهله منه وسبوا ، ولم يكن هناك من التوراة نسخ كثيرة ظاهرة ، بل إنما أخذت عن نفر قليل .

كما يقولون : إن عزيراً أملاها وأنهم وجدوا نسخة أخرى فقابلوها بها . والمقابلة تحصل باثنين ، وقد يغلط أحدهما ، وهم يذكرون أن من الملوك من أمر اثنين وسبعين حبراً منهم بنقلها ، واعتبر بعض تلك النسخ ببعض ، وهذا إذا كان صدقاً لايمنع أن يكون الغلط وقع في بعض ألفاظها قبل ذلك إلى أن يثبت أنها مأخوذة عن نبى معصوم ، أو أقر جميع ألفاظها نبي معصوم .

فما قاله المعصوم فهو حق ، وما ثبت بالنقل المتواتر فهو حق ، وهؤلاء القائلون إنه وقع التغيير في بعض ألفاظها في ذلك الزمان يقولون : لم تؤخذ عن نبي معصوم ولا نقلت بالتواتر .

ومن نازع من المسلمين وأهل الكتاب يقولون : أخذت عن العزير ، وهو نبى معصوم هذا مما يحتاج المثبت فيه والنافي إلى تحقيقه .

وإذا قالت النصارى : فالمسيح عليه السلام أقرها ، قيل : المسيح عليه السلام لم يمكن أن يلزمهم بما أوجبه الله عليهم من الإيمان به وطاعته ، فكيف كان يمكنه أن يغير نسخ التوراة التى عندهم مع كثرتها ، وهم قد طلبوا قتله وصلبه لعجزه وضعفه ،

وصلبوا شبيهه كما يقوله المسلمون أو صلبوا نفسه كما يقوله النصارى ، فكيف كان يمكنه أن يصلح ماغير منها ؟

وأما منْ بعد المسيح فليس معصوماً ، والمسيح غيَّر بعض أحكامها وأقرَّ أكثرها ، والأحكام إنما يدعى المسلمون فيها النسخ وتبديلها بالاعتقاد بخلاف موجبها والعمل بذلك لايحتاجون إلى دعوى تبديل ألفاظها .

كما بدلوا شريعة الرجم بغيرها ، وهو مكتوب في التوراة بخلاف الخبريات فإن هذه يقول أكثر المسلمين : إن التغيير وقع في بعض ألفاظها .

وأما النبوات المنقولة عن الإثنين وعشرين نبياً ، فهذه لاتعلم منها نبوة واحدة تواترت جميع ألفاظها ، بل أحسن أحوالها أن تكون بمنزلة الإنجيل ، وهو بمنزلة ماينقل من أقوال الأنبياء وسيرهم ، كسيرة ابن إسحاق ، أو بعض كتب المسانيد والسنن التى ينقل فيها ماينقله الناقلون من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله ، وأكثره صدق ، وبعضه غلط .

ولكن هذه الأمة حفظ الله لها ما أنزله ، كما قال تعالى : ﴿ إنا نحنُ نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون ﴾ ، [سورة الحجر : ٩] ، فما فى تفسير القرآن ، أو نقل الحديث ، أو تفسيره من غلط فإن الله يقيم له من الأمة من يبينه ، ويذكر الدليل على غلط الغالط ، وكذب الكاذب ، فإن هذه الأمة لاتجتمع على ضلالة ، ولايزال فيها طائفة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة ، إذ كانوا آخر الأمم فلانبى بعد نبيهم ، ولا كتاب بعد كتابهم .

وكانت الأمم قبلهم إذا بدلوا وغيروا بعث الله نبياً لهم ويأمرهم وينهاهم ، ولم يكن بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبي ، وقد ضمن الله أنه يحفظ ما أنزله من الذكر ، وأن هذه الأمة لاتجتمع على ضلالة ، بل أقام الله لهذه الأمة فى كل عصر من يحفظ

به دينه من أهل العلم والقرآن ، وينفى به تحريف الغالين ، وانتحال المضلين وتأويل الجاهلين .

فصل فيما حدث في الإنجيل من تبديل

وأما من قال : إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء يقولون : إنه كان فى التوراة والإنجيل وغيرهما ألفاظ صريحة بأمور منها اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه عمد بعض أهل الكتاب فغيروا بعض الألفاظ في النسخ التى كانت عندهم .

لا يقولون : إن هؤلاء غيروا كل نسخة كانت على وجه الأرض ، لكن غيروا بعض ألفاظ النسخ ، وكتب الناس من تلك النسخ المغيرة نسخاً كثيرة انتشرت فصار أكثر ما يوجد عند كثير من أهل الكتاب هو من تلك النسخ المغيرة .

وفي العالم نسخ أخرى لم تغير ، فذكر كثير من الناس أنه رآها وقرأها وفى تلك النسخ ما ليس في النسخ الأخرى ، ومما يدل على ذلك أنك في هذا الزمان إذا أخذت نسخ التوراة الموجودة عند اليهود والنصارى والسامرة وجدت بينها اختلاف فى مواضع متعددة .

وكذلك نسخ الإنجيل ، وكذلك نسخ الزبور مختلفة اختلاف متباينا بحيث لا يعلم العاقل أن جميع نسخ التوراة الموجودة متفقة على لفظ واحد ، ولا يعلم أن جميع نسخ الإنجيل متفقة على لفظ واحد ، ولا يعلم أن جميع نسخ الزبور متفقة على لفظ واحد ، فضلا عن سائر النبوات .

ومعلوم أنه لا يمكن أهل الكتاب إقامة حجة على أن جميع النسخ بجميع اللغات فى زوايا الأرض متفقة على لفظ واحد فى جميع ما هو موجود من جميع النبوات .

والحجة التي احتجوا بها على تعذر تغييرها كلها تدل على بتساويها كلها .

فإذا قالوا : فمن هو الذى تكلم باثنين وسبعين لسانا ، ومن الذى حكم على الدنيا كلها ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على جميع من بأقطار الأرض وجمعها من أربع زوايا الأرض حتى يغيرها ؟

قيل لهم : ومن الذى يعلم اثنين وسبعين لغة ؟ ومن هو الذى حكم على الدنيا ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على جميع من بأقطار الأرض وجمعها من أربع زوايا الأرض ، وأحضر كل نسخة موجودة في جميع الأرض ، وقابل كل نسخة موجودة في جميع الأرض بجميع النسخ ، فوجد جميع ألفاظ جميع النسخ التى باثنين وسبعين لساناً من جميع أقطار الأرض لفظاً متفقاً ، لم يختلف ألفاظها ؟

فإن دعوى العلم بهذا ممتنع أعظم من امتناع دعوى تغييرها فإنه إن أمكن لأحد أن يجمع جميع النسخ كانت قدرته على تغيير بعض ألفاظها كلها أيسر عليه من مقابلة كل ما فى نسخة بجميع ما فى سائر النسخ .

فإذا أحضرنا بكتاب من الكتب عشرة نسخ كان تغيير بعض ألفاظ العشرة أيسر علينا من مقابلة كل واحدة من العشرة بالتسعة الباقية ، إذ المقابلة يحتاج فيها إلى معرفة جميع ألفاظ كل نسخة ومساواتها للأخرى .

وأما التغيير فيكفى فيه أن يغير من نسخة ما يغيره من الأخرى ، فإن كان تغيير جميع النسخ ممتنعاً فى العادة فالعلم باتفاقها أشد امتناعا ؛ وإن كان العلم باتفاقها ممكناً ،فإمكان تغيير بعض ألفاظها أيسر وأيسر .

وأما قولهم إن قيل : إنه غير بعضها وترك بعضها ، فهذا لا يمكن أن يكون لأنها كلها قول واحد ، ولفظ واحد فى جميع الألسن ، فيقال :أما إمكان هذا فظاهر لا

ينازع فيه عـاقل ، وهو واقع ، فإنا قد رأينا التوراة التى عند السـامرة ، تخالف توراة اليهود والنصارى ، حتى فى العشر الكلمات .

فذكر السـامرة فيها من أمر استقبال الطور ما لا يوجد فى نسخ اليـهـود والنصارى وكـذلك بين نسخ اليهـود والنصارى اختـلاف معـروف ، ونسخ الإنجيل مـختلفـة ، ونسخ الزبور مختلفة اختلافاً أكثر من ذلك ، وبكل حال ، فلا يقدر عاقل أن يقول : يمتنع تغيير بعض النسخ ، ولكن إذا قالوا لم يغير شئ منها ، لأن جميعها قول واحد ، ولفظ واحد فى جميع الألسن ، كانت هذه الدعوى باطلة من وجهين :

أحدهما : أن دعوى العلم بتساوى جميع النسخ أبلغ من دعوى إمكان تغييرها فإن كان التغيير ممتنعاً على جميعهـا كان علم الواحد بما فى جميعها - وأنها مماثلة الألفاظ مع إختلاف الألسن - أولى بالامتناع .

الثـانى : أن هذه دعوى خلاف الواقع ، فإن الاخـتلاف فى نسخ التوراة والإنجيل والزبور موجود قد رأيناه نحن بأعيننا ، ورآه غـيرنا فرأيت عدة نسخ بالزبور يخالف بعضهـا بعضاً اختلافاً كـثيراً ورأينا بعض ألفاظ التوراة التى يـنقلها هذه الطائفة وهى مكتـوبة عندهم يدعون أنهـا هى التوراة الصـحيـحة المنقـولة عندهـم بالتواتر تخـالف بعض ألفاظ توراة الطائفة الأخرى ، وكـذلك الإنجيل .

وبالجملة قولهم : هذا لا يمكن أن يكون ، لأنها كلها قول واحد ، ولفظ واحد فى جميع الألسن تضمن شيئين :

تضمن دعوى كاذبة ، وحجة باطلة .

فإن قولهم : « هذا لا يمكن » مكابرة ظاهرة ، فإن إمكان تغيير بعض النسخ مما لا ينازع عـاقل فى إمكانه ، لكن قد يقـول القائل : إذا غـير بعض النسخ وأظـهر ذلك ، شاع ذلك فرأى سائر أهل النسخ تـلك النسخة مغيرة بنسخـهم فأنكروه ، فإن الهمم والدواعى مـتوفرة على إنـكار ذلك كما يـوجد اليوم مـثل ذلك لو أراد رجل أن يغير

كتاباً مشهوراً عند الناس ، به نسخ متعددة ، فإذا غيره فوصلت تلك النسخة إلى من يعرف ما فى تلك النسخ أنكروا ذلك .

فيقال : هذا يمكن إذا كانت تلك النسخة المغيرة وصلت إلى طائفة يمتنع عليهم مواطأتهم على الكذب ، فإنه كما يمتنع فى الأخبار المتواترة التواطؤ على الكذب . فيمتنع التواطؤ على كتمان ما يتعذر كتمانه فى العادة .

ومعلوم أنه لا يمتنع على الجماعة القليلة التواطؤ على تغيير بعض النسخ والنسخ إنما هى موجودة عند علماء أهل الكتاب وليس عامتهم يحفظ ألفاظها ، كما يحفظ عوام المسلمين ألفاظ القرآن ، فإذا قصد طائفة منهم تغيير نسخة أو نسخ عندهم أمكن ذلك ، ثم إذا تواطأت طائفة أخرى على أن لا يذكروا ذلك أمكن ذلك ، ولكن إذا كانت الطوائف ممن لا يمكن تواطؤها على الكذب أو الكتمان امتنع ذلك فيهم .

وقد رأينا عند أهل الكتاب كتباً يدعون أنها عندهم من النبى صلى الله عليه وسلم بخط على بن أبى طالب فيها أمور تتعلق بأغراضهم ، وقد التبس أمرها على كثير من المسلمين ، وعظموا ما فيها وأعطوا أهل الكتاب ما كتب لهم فيها معتقدين أنهم ممتثلين ما فيها ، فلما وصلت إلى من وصلت إليه من علماء المسلمين بينوا كذبهم بطرق معلومة بالتواتر ؛ مثل ذكرهم فيها : شهد بما فيها كعب بن مالك الحبر على النبى صلى الله عليه وسلم ، يعنون كعب الأحبار .

وكعب الأحبار إنما أسلم على عهد عمر بن الخطاب لم يدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، واسمه كعب بن مانع ، ولكن فى الأنصار كعب بن مالك الشاعر الذى أنزل الله توبته فى سورة براءة فظن هؤلاء الجهال أن هذا هو ذاك .

ومثل ذكرهم شهادة سعد بن معاذ الذى اهتز لموته عرش الرحمن ، وذكروا شهادته عام خيبر ، وقد اتفق أهل العلم أنه مات عقب غزوة الخندق قبل غزوة خيبر بمدة ،

وأمثال ذلك .

وأما حجتهم الداحضة بقولهم : إن جميع كتب التوراة التى فى العالم من التوراة والإنجيل والزبور والنبوات موجودة باثنين وسبعين لساناً بلفظ واحد وقول واحد ، فهل يقول عاقل من العقلاء أنه علم ذلك ؟ وأنه علم أن كل نسخة من النبوات الأربعة وعشرين بأحد الألسنة الاثنين وسبعين موافقة لكل نسخة فى سائر الألسنة ، ولو ادعى مدع أن كل نسخة من التوراة فى العالم باللسان العربى ، أو كل نسخة من الإنجيل فى العالم باللسان العربى أو كل نسخة فى العالم من الزبور باللسان العربى موافقة لجميع النسخ العربية الموجودة فى زوايا العالم لكان قد ادعى مالا يعلمه ولا يمكنه علمه ، فمن أين له ذلك ؟

وهل رأى كل نسخة عربية بهذه الكتب ، أو أخبره من يعلم صدقه أن جميع النسخ العربية الموجودة فى العالم موافقة لهذه النسخة وكذلك إذا ادعى ذلك فى اللسان اليونانى ، والسريانى ، والرومى ، والعبرانى ، والهندى ، فإن كان فى العالم بكل كتاب من هذه اثنان وسبعون لساناً يدعون اتفاق كل نسخ لسان من جنس دعوى اتفاق النسخ العربية ، فكيف إذا ادعى اتفاق النسخ بجميع الألسنة ؟

وهب أنه يمكن أن يقال ذلك فى نسخ لسان نقلها أهله ، والناطقون به ، فكيف يمكن دعواه فى لسان كثر الناطقون به وانتشر أهله ؟ وليس هذا كدعوى اتفاق مصاحف المسلمين بالقرآن ، فإن القرآن لا يتوقف نقله على المصاحف ، بل القرآن محفوظ فى قلوب ألوف مؤلفة من المسلمين لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل ، فلو عدم كل مصحف فى العالم لم يقدح ذلك فى نقل لفظ من ألفاظ القرآن ، بخلاف الكتب المتقدمة ، فإنه قل أن نجد من أهل الكتاب أحداً يحفظ كتاباً من هذه الكتب ، فقل أن يوجد من اليهود من يحفظ التوراة .

وأما النصارى فلا يوجد فيهم من يحفظ التوراة والإنجيل والزبور والنبوات كلها

فضلا عن أن يحفظها باثنين وسبعين لساناً ، وإن وجد ذلك فهو قليل لا يمتنع عليهم لا الكذب ولا الغلط ، فتبين أن ما ذكروه من انتشار كتبهم بالألسنة المختلفة هو من أقوى الأمور فى عدم العلم بتماثل ما فيها من الألفاظ ، وأن القرآن إذا كان منقولا بلغة واحدة ، وذلك اللسان يحفظه خلق كثير من المسلمين فكان ذلك مما يبين أن القرآن لا يمكن لأحد أن يغير شيئاً من ألفاظه ، وإن أمكن تغيير بعض ألفاظ التوراة والإنجيل ، عند كثير من أهل الكتاب .

والمسلمون لا يدعون أنه غير جميع ألفاظ جميع النسخ بعد مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ما ظنه هؤلاء الجهال ، بل إنما ادعوا ما يسوغه العقل بل ويظهر دليل صدقه ، ولكن هؤلاء جهال ادعوا العلم ، بأن جميع النسخ بجميع الألسنة بجميع الكتب بلفظ واحد ، فادعوا مالا يمكن لأحد علمه ، وادعوا ما يعلم بطلانه .

فصل فى كيفية التغيير الذى حدث في الإنجيل

وقد ظهر الجواب عن قولهم : فمن هو الذى تكلم باثنين وسبعين لساناً ، أو من هو الذى حكم على الدنيا جميعها ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على الدنيا جميعها من أربع زوايا العالم حتى غيرها ، وإن كان مما أمكنه جمعها كلها أو بعضها .

فهذا ما لايمكن ، إذ جميعها قول واحد ونص واعتقاد واحد .

وقد ظهر الجواب عن ذلك من وجوه :

أحدها : أنا لم ندع تغييرها بعد أن صارت بهذه الألسن ، وانتشرت بها النسخ ، بل لا ندعى التغيير بعد انتشار النسخ فيما ليس من كتب الأنبياء ، مثل كتب النحو والطب والحساب والأحاديث والسنن المنقولة عن الأنبياء مما نقل فى الأصل نقل آحاد ، ثم صارت النسخ به كثيرة منتشرة ، فإن أحداً لا يدعى أنه بعد انتشار النسخ

بكتاب فى مشارق الأرض ومغاربها حكم إنسان على جميع المعمورة ، وجميع النسخ به وغيرها .

ولا ادعى أحد مثل ذلك فى التوراة والإنجيل وإنما ادعى ذلك فيها ، لما كانت النسخ قليلة : إما نسخة وإما اثنين وإما أربعة ونحو ذلك ، أو ادعى تغيير بعض ألفاظ النسخ ، فإن بعض النسخ يمكن تغييرها .

ونسخ التوراة والإنجيل والزبور موجودة اليوم وفى بعضها اختلاف ، لكنه اختلاف قليل والغالب عليها الاتفاق .

وذلك يظهر بالوجه الثانى أن قولهم : إن جميعها قول واحد ونص واحد ، واعتقاد واحد ليس كما قالوه ، بل نسخ التوراة مختلفة فى مواضع .

وبين توراة اليهود والنصارى والسامرى اختلاف ، وبين نسخ الزبور اختلاف أكثر من ذلك ، وكذلك بين الأناجيل ، فكيف بنسخ النبوات ؟

وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم باسمه ، ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أر ذلك فيها وحينئذ فلا يمتنع أن يكون فى بعض النسخ من صفات النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس فى أخرى .

الوجه الثالث : أن التبديل فى التفسير أمر لا ريب فيه ، وبه يحصل المقصود فى هذا المقام ، فإنا نعلم قطعاً أن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فيما كان موجودا فى زمنه من التوراة والإنجيل ، كما قال تعالى : ﴿ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٧] .

ولا ريب أن نسخ التوراة والإنجيل على عهده كانت كثيرة منتشرة فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلا بد من أحد الأمرين :

إما أن يكون غير اللفظ من بعض النسخ ، وانتشرت النسخ المغيرة .

وإما أن يكون ذكره فى جميع النسخ ، كما استخرجه كثير من العلماء ممن كان

من أحبار اليهود والنصارى ، وممن لم يكن من أحبارهم استخرجوا ذكره والبشارة به فى مواضع كثيرة متعددة من التوراة والإنجيل ونبوات الأنبياء ، كما هو مبسوط فى موضع آخر .

ومن قال : إن ذكره موجود فيها أكثر من هذا وأصرح فى بعض النسخ ، لا يمكن هؤلاء دفعه بأن يقولون : قد اطلعنا على كل نسخة فى العالم بالتوراة والإنجيل فى مشارق الأرض ومغاربها فوجدناها على لفظ واحد ، فإن هذا لا يقوله إلا كذاب ، فإنه لا يمكن لبشر أن يطلع على كل نسخة فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما لا يمكنه أن يغير كل نسخة فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلو لم يعلم اختلاف النسخ لم يمكنه الجزم باتفاقها فى اللفظ ، فكيف وقد ذكر الناس المطلعون عليها من اختلاف لفظها ما يبين به كذب من ادعى اتفاق لفظها .

فصل فى قولــه تعالى
﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾

قالوا : ثم وجدنا فى هذا الكتاب ، ما هو أعظم من هذا برهاناً ، قوله فى سورة الشورى ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ . [سورة الشورى : ١٥] .

وأما لغير أهل الكتاب فيقول : ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ [سورة الكافرون : ١ - ٣] والجواب : أما قوله ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ﴾ .فهذه الآية مذكورة بعد قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب * وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم

ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب * فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣ - ١٥] .

فقد أخبر أنه شرع لنا من الدين ما وصّى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة الروم : ٣٠ - ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعلمون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥١ - ٥٣] .

ثم أخبر عن تفرق الذين أوتوا الكتاب كتفرق اليهود والنصارى ، وتفرق فرق اليهود ، وفرق النصارى كالنسطورية واليعقوبية والملكية .

ثم قال : ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم - أولئك المفترقين - لفى شك منه مريب ﴾ ، [سورة الشورى : ١٤]

وهكذا توجد عامة اليهود والنصارى فى شك من ذلك مريب ، وقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ . [سورة هود : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان

الله عزيزاً حكيماً ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧ ،١٥٨] . ثم قال تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ﴾ [سورة الشورى : ١٥] إلى الدين الذى شرعه الله لنا ﴿ واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] .

وهذا يتناول أهواء أهل الكتاب ، كما يتناول أهواء المشركين ، وقد صرح بذلك فى قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ ولئن اتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٥] .

كما صرح بنهيه عن اتباع أهواء المشركين فى قوله تعالى : ﴿ قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥٠] .

وقوله تعالى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ حق ، فإن الله أمره وجميع الخلق أن يؤمنوا بجميع ما أنزل الله ، وكذلك قوله : ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ ، فإن الله أمره أن يعدل بين جميع الخلق ، وقوله : ﴿ الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ . هذه براءة منه لمن يخاطب بذلك من المشركين ، وأهل الكتاب ، كقوله تعالى : ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعلمون ﴾ ، [سورة يونس : ٤١] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالم ونحن له مخلصون ﴾ ، [سورة البقرة ١٣٩] .

وكذلك قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾ ، [سورة الكافرون : ١ - ٦] . فإن هذه الكلمة كقولة : ﴿ لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعلمون ﴾ [سورة يونس : ٤١] هى كلمة توجب براءته من عملهم وبراءتهم من عمله ، فإن حرف « اللام » فى لغة العرب يدل على الاختصاص ، فقوله ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ يدل على أنكم مختصون بدينكم ، لا أشارككم فيه ، وأنا مختص بدينى ، لا تشاركونى فيه كما قال ﴿ لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون ﴾ .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ (١) هى براءة من الشرك ، وليس فى هذه الآية أنه رضى بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين ، وجعلوها منسوخة ، بل فيها براءته من دينهم ، وبراءتهم من دينه ، وأنه لا تضره أعمالهم ، ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم .

وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ ولم يرض الرسول بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط ، ومن زعم أنه رضى بدين الكفار ، واحتج بقوله تعالى ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا

(١) « صحيح » عن فروة بن نوفل عن أبيه

رواه أبو داود فى كتاب « الأدب » باب « وما يقال عند النوم (٣٩٥/١٣ح٥٠٣٤)

ورواه الترمذى فى كتاب « الدعوات » باب« ما جاء فيمن يقرأ من القرآن عند المنام » (٣٤٧/٩ح ٣٤٦٣)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « عمل اليوم والليلة » باب « قراءة قل يا أيها الكافرون عند النوم» (٢٠٠/٦ ح١٠٦٣٧، ١٠٦٣٨)

ورواه أحمد (٤٥٦/٥) ، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٩٥٣/٣ ، ٩٥٤ ح ٤٢٢٧)

وانظر « الدر المنثور » (٦/ ٤٠٥) وفى الباب عن « جبلة بن الحارث » و« البراء بن عازب » « وأنس »

عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾ .

فظن هذا الملحد أن قوله ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ معناه أنه رضى بدين الكفار ، ثم قال : هذه الآية منسوخة ، فيكون قد رضى بدين الكفار ، وهذا من أبين الكذب والافتراء على محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يرض قط إلا بدين الله الذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، ما رضى قط بدين الكفار ، لا من المشركين ، ولا من أهل الكتاب .

وقوله : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ لا يدل على رضاء بدينهم ، بل ولا على إقرارهم عليه ، بل يدل على براءته من دينهم ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن هذه السورة براءة من الشرك » .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ [سورة الشورى : ١٥] .

وقد يظن بعض الناس أيضاً أن قوله ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ الآية أنى لا آمر بالقتال ، ولا أنهى عنه ولا أتعرض له بنفى ولا إثبات ، وإنما فيها أن دينكم لكم أنتم مختصون به ، وأنا برئ منه ودينى لى وأنا مختص به ، وأنتم برآء منه .

وهذا أمر محكم لا يمكن نسخه بحال ، كما قال تعالى عن الخليل : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ﴾ ، [سورة الزخرف : ٢٦ ، ٢٧] . وقد قال تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٣] ، وهو ما طار عنه من خير وشر .

وقد قال تعالى : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٦٤] . وقال تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] . وقال تعالى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ ، [سورة الإسراء : ٧] . بل قال تعالى لنبيه : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٥ ، ٢١٦] . فإذا كان قد برأه الله من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين ، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين االذين هم أشد له معصية ومخالفة ؟

فصل في أن دين الأنبياء كلهم واحد

وأما قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾ .

فهو أمر بالقول لجميع الكافرين من المشركين وأهل الكتاب ، فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه من ربه كافرون ، قد شهد عليهم بالكفر وأمر بجهادهم وكفر من لم يجعلهم كافرين ، ويوجب جهادهم قال تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ﴾ [سورة البينه : ١] .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ، ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ [سورة المائدة : ٧٢ ، ٧٣] . وقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] وحرف « من » فى هذه المواضع لبيان الجنس فتبين جنس المتقدم ، وإن كان ما قبلها يدخل فى جميع الجنس الذى بعدها ، بخلاف ما إذا كانت للتبعيض ، كقوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب

والمشركين ﴾ ، [سورة البينة : ١] فإنه يدخل فى الذين كفروا بعد مبعث النبى صلى الله عليه وسلم جميع المشركين وأهل الكتاب .

وكذلك دخل فى الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق جميع أهل الكتاب الذين بلغتهم دعوته ، ولم يؤمنوا به ، وكذلك قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴾ ، [سورة النور : ٥٥] . وإن كان جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات ، وهذا إذا كان الجنس يتناول المذكورين وغيرهم ، ولكن لم يبق فى الجنس إلا المذكورون ، كما يقول : هنا رجل من بنى عبد المطلب ، وإن لم يكن بقى منهم غيره .

وصفهم بالشرك وبأنهم يعبدون غير الله ، كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدون إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] . فأخبر أنهم اتخذوا من دون الله أرباباً ، واتخذوا المسيح ربا ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، وهؤلاء باتخاذهم غيره أرباباً عبدوهم فأشركوا بالله سبحانه وتعالى عما يشركون .

وقال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فقد أخبر - أيضاً - أنه من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فإنه كافر ، وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل

أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعاً والله هو السميع العليم ﴾ . [سورة المائدة : ٧٣ : ٧٦] .

فقد وبخ أهل التثليث على أنهم يعبدون مالا يملك لهم ضرا ولا نفعاً ، والله السميع العليم ، فدخلوا فى قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ، [سورة الكافرون : ١ : ٣]

كما دخل فى ذلك غيرهم من الكفار لا سيما لقد دخل فى ذلك اليهود ، وهم أولى بالدخول من غيرهم ، فإن قوله : ﴿ ما تعبدون ﴾ يتناول صفات المعبود ، والإله الذى يعبده المؤمنون هو الإله الذى أنزل التوراة والإنجيل والقرآن ، وأرسل موسى وعيسى ومحمداً صلوات الله عليهم وسلامه .

والإله المتصف بهذه الصفات لا يعبده اليهود والنصارى ، وهذا كقوله : ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٣] . فهذا الإله الذى يعبده محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته ليس هو إله المشركين الذى يعبدونه ، وإن كان هو المستحق لأن يعبدوه فإنهم يشركون بعبادته ويصفونه بما هو برئ منه فلا يخلصون له الدين ، فعبدوا معه آلهة أخرى ، إن لم يستكبروا عن عبادته ، وإله العبد الذى يعبده بالفعل ليس حاله معه كحاله مع الذى يستحق أن يعبده ، وهو لا يعبده ، بل يشرك به أو يستكبر عن عبادته ، فهذا هو الذى فيه : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ،الشرك غالب على النصارى ، والكبر غالب على اليهود .

فصل فى قوله تعالى
﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾

وأما قوله : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] فهذا ليس خطاباً للنصارى خصوصاً ، بل هو خطاب للجميع ، وهؤلاء النصارى ظنوا أن

معنى هذا لا تحاجوا أهل الكتاب ، كما ظنوا فى قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦] إن معناه : لا تجادلوا أهل الكتاب ـ النصارى ـ إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا ، أى اليهود .

وهذا تحريف كلم الله عن مواضعه ، وهو تشبيه بتحريفهم لما عندهم من التوراة والإنجيل والزبور ، وسائر النبوات ، فإنهم أعظم تسلطاً على تحريف معانيها عنهم على تحريف معانى القرآن ، إذ كان القرآن له أمة تحفظه ، وتعرف معانيه وتذب عنه من يحرف لفظه أو معناه .

وأما تلك الكتب فليس لها من يذب عن لفظها ومعناها ، فلهذا عظم تحريفهم لها ، وكان أعظم من تحريفهم للقرآن .

ومما يبين أن هذا الخطاب ليس مختصاً بالنصارى أن هذه السورة مكية ، والسورة المكية كانت تتناول من لا يقرأ الكتاب ، لا تختص بأهل الكتاب ، بل كانت تعم الأمم أو تختص بالمشركين .

والسور المدنية خطابها تارة لأهل الكتاب ، وتارة تختص بالمؤمنين ، وتارة تعم ، وقد قال تعالى : ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ﴾ .

فالخطاب إما أن يعم المشركين وأهل الكتاب ، أو يخص المشركين وأهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وبكل تقدير فلا وجه لتخصيص النصارى به .

وأما قوله تعالى : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] فهو نظير قوله تعالى : ﴿ قل أتحاجوننا فى الله ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ ، وقوله ، ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٢٠] .

فالحجة اسم لما يحتج به من حق وباطل ، كقوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٥٠] . فإن الظالمين يحتجون عليكم بحجة باطلة ، كقول المشركين لما حولت القبلة إلى الكعبة : قد عاد إلى قبلتكم ، فسوف يعود إلى ملتكم فهذه حجة داحضة من الظالمين .

ومما يبين ذلك قوله بعد ذلك : ﴿ والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾ ، [سورة الشورى : ١٦] .

فسماها حجة وجعلها داحضة وهؤلاء الذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له هم الكفار من المشركين ، وأهل الكتاب .

فهم يحاجون المؤمنين ليردوهم عن دينهم ، وقال عن النصارى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦١] .

فكان الكفار يحاجون المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم ، كما كانوا يؤذونهم فهؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد .

ومحاجتهم للمؤمنين من باب الظلم لهم ، والعدوان عليهم ، وقول الباطل فأمره تعالى أن يقول : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ ، أى ليس لكم أن تظلمونا ، وتعتدوا علينا بحجتكم الداحضة ، وليس المراد بذلك أنا نحن لا نحاجكم ، وندعوكم إلى الحق بالحجج الصحيحة .

فإنه تعالى قال : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ ، [سورة النحل ١٢٥] .

فأمره تعالى أن يجادل أهل دعوته مطلقاً من المشركين ، وأهل الكتاب بالتى هى أحسن .

وقد قال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦].

فإن الظالم باغ معتد مستحق للعقوبة ، فيجوز أن يقابل بما يستحقه من العقوبة ، لا يجب الاقتصار معه على التى هى أحسن ، بخلاف من لم يظلم ، فإنه لا يجادل إلا بالتى هى أحسن ، وأهل الكتاب اسم يتناول اليهود والنصارى ، كما فى نظائره من القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب ﴾ ، الآية وقوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ﴾ ، وأمثال ذلك .

والظالم يكون ظالماً بترك ما تبين له من الحق واتباع ما تبين له أنه باطل ، والكلام بلا علم فإذا ظهر له الحق فَعَنَدِ عنه كان ظالما .

وذلك مثل الألد فى الخصام ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٤] وقال : ﴿ يجادلونك فى الحق بعد ماتبين ﴾ ، [سورة الأنفال : ٦] . وقال : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٦] .

فصل فى دعوى النصارى

أن الإسلام دين عربى

وقولهم : إنه لم يقل : كونوا له مسلمين ، ولكن ونحن أى عنه وعن العرب التابعين له ، ولما أتى به وجاء فى كتابه .

فقال لهم : هذا ونظائره كلام من لم يفهم القرآن ، بل ولا يفهم كلام سائر الناس ، فإنه إذا عرف من صاحب كتاب ، يقول إنه منزل من الله ، أو يقول إنه صنفه هو أنه يدعو قوما بالأقوال الصريحة الكثيرة ، والأعمال البينة الظاهرة ، كان سكوته عن دعائهم فى بعض الألفاظ لا ينافى دعاءهم له .

لكن إن كان حكيما فى كلامه كان للسكوت عن دعائهم فى بعض المواضع حكمة تناسب ذلك ، وهذا كقولة تعالى ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ ، أفتراه لما أمر أمته أن يقولون : ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ ، لم يكن أهل الكتاب مأمورين بالإخلاص لله ، وقد ذكر أمر أهل الكتاب بالإخلاص فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ ، [سورة البينة : ٤ ،٥] .

وكذلك دعاهم إلى الإسلام ، وتوعدهم على التولى عنه فى مثل : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران ١٨ - ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى

الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٠ - ١٣٣] .

فقد بين سبحانه أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، أى سفه نفساً أى كانت نفسه سفيهة جاهلة ، هذا أصح القولين فى ذلك ، وهو مذهب الكوفيين من النحاة : يجوزون أن يكون المنصوب على التمييز معرفة ، كما يكون نكرة . ثم أخبر عنه أنه : ﴿ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣١] .

وذكر أن إبراهيم وصى بها بنيه ، ويعقوب وصى بها أيضاً كلاهما قال لبنيه : ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٢] .

ثم ذكر أن يعقوب عند موته : قال لبنيه ﴿ ما تعبدون من بعدى قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ ، فهؤلاء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كلهم على الإسلام ، وهم يأمرون بالإسلام ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٥] . ثم قال : ﴿ قولوا ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦] .

ثم قال : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق

فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٧] .

فقد أخبر أنهم إن تولوا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به المتضمن قولكم : ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ فإنما هم شقاق ، أى مشاقون لله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ إلى قوله ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ ، [سورة الحشر : ٢ ، ٤] .

وقوله تعالى : ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ (فى سورة العنكبوت الآية :٤٦) **فهل** مثل قوله ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ فى البقرة [١٣٣] مع دعائهم إلى الإسلام ، وكذلك فى [سورة آل عمران الآية :٤٦] فى قوله ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

فقد دعاهم أولا إلى الإسلام ، وهو عبادة الله وحده ، لا شريك له وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، كما قال تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] .

ثم قال تعالى : ﴿ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

وهذه الآية التى كتب بها صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ملك الروم لما دعاه إلى الإسلام .

وقال فى كتابه (١) : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وأن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ﴿ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فى كتابه الذى أرسله إليه ، وقال - أيضاً - فى آل عمران ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فذكر التوحيد فى هذه الآية ، وكفر من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً ، فكيف بمن اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً ، ثم ذكر الإيمان بخاتم الرسل ، فقال : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون * قل ءامنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران ٨١ - ٨٥] .

---

(١) سبق تخريجه

فقد ذكر أنه أخذ الميثاق على النبيين وأممهم ﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ .

وهذا يتناول الأمر لكل أهل الكتاب إذا جاءهم رسول ثانى أن يؤمنوا به وينصروه ، وإن كان عندهم من الكتاب والحكمة مهما كان .

ولا يقولون : نحن مستغنون بما عندنا من الكتاب والحكمة ، لا نؤمن بالرسول الذى جاءنا ، ونخص الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه خاتم الرسل وهو آخر رسول جاء ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب والحكمة ما كان .

وهذا الميثاق أخذه الله على الأنبياء ، وأخذوه على أممهم ، ثم قال ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٣] وهذا هو دين الإسلام الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه ، فمن ابتغى غيره فقد ابتغى غير دين الله ، وهذا هو دين الإسلام الذى قال : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

فصل فى مجادلة أهل الكتاب

وأما فى قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦] .

أمر للمؤمنين أن يقولوا الحق الذى أوجبه الله عليهم ، وعلى جميع الخلق ليرضوا به الله ، وتقوم به الحجة على المخالفين ، فإن هذا من الجدال بالتى هى أحسن ، وهو أن يقول كلاماً حقًا يلزمك ، ويلزم المنازع لك أن يقوله فإن وافقك وإلا ظهر عناده وظلمه .

كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ ، فإنا مشتركون فى أنه ربنا كلنا وأن

عمل كل عامل له لغيره وامتزنا نحن بأنا مخلصون له ، وأنتم لستم مخلصين له ، فأوجب هذا أن الحق معنا دونكم ، وأن أعمالنا صالحة مقبولة وأعمالكم مردودة .

ويشبه ذلك قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

فأمره لهم أن يقولوا اشهدوا بأنا مسلمون يتضمن إقامة الحجة عليهم كما كان المسيح عليه السلام يقول .

فصل في وعيد الله لأهل الكتاب

بسبب ما أحدثوه في كتبهم من تبديل

ثم قالوا : فأما الذين ظلموا فما يشك أحد في أنهم اليهود الذين سجدوا لرأس العجل ، وكفروا بالله مراراً كثيرة ليست واحدة ، وقتلوا أنبياءه ورسله وعبدوا الأصنام ، وذبحوا للشياطين ، ليس حيوانات غير ناطقة فقط ، بل بنيهم وبناتهم حسب ما شهد الله عليهم قائلا على لسان داود النبي عليه السلام في كتاب الزبور في مزمور مائة وخمسة يقول : [ذبحوا بنيهم وبناتهم للشياطين ، وأراقوا دماً زكيا ، دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوا للمنحوتات بكنعان ،وقد تنجست الأرض بالدماء ، وتنجست أعمالهم ، وزنوا بضغائنهم ، وسخط الرب عليهم ورذل ميراثهم] .

وقال أيضاً على لسان أشعيا النبي عليه السلام يقول الله في بني إسرائيل : [لم يسمعوا وصاياي ، لم يحفظوا كل ما أوصيتهم به ، بل غيروا ونقضوا الميثاق الذي كنت جعلته لهم إلى الأبد ، فلذلك أجلستهم عليهم الحزن والخراب وأهلكتم وانقطع ممن يبقى منهم الفرح والسرور] .

هكذا قال الله على سكان البيت المقدس من بنى إسرائيل : [سأبددهم بين الأمم ، وفى تلك الأيام يرفعون الأمم أصواتهم ، ويسبحون الله ويمجدونه بأصوات عالية ، ويجتمعون من أقطار الأرض ، ومن جزائر البحر ، ومن البلدان البعيدة ويقدسون اسم الله ، ويرجعون إلى الله إله إسرائيل ، ويكونون شعبه ، أما بنو إسرائيل فيكونون مبددين فى الأرض] .

وقال أشعيا النبى عليه السلام : يقول الله : ﴿ يا بنى إسرائيل نجستم جبلى المقدس ، فإنى سأفنيكم بالحرب وتموتون ، وذلك لأنى دعوتكم فلم تجيبوا ، وكلمتكم فلم تسمعوا ، وعملتم الشئ بين يدى] .

وقال أشعيا أيضاً : [إن الله قد بغض بنى إسرائيل ، وأخرجهم من بيوتهم ، ومن بيته ، لا يغفر لهم لأنهم لعنة ، وجعلوا لعنة الناس ، فلذلك أهلكهم الله وبددهم بين الأمم ، ولا يعود يرحمهم ولا ينظر إليهم برحمة إلى أبد الآبدين ، ولا يقربون لله قربانا فى ذلك اليوم ، وذلك الزمان ، ولا يفرح بنو إسرائيل لأنهم قد ضلوا عن الله عز وجل] .

وقال أرميا النبى عليه السلام : [كما أن الحبشى لا يستطيع أن يكون أبيضاً ، فكذلك بنو إسرائيل لا يتركوا عاداتهم الخبيثة ، ولذلك إنى لا أرحم ، ولا أشفق ، ولا أرق على الأمة الخبيثة ولا أرثى لها] .

وقال حزقيل النبى عليه السلام : قال الله : [إنما رفعت يدى عن بنى إسرائيل وبددتهم بين الأمم ، لأنهم لم يعملوا بوصاياى ، ولم يطيعوا أمرى ، وخالفونى فيها ، فيما قلت لهم ، ولم يسمعوا لى] .

ومثل هذا القول فى التوراة ، وكتب الأنبياء ، وزبور داود شيء كثير يقرأها اليهود فى كنائسهم ، ويقرأونها ، ولا ينكرون منها حرفاً واحداً ، ومثل ما هو عندهم ، كذلك عندنا فى جميع الألسن .

والجواب أن يقال : أمـــا كون اليهـود ظالمين كافرين معتدين مستحقين لعذاب الله وعقـابه ، فهـــذا معلوم بالاضطرار من دين محمد صلى اللهعليه وسلم منقول بالتواتر ، كما علم بالاضطرار والنقل المتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أن النصارى أيضاً ظالمون معتدون كافرون مستحقون لعذاب الله وعقـابه ، وفى اليهود من الكفر ماليس فى النصارى ، وفى النصارى ماليس فى اليهود ، فإن اليهود بدلوا شريعة التوراة ، قبل أن يأتيـــهم المسيح ابن مريم ، فلما آتاهـــم كفـــروا به ، وكـــذبوه ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه ، فبـــاءوا بغضب على غضب .

كما قال تعالى عنهم : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون * ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون * وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما تؤمنون * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما إشتروا به أنفسهم أن يكفروا بمـــا أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عبـــاده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشـــربوا فـى

قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [سورة البقرة : ٨٥ - ٩٣] .

فغضب عليهم أولا بتكذيب المسيح ، وثانياً بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٢]. ﴿ كانوا لايتناهَوْن عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٩].

وقال تعالى : ﴿ قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القِرَدة والخنازير وعبدالطاغوت ﴾ ، [سورة المائدة : ٦٠] .

فتبين أن اليهود لعنهم الله وأنهم عبدوا الطاغوت ، وأنه جعل منهم القردة والخنازير ، ومثل هذا فى القرآن كثيرٌ لكن قول القائل إنهم المرادون بقوله ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦] في قوله ﴿ ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا ﴾ غلط بين ، ولهذا كان باطلا باتفاق المسلمين .

فإن قوله تعالى : ﴿ ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ نهى عن مجادلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بالتى هى أحسن ، وقوله ﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ من الطائفتين جميعاً .

ولهذا كان الواجب على المسلمين ، إذا جادلهم اليهودى والنصرانى أن يجادلوه بالتى هى أحسن ، إلا من ظلم من الطائفتين ، فإنه يعاقب باللسان تارة وباليد

أخرى ، كما أمر الله ورسوله بجهاد الظالمين من هؤلاء وهؤلاء ، فجاهد النبى صلى الله عليه وسلم اليهود الذين كانوا بالمدينة النبوية وحولها وقريباً منها ، كما جاهد بنى قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، وأهل خيبر ، وأهل وادى القرى وغيرهم .

وكما جاهد النصارى عام تبوك غزاهم بالشام عربهم ورومهم ، وأغزاهم قبل ذلك نوابه : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وأمر بغزوهم فغزاهم بعده خلفاؤه الراشدون .

والنبى صلى الله عليه وسلم لما قدم وفد نجران جادلهم صلى الله عليه وسلم في مسجده بالتى هى أحسن ، ثم أمره الله سبحانه أن يدعوهم إلى المباهلة فامتنعوا عن مباهلته ، وأقروا بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون ، كما تقدم ذكر ذلك مفصلا (١) فجادل بعضهم بالتى هى أحسن ، والظالم منهم عاقبه وجاهده ، كما عاقب الظالم من اليهود .

ومن أعجب الأشياء قولهم : ﴿ وأما الذين ظلموا ﴾ فلايشك أنهم اليهود ، فإن هذا من جنس قولهم ، ثم وجدنا فى الكتاب أعظم من هذا برهانا .

وهو قوله فى سورة الشورى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ كما تقدم ، وهى من جنس قولهم فى قوله ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، [سورة البقرة : ٢ ، ٣] .

إنه عنى بالكتاب : الإنجيل ، والذين يؤمنون بالغيب : النصارى والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك : هم المسلمون ، وزعمهم أن قولهم هذا بين ظاهر .

وتفاسير النصارى للكتب الإلهية فيها من التحريف لكلمات الله ، والإلحاد فى

---

(١) سبق تخريجه

أسماء الله وآياته مايطول وصفه ، ولاينقضي التعجب منه ، ولكن إقدامهم على تفسير القرآن بالإلحاد والتحريف أعجب وأعجب ، كقولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ذكر أنه لم يرسل إليهم ، وأنه أثنى على الدين الذى هم عليه بعد النسخ والتبديل بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم ، وأن قوله ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ [سورة الفاتحة : ٧] ، أراد به النصارى ، وقوله ﴿ لقد أرسلنا رسلنا ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] أراد به الحواريين ، وقوله ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس ﴾ أراد به الإنجيل ، فإن هذا من الكذب الظاهر ، والافتراء على محمد صلى الله عليه وسلم ، بأنه أراد هذه الأمور ، ماهو من جنس افترائهم على الأنبياء فإنهم أخبروا أن المسيح هو خالق السموات والأرض ، وأن التوراة والزبور وغيرهما من الكتب أخبرت بذلك ، ثم يأتون إلى مايعلم كل عاقل أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرده ، فيقولون : إنه لايشك فيه واحد ، وأنه قول ظاهر بين ، وكل من عرف حال محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من القرآن والدين يعلم علماً يقينياً ضروريا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن يجعل النصارى مؤمنين دون اليهود ، بل كان يكفر الطائفتين ، ويأمر بجهادهم ، ويكفر من لم ير جهادهم واجباً عليه .

وهذا مما اتفق عليه المسلمون ، وهو منقول عندهم عن نبيهم نقلاً متواتراً ، بل هذا يعلمه من حاله الموافق والمخالف ، إلا من هو مفرط فى الجهل بحاله ، أو من هو معاند عناداً ظاهراً .

فصل فى كيفية الإيمان بماجاء به الأنبياء

وأما ما نقلوه عن الأنبياء مما يدل على كفر اليهود ، فهذا لاننازعهم فيه ولاحاجة بنا إلى الاستدلال بما نقلوه . وإن كان فيما يثبت عن الأنبياء مابين كفرهم لما بدلوا دين موسى عليه السلام ، كما كفر النصارى لما بدلوا دين المسيح .

فهذا حق موافق لما أخبربه خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، فإنا قد علمنا كفرهم من جهة لا نشك في صدقها ، وما أخبرونا به عن الأنبياء إن علمنا صدقهم فيه صدقناهم فيه ، وإن علمنا كذبهم فيه كذبناهم فيه ، وإن لم نعلم صدقه ولا كذبه لم نصدقه ولم نكذبه ، بل نقول ﴿آمنا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦]

فإن الإيمان بجميع ما أوتى النبيون حق واجب ، لكن وجوب التصديق فى النبى المعين الذى لم نعلمه من غيرهم يقف على مقدمتين أن يكون اللفظ قد قاله النبى وأن يكون المعنى الذى فسروه به مراداً للنبى الذى تكلم بذلك القول ، فلا بد من الإسناد ودلالة المتن .

وهاتان المقدمتان ، لا بد منهما فى جميع المنقول عن الأنبياء .

وقد يحتاج إلى مقدمة ثالثة فى حق من لم يعرف اللغة العبرية ، فإن موسى وداود والمسيح وغيرهم إنما تكلموا باللغة العبرية ، فمن لم يعرف بها ، وإنما يعرف بالعربية أو الرومية ، لا بد أن يعرف أن المترجم من تلك اللغة إلى هذا قد ترجم ترجمة مطابقة

فصل فى غلو النصارى فى الدين

وأما قولهم : نحن النصارى فلم نعمل شيئاً مما عملته اليهود ، فيقال لهم : الكفر والفسوق والعصيان لم ينحصر فى ذنوب اليهود ، فإن لم تعملوا مثل أعمالهم فلكم من الأقوال والأعمال ما بعضه أصعب من كفر اليهود ، وإن كنتم أنتم ألين من اليهود وأقرب مودة ، فأنتم أيضاً أجهل وأضل من اليهود .

قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدّاً * تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد

أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ [سورة مريم : ٨٨ - ٩٥]

وقال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبدا * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ ، [سورة الكهف : ١ - ٥] .

وقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ ، [سورة التوبة ٣٢ - ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

وقال تعالى لما قص قصة المسيح عليه السلام ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له

كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤ - ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧].

فصل فى غلو اليهود فى الدين

ومن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين ، وجد اليهود والنصارى متقابلين هؤلاء فى طرف ضلال ، وهؤلاء فى طرف يقابله ، والمسلمون هم الوسط .

وذلك فى التوحيد ، والأنبياء ، والشرائع ، والحلال ، والحرام ، والأخلاق ، وغير ذلك .

فاليهود يشبهون الخالق بالمخلوق فى صفات النقص المختصة بالمخلوق التى يجب تنزيه الرب سبحانه عنها كقول من قال منهم : إنه فقير ، وإنه تعب لما خلق السموات والأرض ، والنصارى يشبهون المخلوق بالخالق فى صفات الكمال المختصة بالخالق التى ليس له فيها مثل ، كقولهم إن المسيح هو الله ، وابن الله .

وكل من القولين يستلزم الآخر .

والنصارى أيضاً يصفون اللاهوت بصفات النقص التى يجب تنزيه الرب عنها ، ويسبون الله سبا ما سبه إياه أحد من البشر ، كما كان معاذ بن جبل يقول لا ترحموهم فإنهم قد سبوا الله مسبة ماسبه إياها أحد من البشر .

واليهود تزعم أن الله يمتنع منه أن ينسخ مما شرعه ، كما يمتنع مالا يدخل فى القدرة ، أو ما ينافى العلم والحكمة .

والنصارى يجوزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله الذى بعث به رسله ،

فيحللوا ما حرم ، كما حللوا الخنزير ، وغيره من الخبائث ، بل لم يحرموا شيئاً ، ويحرمون ما حلل ، كما يحرمون فى رهبانيتهم التى ابتدعوها ، وحرموا فيها من الطيبات ما أحله الله ، ويسقطون ما أوجب ، كما أسقطوا الختان وغيره ، وأنواع الطهارة من الغسل ، وإزالة النجاسة وغير ذلك .

ويوجبون ما أسقط ، كما أوجبوا من القوانين مالم يوجبه الله وأنبياؤه .

والمسلمون وصفوا الرب بما يستحقه من صفات الكمال ، ونزهوه عن النقص ، وأن يكون له مثل ، فوصفوه بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، مع علمهم أنه ليس كمثله شئ لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

وقالوا : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ ، [الأعراف : ٥٤] . فكما لا يخلق غيره لا يأمره غيره ، بل الدين كله له ، وهو المعبود المطاع الذى لا يستحق العبادة إلا هو ، ولا طاعة لأحد إلا طاعته ، وهو ينسخ ما ينسخه من شرعه ، وليس لغيره أن ينسخ شرعه .

واليهود بالغوا فى اجتناب النجاسات ، وتحريم الطيبات ، والنصارى استحلوا الخبائث ، وملابسة النجاسات .

والمسلمون أحل الله لهم الطيبات خلافا لليهود ، وحرم عليهم الخبائث ، خلافا للنصارى ، واليهود يبالغون فى طهارة أبدانهم مع خبث قلوبهم .

والنصارى يدعون أنهم يطهرون قلوبهم مع نجاسة أبدانهم ، والمسلمون يطهرون أبدانهم وقلوبهم جميعاً .

والنصارى لهم عبادات وأخلاق بلا علم ومعرفة ، ولا ذكاء واليهود لهم علم ومعرفة بلا عبادات ولا أخلاق حسنة .

والمسلمون جمعوا بين العلم النافع ، والعمل الصالح بين الزكاة والزكاء ، فإن الله أرسل رسله بالهدى ودين الحق ، فالهدى يتضمن العلم النافع ، ودين الحق يتضمن العمل الصالح ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ والظهور يكون بالعلم واللسان ليبين أنه حق وهدى ، ويون باليد والسلاح ليكون منصوراً مؤيداً ، والله أظهره هذا الظهور فهم أهل الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ الذين يعرفون الحق ، ولا يعملون به كاليهود ﴿ ولا الضالين ﴾ الذين يعملون ويعبدون ويزهدون ، بلا علم كالنصارى ، واليهود قتلوا النبيين ، والذين يأمرون بالقسط من الناس ، والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم .

والمسلمون اعتدلوا فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فلم يكذبوا الأنبياء ولا سبوهم ، ولا غلوا فيهم ولا عبدوهم ، وكذلك فى أهل العلم والدين لا يبخسونهم حقهم ، ولا غلوا فيهم ، واليهود يغضبون لأنفسهم وينتقمون . والنصارى لا يغضبون لربهم ولا ينتقمون .

والمسلمون المعتدلون المتبعون لنبيهم ، يغضبون لربهم ويعفون عن حظوظهم كما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ، قالت (١) : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما له ، ولا امرأة ولا شيئاً قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا نيل منه شئ قط فانتقم لنفسه ، إلا أن تنتهك محارم الله فينتقم لله » .

وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه ، قال (١) : « خدمت رسول الله صلى

---

(١) حديث صحيح

رواه مسلم فى كتاب « الفضائل » باب مباعدته صلى الله عليه للآثام ... » (١٨١٤/٤)

وانظر فتح البارى (٦/ ٦٦٥: ٦٦٦)

الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى : أف قط ، وما قال لى لشئ فعلته : لم فعلته ، ولا شئ لم أفعله . لم لم تفعله ؟ وكان بعض أهله إذا عاتبنى على شئ يقول : دعوه فلو قضى شئ لكان » .

هذا فى حق نفسه ، وأما فى حدود الله ، ففى الصحيحين عن عائشة (٢) « أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه فيها أسامة ، فقال : يا أسامه أتشفع فى حد من حدود الله ، إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدود ، والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وقد وصف الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم أنفع الأمم للخلق ، فقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٠] .

ففى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر الذى

---

(١) متفق عليه

رواه البخارى فى كتاب « الأدب » باب «حسن الخلق » (١٠/ ٤٧ح ٦٠٣٨) خلقًا (٤/١٨٠٤ح ٢٣٠٩)

ورواه الترمذى فى كتاب « البر والصلة » باب « خلق النبى صلي الله عليه وسلم »

ورواه أبو داود فى كتاب « الأدب » باب « فى الحلم وأخلاق النبى صلى الله عليه وسلم » (١٣٠/١٢٠: ١٣١ح٤٧٥٣)

(٢) رواه الجماعة

رواه البخارى فى كتاب « أحاديث الأنبياء » باب (٥٤) (٦/٥٩٣ح ٣٤٧٥)

ورواه أيضًا برقم (٣٧٣٢، ٣٧٣٣، ٦٨٨٨٧، ٦٨٨٨)

فيه صلاح العباد فى المعاش والمعاد مالم يوجد مثله فى الأمتين .

فصل فى بطلان الاستدلال بالمتشابه

ثم قالوا : وذلك جاء فى الكتاب يقول : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٢] .

فذكر القسيسين والرهبان ، لئلا يقال : إن هذا قيل عن غيرنا فدل هذا على أفعالنا وحسن نياتنا ، ونفى عنا اسم الشرك بقوله : اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، والذين قالوا إنا نصارى أقربهم مودة .

والجواب أن يقال : تمام الكلام ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين * ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين * فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٣ - ٨٥] .

فهو سبحانه لم يعد بالثواب فى الآخرة إلا لهؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله

= ورواه مسلم في كتاب « الحدود » باب « قطع السارق ...(٣/١٣١٥. ١٣١٦ح ١٦٨٨)

ورواه أبو داود فى كتاب « الحدود » باب « فى الحد يشفع فيه » (١٢/٣١ ، ٣٢ ح ٤٣٥١)

ورواه الترمذى فى « الحدود » باب« ما جاء فى كراهية أن يشفع فى الحدود » (٤/٦٩٨ ، ٦٩٩ ح ١٤٥٢)

وقال : وفى الباب عن مسعود بن العجماء وابن عمرو جابر وحديث عائشة حديث حسن صحيح

ورواه النسائي فى كتاب « قطع السارق » باب « ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر الزهرى فى المخزومية التى سرقت » (٨/٧٢: ٧٥)

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الحدود » باب « الشفاعة فى الحدود » (٢/ ٨٥١ ح ٢٠٤٧)

عليه وسلم الذين قال فيهم : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ .

والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وهم الشهداء الذين قال فيهم :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٣] .

ولهذا قال ابن عباس وغيره :

﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٣] .

قال : مع محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

وكل من شهد للرسل بالتصديق فهو من الشاهدين ، كما قال الحواريون ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ ، [سورة الحج : ٧٧ ، ٧٨] .

وأما قوله فى أول الآية : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ ، فهو كما أخبر سبحانه وتعالى ، فإن عداوة المشركين واليهود للمؤمنين أشد من عداوة النصارى . والنصارى أقرب مودة لهم ، وهذا معروف من أخلاق اليهود ، فإن اليهود فيهم من البغض والحسد والعداوة ما ليس فى النصارى .

وفى النصارى من الرحمة والمودة ماليس فى اليهود ، والعداوة أصلها البغض ،

فاليهود كانوا يبغضون أنبياءهم ، فكيف ببغضهم للمؤمنين ؟

وأما النصارى فليس فى الدين الذى يدينون به عداوة ولا بغض لأعداء الله الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا فى الأرض فساداً ، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملة إبراهيم المؤمنين بجميع الكتب والرسل ؟

وليس فى هذا مدح للنصارى بالإيمان بالله ولا وعد لهم بالنجاة من العذاب واستحقاق الثواب ، وإنما فيه أنهم أقرب مودة ، وقوله تعالى ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ أى بسبب هؤلاء ، وسبب ترك الاستكبار يصير فيهم من المودة مايصيرهم بذلك خيراً من المشركين وأقرب مودة من اليهود والمشركين .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان ووعدهم بثواب الآخرة ، والضمير وإن عاد إلى المتقدمين فالمراد به جنس المتقدمين لاكل واحد منهم ، كقوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٧٣] .

وكان جنس الناس ، قالوا لهم : إن جنس الناس ، قد جمعوا ويمتنع العموم فإن القائل من الناس ، والمقول له من الناس ، والمقول عنه من الناس ، ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجميع الناس : إنه قد جمع لكم جميع الناس .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠] . أى جنس اليهود قال هذا ، لم يقل هذا كل يهودى ، ومن هذا أن فى النصارى من رقة القلوب التى توجب لهم الإيمان ماليس فى اليهود ، وهذا حق ، وأما قولهم : ونفى عنا اسم الشرك ، فلا ريب أن الله فرق بين المشركين وأهل الكتاب فى عدة مواضع ، ووصف من أشرك منهم فى بعض المواضع ،

بل قد ميز بين الصابئين والمجوس وبين المشركين فى بعض المواضع ، وكلا الأمرين حق ، فالأول قوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ﴾ ، [سورة الحج : ١٧] . وقال تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ .

وأما وصفهم بالشرك ففى قوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٢] . فنزه نفسه عن شركهم ، وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك ، فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد ، والنهى عن الشرك ، كما قال تعالى ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ،[سورة الزخرف :٤٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه ومن قبله من الرسل إنما دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفى التوراة من ذلك ما يعظم وصفه لم يأمر أحد من الأنبياء بأن يعبد ملك ولا نبى ولا كواكب ولا وثن ، ولا أن تسأل الشفاعة إلى الله من ميت ولا غائب ، ولا نبى ولا ملك فلم يأمر أحد من الرسل بأن يدعو الملائكة ، ويقول : اشفعوا لنا إلى الله ولا يدعو الأنبياء والصالحين الموتى والغائبين ، ويقول : اشفعوا لنا إلى الله ، ولا تصور تماثيلهم لا مجسدة ذات ظل ، ولا مصورة فى الحيطان ، ولا

يجعل دعاء تماثيلهم وتعظيمها قربة وطاعة سواء قصدوا دعاء أصحاب التماثيل ، وتعظيمهم والاستشفاع بهم ، وطلبوا منهم أن يسألوا الله تعالى ، وجعلوا تلك التماثيل تذكرة بأصحابها ، وقصدوا دعاء التماثيل ولم يستشعروا أن المقصود دعاء أصحابها ، كما فعله جهال المشركين ، وإن كان فى هذا جميعه إنما يعبدون الشيطان ، وإن كانوا لا يقصدون عبادته ، فإنه قد يتصور لهم فى صورة ما يظنون أنها صورة الذى يعظمونه ، ويقول : أنا الخضر ، أنا المسيح ، أنا جرجس ، أنا الشيخ فلان .

كما قد وقع هذا لغير واحد من المنتسبين إلى المسلمين والنصارى ، وقد يدخل الشيطان فى بعض التماثيل فيخاطبهم ، وقد يقضى بعض حاجاتهم ، فبهذا السبب وأمثاله ظهر الشرك قديماً وحديثاً ؛ وفعل النصارى وأشباههم ما فعلوه من الشرك .

وأما الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه فنهوا عن هذا كله ، ولم يشرع أحد منهم شيئاً من ذلك ، فالنصارى لا يأمرون بتعظيم الأوثان المجسدة ولكن بتعظيم التماثيل المصورة ، فليسوا على التوحيد المحض وليسوا كالمشركين الذين يعبدون الأوثان ويكذبون الرسل ، فلهذا جعلهم الله نوعاً غير المشركين تارة ، وذمهم على ما أحدثوه من الشرك تارة .

وإذا أطلق لفظ الشرك فطائفة من المسلمين تدخل فيه جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم كقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ فمن الناس من يجعل اللفظ عامًّا لجميع الكفار لا سيما النصارى ثم من هؤلاء من ينهى عن نكاح هؤلاء ، كما كان عبد الله بن عمر ينهى عن نكاح هؤلاء ويقول : لا أعظم شركا من أن يقول : عيسى ربنا .

وهذا قول طائفة من الشيعة وغيرهم .

وأما جمهور السلف والخلف ، فيجوزون نكاح الكتابيات ، ويبيحون ذبائحهم ، لكن إذا قالوا : لفظ المشركين عام ، قالوا : هذه الآية مخصوصة أو منسوخة بآية المائدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ﴾ ، [سورة المائدة : ٥] .

وطائفة أخرى تجعل لفظ المشركين إذا أطلق لا يدخل فيه أهل الكتاب ، وأما كون النصارى فيهم شرك كما ذكره الله ، فهذا متفق عليه بين المسلمين ، كما نطق به القرآن كما أن المسلمين متفقون على أن قوله : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ لأن النصارى لم يدخلوا فى لفظ الذين أشركوا ، كما لم يدخلوا فى لفظ اليهود .

وذلك قوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ ونحو ذلك ، وهذا لأن لفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد مالا يدخل فيه عند الاقتران ، كلفظ المعروف والمنكر فى قوله تعالى ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٧] .

فإنه يتناول جميع ما أمر الله به فإنه معروف ، وجميع ما نهى عنه فإنه منكر .

وفى قوله : ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ ، [سورة النساء : ١١٤] . فهنا قرن الصدقة بالمعروف والإصلاح بين الناس .

وكذلك المنكر فى قوله : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ، [سورة

العنكبوت : ٤٥] .قرن الفحشاء بالمنكر ، وقوله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ ، قرن الفشاء بالمنكر والبغى .

وكذلك لفظ البر والإيمان ، وإذاأفرده دخل فيه الأعمال والتقوى ، كقوله : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧].

وقال : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ ، [سورة الانفطار : ١٣] ، وقوله : ﴿ إنما المؤمنون ﴾ ، [سورة الأنفال : ٢] . ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى ﴾ ، [سورة الفتح : ٥] ، وقال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ، [سورة الأنفال : ٢] ، وقد يقرنه بغيره كقوله : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ ، [سورة المائدة : ٢] ، وقوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ، [سورة البروج : ١١].

وكذلك لفظ الفقير والمسكين إذا أفرد أحدهما دخل فيه لفظ الآخر.

وقد يجمع بينهما فى قوله : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ ، [سورة التوبة : ٦٠]. فيكون هنا صنفين ، وفى تلك المواضع صنف واحد ، فكذلك لفظ الشرك فى مثل قوله : ﴿ إنما المشركون نجس فلايقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٨] يدخل فيه جميع الكفار أهل الكتاب وغيرهم عند عامة العلماء ، لأنه أفرده وجرده ، وإن كانوا إذا قرن بأهل الكتاب كانا صنفين .

وفى صحيح مسلم عن بريدة أن النبى صلى الله عليه وسلم (١) : « كان إذا أرسل أميراً على سرية ، أو جيش أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله وأوصاه بمن معه من =

(١) حديث صحيح

المسلمين خيراً ، وقال لهم : اغزوا بسم الله فى سبيل الله فى دعة قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولاتغلوا ، ولاتغدروا ولاتمثلوا ، ولاتقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث - فإنهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم - إلى الإسلام فإن أجابوك إلى ذلك ، فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ماعليهم ، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المسلمين وليس لهم فى الغنيمة والفئ نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية . فإن أجابوا فأقبل منهم وكف عنهم » .

وهذا الحديث كان بعد نزول آية الجزية ، وهى إنما نزلت عام تبوك لما قاتل النبى صلى الله عليه وسلم النصارى بالشام واليهود باليمن .

وهذا الحكم ثابت فى أهل الكتاب باتفاق المسلمين ، كما دل عليه الكتاب

=رواه مسلم فى كتاب « الجهاد » باب « تأمر الإمام الأمراء على البعوث » (١٣٥٦/٣: ١٣٥٨ ح ١٧٣١)

ورواه أبو داود فى كتاب « الجهاد » باب « فى دعاء المشركين » (٢٧١/٧ : ٢٧٣ ح ٢٥٩٥ ، ٢٥٩٦)

ورواه الترمذى فى كتاب « الديات » باب « ما جاء فى النهى عن المثلة » (٦٦٣/٤:٦٦٤ ح ١٤٢٧)

ورواه أيضًا فى كتاب « السير » باب « ما جاء في وصية النبى صلى الله عليه وسلم فى القتال » (٢٤٢/٥: ٢٤٥ ح ١٦٦٦) وقال الترمذى عن هذا الحديث : « حسن صحيح » ورواه النسائى في سننه الكبرى فى كتاب « السير » باب « إلى ما يدعون » (١٧٢/٥ ح ٨٥٨٦) وأيضًا فى باب«الجزية » (٥/ ٢٣٢ : ٢٣٣ ح ٨٧٦٥)

وأيضًا با ب« وصاة الإمام بالناس » (٢٤/٥: ٢٤٢ ح ٨٧٨٢)

والحديث عزاه الحافظ المزى فى تحفة الأشراف (٦٩/٢ : ٧١ح ١٩٢٩)إلى النسائى فى كتاب الجهاد

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الجهاد » باب « وصية الإمام » (٩٥٣/٢ : ٩٥٤ ح ٢٨٥٨)

والسنة ، ولكن تنازعوا في الجزية : هل تؤخذ من غير أهل الكتاب ؟ وهذا مبسوط في موضعه .

فصل فى ادعاء النصارى أن القرآن سوى بين جميع الأديان

قالوا فى سورة المائدة : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ ، [سورة المائدة : ٦٩] .

فساوى بهذا القول بين سائر الناس : اليهود والمسلمين وغيرهم .

والجواب أن يقال أولا : لاحجة لكم فى هذه الآية على مطلوبكم ، فإنه يسوى بينكم وبين اليهود والصابئين ، وأنتم مع المسلمين متفقون على أن اليهود كفار من بعث المسيح إليهم فكذبوه .

وكذلك الصابئون من حيث بعث إليهم رسول فكذبوه ، فهم كفار فإن كان فى الآية مدح لدينكم الذى أنتم عليه بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ففيها مدح دين اليهود أيضاً ، وهذا باطل عندكم وعند المسلمين .

وإن لم يكن فيها مدح اليهود بعد النسخ والتبديل فليس فيها مدح لدين النصارى بعد النسخ والتبديل .

وكذلك يقال لليهودى ، إن احتج بها على صحة دينه .

وأيضاً فإن النصارى يكفرون اليهود ، فإن كان دينهم حقًا لزم كفر اليهود ، وإن كان باطلاً لزم بطلان دينهم فلابد من بطلان أحد الدينين فيمتنع أن تكون الآية مدحتهما ، وقد سوت بينهما .

فعلم أنها لم تمدح واحداً منهما بعد النسخ والتبديل ، وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم والذين هادوا والذين اتبعوا موسى عليه السلام ، هم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه

السلام ، وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل .

والصابئون ، وهم الصابئون الحنفاء ، كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ .

فإن العرب من ولد إسماعيل وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذى بناه إبراهيم وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن غير دينه بعض ولاة خزاعة ، وهو عمرو بن لحى ، وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك ، وتحريم مالم يحرمه الله . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) : « رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه - أى أمعاءه - فى النار » وهو أول من بحر البحيرة وسيب السوائب وغيّر دين إبراهيم .

وكذلك بنو إسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين إؤبراهيم كانوا من السعداء المحمودين فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم ونحوهم الذين مدحهم الله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة
رواه البخارى فى كتاب « المناقب » باب « قصة خزاعة » (٦/ ٦٣٣ ح ٣٥٢١)
ورواه البخارى فى كتاب « المناقب » باب « قصة خزامة » (٦/٦٣٣ ح ٣٥٢١)
ورواه أيضاًفى كتب « التفسير » تفسير سورة المائدة باب ما جعل الله من بحيرة ... (٨/١٣٢ : ١٣٣ ح ٤٦٢٣)
ورواه مسلم فى كتاب « صفة الجنة » باب « النار يدخلها الجبارون » (٤/٢١٩١ : ٢١٩٢ح ٢٨٥٦)
ورواه النسائى فى كتاب « التفسير » من سنن الكبرى ، تفسير سورة المائدة (٦/٣٣٨ح ٢٨٥٦)
ورواه النسائى فى كتاب « التفسير » من سننه الكبرى ، تفسير » سورة المائدة (٦/٣٣٨ح ١١١٥٦)
وانظر السلسلة الصحيحة (ح ١٦٧٧ ، وتخرج الأرنؤوط الصحيح ابن حبان (١٤/١٥٤ : ١٥٦ح ٦٢٦٠)

فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله ، ولا باليوم الآخر وعمل صالحاً ، كما قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا تؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله وسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقد تقدم أنه كفر أهل الكتاب الذين بدلوا دين موسى والمسيح وكذبوا بالمسيح أو بمحمد صلى الله عليه وسلم فى غير موضع ، وتلك آيات صريحة ونصوص كثيرة ، وهذا متواتر معلوم بالاضطرار من دين محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن هؤلاء النصارى سلكوا فى القرآن ما سلكوه فى التوراة والإنجيل يدعون النصوص المحكمة الصريحة البينة الواضحة التى لا تحتمل إلا معنى واحداً ويتمسكون بالمتشابه المحتمل ، وإن فيه ما يدل على خلاف مرادهم ، كما قال تعالى فيهم وفى أمثالهم : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧].

فصل فى ادعاء النصارى
أن القرآن مدحهم

قالوا : ثم مدح قرابيننا وتواعدنا إن أهملنا ما معنا وكفرنا بما أنزل إلينا يعذبنا عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين بقوله ذلك فى سورة المائدة : ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين - إلي قوله - فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٢ - ١١٥] .

فالمائدة هى القربان الذى يتقرب به فى كل قداس .

والجواب أن يقال : هذا كذب ظاهر على القرآن فى هذا الموضع كما كذبت عليه فى غير هذا الموضع ، فإنه ليس فى الآيات ذكر قرابينكم ألبتة وإنما فيه ذكر المائدة التى أنزلها الله تعالى فى عهد المسيح عليه السلام وقولهم بالمائدة هى القربان الذى يتقرب به فى كل قداس ، هو أولا : قول لا دليل عليه وثانياً : هو قول معلوم الفساد بالاضطرار من دين المسلمين الذين نقلوا هذا القرآن عن محمد صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه متفقون على أن المائدة ، مائدة أنزلها الله على عهد المسيح عليه السلام ، وقصتها مشهورة فى عامة الكتب تعرفها العامة والخاصة ولم يقل أحد إنها قرابين النصارى ، وليس فى لفظ الآية ما يدل على ذلك ، بل يدل على خلاف ذلك ، فإن الآية تبين أن المائدة منزلة من السماء وقرابينهم هى عندهم فى الأرض لم تنزل من السماء .

وفى الآية أن عيسى قال : ﴿ اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا و وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ ، وفى أول الكلام ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ ، قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، فأين هذا من قرابينهم الموجودة اليوم ؟ .

فصل فيما إدعاه النصارى من
تأييد الكتب السماوية لدينهم

قالوا : ولما تقدم به القول لأنه غير لائق عند ذوى الألباب أن نهمل روح القدس وكلمة الله الذى شهد لهما فى هذا الكتاب بالعظائم ، فقال عن كلمة الله : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ ، [سورة

النساء : ١٥٩] .

والجواب : إن الله تعالى لم يبعث محمداً صلى الله عليه وسلم بإهمال ما يجب في حق المسيح عليه السلام ، بل أمره بالإيمان بالمسيح وبما جاء به ، كما أمر بالإيمان بموسى وبما جاء به ، كما أمر المسيح بالإيمان بموسى وبما جاء به ، لكنه أمر بإهمال ما ابتدع من الدين الذى لم يشرعه الله على لسان المسيح ، عليه السلام ، وما نسخه الله من شرعه على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فيهمل المبدل والمنسوخ ، كما أمر الله المسيح أن يهمل ما ابتدعته اليهود من الدين الذى لم يشرعه ، وما نسخه من شرع موسى .

فكما أمر المسيح أن يهمل المبدل والمنسوخ من التوراة التى جاء بها موسى عليه السلام ، ولم يكن فى ذلك إهمال لما يجب من حق التوراة وموسى عليه السلام ، فكذلك إذا أهمل المبدل والمنسوخ من دين أهل الإنجيل لم يكن فى ذلك إهمال لما يجب من حق الإنجيل والمسيح بل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يتضمن الإيمان بجميع الكتب والرسل ، وأن لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦] .

والنصارى كاليهود ، آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، فأيما هو اللائق عند أولى الألباب ، أن نؤمن بجميع كتب الله ورسله ، أو نؤمن ببعض ونكفر ببعض ؟! وأيما هو اللائق عند أولى الألباب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ونعبده بما شرعه على لسان رسوله ، أو نبتدع من الشرك والعبادات المبتدعة ما لم ينزل به الله كتاباً ولا بعث به رسولا ونضاهى المشركين عباد الأوثان ؟

قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله

ذلك قولهم بأفواهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل - يعنى المشركين - قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا إشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] فالمسلمون لم يهملوا روح القدس ، وكلمة الله ، وقد قال تعالى عن كلمة الله : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ، بل هم الذين اتبعوا دينه ودين الرسل قبله ، فإن دين الأنبياء عليهم السلام جميعهم واحد لما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد » .

وقد قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

فدين المرسلين كلهم دين واحد ، ويتنوع شرعهم ومناهجهم كتنوع شريعة الرسول الواحد ، فإن دين المسيح هو دين موسى ، وهو دين الخليل قبلهما ، ودين محمد بعدهما ، مع أن المسيح كان على شريعة التوراة ، ثم نسخ الله على لسانه ما نسخ منها وهو قبل النسخ وبعده دينه دين المسيح وموسى ، ولم يهمل دين موسى .

كذلك المسلمون هو على دين المسيح وموسى وإبراهيم وسائر الرسل ، وهم الذين اتبعوا المسيح ، ولهذا جعلهم جعلهم الله فوق النصارى إلى يوم القيامة .

والنصارى الذين بدلوا دين المسيح وكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم بريئون من دين المسيح والمسيح برئ منهم كبراءة موسى ممن بدل وغير دينه وكذب المسيح والمسلمون أشد تعظيما للمسيح عليه السلام : واتباعاً له بالحق ممن بدل دينه وخالفه

من النصارى فإن المسلمين يصدقونه فى كل ما أخبر به عن نفسه ، ولا يحرفون ما قاله عن مواضعه ، ولا يفسرون كلامه بغير مراده ، وكلام غيره من الأنبياء كما فعلت النصارى ، فإنهم نقلوا عن المسيح أنه قال : [عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس] . وهذا إذا قاله المسيح ، فإنه يفسر بلغته وعادته فى خطابه وعادة سائر الأنبياء ، وليس فى كلام المسيح ولا فى كلام سائر الأنبياء ولا كلام غيرهم أن كلمة الله القائمة بذاته سبحانه وتعالى تمسى ابنا ، ولا روح قدس ، ولا تسمى صفته القديمة ، ابنا ، ولا روح قدس ، ولا يوجد قط فى كلام الأنبياء اسم الابن واقعاً إلا على مخلوق .

والمراد فى تلك اللغة أنه مصطفى محبوب لله ، كما ينقلونه أنه قال لإسرائيل : [إنه ابنه بكره] ولداود [أنت ابنى وحبيبى] وإن المسيح قال للحواريين : [أبى وأبيكم] ، فجعله أبا للجميع ، وهم كلهم مخلوقون فيكون اسم الابن واقعاً على المسيح الذى هو ناسوت مخلوق ، فعمد هؤلاء الضلال فجعلوا اسم الابن واقعاً على اللاهوت قديم أزلى مولود غير مخلوق .

وزعموا أن الابن يراد به الابن بالوضع ، هو المخلوق وهو الابن بالطبع وهو القديم الأزلى المولود غير المخلوق ، وهذا التفريق هم أحدثوه وابتدعوه ، ولا يوجد قط فى كلام المسيح ولا غيره أنه سمى القديم الأزلى ابنا ، ولا جعل له ابنا قديماً مولوداً غير مخلوق ، ولا سمى شيئاً من صفات الله قط ابنا .

وكذلك لفظ روح القدس موجود فى غير موضع من كلام الأنبياء عليهم السلام لا يراد بهذا قط حياة الله ولا صفة قائمة .

وإنما يراد به ما أيد الله به الأنبياء والأولياء ، ويجعله فى قلوبهم من هداه ونوره ووحيه وتأييده ، ومن ينزل بذلك من الملائكة ، وهذا الذى تسميه الأنبياء روح القدس لم يختص به المسيح ، باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، بل قد أنزله على غيره

من الأنبيـاء والصالحين كما هو موجـود فى كتبهم : إن روح القـدس كانت فى داود وغيره ، وكانت أيضاً عندهم فى الحواريين .

وهكذا خاتم الرسل كان يقـول لحسان بن ثابت (١) : « إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه » ويقول (٢) : « اللهم أيده بروح القدس » .

وقد قال الله تعالى عن المؤمنين : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حـاد الله ورسـوله ولو كانوا آبـاءهم أو ابناءهم أو إخـوانهم أو عشـيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

فروح القـدس لا اختـصاص للمـسيح عليـه السلام بهـا ، بل ما يفسـربه اسم الابن واسم روح القدس ، وغير ذلك مما وصف به المسيح ، فهو مشترك بينه وبين غيره من الرسل ، وإذا فسـروا الحلول بظهور نور الله وعلمـه وهداه فى الأنبياء فـهذا حق وهو مشترك بين المسيح وغيره .

فأما نفس ذات الله فلم تحل فى أحد من البشر .

والمسلمون مع شـهادتهم للمسيح بأنه عـبد الله ورسوله يقولون إنه مـؤيد منصور عصمه الله من أعدائه وطهره منهم ، ولم يسلطهم عليه .

---

(١) ورد من حديث عائشة نحوه

ورواه مسلم فى كتاب « فضائل الصحابة » باب « فضائل حسـان بن ثابت »(١٩٣٥/٤: ١٩٣٨ح ٢٤٩٠)

وقد ورد من طريق آخر

ورواه أبو داود في كتاب « الأدب » باب « ما جاء فى الشعراء (٣٥٧/١٣ : ٣٥٨ ح ٤٩٩٤)

ورواه الترمذى في كتاب « الأدب » باب « مـا جاء في إنشاء والشعر » (١٣٧/٨ : ١٣٨ ح ٣٠٠٣ . ٣٠٠٤) وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح » وانظر السلسلة الصحيحة (ح ١١٨٠،، ١٦٥٦)

(٢) سبق تخريجه وهو حديث متفق عليه

والنصارى يدعون أنه اسم المسيح اسم اللاهوت والناسوت وأنه إله تام وإنسان تام ، وهذا يمتنع شرعا وعقلا ثم يصفونه بالصفات المتناقضة ، يصفونه بأن طائفة من شرار اليهود وضعوا الشوك على رأسه وبصقوا فى وجهه ، وأهانوه وصلبوه وفعلوا به مالا يفعل بأخص الناس ، ويقولون مع هذا إنه رب السموات والأرض وما بينهما .

فصل فى بطلان ما استدلوا به

قالوا : ثم شهد لقرابيننا وذبائحنا أنها مقدسة مقبولة لدى الله من كتب اليهود التى فى أيديهم يومنا هذا المنزلة من الله على أفواه الأنبياء المرسلين .

قال أشعيا : [قال الله : إنى أعرف بنى إسرائيل وقلوبهم القايسة الخبيثة فإذا أنا ظهرت إلى الأمم فنظروا إلى كرامتى ، أقيم منهم أنبياء وأبعث منهم مخلصين يخلصون الأمم من البلدان القاسية الذين لم يسمعوا بسماعى ، ولم يعرفوا من قبل كرامتى ، ويكون اسمى فيهم ، ويجلبون إخواتهم من الأمم كلها ، ويجيبون قرابين الله على الدواب والمراكب إلى جبل قدسى بيت المقدس ، فيقربون لى القرابين بالسميد . كما كان بنو إسرائيل من قبل ، وكذلك باقى الأمم ويقرب القرابين بين يدى فهم وزرعهم إلى الأبد ، ويحجون فى كل سنة ، وفى كل شهر ، ومن سنة إلى سنة إلى بيت المقدس ، وبيت الله ، ويقربون لله ربهم فيه قرابين زكية نقية ، ينظرون إلى الأمة الخبيثة الماردة : بنى إسرائيل ، لا يبلى حرمها ولا ينقطع بلاؤها إلى الأبد] .

وقال دانيال عليه السلام : [وسيأتى على بيعتك وقرية قدسك سبعون سابوعا ، وتنقضى الذنوب ، وتفنى الخطايا وغفران الإثم ،ويؤتى بالحق الذى لم ينزل من قبل ، وتتم نبوات الأنبياء وكتب الرسل ، وتبيد قرية القدس وتخرب مع مجئ المسيح ، ويفنى الميثاق العتيق من الناس ، ومن بعد أسبوع ونصف تبطل ذبائح اليهود

وقرابينهم ، وتصير على كف النجاسة والفساد إلى انقضاء الدهر] .

وقال ميخا النبى عليه السلام : [قال الله : فى آخر الزمان إذا أتى المسيح يدعو الأمم المبددة ، ويضعهم شعباً واحداً ، ويبطل قتال بنى إسرائيل وسلاحهم وقرابينهم إلى الأبد] .

وقال عاموص النبى : [لا يذبحوا العجول بعد ، فإن الرب سيأتى صهيون ويحدث وصية جديدة طاهرة من الخبز النقى والخمر الزكى ويصير بنو إسرائيل مطرودين] .

الجواب من وجوه :

أحدها : إن ما يحتجون به من النقل عن الأنبياء صلوات الله عليهم يحتاجون فيه إلى أربع مقدمات :

١- إلى أن تعلم نبوة المنقول عنه .

٢- إلى أن يعلم لفظه الذى تكلم به .

٣- وإلى أن نعلم ماذكروه ترجمة صحيحة عنه ، فإن أولئك الأنبياء لم يتكلموا بالعربية بل ولا بالرومية والسريانية واليونانية ، وإنما تكلموا بالعبرية ، المسيح عليه السلام .

٤- أن يعلم ما ذكروه من كلام الأنبياء دليل على ما ادعوه من قبول قرابينهم فى هذا الزمان ، ونحن فى هذا المقام نقتصر على منازعتهم فى هذه المقدمة ، فليس فيما ذكروه دليل على مدح قرابينهم وذبائحهم بعد التبديل والنسخ ، ولكن غايتها أن يدل على مدحها قبل النسخ والتبديل ، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون .

الوجه الثانى : أن هذه النعوت المذكورة عن « أشعيا » وغيره من الأنبياء لا توافق ما عليه النصارى ، فإن النصارى لا يقربون القرابين بالسميد ، كما كان بنو إسرائيل

من قبل ، ولا يحجون فى كل شهر ومن سنة إلى سنة إلى بيت المقدس بيت الله ، ويقربون لله ربهم فيه قرابين نقية زكية ، وإنما يحجون إلى قمامة الخارجة عن بيت الله الذى كانت الأنبياء تقصده وتصلى فيه ، فإن الأنبياء إنما كانوا يصلون فى بيت المقدس ، ويزورون بيت المقدس نفسه . وأما قمامة فليس لها ذكر فى كتب الأنبياء عليهم السلام ، بل وإنما ظهرت قمامة فى زمن قسطنطين الملك ، لما أظهرتها أمة هيلانة الحرانية لما جاءت بيت المقدس ، واختارت من اليهود ثلاثة ، وسألتهم أن يدلوها على موضع الصلب فافامتنعوا فعاقبتهم بالحبس والجوع فدلوها على موضعه فى مزبلة فاستخرجوه ، وجعلته في غلات من ذهب وحملته ، وبنت كنيسة القمامة فى موضعه ، كما ذكر ذلك ابن البطريق فى تاريخه وغيره كما سيأتى ، وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة .

ومن ذلك الوقت أظهروا الصليب ، وجعلوا « عيد الصليب » فلم يشرع ذلك لا المسيح ولا الحواريين ، وهذا مذكور فى كتبهم متفق عليه بين علمائهم ، كما قد ذكر فى موضع آخر ، ولا هم يأتون بقرابين الله على الدواب والمراكب إلى جبل قدس الله المقدس .

الوجه الثالث : أن ما ذكروه عن « دانيال » لا يتضمن مدح دينهم بعد النسخ والتبديل ، وإنما يتضمن أن الله يبعث المسيح عليه السلام بالحق الذى لم ينزل من قبل ، وهو الدين الذى بعث به الرسل قبله ، وهو عبادة الله وحده ، وأن بيت المقدس يخرب مع مجئ المسيح ، ويفنى الميثاق العتيق ، يعنى ما نسخ من شرع التوراة وأنه يبطل ذبائح اليهود وقرابينهم .

وهذا كله إنما يدل على نسخ شرع التوراة ، وبطلان دولة اليهود ، ويدل على أن المسيح جاء بالحق ومن اتبع المسيح كان على الحق ، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون فإنهم متفقون على أن من كان متمسكا بما أمر به المسيح فإنه من عباد الله الصالحين ، ولكن من جاء بشرع لم يأت به المسيح ، أو أراد اتباع شرعه بعد النسخ فهو بمنزلة

اليهود الذى نسخ الله ما نسخه من شرعهم ، وأزال دولتهم ، وكذلك فعل بالنصارى لمابعث الله محمد صلى الله عليه وسلم أزال دولتهم عن وسط الأرض وخيارها وحيث بعثت الأنبياء كأرض الشام ومصر والجزيرة والعراق وأرمينية وأزربيجان ، وأجلاهم إلى طرفى الأرض من جهة الشمال والجنوب ، وصار الذين فى وسط الأرض منهم أحسن أحوالهم إذا لم يسلموا أن يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

وكذلك كما ذكروه عن « ميخا » و« عاموص » إنما يدل على مجئ المسيح عليه السلام وبطلان ما نسخه الله وأبطله من شرع اليهود وملكهم لايدل على صحة دين النصارى الذى لم يشرعه المسيح عليه السلام ؟ ولا على صحته بعد أن نسخ يشرع محمد صلى الله عليه وسلم نسخا هو أبلغ من نسخ بعض شرع موسى بشرع المسيح .

هذا إذا سمى الشرع المؤقت بعناية مجهولة نسخا ، فإن الأول لم يبشر بالثانى .

وأما إذا كان الأول بشر الثانى ، وكانت شريعة الأول مؤقتة إلى مجى الثانى لم يسم ذلك نسخاً ، فالمسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم لم ينسخا شيئاً بل كان شرع موسى إلى مجئ المسيح ، وشرع المسيح إلى مجئ محمد صلى الله عليهما وسلم .

وأما ما حكى عن أشعيا عن الله أنه قال : [فإذا ظهرت إلى الأمم] فهذا قد يحتج به النصارى وبأمثاله من كلام الأنبياء عليهم السلام على الحلول الذى ابتدعوه ، وهو باطل فإن هذا اللفظ مذكور فى كتب أهل الكتاب فى غير موضع ولا يراد بشئ منها حلول ذات الله فى أحد من البشر ، كما ذكر فى التوراة : [أن الله عز وجل استعلن لإبراهيم وغيره وأن الله يأتى من طور سيناء ويشرف من سعير ويستعلن من جبال فاران] .

ومعلوم عند جميع أهل الملل أن الله سبحانه وتعالى لم يحل فى موسى ولا غيره

لما كلمه ، ولا يحل فى شئ من جبال فاران مع إخباره أنه استعلن منها .

وقال تعالى ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٣] .

فأظهره بالعلم والحجة والبيان ، وأظهره باليد والسنان كما قال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ﴾ ، [سورة النور : ٣٥] .

قال أبى كعب وغيره (١) : مثل نوره فى قلب المؤمن .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ : ﴿ إن فى ذلك لآيات

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (١٨/١٠٥ : ١١١)
وانظر الدر المنثور (٥/٤٨) ، وابن كثير (٣/٢٨٩: ٢٩٢)

(٢) حديث ضعيف
رواه الترمذى فى كتاب « التفسير » باب «سورة الحجر » (٨/٥٥٤ :٥٥٥ ح ٥١٣٣)
والحديث ضعيف من أجل عطية العوفى لضعفه وتدليسه ، والحديث قد ورد عن غير أبى سعيد الخدرى فقد ورد من حديث أبى أمامة الباهلى ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وثوبان
وانظر الضعيفة للألبانى (ح ١٨٢١)

للمتوسمين ﴾ [سورة الحجر : ٧٥] .

قال الترمذي : حديث حسن (١) ، وقد جاء عن بعض السلف أن قلوب المؤمنين تضئ لأهل السموات كما تضئ الكواكب لأهل الأرض .

فالمخلوق الذي تظهر محبته وذكره وطاعته في بعض البلاد ، يقال فلان قد ظهر في هذه الأرض ، فإذا ظهر ذكر الله وذكر أسمائه وصفاته وتوحيده وآياته وعبادته حتى امتلأت القلوب بذلك بعد أن كانت ممتلئة بظلمة الكفر والشرك ، كان ذلك مما أخبر به من ظهوره ، وهذا أعظم ما يكون في بيوته التي يعبد فيها ويذكر فيها اسمه .

ولهذا ذكر تعالى آية النور وقال : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشاة فيها مصباح ،والمصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شئ عليم ﴾ [سورة النور : ٣٥] قال عقب ذلك : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ، [سورة النور : ٣٦ - ٣٨] .

وكذلك ما في الكتب من ظهوره ببيت المقدس فهو كظهوره بطور سيناء وبجبل فاران ، ومع هذا فلم يره موسى ولاغيره لامجرداً ولا حالاً في غيره ، وقد أخبر المسيح أنه لم يره أحد ، كما أخبر غيره ، وذلك نفى علم يوجب أنه لايرى لا مجرداً ، ولا حالاً في دار الدنيا كما قد بسط هذا في موضع آخر .

---

(١) قال الترمذي : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » وكذا في طبعة شاكر (٥/١٩٨ ح ٣١٢٧) ط . دار الحديث ، وأيضاً في تحفة الأشراف (٣/ ٤٢٠ ح ٤٢١٧)

ومعلوم أن ملابسة الشئ أبلغ من رؤيته ، فإذا كان الرب تعالى لايراه ناسوت ، فإن لايلابسه ناسوت بطريق الأولى والأحرى . والنصارى يزعمون أنه اتحد هو والناسوت ، وهذه أعظم من الرؤية .

فصل فيما بشر به القرآن مريم من ولادة المسيح

قالوا: فما يكون أعظم من هذا برهاناً ، وأقوى شهادة ، إذ هذه كتب أعدائنا المخالفين لديننا ، وهم يقرون بذلك ويقرأونه فى كنائسهم ، ولم ينكروا منه كلمة واحدة ، ولاحرفا واحداً .

والجواب : أن الأمر إذا كان على ما قالوه من ثبوت هذه الكلمات عن بعض الأنبياء فليس فيها مدح لدينهم بعد التبديل ، فكيف بعد النسخ والتبديل ؟ وإنما فيها إخبار بزوال ملك بنى إسرائيل ، ونسخ مانسخ من شرعهم بمجئ المسيح عليه السلام ، وهذا دليل على نبوة المسيح وصدقه وهذا مما اتفق عليه المسلمون .

والمسيح عليه السلام عندهم كما أخبر الله عنه ، بقوله تعالى لمريم : ﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٥ - ٤٦] وأما قولهم إن هذا وغيره موجود فى كتب أعدائنا اليهود .

فيقال لهم : لاريب أن اليهود يخالفونكم فى تفسير الكتب فأنتم تفسرونها بشئ ، وهم يفسرونها بشئ آخر ، وقد يكون كلا التفسيرين باطلا ، وحينئذ فيقال لكم : كما أن كتب الأنبياء شاهدة للمسيح ولدينه ، وإن خالفكم اليهود فى تفسيرها فكذلك هى شاهدة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته ، وإن خالف أهل الكتاب فى تفسيرها ، كما قد بين الله فى كتب الأنبياء صفة محمد وأمته فى غير

موضع.

والواجب فى الكتب إذا تنازعت الأمم فى تفسيرها أن يبين الحق الذى يقوم عليه الدليل الشرعى والعقلى ، وحينئذ تبين أنكم فسرتم كتب الله بأشياء تخالف مراد الله فى أمر التثليث والاتحاد وغيره كما فعلت اليهود بتفسير الكتب كما قد بسط فى غير هذا الموضع.

فصل فى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم للنصارى للدخول فى الإسلام

وقالوا : وأيضاً فى قول هذا الإنسان مما أتى فى كتابه حيث اتبع القول أنه لم يرسل إلينا مع تشككه فيما أتى به فى هذا الكتاب فى سورة سبأ حيث يقول : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٤] .

وأيضاً فى سورة الأحقاف يقول : ﴿ ومأأدرى مايفعل بى ولابكم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٩] .

والجواب : أن نقلهم إنه قال : إنه لم يرسل إليهم كذب ظاهر عليه ، فإن كتابه مملوء بدعوتهم وأمره لهم بالإيمان به واتباعه ، بل وبعموم رسالته إلى جميع الناس بل وإلى الجن والإنس ، وليس فيه قط أنه لم يرسل إلى أهل الكتاب ، بل فيه صريح بدعوة أهل الكتاب فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] .

وقد كتب النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الآية إلى قيصر ملك النصارى الذي اسمه « هرقل » بالشام ، وقد تقدم ذكر ذلك (١) ، وتقدم أيضاً أن قوله تعالى

---

(١) سبق تخريجه

: ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ ، [سورة يس : ٦] .

يقتضى أنه ينذر الأميين ، وليس فيه أنه لا ينذر غيرهم ، كما أن قوله : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٤] .

يقتضى إنذار قومه ولاينافى أن ينذر غيرهم من العرب كما أن قوله فى قريش :

﴿ فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ ، [سورة قريش : ٣ ، ٤] .

ولا يمنع أن يكون غير قريش مأمورين بعبادة رب هذا البيت ، بل قد أمر الله جميع الثقلين : الجن والإنس ، أن يعبدوا رب هذا البيت .

فإن قيل : فقد سكت عن ماسوى الأميين فى هذا ، فيشعر بالنفى بدليل الخطاب الذى يسمى مفهوم المخالفة قيل : ذاك إنما يدل إذا لم يكن فى التخصيص فائدة سوى الاختصاص بالحكم ، ولم يكن هنا صريح بأن حكم المسكوت كحكم المنطوق ، وهنا لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأمره أن ينذر عشيرته الأقربين أولا ، ثم ينذر العرب الأميين ، ثم أهل الكتاب والمجوس وغيرهم ، وقد تقدم بسط هذا .

فصل فى دعوى النصارى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شاكا فيما جاء به

وأما قولهم : مع تشككه فيما أتى به ، فمن الكذب البين فإنه تعالى قال : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة فى السماوات ، ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير * قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين * قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون * قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٢ -

٢٦ ﴾ .

فإنه لما دعاهم إلى التوحيد وبين أن ما يدعونه من دون الله لا يملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا هو شريك ولا هو ظهير ولا ينفع شفيع إلا بإذنه نفى بذلك جميع وجوه الشرك فإن ما يشرك إما أن يكون له ملك أو شريك فى الملك أو يكون به معيناً ، فإذا انتفت الثلاثة لم يبق إلا الشفاعة التى هى دعاء لك ومسألة ، وتلك لا تنفع عنده إلا لمن أذن له .

ثم ذكر بعد هذا أنه لا رازق يرزق من السماء والأرض إلا الله دل بهذا وهذا على التوحيد ، كما فى قوله ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون * ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ ، [سورة النحل : ٥٣ - ٥٥] .

فلما ذكر ما دل على وجوب توحيده ، وبيان أن أهل التوحيد هم على الهدى ، وأن أهل الشرك على الضلال قال : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٤] يقول : إن أحد الفريقين أهل التوحيد الذين لا يعبدون إلا الحق ، وأهل الشرك لعلى هدى أو فى ضلال مبين.

وهذا من الإنصاف فى الخطاب الذى كل من سمعه من ولى وعد قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك ، كما قال العادل الذى ظهر عدله للظالم الذى ظهر ظلمه : الظالم إما أنا وإما أنت ، لا للشك فى الأمر الظاهر ، ولكن لبيان أن أحدنا ظالم ظاهر الظلم ، وهو أنت لا أنا .

فإنه إذا قيل : أهل التوحيد الذين يعبدون الله على هدى ، أو فى ضلال مبين ، وأهل الشرك الذين يعبدون مالا يضر ولا ينفع على هدى أو فى ضلال .

تبين أن أهل التوحيد على الهدى ، وأهل الشرك على الضلال ، وهذا مما يعلمه جميع الملل ، ومن المسلمين واليهود والنصارى يعلمون أن أهل التوحيد على الهدى

وأهل الشرك على الضلال .

وفى القرآن فى بيان مثل هذا ما لا يحصى إلا بكلفة ، بل قطب القرآن وسائر الكتب مدارها على العبادة الله وحده ، فكيف يقال إن الرسول كان يشك هل المهتدى هم أهل التوحيد أم أهل الشرك ؟ وهل يقول هذا إلا من هو فى غاية الجهل والعناد.

ثم الآية خطاب للمشركين ليست خطابًا للنصارى خصوصًا .

فصل أن الرسول لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا

وأما قوله تعالى : ﴿ قل ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ فلفظ الآية :﴿قل ما كنت بدعًا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٩] و هذا بعد قوله تعالى : ﴿ أم يقولون إفتراه قل إن إفتريته فلا تملكون لى من الله شيئًا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدًا بينى وبينكم ، وهو الغفور الرحيم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٨].

ونظير هذا قوله : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى ﴾ . ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نزير مبين ﴾ [سورة الاحقاف : ٩]

وهذا قاله نوح عليه السلام أول الرسل ، وأمر محمدًا صلى الله عليه وسلم آخر الرسل أن يقوله ، ومثل قوله ، ﴿ قل إنى لا أملك لكم ضرًا ولا رشدًا * قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * إلا بلاغًا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدًا ﴾ ، [سورة الجن : ٢١ - ٢٣].

وهذا ونحوه يتضمن اعترافه بأنه عبد الله ورسول من الله لا يتعدى حد الرسالة

ولا يدعى المشاركة فى الألوهية ، كما ادعته النصارى فى المسيح ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٥].

فتبين أنه لا يتعدى حد الرسالة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ [سورة آل عمران :١٤٤] ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته : (١) « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا : عبدالله ورسوله » .

فقال تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعًا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٩] يقول : لست أول من أرسل ، وادعى الرسالة ، بل قد تقدم قبلى رسل ، ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين ﴾ يقول : لا أدعى علم الغيب ، وإن أتبع إلا ما يوحى إلىّ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ أنذركم بما أمرنى الله أن أنذركم به ، لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، وهذا من كمال صدقه وعدله وعبوديته لله وطاعته وتمييز ما يستحقه الخالق وحده مما يستحقه العبد ، فإن العلم بعواقب الأمور على وجه التفصيل مما استأثر الله بعلمه ، فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل .

وليس من شرط الرسول أن يعلم كل ما يكون ، وقوله تعالى : ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ نفى لعلمه بجميع ما يفعل به وبهم ، وهذا لا يعلمه إلا الله تبارك ، وهذا لا ينفى أن يكون عالمًا بأنه سعيد من أهل الجنة فإن لم يدر تفاصيل ما يجرى له فى الدنيا من المحن والأعمال ، وما يتجدد له من الشرائع ، وما يكرم به فى الآخرة من أصناف النعيم ، فإنه قد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه

---

(١) سبق تخريجه

وسلم أنه قال : (١) « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وأيضًا هذا مأثور عن غيره من الأنبياء عليهم السلام ، ولا من شرط النبى أن يعلم حال المخاطبين : من يؤمن به ومن يكفر ، وتفصيل ما يصيرون إليه ، هذا إن قيل إنه لم يعلم بعد هذه الآية ما نفى فيها ، وإن قيل إنه أعلم بذلك فمعلوم أن الله لم يعلمه بكل شئ جملة ، بل أعلمه بالأمور شيئًا بعد شئ .

وقد قال الله تعالى بعد ذلك : ﴿ إنا فتحنا لك فتحًا بينًا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيما * وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ ، [سورة الفتح : ١ - ٣] .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ [سورة الفتح : ٢٨]

---

(١) « متفق عليه » عن أبى هريرة

رواه البخارى فى كتاب « بدء الخلق » باب « ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة » (٦/٣٦٦ح ٣٢٤٤)

ورواه أيضًا برقم (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠ ، ٧٤٩٨)

ورواه مسلم في كتاب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » باب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » (٤/٢١٧٤، ٢١٧٥ح ٢٨٢٤)

ورواه الترمذى فى كتاب « تفسير القرآن »باب « سورة السجدة » (٩/٥٦ح ٣٢٤٩) وقال هذا حديث حسن صحيح »

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الزهد » باب « صفة الجنة » (٢/١٤٤٧ ح ٤٣٢٨)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « التفسير باب » قوله تعالى : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » آل عمران : ١٨٥(٦/٣١٧ح ١١٠٨٤) وقد تفرد المصنف بهذا عن طريق شريك عن محمد بن عمرو بن أبى سلمة عن أبى هريرة

وفى القرآن والأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم من الأخبار بما سيكون فى الدنيا وفى الآخرة أضعاف أضعاف ما يوجد عن الأنبياء قبله حتى أنه ينبئ على الشئ الذى يكون بعد ما يبين من السنين خبراً أكمل من خبر من عاين ذلك ، كقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح :(١) « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين ، دلف الأنوف ، حمر الخدود ، ينتعلون الشعر ، كأن وجوههم المجان المطرقة » فمن رأى هؤلاء الترك الذين قاتلهم المسلمون من حين خرج جنكزخان ملكهم الأكبر وأولاده وأولاد أولاده ، مثل هلاكو وغيره من الترك الكفار الذين قاتلهم المسلمون لم يحسن أن يصفهم بأحسن من هذه الصفة .

وقد أخبر بهذا قبل ظهوره بأكثر من ستمائه سنه وقوله صلى الله عليه وسلم : (٢) « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضئ لها أعناق

(١) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « الجهاد » باب« فقال الترك » (٦/ ١٢٢ ح ٢٩٢٨)

ورواه أيضاً برقم (٢٩٢٩ ، ٣٥٨٧ ، ٣٥٩٠ ، ٣٥٩١)

ورواه مسلم فى كتاب « الفتن » باب « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل ... (٤/٢٢٣٣ ، ٢٢٣٤ح ٢٩١٢)

ورواه أبو داود فى كتاب « الملاحم » باب« فيقاتل الترك (١١/ ٤١٠ ح ٤٢٨١) ورواه أيضاً برقم (٤٢٨٢ ، ٤٢٨٣)

ورواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب « ما جاء فى قتال الترك » (٦/٤٦١ح ٢٣١٢) وقال وفى الباب عن أبى بكر الصديق وبريدة وأبى سعيد وعمرو بن تغلب هذا حديث حسن صحيح »

ورواه النسائى فى «الجهاد » باب غزوة الترمك والحشبة . (٦/٤٤، ٤٥)

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الفتن »باب « الترك »)(٢/١٣٧١ح ٤٠٩٦) ورواه أيضاً برقم (٤٠٩٧)

(٢) متفق عليه »

ورواه البخارى فى كتاب « الفتن » باب » خروج النار (١٣/ ٨٤ ح ١٧١٨)

ورواه مسلم فى كتاب « الفتن » با بلا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز » (٤/٢٢٢٧، ٢٢٢٨ح ٢٩٠٢)

الإبل ببصرى » .

وهذه النار ظهرت سنة خمس وخمسين وستمائة بأرض الحجاز ، فكانت تحرق الحجر ولا تنضج اللحم ، ورأى أهل بصرى أعناق الجمال من ضوء تلك النار ، وكانت منذرة بما يكون بعدها ففى سنة ست وخمسين وستمائة دخل هلاكو ملك الكفاربغداد وقتل فيها مقاتلة عظيمة مشهورة وسيأتى إن شاء الله بعض أخبار أنه شاهد الناس وقوعها ، كما أخبر عند ذكرنا معجزاته .

فصل فى دعوى النصارى أنهم هم المعنيون بقوله : « صراط الذين أنعمت عليهم »

ثم قالوا : مع الأمر له فى فاتحة الكتاب أن يسأل الهداية إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فإنه عنى بقوله المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين الثلاث أمم الذين كانوا فى عصره ، وهم النصارى واليهود وعباد الأصنام ، ولم يكن فى زمانه غير هؤلاد الثلاث أمم .

فالمنعم عليهم نحن النصارى والمغضوب عليهم - فلا يشك - أنهم اليهود والذين غضب الله عليهم فى كتب التوراة والأنبياء وهذا الكتاب ، والضالين فهم عباد الأصنام الذين ضلوا عن الله ، فهذا أمر واضح بين ظاهر عند كل أحد ولا سيما عند ذوى العقول والمعرفة ، والصراط : هو المذهب ، أى الطريق ، وهذه اللفظة رومية لأن الطريق بالرومية اسطراطًا .

والجواب : أما قولهم : المنعم عليهم نحن النصارى ، فمن العجائب التى تدل على فرط جهل صاحبها ، وأعجب من ذلك قولهم إن هذا شئ بين واضح عند كل أحد ، لا سيما عند ذوى العقل والمعرفة ، فياسبحان الله ! ألم يعرف العام والخاص علمًا لا تمكن المنازعة فيه من دين محمد صلى الله عليه وسلم ودين أمته الذى تلقوه عنه من تكفير النصارى وتجهيلهم وتضليلهم واستحلال جهادهم وسبى حريمهم وأخذ

أموالهم ما يناقض كل المناقضة أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم وأمته فى كل صلاة يقولون : اللهم اهدنا صراط النصارى ، وهل ينسب محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته إلى أنهم فى كل صلاة يطلبون من الله أن يهديهم صراط النصارى إلا من هو من أكذب الكذابين وأعظم الخلق افتراء ووقاحة وجهلا وضلالا ؟ ولو كانوا يسألون الله هداية طريق النصارى لدخلوا فى دين النصارى ، ولم يكفروهم ويقاتلوهم ، ويضعوا عليهم الجزية التى يؤدونها عن يد وهم صاغرون ، ولم يشهدوا عليهم بأنهم من أهل النار ، وأمته أخذوا ذلك جميعه عنه منقولا عنه بالنقل المتواتر بإجماعهم لم يبتدعوا ذلك ، كما ابتدعت النصارى من العقائدوالشرائع مالم يأذن به الله ، فلا يلام المسلمون فى اتباعهم لرسول الله الذى جاء بالبينات والهدى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم إن كان رسولا صادقًا ، فقد كفر النصارى ، وأمربجهادهم ، وتبرأ من دينهم ، وإن كان كاذبًا لم يقبل شئ مما نقله عن الله عز وجل

وقد تقدم غير مرة قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة * لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ [سورة المائدة ٧٢، ٧٣].

﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عمايشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

فمن يقول عن النصارى مثل هذه الأقوال هل يأمر أمته فى كل صلاة أن يقولوا : اهدنا طريقهم ؟ ثم يقال : أى شئ فى الآية مما يدل على قوله صراط الذين أنعمت عليهم هم النصارى .

وإنما المنعم عليهم هم الذين ذكرهم الله فى قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ﴾ ، [سورة النساء : ٦٩]

فهؤلاء الذين أمر الله عباده أن يسألوا هداية صراطهم .

وأما النصارى الذين كانوا على دين المسيح قبل النسخ والتبديل فهم من المنعم عليهم ، كما أن اليهود الذين كانوا على دين موسى قبل النسخ والتبديل كانوا من المنعم عليهم ، وأما النصارى بعد النسخ والتبديل فهم من الضالين ، لا من المنعم عليهم عند الله ورسوله كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٨] .

وعباد الأصنام من الضالين المغضوب عليهم ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : (١) « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » رواه الإمام أحمد والترمذى عن عدى بن حاتم عن النبى صلى الله عليه وسلم .وقال الترمذى : هذا

---

(١) حديث صحيح

رواه الترمذى فى كتاب « التفسير » باب « من سورة الفاتحة » (٢٨٦/٨ - ٢٨٩ ح ٤٠٢٩) وقال : وهذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب وروى شعبة عن سماك بن حرب عن عباد بن حبيشى عن عدى بن حاتم عن النبى صلى الله عليه وسلم بطولة وقد رواه أيضًا برقم (٤٠٣٠) ورواه أحمد (٣٧٨/٤)

قد حسن الألبانى رواية الترمذى الأولى ، وصحح الثانية فى صحيح سنن الترمذى (١٩/٣ : ٢٠ ح ٢٣٥٣، ٢٣٥٤) وانظر تفسير ابن كثير (٢٩/١ : ٣٠)

حديث صحيح ، وسبب ذلك أن اليهود يعرفون الحق ولا يعملون به ، والنصارى يعبدون بلا علم ، وقد وصف الله اليهود بأعمال ، والنصارى بأعمال ، فوصف اليهود بالكبر والبخل والجبن والقسوة وكتمان العلم وسلوك الغى وهو سبيل الشهوات والعدوان . وذكر عن النصارى الغلو والبدع فى العبادات والشرك والضلال واستحلال محارم الله ، فقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابًا أليمًا ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولانصيراً ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ - ١٧٣].

وقال : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] .

أى لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله لم نكتب عليهم الرهبانية ، بل هم ابتدعوها مع ابتداعهم وإياها فما رعوها حق رعايتها ، وكل بدعة ضلالة فهم مذمومون على ابتداع الرهبانية وعلى أنهم لم يرعوها حق رعايتها .

فأما ما كتب عليهم من ابتغاء رضوان الله فيحصل بفعل ما شرعه لهم من واجب ومستحب ، فإن ذلك هو الذى يرضاه ، ومن فعل ما يرضاه الله فقد فعل ما كتب عليه ، ويحصل رضوان الله أيضًا بمجرد فعل الواجبات وهذا هو الذى كتب على العباد ، فإذا لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كان ابتغاء رضوانه واجبًا ، فما ليس بواجب لا يشترط فى حصول ما كتب عليهم .

ولهذا ضعف أحمد بن حنبل وغيره الحديث المروى :(١) « أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله » فإن من صلى فى آخر الوقت كما أمر فقد فعل الواجب وبذلك يرضى الله عنه وإن كان فعل المستحبات والمسابقة إلى الطاعات أبلغ فى إرضاء الله عنه ويحصل بذلك من رضوان الله ومحبته ما لا يحصل بمجرد الواجبات .

كما قال موسى عليه السلام : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ [سورة طه : ٨٤] وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (١) « يقول الله تعالى : من عادى

---

(١) ضعيف جداً

ورواه الترمذى فى كتاب « الصلاة » باب « ما جاء في الوقت الأول من الفضل » (١/ ٥١٦، ٥١٧ح ١٧١)

وقال : هذا حديث حسن غريب وقد روى ابن عباس من النبى صلى الله عليه وسلم نحوه وفى الباب عن على وابن عمر وعائشة وابن مسعود » أ .هـ

ورواه الحاكم (١٨٩/١) نحوه

ورواه ابن عدى في « الكامل » (١٤٧/٧، ١٤٨)

ورواه البيهقى فى « السنن » (٤٣٥/١) ثم أعقبه بقوله :« قال أبو أحمد هكذا كان يقول لنا ابن حميد عن عبيد الله فى هذا الإسناد ، والصواب ما حدثناه ابن صاعد وابن أسباط على أن هذا الحديث بهذا الإسناد باطل قيل فيه عبد الله أو عبيد » أ . هـ

ورواه البيهقى فى معفة السنة والآثار (٢٨٨/٢ : ٢٨٩ ح ٢٧٤٣ ، ٢٧٤٤)وقال البيهقى عقبة : هذا الحديث يعرف بيعقوب بن الوليد المدنى ، وهو منكر الحديث ، ضعفه يحيى بن معين ، وكذبه أحمد بن حنبل وسائر الحفاظ وقد روى هذا الحديث بأسانيد كلها ضعيف . وإنما يروى عن محمد على أبو جعفرر من قوله . كذلك

رواه أبو أويس ، عن جعفر ، عن أبيه عن قوله . وقد روى من وجه آخر عن جعفر مرفوعًا مرسلاً .. ثم ساقة من رواية على انظر نصب الآية « للز يلعى (٢٤٢/١ ، ٢٤٣)

وقد ضعف الألبانى كما فى ضعيف الجامع (رقم ٦١٦٤)

وانظر إرواء الغليل للألبانى (رقم ٢٥٩)

لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء ما فترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، فلئن سألنى لأعطيته ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وماترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن قبض روح عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره ساءلته ولا بد له منه » فقوله : حتى أحبه : يريد المحبة المطلقة الكاملة .

وأما أصل المحبة : فهى حاصلة بفعل الواجبات ، فإن الله يحب المتقين والمقسطين.

وقال تعالى فيهم : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة ٣٠ - ٣١].

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا عن سواء السبيل ﴾ [سورة المائدة : ٧٧]

وهو سبحان خاطب النصارى بهذا لأن النصارى يعتمدون فى دينهم على ما يقوله كبراؤهم الذين وضعوا القوانين والنواميس ويسوغون لأكابرهم الذين صار عندهم عظماء فى الدين أن يصنعوا لهم شريعة وينسخوا بعض ما كانوا عليه قبل

= وقال عنه فى ضعيف سنن الترمذى « موضوع »

والحديث فيه علتان :

١- يعقوب بن الوليد المدنى ، وقد كذبه أحمد وغيه

٢- عبد الله بن عمر (المكبر) ضعيف .

(١) سبق تخريجه

ذلك لا يردون ما يتنازعون فيه من دينهم إلى الله ورسله بحيث لا يمكنون أحدًا من الخروج عن كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل وعن اتباع ما جاء به المسيح ، ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام .

ولهذا قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ ، [سورة المائدة : ٦٨] بل ما وضعه لهم أكابرهم من القوانين الدينية والنواميس الشرعية بعضها ينقلونه عن الأنبياء وبعضها عن الحواريين وكثير من ذلك ليس منقولا ، لا عن الأنبياء ولا عن الحواريين ، بل من وضع أكابرهم وابتداعهم ، كما ابتدعوا لهم الأمانة التى هى أصل عقيدتهم وابتدعوا لهم الصلاة إلى الشرق ، وابتدعوا لهم تحليل لحم الخنزير وسائر المحرمات ، وابتدعوا لهم الصوم وقت الربيع وجعلوه خمسين يومًا ، وابتدعوا لهم أعيادهم كعيد الصليب وغيره من الأعياد.

وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم لما سمعه يقرأ هذه الآية ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ﴾ [سورة التوبه : ٣١] فقال : لم يعبدوهم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (١) « إنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم »

ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ [سورة المائدة : ٧٧]

فأنهم يتبعون أهواء أكابرهم الذين مضوا من قبلهم أولئك ضلوا من قبل هؤلاء وأضلوا أتباعهم وهم كثيرون ، وضلوا عن سواء السبيل ، وهو وسط السبيل ، وهو الصراط المستقيم ، فإذا كانوا هم وأتباعهم ضالين عن الصراط المستقيم ، فكيف

---

(١) سبق تخريجه

يجوز أن يأمر الله عباده أن يهديهم الصراط المستقيم ، ويعنى به صراط هؤلاء الضالين المضلين ، الضالين عن سواء السبيل ، وهو الصراط المستقيم .

وقد قال سبحانه : ﴿ ولا تتبعوا أهواء ﴾ هؤلاء لأن أصل ابتداعهم هذه البدعة كان من هوى أنفسهم مع ظن كاذب ، فكانوا ممن قيل فيهم : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ، [سورة النجم : ٢٣] . وممن قيل فيه : ﴿ ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ ، [سورة القصص : ٥]

وسبب ذلك أن المسيح صلى الله عليه وسلم لما رفع إلى السماء وعاداه اليهود وعادوا أتباعه عداوة شديدة ، وبالغوا فى أذاهم وإذلالهم وطلب قتلهم ونفيهم صار فى قلوبهم من بغض اليهود ، وطلب الانتقام منهم مالا يوصف صار لهم دولة وملك مثل ما صار لهم فى دولة قسطنطين صاروا يريدون مقابلة اليهود كما جرت العادة فى مثل ذلك بين الطوائف المتقابلة المتنازعين فى الملك ، والمتنازعين فى البدع كالخوارج والروافض والجبرية مع القدرية والمعطلة مع الممثلة وكالدولتين المتنازعتين على الملك والأهواء بمنزلة قيس ويمن وأمثال ذلك إذا ظهرت طائفة على الأخرى بعدما آذتها الأخرى وانتقمت منها تريد أن تأخذ بثأرها ، ولا تقف عند حد العدل ، بل تعتدى على تلك كما اعتدت تلك عليها ، فصار النصارى يريدون مناقضة اليهود فأحلوا ما يحرمه اليهود كالخنزير وغيره ، وصاروا يمتحنون من دخل فى دينهم بأكل الخنزير فإن أكله وإلا لم يجعلوه نصرانيا .

وتركوا الختان وقالوا: إن المعمودية عوض عنه ، وصلوا إلى قبله غير قبلة اليهود ، وكان اليهود قد أسرفوا فى المسيح وزعموا أنه ولد زنا ، وأنه كذاب ساحر فغلوا هؤلاء فى تعظيم المسيح ، وقالوا : إنه الله وابن الله وأمثال ذلك ، وصار من يطلب أن يقول فيه القول العدل مثل كثير من علمائهم وعبادهم ، يجمعون لهم مجمعًا ويلعنونه فيه على وجه التعصب ، واتباع الهوى ، والغلو فيمن يعظمونه كما يجري

مثل ذلك لأهل الأهواء كالغلاة فى بعض المشايخ ، وبعض أهل البيت وبعض العلماء ، وبعض الملوك ، وبعض القبائل ، وبعض المذاهب ، وبعض الطرائق ، فإنما كان مصدر ضلالهم أهواء نفوسهم ، قال تعالى للنصارى الذين كانوا فى وقت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن بعدهم : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ . [سورة المائدة : ٧٧] وأما قولهم إن الصراط هو المذهب ، أى الطريق ، وهذه لفظة رومية لأن الطريق بالرومية اسطراطا.فيقال لهم الصراط فى لغة العرب : هو الطريق . يقال : هو الطريق الواضح ، ويقال : هو الطريق المحدود بجانبين الذى لايخرج عنه ، ومنه الصراط المنصوب على جهنم ، وهو الجسر الذى يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة وإذا عبر عليه الكفار سقطوا فى جهنم ، ويقال فيه معنى الاستواء والاعتدال الذى يوجب سرعة العبور عليه ، وفيه ثلاث لغات ، هى ثلاث قراءات : الصراط ، والسراط ، والزراط ، وهى لغة عربية عرباء ليست من المعرب ، ولا مأخوذة من لغة الروم كما زعموا .

ويقال : أصله من قولهم سرطت الشئ أسرطه سرطاً إذا ابتلعته واسترطته ابتلعته ، فإن المبتلع يجرى بسرعة فى مجرى محدود .

ومن أمثال العرب : لاتكن حلوا فتسترط ولا مراً فتعفى ، من قولهم الشئ ، إذا أزلته من فيك لمرارته ويقال فلان يسترط ما يأخذ من الدين .

وحكى يعقوب بن السكيت ، الأخذ : سريط ، والقضا : صريط ، والسرطاط : الفالوذج ، لأنه يسترط استراطا وسيف سراطى أى قاطع فإنه ماض سريع المذهب فى مضربه .

فالصراط : هو الطريق المحدود المعتدل الذى يصل سالكه إلى مطلوبه بسرعة وقد ذكر الله لفظ الصراط فى كتابه فى غير موضع ولم يسم الله سبل الشيطان سراطاً بل سماها سبلا وخص طريقه باسم الصراط ، كقوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥٣] .

وفى السنن عن عبدالله بن مسعود قال : (١) « خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، من أجابه قذفه فى النار ، ثم قرأ ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

فسمى سبحانه طريقه صراطاً ، وسمى تلك سبلا ، ولم يسمها صراطاً كما سماها سبيلاً وطريقه يسميه سبيلاً ، كما يسميه صراطاً .

وقال تعالى عن موسى وهارون : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين * وهديناهما

---

(١) « صحيح » الكبرى

رواه النسائى فى كتاب « التفسير » باب « قوله تعالى : ﴿وأن هذا صراط مستقيمًا﴾ » (٣٤٣/٦ح ١١١٧٤، ١١١٧٥)

ورواه أحمد (٤٣٥/١، ٤٦٥) ورواه البزار كما فى « كشف الأستار » (٤٩/٣ح ٢٢١٠ : ٢٢١٢)

ورواه الطبرى فى تفسيره (٦٥/٨٨)

ورواه الطيايسى (٣٢/١ح ٢٤٤) ، ورواه الحاكم (١٣١٨/٢) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وشاهده لفظًا واحداً حديث الشعبى عن جابر من وجه غير معتمد » ووافقه الذهبى .

وقال الهيثمى فى « الجمع (٢٢/٧) رواه أحمد و البزار وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعيف »

وانظر تفسير ابن كثير (١٩٠/٢: ١٩١)

وتخريج أحمد شاكر للمسند (٦ / ٨٩ : ٩٠ح ٤١٤٢) ، (ح ٤٤٣٧)

الصراط المستقيم ﴾ ، [سورة الصافات : ١١٧ ، ١١٨] وقال تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ ، [سورة الفتح : ١ - ٣] . وهذه الهداية الخاصة التى أعطاها إياها بعد فتح الحديبية أخص مما تقدم ، فإن السالك إلى الله لايزال يتقرب إليه بشئ بعد شئ ، ويزيده الله هدى بعد هدى ، وأقوم الطريق وأكملها الطريق التى بعث الله بها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ ، [سورة الإسراء : ٩] .

فصل فى القول فى بطلان التثليث

قال الحاكى عنهم : فقلت : إنهم ينكرون علينا فى قولنا ، أب وابن ، وروح قدس ، وأيضاً فى قولنا إنهم ثلاث أقانيم ، وأيضاً فى قولنا : إن المسيح رب وإله وخالق ، وأيضاً يطلبون منا إيضاح تجسد تجسم كلمة الله الخالق بإنسان مخلوق ، أجابوا قائلين : لو علموا قولنا هذا إنما نريد به القول الذى يعنى أن الله شئ حى ناطق لما أنكروا علينا ذلك لأننا معشر النصارى لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئاً غيرها أحدثها إذلايمكن حدوثها من ذواتها لما فيه من التضاد والتقلب فقلنا : إنه شئ لا كالأشياء المخلوقة إذ هو الخالق لكل شئ ، وذلك لننفى عنه العدم ، ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين : شئ حى ، وشئ غير حى ، فوصفناه بأجلهما ، فقلنا : هو شئ حى لننفى الموت عنه ، ورأينا الحى ينقسم قسمين : حى ناطق وحى غير ناطق ؛ فوصفناه بأفضلهما ، فقلنا : هو شئ حى ناطق ، لننفى الجهل عنه والثلاثة أسماء وهى إله واحد مسمى واحد ، ورب واحد ، خالق واحد شئ حى ناطق ، أى الذات والنطق والحياة ، والذات عندنا الأب الذى هو ابتداء الاثنين ، والنطق الابن الذى هو مولود منه لولادة النطق من العقل ، والحياة روح القدس وهذه أسماء لم نسم

نحن بها .

والجواب من وجوه : أحدها : قولهم : أما قولنا أب ، وابن ، وروح قدس ، فلو علموا قولنا هذا إنما نريد به تصحيح القول بأن الله حى ناطق لما أنكروا ذلك علينا ، فيقال : ليس الأمر كما ادعوه فإن النصارى يقولون : إن هذا القول تلقوه عن الإنجيل ، وإن فى الإنجيل عن المسيح صلوات الله عليه أنه قال : [عمدوا الناس باسم الأب ، والابن ، وروح القدس] ، فكان أصل قولهم هو ما يذكرونه من أنه تلقى من الشرع المنزل لا أنهم أثبتوا الحياة والنطق بعقولهم ، ثم عبروا عنها بهذه العبارات ، كما ادعوه فى مناظرتهم .

ولو كان الأمر كذلك لما احتاجوا إلى هذه العبارة ، ولا إلى جعل الأقانيم ثلاثة ، بل معلوم عندهم ، وعند سائر أهل الملل أن الله موجود حى عليم قدير متكلم لا تختص صفاته بثلاثة ، ولايعبر عن ثلاثة منها بعبارة لا تدل على ذلك ، وهو لفظ : الأب ، والابن ، وروح القدس ، فإن هذه الألفاظ لا تدل على ما فسروها به فى لغة أحد من الأمم ، ولايوجد فى كلام أحد من الأنبياء أنه عبر بهذه الألفاظ عما ذكروه من المعانى ، بل إثبات ما ادعوه من التثليث والتعبير عنه بهذه الألفاظ هو مما ابتدعوه لم يدل عليه شرع ولا عقل .

وهم يدعون أن التثليث والحلول والاتحاد إنما صاروا إليه من جهة الشرع ، وهو نصوص الأنبياء والكتب المنزلة لا من جهة العقل ، وزعموا أن الكتب الإلهية نطقت بذلك ، ثم تكلفوا لما ظنوه مدلول الكتب طريقاً عقلية ، فسروه بها تفسيراً ظنوه جائزاً فى العقل ، ولهذا نجد النصارى لايلجأون فى التثليث والاتحاد إلا إلى الشرع والكتب ، وهم يجدون نفرة عقولهم وقلوبهم عن التثليث والاتحاد والحلول فإن فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وماجعله الله فى قلوب الناس من المعارف العقلية التى قد يسمونها ناموساً عقلياً طبيعياً يدفع ذلك وينفيه وينفر عنه ، لكن يزعمون أن الكتب

الإلهيـة جاءت بذلك وأن ذلك أمـر فوق العـقل ، وأن هذا الكلام من طور وراء طور العقل فـينقلونه لظنهم أن الكتب الإلهية أخـبرت به ، لا لأن العقـول دلت عليه مع أنه ليس فى الكتب الإلـهيـة مـا يدل على ذلك ، بل فـيـها مـايدل على نقـيضـه ، كمـا سنذكره إن شاء اللـه تعالى ، ولا يميزون ما يحيله الـعقل ويبطله ويعلم أنه ممتنع وبين ما يعـجز عنه العقل فـلايعرفه ولايعلم فـيه بنفى ولا إثبات وأن الرسل أخـبرت بالنوع الثانى ولايجـوز أن تخبـر بالنوع الأول فلم يفرقـوا بين محالات العـقول ومـحارات العـقـول ، وقـد ضـاهوا فى ذلك من قـبـلهم من المشـركين الذيـن جـعلوا لله ولدا وشريكا .

قال تعـالى : ﴿ وقالت اليهـود عزير ابن الله وقالت النصـارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههـم يضاهئون قـول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ [سورة التوبة : ٣٠] وقـد ضاهاهم في ذلك أهل البدع والضلال ، والمشـبهون لهم من المنتسبين إلى الإسلام الذين يقولون بنحـو قولهم من الغلو فى الأنبياء وأهل الكتب والمشـايخ وغيرهـم ، ومن يدعى الوحـدة والحلول أو الاتحـاد الخاص المعين كـدعـوى النصارى ودعوى الغالية من الشيعة فى على وطـائفة فى أهـل البيت كالنصيرية ونحوهـم ممن يدعى إلهيـة على ، وكـدعـوى بعض الإسمـاعيليـة الإلهيـة فى الحاكم وغيره من بنى عبـدالله بن ميمـون القداح المنتسبين إلى محـمد بن إسماعيل بن جعفر .

ودعوى كثير من الناس نحو ذلك فى بعض الشيوخ إما المعروفين بالـصلاح وإما من يظن بـه الصـلاح وليـس من أهله فـإن لـهم أقـوالا من جـنس أقـوال النـصـارى ، وبعضها شر من أقوال النصارى .

وعامة هؤلاء إذا خوطبوا ببيان فساد قولهم قالوا من جنس قول النصارى : هذا أمر

فوق العقل ، ويقول بعضهم ما كان يقوله التلمسانى لشيخ أهل الوحدة يقول : ثبت عندنا فى الكشف مايناقض صريح العقل ، ويقولون لمن أراد أن يسلك سبيلهم : دع العقل والنقل ، أو اخرج عن العقل والنقل .

وينشدون فيهم :

مجانين إلا أن سر جنونهم عزيز على أقدامه يسجد العقل

هم معشر حلوا النظام وحرفوا السياج فلافرض لديهم ولانقل

وهؤلاء مقلدون لمشايخهم متبعون لهم فيما يخرجون به عن شريعة الرسول ، وما ابتدعوه مما لم يأذن به الله باتخاذ البدع عبادات واستحلال المحرمات كتقليد بعض النصارى لشيوخهم فإذا اعترضوا على أحد منهم يقولون : الشيخ يسلم له ولايعترض عليه كما يقوله النصارى لشيوخهم ، ومن هؤلاء من يقول نحن أولاد الله ، ويقول الشيخ هو ولد الله ، وينطق بلفظ الشهوة فيقول إنهم أولاد شهوة ، ويقول إنه زوج مريم كما يقول ذلك من يقوله من النصارى .

وغاية ماعندهم أنهم يحكون عن شيوخهم نوعاً من خرق العادات قد يكون كذباً ، وقد يكون صدقا ، وإذا كانت صدقاً فقد يكون من أحوال أولياء الشيطان كالسحرة والكهان وقد تكون من أحوال أولياء الرحمن وحينئذ لم يكن فى ذلك مايوجب تقليد الولى فى كل مايقوله إذ الولى لايجب أن يكون معصوما ، ولايجب اتباعه فى كل مايقوله ، ولا الإيمان بكل ما يقوله .

وإنما هذا من خصائص الأنبياء الذين يجب الإيمان بكل مايقولونه ، فيجب تصديقهم فى كل مايخبرون به من الغيب ، وطاعتهم فيما أوجبوه على الأمم ومن كفر بشئ مما جاءوا به فهو كافر ، ومن سب نبياً واحداً منهم وجب قتله ، وليس هذا لغير الأنبياء من الصالحين .

فهؤلاء المبتدعة الغلاة المشركون القائلون بنوع من الحلول هم يضاهئون النصارى بما شابهوهم فيه ، وخالفوا فيه دين المسلمين ، ومنهم من تكون موافقته لدين المسلمين أكثر ، وأما الغلاة منهم فموافقتهم للنصارى أكثر ، ومنهم من هو أكفر من النصارى ، ولما كان مستند النصارى هو ماينقلونه إما عن الأنبياء وإما عن غيرهم ممن يوجبون اتباعه ، كانوا إذا أوردوا على علمائهم مايقتضى امتناع ذلك ، قالوا هكذا فى الكتاب ، وبهذا نطق الكتاب ، وهذه الكتب جاءت بها الرسل ، يعنون المؤيدين بالمعجزات ، ويعنون بالرسل الحواريين فاعتصامهم بهم إنما هو لما ظنوه مذكوراً فى الكتب الإلهية وإن رأوه مخالفاً لصريح العقول .

ولهذا ينهون جمهورهم عن البحث والمناظرة فى ذلك لعلمهم بأن العقل الصريح متى تصور دينهم علم أنه باطل . فدعوى المدعين أنا إنما قلنا أب وابن وروح قدس لتصحيح القول بأن الله حى ناطق كذب ظاهر ، وهم يعلمون أنه كذب ، وتصحيح القول بأن الله حى متكلم ، لايقف على هذه العبارة بل يمكنه تصحيح ذلك بالأدلة الشرعية والسمعية والعقلية ، والتعبير عنه بالعبارات المبينة كما يقوله المسلمون وغيرهم بدون قولنا أب وابن وروح قدس .

ومما يبين ذلك الوجه الثانى وهو النصارى المقرون بأن هذه العبارة فى الإنجيل المأخوذ عن المسيح مختلفون فى تفسير هذا الكلام ، فكثير منهم يقول الأب هو الوجود ، والابن هو الكلمة ، وروح القدس هو الحياة .

ومنهم من يقول : بل الأب هو الوجود ، والابن هو الكلمة ، وروح القدس هو القدرة .

وبعضهم يقول : إن الأقانيم الثلاثة : جواد حكيم قادر ، فيجعل الأب هو الجواد ، والابن هو الحكيم ، وروح القدس هو القادر ، ويزعمون أن جميع الصفات تدخل

تحت هذه الثلاثة ، ويقولون : إنا استدللنا على وجوده بإخراجه الأشياء من العدم إلى الوجود ، وذلك من جوده .

وقد رأيت فى كتب النصارى هذا وهذا وهذا . ومنهم من يعبر عن الكلمة بالعلم ، فيقولون موجود حى عالم أو موجود عالم قادر ، كما يقول بعضهم ناطق ومنهم من يقول موجود حى حكيم . ومنهم من يقول قائم بنفسه حى حكيم . وهم متفقون على أن المتحد بالمسيح والحالى فيه هو أقنوم الكلمة ، وهو الذى يسمونه الابن دون الأب ، ومن أنكر الحلول والاتحاد منهم كالأريوسية يقول : إن المسيح عليه السلام عبد مرسل ، كسائر الرسل صلوات الله عليهم وسلامه فوافقهم على لفظ : الأب ، والابن ، وروح القدس، ولايفسر ذلك بما يقوله منازعوه من الحلول والاتحاد .

كما أن النسطورية يوافقونهم أيضاً على هذا اللفظ وينازعونهم فى الاتحاد الذى يقوله اليعقوبية والملكية فإذا كانوا متفقين على اللفظ متنازعين فى معناه علم أنهم صدقوا أولا باللفظ لأجل اعتقادهم مجئ الشرع به ، ثم تنازعوا بعد ذلك فى تفسير الكتاب ، كما يختلفون هم وسائر أهل الملل فى تفسير بعض الكلام الذى يعتقدون أنه منقول عن الأنبياء عليهم السلام ، وعلم بذلك أن أصل قولهم الأب ، والإبن ، وروح القدس ، لم يكن لأجل تصحيح القول بأن الله موجود حى ناطق الذى علموه أولا بالعقل .

يوضح هذا الوجه الثالث ، وهو قولهم إنا لما رأينا حدوث الأشياء ، وعلمنا أن شيئاًغيرها أحدثها ، إن كان المتكلم بها طائفة معينة من النصارى فيقال لهؤلاء : القول بالأب ، والابن ، وروح القدس ، موجود عند النصارى قبل وجودكم ، وقبل نظركم هذا واستدلالكم ، فلا يجوز أن يكون نظركم هو الموجب لقول النصارى هذا ، وإن كان المراد به أن جميع النصارى من حين قالوا هذا الكلام نظروا واستدلوا حتى قالوا ذلك فهذا كذب بين ، فإن هذا الكلام يقول النصارى إنهم تلقوه عن الإنجيل ، وأن المسيح عليه السلام قال : [عمدوا الناس باسم الأب ، والابن ، وروح

القدس] .

والمسيح والحواريون لم يأمروهم بهذا النظر الموجب لهذا القول ولاجعل المسيح هذا القول موقوفاً عندهم على هذا البحث فعلم أن جعلهم أن هذا القول ناشئاً عن هذا البحث قول باطل يعلمون هم ببطلانه .

الوجه الرابع : إن هذا القول : إن كان المسيح لم يقله فلايجوز أن يقال ، ولو عنى به الإنسان معنى صحيحاً، فإن هذه العبارة إنما يفهم منها عند الإطلاق المعانى الباطلة ، ولهذا يوجد كثير من عوام النصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله البنوة المعروفة فى المخلوقات ، ويقولون : إن مريم زوجة الله ، وهذا لازم لعامة النصارى وإن لم يقولوه فإن الذى يلد لا بدله من زوجة .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٠١] .

وجعل الرب والد المولود أنكر فى العقول من إثبات صاحبة له سواء فسرت الولادة بالولادة المعروفة أو بالولادة العقلية التى يقولها علماء النصارى ، فإن من أثبت صاحبة له يمكنه تأويل ذلك كما تأولوا هم الولد ، ويقولون : إن الأب ولدت منه الكلمة ، ومريم ولد منها الناسوت ، واتحد الناسوت باللاهوت فكما أن الأب أب بالاهوت لا بالناسوت ومريم أم للناسولا للاهوت ، فكذلك هى صاحبة للأب بالناسوت ، واللاهوت زوج مريم بلاهوته ، كما أنه أب للمسيح بلاهوته وإذا اتحد اللاهوت بناسوت المسيح مدة طويلة فلماذا يمتنع أن يجتمع اللاهوت بناسوت مريم مدة قصيرة . وإذا جعل الناسوت الذى ولدته ابناً للاهوت فلأى شئ لاتجعل هى صاحبة وزوجة للاهوت فإن المسيح عندهم اسم لمجموع اللاهوت والناسوت ، وهو عندهم إله تام وإنسان تام . فلاهوته من الله وناسوته من مريم ، فهو من أصلين : لاهوت وناسوت ، فإذا كان أحد الأصلين أباه والآخر أمه فلماذا لاتكون أمه

زوجة أبيه بهذا الاعتبار ، مع أن المصاحبة قبل النبوة ؟ فكيف يثبت الفرع الملزوم بدون ثبوت الأصل اللازم ؟

وليس فى ذلك من المحال على أصلهم إلا ما هو من جنس إثبات نبوة المسيح وأقل امتناعاً وإن كان المسيح عليه السلام قال هذا الكلام ، فقد علمنا أن المسيح عليه السلام وغيره من الأنبياء معصومون لايقولون إلا الحق ، وإذا قالوا قولا فلابد له من معنى صحيح .

ويمتنع أن يريدوا بقولهم مايمتنع بطلانه بسمع أو عقل فإذا كانت العقول ، ونصوص الكتب المتقدمة مع نصوص القرآن تناقض مابتدعته النصارى فى المسيح عُلِم أن المسيح لم يرد معنى باطلا يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول .

بل نقول فى الوجه الخامس : إن صحت هذه العبارة عن المسيح المعصوم عليه الصلاة والسلام فإنه أراد بذلك مايناسب سائر كلامه ، وفى الموجود فى كتبهم تسمية الرب أباً وتسمية عباده أبناء ، كما يذكرون أنه قال فى التوراة ليعقوب إسرائيل : [أنت ابنى بكرى] ، وقال لداود فى الزبور [أنت ابنى وحبيبي] ، وفى الإنجيل فى غير موضع يقول المسيح : [أبى وأبيكم] كقوله [إنى أذهب إلى أبى وأبيكم والهى والهكم] فيسميه أبا لهم كما يسميهم أبناء له فإن كان هذا صحيحاً فالمراد بذلك أنه الرب المربى الرحيم ، فإن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها والابن هو المربى المرحوم ، فإن تربية الله لعبده أكمل من تربية الوالدة لولدها فيكون المراد بالأب الرب ، والمراد بالابن عنده المسيح الذى رباه .

وأما روح القدس : فهى لفظة موجودة فى غير موضع من الكتب التى عندهم وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم ، بل روح القدس عندهم تحل فى إبراهيم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء والصالحين .

والقرآن قد شهد أن الله أيد المسيح بروح القدس ، كما قال تعالى : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧] فى موضعين من البقرة .

وقال تعالى : ﴿ ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٠] . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : (١) « إن روح القدس معك مادمت تنافح عن نبيه » وقال : (٢) « اللهم أيده بروح القدس » كما تقدم عن ذكر هذا كله مبسوطاً .

وروح القدس : قد يراد بها الملك المقدس كجبريل ، ويراد بها الوحى والهدى والتأييد الذى ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطة ، وقد يكونان متلازمين فإن الملك ينزل بالوحى ، والوحى ينزل به الملك ، والله يؤيد رسله بالملائكة وبالهدى كما قال تعالى عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾ فى موضعين من سورة براءة [٤٠] .

وقال الله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها ﴾ [سورة الأحزاب : ٩]

وقال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ ، [سورة الأنفال : ١٢] وقال تعالى : ﴿ لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ [سورة المجادلة : ٣٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ ،

---

(١) سبق تخريجه

(٢) سبق تخريجه

[سورة النحل : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ ، [سورة غافر : ١٥] ، وقال : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢]. وإذا كان روح القدس معروفاً فى كلام الأنبياء المتقدمين والمتأخرين أنها أمر ينزله الله على أنبيائه وصالحى عباده سواء كان ملائكة تنزل بالوحى والنصر أو وحياً وتأييداً مع الملك وبدون الملك ليس المراد بروح القدس أنها حياة الله القائمة به كأن قال : [عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس] مراده مروا الناس أن يؤمنوا بالله ونبيه الذى أرسله وبالملك الذى أنزل عليه الوحى الذي جاء به ، فيكون ذلك أمراً لهم بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وهذا هو الحق الذى يدل عليه صريح المعقول وصحيح المنقول .

فتفسير كلام المعصوم بهذا التفسير الذى يوافق سائر ألفاظ الكتب التى عندهم ويوافق القرآن والعقل أولى من تفسيره بما يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول .

وهذا تفسير ظاهر ليس فيه تكلف ، ولا هو من التأويل الذى هو صرف الكلام عن ظاهره إلى مايخالف ظاهره ، بل هو تفسير له بما يدل ظاهره عليه باللغة المعروفة والعبارة المألوفة فى خطاب المسيح وخطاب سائر الأنبياء .

وأما تفسير النصارى بأن الابن مولود قديم أزلى هو العلم أو كلمة الله فتفسير للفظ بما لم يستعمل هذا اللفظ فيه لافى كلام أحد من الأنبياء ، ولا لغة أحد من الأنبياء ، وكذلك تفسير روح القدس بحياة الله ، فالذى فسر النصارى به ظاهر كلام المسيح هو تفسير لاتدل عليه لغة المسيح وعادته فى كلامه ، ولا لغة غيره من الأنبياء والأمم ، بل المعروف فى لغته وكلامه وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسرناه ، وبذلك فسره أكابر علماء النصارى .

وأما ضلاّل النصارى المحرفون لمعانى كتب الله عز وجل ، فسروه بما يخالف معناه

الظاهر وينكره العقل والشرع .

وتمام هذا **بالوجه السادس** ، وهو أن النصارى لما كان عندهم فى الكتب تسمية المسيح عليه السلام ابناً ، وتسمية غيره من الأنبياء ابناً كقوله ليعقوب : [أنت ابنى بكرى] وتسمية الحواريين أبناء قالوا هو ابنه بالطبع وغيره ابنه بالوضع ، فجعلوا لفظ الأب مشتركاً بين معنيين وأثبتوا الله طبعاً ، جعلوا المسيح ابنه باعتبار ذلك الطبع ، وهذا يقرره قول من يفهم منهم أنه ابنه البنوة المعروفة فى المخلوقين ، وأن مريم زوجة الله ، وكذلك جعلوا روح القدس مشتركة بين حياة الله وبين روح القدس التى تنزل على الأنبياء والصالحين .

ومعلوم أن الاشتراك على خلاف الأصل ، وأن اللفظ إذا استعمل فى عدة مواضع كان جعله حقيقة مواطئاً فى القدر المشترك أولى من جعله مشتركاً اشتراكاً لفظياً بحيث يكون حقيقة فى خصوص هذا ، وخصوص هذا ، أو يكون مجازاً فى إحداهما ، فإن المجاز والاشتراك على خلاف الأصل ، هذا إن قدر أن لفظ الابن وروح القدس استعمل فى نطق الله وحياته كما يزعم النصارى ، فكيف إذا لم يوجد فى كلام الأنبياء أنهم قالوا لفظ الابن و لفظ روح القدس وأرادوا به شيئاً من صفات الله لا كلامه ولاحياته ولا علمه ولاغير ذلك ، بل لم يوجد استعمال لفظ الابن فى كلام الأنبياء إلا فى شئ مخلوق ولم يوجد استعمال روح القدس بما هو فى صفات الله القائمة به ونحن إذا فسرنا الأب وروح القدس ببنوة التربية وروح القدس بما ينزل على الأنبياء كنا قد جعلنا اللفظ مفرداً متواطئاً وهم يحتاجون أن يجعلوا اللفظ مشتركاً أو مجازاً فى أحد المعنيين ، فكان تفسيرهم مخالفاً لظاهر اللغة التى خوطبوا بها. ولظاهر الكتب التى بأيديهم ، وتفسيرنا موافقاً لظاهر لغتهم ، وظاهر الكتب التى بأيديهم وحينئذ فقد تبين أنه ليس معهم بالتثليث لاحجة سمعية ولاعقلية بل هو باطل شرعاً وعقلاً .

ويؤيد هذا **الوجه السابع** : وهو أنهم فى أمانتهم أثبتوا من المعانى ، ولفظ الأقانيم

وغير ذلك ما لاتدل عليه الكتب التى بأيديهم ألبته ، بل فهموا منها معنى باطلا ، وضموا إليه معانى باطلة من عند أنفسهم فكانوا محرفين لكتب الله فى ذلك ، مفترين على الله الكذب ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

الوجه الثامن : أن قولهم بالأقانيم مع بطلانه فى العقل والشرع لم ينطق به عندهم كتاب ، ولم يوجد هذا اللفظ فى شئ من كتب الأنبياء التى بأيديهم ولافى كلام الحواريين ، بل هى لفظة ابتدعوها ، ويقال : إنها رومية ، وقد قيل : الأقنوم فى لغتهم معناه الأصل ، ولهذا يضطرون فى تفسير الأقانيم تارة يقولون أشخاص ، وتارة خواص ، وتارة صفات ، وتارة جواهر ، وتارة يجعلوا الأقنوم اسماً للذات والصفة معاً ، وهذا تفسير حذاقهم .

الوجه التاسع : قولهم فى المسيح عليه السلام إنه خالق قول مع بطلانه فى الشرع والعقل لم ينطق به شئ من النبوات التى عندهم ، ولكن يستدلون على ذلك بما لايدل عليه كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

الوجه العاشر : قولهم فى تجسد اللاهوت أيضاً هو قول مع بطلانه فى العقل والشرع ، لايدل عليه شئ من كلام المعصوم من النبيين والمرسلين .

الوجه الحادى عشر : أنا نقول : لاريب أن الله حى عالم قادر متكلم وللمسلمين على ذلك من الدلائل العقلية التى دل الرسول عليها ، وأرشد إليها فصارت معروفة بالعقل مدلولا عليها بالشرع ماهو مبسوط فى موضعه وأنتم مع دعواكم أنكم تثبتون ذلك بالعقل ، ولم تذكروا على ذلك دليلا عقلياً .

فقولكم :لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئاً غيرها أحدثها إذ لايمكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضاد والتقلب كلام قاصر لوجوه :

أحدها : أنكم لم تروا حدوث جميع المخلوقات ، وإنما رأيتم حدوث مايشهد حدوثه كالسحاب والمطر والحيوان والنبات ونحو ذلك ، فأين دليلكم على حدوث

سائر الأشياء ؟

الثاني : أنه كان ينبغي أن تقولوا لما علم حدوث المحدثات أو حدوث المخلوقات أو حدوث ماسوى الله ونحو ذلك مما يبين المحدث ماسوى الله . فأما إطلاق حدوث جميع الأشياء فباطل ، فإن الله يسمى عندكم وعند جمهور المسلمين شيئاً من الأشياء . وهذا بخلاف قوله تعالى : ﴿ الله خالقُ كل شئ ﴾ ، [سورة الرعد : ١٦] . فإن هذا التركيب يبين أن الخالق غير المخلوق خلاف قول القائل حدوث الأشياء .

الثالث : أن العلم بالمحدث لابد له من محدث ، علم فطرى ضرورى ، ولهذا قال الله تعالى فى القرآن : ﴿ أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ﴾ ، [سورة الطور : ٣٥] قال جبير بن مطعم : (١) « لما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فى صلاة المغرب أحسست بفؤادى قد انصدع بقوله تعالى : أم خلقوا من غير خالقٍ أم هم الخالقون ؟ .

ومعلوم بالفطرة التى فطر الله عليها عباده بصريح العقل أن الحادث لايحدث إلا بمحدث أحدثه .

وإن حدوث الحادث بلامحدث أحدثه معلوم البطلان بضرورة العقل ، وهذا أمر مركوز فى بنى آدم حتى الصبيان ، لو ضرب الصبى ضربة فقال : من ضربنى ؟ فقيل : ماضربك أحد ، لم يصدق عقله أن الضربة حدثت من غير فاعل .

---

(١) « متفق عليه » رواه البخارى فى كتاب « التفسير باب « سورة الطور » (٨/٤٦٩ح ٤٨٥٤)

وقد روى طرفًا منه رقم (٧٦٥ ، ٣٠٥٠ ، ٤٠٢٣)بلفظ « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بالطور فى المغرب »

ورواه مسلم فى كتاب « الصلاة » باب« القرءة فى الصبح » (١/ ٣٣٨، ٣٣٩ح ٤٦٣)

ورواه أبو داود فى كتاب « الصلاة » باب» « قدر القراءة فى المغرب » (٣/٢٦ح ٧٩٥)

ورواه النسائى فى كتاب « الصلاة » باب « القراءة فى المغرب بالطور » (١/ ٣٣٩ح ١٠٥٩)

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الصلاة » باب « القراءة فى المغرب » (١//٢٧٢ ح ٨٣٢)

ولهذا لو جوز مجوز أن يحدث كتابة أو نساجة أو غراساً ونحو ذلك من غير محدث لذلك ، لكان عند العقلاء إما مجنونا ، وإما مُسفَسِطاً كالمنكر للعلوم والمعارف الضرورية ، وكذلك معلوم أنه لم يحدث نفسه ، فإن كان معدوماً قبل حدوثه لم يكن شيئاً فيمتنع أن يحدث غيره فضلا عن أن يحدث نفسه .

فقولكم : لم يكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضاد والتقلب تعليل باطل فإن علمنا حدوثها لم يكن من ذواتها ليس لأجل مافيها من التضاد والتقلب بل سواء كانت متماثلة أو مختلفة أو متضادة ، نحن نعلم بصريح العقل أن المحدث لايحدث نفسه ، وهذا من أظهر المعارف وأبينها للعقل ، كما تعلم أن العدم لايخلق موجوداً ، وأن المحدث للحوادث الموجودة لايكون معدوماً .

الوجه الرابع : أنكم ذكرتم حجة على أنها لم تحدث نفسها وهى حجة ضعيفة ولم تذكر حجة على أنها حدثت بلا محدث ، لا أنفسها ولاغيرها ، فإن كان امتناع كونها أحدثت نفسها محتاجاً إلى دليل ، فكذلك امتناع حدوثها بلامحدث . وإن كان معلوماً ببديهة العقل ، وهو من العلوم الضرورية فكذلك الآخر فذكر الدليل على أحدهما دون الآخر خطأ لو كنتم ذكرتم دليلاً صحيحاً ، فكيف إذا كان الدليل باطلاً ؟ ومن يكون مبلغهم من العلم بالأدلة العقلية التى يثبتون بها العلم بالصانع وصفاته هذا المبلغ ؟ ثم يريدون مع ذلك أن يثبتوا معانى عقلية ، ويزعمون أنها موافقة لفهم الباطل من الكتب الإلهية ، فهم ممن قال الله فيه : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات فى بحر لجيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحابٌ ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ، [سورة النور : ٣٩ : ٤٠) .

الوجه الثانى عشر : قولكم : فقلنا إنه شئ لا كالأشياء المخلوقة ، إذ هو الخالق لكل شئ ، لننفى عنه العدم . فيقال لهم : لاريب أن الله كما وصف نفسه بقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ ، [سورة الشورى : ١١] . وقوله : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا﴾ ، [سورة مريم : ٦٥] . أى مثلاً يستحق أن يسمى بأسمائه .

وقوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [سورة الاخلاص] وقد دل على ذلك العقل فإن المثلين اللذين يسد أحدهما مسد الآخر يجب لأحدهما مايجب للآخر ، ويمتنع عليه مايمتنع عليه ، ويجوز عليه مايجوز عليه ، فلو كان للخالق مثلٌ للزم أن يشتركا فيما يجب ، ويجوز ، ويمتنع .

والخالق يجب له الوجود والقدم ويمتنع عليه العدم فيلزم أن يكون المخلوق واجب الوجود قديماً أزلياً لم يعد قط ، وكونه محدثاً مخلوقا يستلزم أن يكون كان معدوماً ، فيلزم أن يكون موجوداً معدوماً قديماً محدثاً ، وهو جمع بين النقيضين يمتنع فى بداية العقول . وأيضاً فالمخلوق يمتنع عليه القدم ، ويجب له سابقة العدم ، فلو وجب للخالق القديم مايجب له لوجب كون الواجب القدم واجب الحدوث بعدم العدم وهذا جمع بين النقيضين ، فالعقل الصريح يجزم بأن الله ليس كمثله شئ ، والكلام على هذا مبسوط فى موضع آخر لكن أنتم لم تذكروا على هذا حجة على أنه خالق كل شئ ، إذ كان عمدتكم على ماشهدتم حدوثه ، وليس ذلك كل شئ ، ولم تذكروا حجة مع كونه خالق كل شئ على أنه ليس كمثله شئ ، بل قلتم لأننا معشر النصارى لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئاً غيرها أحدثها لما فيها من التضاد والتقلب فقلنا إنه شئ لاكالأشياء المخلوقة إذ هو الخالق لكل شئ ، وذلك لننفى العدم عنه ودليلكم لو دل على العلم بالصانع لم يدل إلا على أنه خالق ، فكيف إذا لم يدل ؟

ولاريب أن الخالق سبحانه يجب أن يكون موجوداً لامعدوماً وهذا معلوم

بالضرورة ، لايحتاج إلى دليل عند جمهور العقلاء والنظار إن كان بعضهم أثبت وجوده بالدليل النظرى لكن ليس فى دليلكم مايدل على أنه ليس كالأشياء المخلوقة ، وقولكم إذ هو الخالق لكل شئ يتضمن أنه خالق لكل ماسواه ليس فيه بيان نفى المماثلة عنه ، ولكن بينتم بهذا الكلام جهلكم بالدلائل العقلية كجهلكم بالكتب المنزلة ، وكذلك أخبر تعالى عن أهل النار أنهم يقولون : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ، ماكنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [الملك : ١٠] .

فصل فى تقسيم الأشياء

وأما قولكم : ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين : شئ حى ، وشئ غير حى ، فوصفناه بأجل القسمين فقلنا إنه حى لننفى الموت عنه ، فيقال : لاريب أن الله حى كما نطقت بذلك كتبه المنزلة التى هى آياته القولية ، ودلت على ذلك آياته كمخلوقاته ، التى هى آياته الفعلية ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ، [سورة فصلت : ٥٣] . أى القرآن حق ، وقد تقدم ذكر القرآن فى قوله : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ [فصلت : ٥٢] فالله تعالى يُرِى عباده من آياته المشاهدة والمعاينة الفعلية ، ما يبين صدق آياته المنزلة المسموعة القولية ، وقوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ ، [سورة الفرقان : ٥٨] والدلائل على حياته كثيرة منها أنه قد ثبت أنه عالم والعلم لا يقوم إلا بحى وثبت أنه قادر مختار يفعل بمشيئة ، والقادر المختار لا يكون إلا حيًا ومنها : أنه خالق الأحياء وغيره ، والخالق أكمل من المخلوق ، فكل كمال ثبت للمخلوق فهو من الخالق ، فيمتنع أن يكون المخلوق أكمل من خالقه ، وكماله أكمل منه .

والمتفلسفة القائلون بالموجب بالذات يسلمون هذا ، ويقولون كمال المعلول مستفاد من علته ، فإذا كان خالقًا للأحياء كان حيًا بطريق الأولَى والأحْرَى

ومنها أن الحى أكمل من غير الحى ، كما قال تعالى : ﴿ وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٢]

فلو كان الخالق غير حى لزم أن يكون المحدث المخلوق أكمل من الواجب القديم الخالق ، فيكون أنقص الموجودين أكمل من أكملهما

وهذا الوجه يتناول ما ذكروه من الدليل ، وإن كانوا لم يبينوا بيانًا تامًا ، لكن قولهم : قلنا إنه حى لننفى الموت عنه كلام مستدرك ، فإن الله موصوف بصفات الكمال الثبوتية كالحياة والعلم والقدرة ، فيلزم من ثبوتها سلب صفات النقص ، وهو سبحانه لا يمدح بالصفات السلبية إلا لتضمنها المعانى الثبوتية ، فإن العدم المحض والسلب الصرف لا مدح فيه ولا كمال ، إذ كان المعدوم يوصف بالمعدم المحض والعدم نفى محض لا كمال فيه ، وإنما الكمال الموجود .

ولهذا جاء كتاب الله على هذا الوجه فيصف سبحانه نفسه بالصفات الثبوتية صفات الكمال وبصفات السلب المتضمنة للثبوت ، كقوله ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] فنفى أخذ السنة والنوم يتضمن كمال حياته وقيومته إذ النوم أخو الموت ، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون مع كمال الراحة ، كما لا يموتون .

والقيوم : القائم المقيم لما سواه فلو جعلت له سنة أو نوم لنقصت حياته وقيوميته ، فلم يكن قائمًا ولا قيومًا ، كما ضرب الله المثل لبنى إسرائيل ، لما سألوا موسى :هل ينام ربك ؟ فأرقه ثلاثة ، ثم أعطاه قوارير فأخذه النوم فتكسرت .

بين بهذا المثل أن خالق العالم لو نام لنفذ العالم ، ثم قال تعالى : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [سورة البقرة :٢٥٥] .

فإنكاره ونفيه أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه يتضمن كمال ملكه لما فى السموات وما فى الأرض وأنه ليس له شريك ، فإن من شفع عنده غيره بغير إذنه وقبل شفاعته

كان مشاركًا له ، إذ صارت شفاعته سببًا لتحريك المشفوع إليه ، بخلاف من لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فإنه منفرد بالملك ليس له شريك بوجه من الوجوه .

ثم قال تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] فنفى أن يعلم أحد شيئًا من علمه إلا بمشيئته ليس إلا أنه منفرد بالتعليم ، فهو العالم بالمعلومات ، ولا يعلم أحد شيئًا إلا بتعليمه ، كما قالت الملائكة : ﴿ لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾، [سورة البقرة: ٣٢]. ثم قال تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥].

أى لا يكثره ولا يثقل عليه فبين بذلك كمال قدرته ، وإنه لا يلحقه أدنى مشقة ، ولا أيسر كلفه فى حفظ المخلوقات . كما قال تعالى فى الآية الأخرى :﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ ،[سورة ق : ٣٨]

بين بذلك كمال قدرته وأنه لا يلحقه اللغوب فى الأعمال العظيمة مثل خلقه لسموات والأرض ، كما يلحق المخلوق اللغوب إذا عمل عملاً عظيمًا ، واللغوب :الانقطاع والإعياء ، وهذا باب واسع مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه موصوف بصفات الكمال التى يستحقها بذاته ويمتنع اتصافه بنقائضها وإذا وصف باللغوب ، فالمقصود هو إثبات الكمال . وهؤلاء قالوا : قد وصفناه بالحياة لننفى عنه الموت ، كما قالوا : هو شئ لننفى العدم عنه ، والحياة صفة كمال يستحقها بذاته ، والموت مناقض لها ، فلم يوصف بالحياة لأجل نفى الموت ، بل وصفه بالحياة يستلزم نفى الموت فينفى عنه الموت ، لأنه حى لا يثبت له الحياة لنفى الموت ، وكذلك لتثبت له أنه شئ موجود .

وذلك يستلزم نفى العدم عنه ، لا أن إثبات وجوده لأجل نفى العدم بل نفى العدم عنه لأجل وجوده ، كما أن الموت نفى الموت عنه لأجل حياته ، وكذلك قولهم : قولنا : إنه شئ لا كالأشياء المخلوقة وذلك لنفى العدم عنه ، لكن كان مرادهم ، والله

أعلم ، وإن كانت عبارتهم قاصرة على إثبات الوجود ، ونفى العدم ، وإثبات الحياة ونفى الموت .

فصل فى رد دعوى النصارى أن الحى قسمين

ثم قالوا : ورأينا الحى ينقسم قسمين : حيًا ناطقًا ، وحيًا غير ناطق فوصفناه بأفضل الوصفين فقلنا : إنه ناطق لننفى الجهل عنه فيقال لهم : لا ريب أن الرب سبحانه موصوف بأنه حى عليم قدير متكلم مختار، لكن قولهم : فقلنا إنه ناطق لننفى الجهل عنه يقتضى أنكم أردتم النطق المناقض للجهل ، وهذا هو العلم فإن العلم يناقض الجهل لم تريدوا بذلك النطق الذى هو العبارة والبيان ، ولم يريدوا بذلك ما جعله بعض النظار كلامًا ، وهى معانى قائمة بالنفس ليست من جنس العلوم ، ولا من جنس الإرادات ، وحينئذ فيقال لكم : ليس فى الأحياء إلا ما هو شاعر ، فكل حى فله شعور بحبسه .

وكلما قويت الحياة قوى شعورها ، وشعور الحيوان قد يعبر عنه بلفظ العلم ، كما يقول الناس : علم الفهد والبازى والكلب ، ويقال : كلب معلم وغير معلم وبازى معلم .

وقال تعالى : ﴿ وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ﴾ [سورة المائدة : ٤]

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : (١) « إذا أرسلت كلبك المعلم ، وذكرت اسم

---

(١) متفق عليه «

رواه البخارى فى كتاب « الصيد » باب «الصيد إذا غاب عنه يومين أو ثلاثة» (٩/٥٢٥ح ٥٤٨٤)

ورواه أيضًا برقم (٥٤٨٦)

ورواه مسلم فى كتاب « الصيد » باب » الصيد بالكلاب المعلمة » (٣/١٥٢٩ح١٩٢٩)

ورواه أبو داود فى كتاب « الصيد » باب « فى الصيد » (٨/٥٠، ٥١ ح ٢٨٣١)

ورواه الصيد فيجده ميتا فى الماء (٥/٤٢ ح ١٤٩٦)

ورواه النسائى فى كتاب « الصيد » باب « وصيد الكلب » (٢/١٠٧٠ ح ٣٢٠٨)

الله فقتل فكل ». لا ريب أن العلم صفة كمال ، فالعالم أكمل من الجاهل والدلائل الدالة على علم الله كثيرة مثل إنه سبحانه خالق كل شئ بإرادته

والإرادة تستلزم تصور المراد فلا بد أن يعلم المخلوقات قبل أن يخلقها .

وكلما وجد في الخارج فهو موجود وجوداً معيناً يمتاز به عن غيره فإذا خلقها كذلك فلا بد أن يعلمها علماً مفصلا يمتاز به كل معلوم عما سواه ، ولو قدر أنه علمها على وجه كلى فقط ، لم يكن علم منها شيئًا لأن الكلى إنما يكون كليًا فى الأذهان . وأما ما هو موجود فى الخارج فهو معين مختص بعينه ليس بكلى .

وكل واحد من الأفلاك معين فلو لم يعلم إلا الكليات لم يكن عالمًا بشئ من الموجودات وقد بسط فى غير هذا الموضع تمام الكلام على هذا ، وبين فساد شبه نفاق ذلك مما ادعوه من لزوم التغيير أو التكثير وبين أنه لا يلزم من ثبوت علم الله بالأشياء كلها على وجه التفصيل محذور ينفيه دليل صحيح .

فإن التكثر فيما يقوم به من المعانى هو مدلول الأدلة العقلية والسمعية فإنه عالم قادر حى ، وليس العلم هو القدرة ، ولا القدرة هى الحياة ولا الصفة هى الموصوف ، ومن جعل كل صفة هى الأخرى ، وجعل الصفات هو الموصوف ، فهو قول فى غاية السفسطة .

وأيضًا فإنه خالق العالمين من الملائكة والجن والإنس ، وجاعلهم علماء فيمتنع أن يجعل غيره عالمًا من ليس هو فى نفسه بعالم ، فإن العلم صفة كمال ، ومن يعلم أكمل ممن لا يعلم ، وكل كمال للمخلوق فهو من الخالق فيتمنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق ، وأيضًا فإن من الممكنات المحدثة المخلوقة ما هو عالم والواجب القديم الخال أكمل من الممكن المحدث فيمتنع أن يتصف بالكمال الموجود الناقص الخسيس دون الموجود الكامل الشريف . وهذا يتناول معنى حجتهم .

وأيضًا فإنه حى ، والحياة مستلزمة لجنس العلم وإذا كانت حياته أكمل من كل

حياة فعلمه أكمل من كل علم ، لكن يقال لكم : كما أنه حى عالم فهو أيضًا قادر ، فيما ذكرتم بأن الموجودات أو الأحياء تنقسم إلى قادر وغير قادر فيجب أن يوصف بأجل القسمين ، وهو القدرة .

لا سيما ودلائل كونه قادراً أظهر من دلائل كونه عالمًا ، فإن نفس كونه خالقًا فاعلا يستلزم كونه قادراً فإن الفعل بدون القدرة ممتنع حتى إذا قيل : إن الجماد يفعل فإنما يفعل بقوة فيه كالقوى الطبيعية التى فى الأجسام الطبيعية فيمتنع فى خالق العالم أن لا يكون له قوة ، ولا قدرة ، قال تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [سورة الذاريات : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ ، [سورة فصلت : ١٥] .

وفى صحيح البخارى حديث الاستخارة : (١) « اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب » .

وكثير من نظار المسلمين المصنفين فى أصول الدين الذين يقيمون الدليل على كونه قادراً قبل كونه عالمًا وحيًا .

ويقول العلم بذلك أسبق فى السلوك الاستدلالى النظرى لدلالة الأحداث والفعل

---

(١) صحيح
رواه البخارى فى كتاب « التهجد » باب« ما جاء فى التطوع مثنى مثنى » (٥٨/٣ح ١١٦٦)
ورواه أيضًا برقم (٦٣٨٢ ، ٧٣٩٠)
ورواه أبو داود فى كتاب « الصلاة » باب « الاستخارة » (٣٩٦/٤ - ٣٩٨ ح ١٥٢٤)
ورواه الترمذى فى كتاب « الوتر » باب« ما جاء فى الصلاة الاستخارة » (٥٩١/٢ ٥٩٣ ح ٤٧٨)
ورواه النسائى فى كتاب « النكاح » باب «كيفية الاستخارة» (٨٠/٦ ، ٨١)
ورواه ابن ماجة فى كتاب « الإقامة » باب « ما جاء فى صلاة الاستخارة » (٤٤٠/١ ح ١٣٨٣)

على قدرة المحدث الفاعل فيجب أن يثبتوا له صفة القدرة مع العلم .

وكذلك يقولون : إن الحى لما كان ينقسم إلى سميع ، وغير سميع ، وبصير وغير بصير وصفناه بأشرف القسمين ، وهو السميع البصير .

وكذلك فى النطق إذا أريد بـه البيان والعبارة ، ولم يرد به مجـرد العلم ، أو معنى من جنس العلم فإن الحى ينقسم إلى متكلم ، ومبين معبر عمـا فى نفسـه ، وإلى ما ليس كذلك ، فيجب أن تصفوه بأشرف القسمين ، وهو الكلام المبين المعبر عما فى النفس من المعانى

ومما يستدل به على ثبوت جميع صفات الكمال أنه لو لم يوصف بكونـه حيًا عالمًا قادرًا سميعًا بصيرًا متكلمًا لوصف بضد ذلك كالموت والجهل والعجز والصمم والبكم والخرس . ومعلوم وجوب تقدسه عن هذه النقائص ، بل هذا معلوم بالضرورة العقلية ، فإنه أكمل الموجودات وأجلها وأعظمها ، ورب كل ما سواه وخالقه ومالكه وجاعل كل ما سواه حيًا عـالمًا قادرًا سميعًا بصيرًا متكلمًا فيمتنع أن يكون هو شيئًا عـاجزًا جـاهلا أصم أبكم أخـرس ، بل من المعلوم بضـرورة العقـل أن المتصف بهـذه النقائص يمتنع أن يكون فاعلا فضلا عن أن يكون خالقًا لكل شئ .

ولبعض الملاحدة من المتفلسـفة اتبـعهم هنا سـؤال مشهـور وهو أنه إنما يلزم إذا لم يتصف بالكمال أن يوصف بأضدادها، فأما إذا لم يكن قابلا لها لم يلزم .

وقالوا : وهذه الصفـات متقابلة العـدم والملكة ، وهو عدم الشئ عمـا من شأنه أن يكون قابلا له كعدم الحياة والسمع والبصر .

والكلام من الحيوان الذى هو القابل له فإذا لم يكن قـابلا له كالجماد فلا يسمى مع عدم الحياة والسمع والبصر والكلام ميتًا ولا أصم ولا أعمى ولا أخرس .

وجواب ذلك من أوجه :

أحدها : أنه أن يكون قابلا للاتصاف بصفات الكمال ، وإما أن لا يكون .

فإن لم يكن قابلا لزم أن يكون أنقص ممن قبلها ، ولم يتصف بها ، فالجماد أنقص من الحيوان الذى لم يتصف بعد بصفات كماله . وإن كان قابلا لها لزم - إذا عدمها - أن يتصف بأضدادها .

وهؤلاء قد يقولون فى إثباتها تشبيه له بالحيوان . فيقال لهم : وفى نفيها تشبيه له بالجمادالذى هو أنقص من الحيوان ، فإذا لم يكن فى نفيها تشبيه له بالجماد ، فكذلك لا يكون فى إثباتها تشبيه له بالحيوان ، وإن كان فى ذلك تشبيه بالحيوان فهو محذورفالمحذور فى تشبيه بالجماد أعظم ، وإن لم يكن مثل هذا التشبيه محذوراً فى ذلك ، فإن لا يكون محذوراً فى هذا بطريق الأولى .

الوجه الثانى : أن جعلهم سلب الموت والصمم والبكم على الجماد ، ولزعمهم إنه غير قابل لها اصطلاح محض ، فإنه موجود فى كلام الله تسمية الجماد ميتًا ،كما قال تعالى فى الأصنام :﴿أموات غير أحياء﴾ [سورة النحل : ٢١] .

الوجه الثالث : أنه يكفى عدم هذه الصفات ، فإن مجرد عدم الحياةوالعلم والقدرة صفة نقص سواء قدر الموصوف قابلا لها أو غير قابل ، بل إذا قدر أنه غير قابل لها كان ذلك أبلغ فى النقص.

فعلم أن نفى هذه الصفات عنه ، ونفى قبولها يوجب أن يكون أنقص من الحيوان الأعمى الأصم الذى يقبلها ، وإن لم يتصف بها .

الوجه الرابع : أن الكمال فى الوجود ، والنقص فى العدم ، فنفس ثبوت هذه الصفات كمال ونفس نفيها نقص وإن لم يتصف بها لزم نقصه ، وأن يكون المفعول أكمل من الفاعل ، وإن يكون المحدث الممكن أكمل من القديم الأزلى الواجب الوجود الخالق ، وهذا ممتنع فى بداية المقول ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع ، ولكن نبهنا عليها هنا لبيان بعض الطرق التى بها تعرف صفات الرب ، وبيان أن

هؤلاء القوم من أجهل أهل الملل بالرب .

والطريق التى يعرف بها كماله فى العقلية والسمعية وأن القوم عندهم من ألفاظ الأنبياء ما لم يفهموا كثيراً منه وما حرفوه كثيراً منه ، وعندهم من المعقول فى ذلك ما يفضلهم اليهود فيه ، ولكن اليهود ، وإن كانوا أعظم منهم ، فهم أعظم عناداً وجهداً للحق والنصارى أجهل وأضل من اليهود ، ولكن هم أعبد وأزهد وأحسن أخلاقًا ، ولهذا كانوا أقرب مودة للذين آمنوا من المشركين .

فصل فى بطلان كون الثلاثة إله واحد

فقالوا : والثلاثة أسماء فهى إله واحد ورب واحد ، وخالق واحد ومسمى واحد لم يزل ولا يزال شيئًا حيًا ناطقًا ، أى الذات ، والنطق، والحياة .

فالذات عندنا : الأب الذى هو ابتداء الاثنين .

والنطق : الابن الذى هو مولودمنه كولادة النطق من العقل .

والحياة : هى الروح القدس .

والجواب عن هذا من وجوه :

الأول : أن أسماء الله تعالى متعددة كثيرة ، فإنه ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ، [سورة الحشر : ٢٢ - ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٨٠].

﴿ قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ ، [سورة

الإسراء : ١١٠].

وقال تعالى : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى * الرحمن على العرش استوى * له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ ، [سورة طه : ١ ـ ٨].

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (١) « إن لله تسعة وتسعين إسماً من أحصاها دخل الجنة »

وهذا معناه في أشهر قول العلماء وأصحهما أن من أسمائه تعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة ، و إلا فأسماؤه تبارك وتعالى أكثر من ذلك ، كما في الحديث الآخر الذي رواه أحمد في مسنده ، وأبو حاتم في صحيحه ، عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (٢) « ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال :

---

(١) « صحيح » رواه أحمد (٣٩١/١ ، ٤٥٢) ، ورواه أبو يعلى في مسنده (١٩٨/٩ ، ١٩٩ ح٥٢٩٧٧) ، ورواه الطبراني في « الكبير» (٢٠٩/١٠ ، ٢١٠ ح١٠٣٥٢) .

ورواه البزار كما في « كشف الأستار » (٣١/٤ ح٣١٢٢)

ورواه ابن حبان كما في « الإحسان » (٢٥٣/٣ ح٩٧٢)

وقال الهيثمي في « المجمع » (١٣٦/١٠) : ورواه أحمد وأبو يعلى والبزار إلا أنه قال : وذهاب غمي مكان همي ، والطبراني ، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثق ابن حبان » أهـ

وللمزيد انظر السلسلة الصحيحة للألباني (١٣٩/١ : ١٤٢ ح٩٩)

(٢) « متفق عليه »

رواه البخاري في كتاب « الشروط » باب « ما يجوز من الاشتراط ..» (٤١٧/٥ ح٢٧٣٦)

ورواه أيضاً برقم (٦٤١٠ ، ٧٣٩٢)

ورواه مسلم في كتاب « الذكر والدعاء » باب « في أسماء الله تعالى .. » (٢٠٦٢/٤ ، ٢٠٦٣ ح٢٦٧٧)

ورواه الترمذي في كتاب « الدعوات » باب (٨٦) (٤٨٠/٩ ، ٤٨١ ح٣٥٧٣) ورواه أيضاً =

برقم (٣٥٧٥)

اللهم إنى عبدك ابن عبدك إبن أمتك ، ناصيتى بيدك ، وماض فى حكمك ، عدل فى قضائك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدل مكانه فرحًا ، قالوا : يا رسول الله ، أفلا نتعلمهن ، قال : بلى ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن » .

وإذا كانت أسماء الله كثيرة كالعزيز والقدير وغيرها فالاقتصار على ثلاثة أسماء دون غيرها باطل ، وأى شئ زعم الزاعم فى اختصاص هذه الأسماء دون غيرها ، فهو باطل ، كما قد بسط فى موضع آخر .

الوجه الثانى: قولهم الأب الذى هو ابتداء الاثنين ، والابن : النطق الذى هو مولود منه ، كولادة النطقق من العقل كلام باطل ، فإن صفات الكمال لازمة لذات الرب عز وجل أولاً وآخراً ، لم يزل ولا يزال حيًا عالمًا قادراً . لم يصر حيًا بعد أن لم يكن حيًا ، ولا عالمًا بعد أن لم يكن عالمًا.

فإذا قالوا : إن الأب الذى هو الذات هو ابتداء الحياء والنطق ، واقتضى ذلك أن يكون الأب قبل الحياة ، والنطق ، فإن ما كان ابتداء لغيره يكون متقدمًا عليه أو فاعلا له وهذا فى حق الله باطل .

وكذلك قولهم : إن النطق مولود منه كولادة النطق من العقل ، فإن المولود من غيره متولد منه ، فيحدث بعد أن لم يكن ، كما يحدث النطق شيئًا فشيئًا ، سواءأريد

=ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « النعوت » باب قوله تعالى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (٣٩٣/٤ح٧٦٥٩)

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الدعاء » باب « أسماء الله عز وجل » (١٢٦٩/٢ح٣٨٦٠)

بالنطق العلم أو البيان فكلاهما لم يكن لازمًا للنفس الناطقة ، بل حدث فيها واتصفت به بعد أن لم يكن ، وإن كانت قابلة له ناطقةله بالقوة فإذا مثلوا قوله النطق من الرب كتولده عن العقل لزم أن يكون الرب كان ناطقًا بالقوة ، ثم صار ناطقًا بالفعل فيلزم أنه صار عالمًا بعد أن لم يكن عالمًا ، وهذا من أعظم الكفر وأشده استحالة أنه لا شئ غيره لجعله متصفًا بصفات الكمال بعد أن لم يكن متصفًا بها ، إذ كل ما سواه فهو مخلوق له وكماله منه ، فيمتنع أن يكون هو جاعل الرب سبحانه وتعالى كاملا .

وذلك دور ممتنع فى صريح العقل . إذ كان الشئ لا يجعل غيره متصفًا بصفات الكمال ، حتى يكون هو متصفًا بها ، فإذا لم يتصف بها حتى جعله غيره متصفًا بها ، لزم الدور الممتنع مثل كون كل من الشيئين فاعلا للآخر وعلة له أو لبعض صفاته المشروطة فى الفعل فتبين بطلان كون نطقه متولدًا منه ؛ كتولد النطق من العقل ، كما بطل أن يكون لصفاته اللازمة له ما هو مبدأ لها متقدم عليها أو فاعل لها .

الوجه الثالث: أن قولهم فى الابن أنه مولود من الله إن أردوا به أنه صفة لازمة له فكذلك الحياة صفة لازمة لله ، فيكون روح القدس أيضًا ابنًا ثانيًا ، وإن أرا دوا به أنه حصل منه ، بعد أن لم يكن فيلزم أن يكون عالما بعد أن لم يكن عالمًا ، وهذا مع كونه باطلاً وكفرًا فيلزم مثله فى الحياة وهو أنه صار حيًا بعد أن لم يكن حيًا .

الوجه الرابع : أن تسميته حياة الله روح القدس أمر لم ينطق به شئ من كتب الله المنزلة ، فإطلاق روح القدس على حياة الله من تبديلهم وتحريفهم .

الوجه الخامس : أنهم يدعون أن المتحد بالمسيح هو الكلمة الذى هو العلم ، وهذا إن أرادوا به نفس الذات العالمة الناطقة كان المسيح هو الأب ؛ وكان المسيح نفسه هو الأب، وهو الابن ، وهو روح القدس ، وهذا عندهم وعند جميع الناس

باطل وكفر .

وإن قالوا : المتحد به هو العلم ، فالعلم صفة لاتفارق العالم ، ولا تفارق الصفة الأخرى التى هى حياة فيمتنع أن يتحد به العلم دون الذات ، دون الحياة .

الوجه السادس : أن العلم أيضًا صفة والصفة لا تخلق ولا ترزق والمسيح نفسه ليس هو صفة قائمة بغيرها باتفاق العقلاء وأيضًا فهو عندهم خالق السموات والأرض فامتنع أن يكون المتحد به صفة ، فإن الإله المعبود هو الإله الحى العالم القادر ، وليس هو نفس الحياة ، ولا نفس العلم والكلام .

فلو قال قائل : يا حياة الله ، أو يا علم الله ، أو يا كلام الله ، اغفرلى ، وارحمنى واهدنى كان هذا باطلا فى صريح العقل ، ولهذا لم يجوز أحد من أهل الملل أن يقال للتوراة أو الإنجيل وغير ذلك من كلام الله اغفر لى وارحمنى ، وإنما يقول للإله المتكلم بهذا الكلام : اغفرلى وارحمنى .

والمسيح عليه السلام عندكم هو الإله الخالق الذى يقال له اغفرلنا وارحمنا فلو كان هو نفس علم الله ، وكلامه لم يجز أن يكون إلهًا معبودًا فكيف إذا لم يكن هو نفس علم الله وكلامه ، بل هو مخلوق بكلامه ، حيث قال له : كن فيكون ؟.

فتبين من ذلك أن كلمات الله كثيرة لانهاية لها وفى الكتب الإلهية كالتوراة أنه خلق الأشياء بكلامه ، وكان فى أول التوراة أنه قال : ليكن كذا ليكن كذا .

ومعلوم أن المسيح ليس هو كلمات كثيرة بل غايته أن يكون كلمة واحدة إذ هو المخلوق بكلمة من كلمات الله عز وجل .

الوجه السابع : أن أمانتكم التى وضعها أكابركم بحضرة « قسطنطين » ، وهى

عقيدة إيمانكم التى جعلتموها أصل دينكم تناقض ماتدعونه من أن الإله واحد ، وتبين أنكم تقولون لمن يناظركم خلاف ماتعتقدون .

وهذان أمران معروفان فى دينكم تناقُضكم وإظهاركم فى المناظرة خلاف ما تقولونه من أصل إيمانكم ، فإن « الأمانه » التى اتفق عليها جماهير النصارى يقولون فيها : [نؤمن بإله واحد ، أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل مايرى ومالايرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساوٍ للأب فى الجوهر الذى به كان كل شئ ، الذى - من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسدَ من روح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب وتألم وقبر ، وقام فى اليوم الثالث على مافى الكتب المقدسة ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب .

وأيضاً سيأتى بمجده ليدين الأحياء والأموات الذى لافناء لملكه وبروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب الذي هو مع الأب وابن المسجود له ، وبمجد ناطق من الأنبياء ، كنيسة واحدة جامعة رسولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وابن جاء لقيامة الموتى ، وحياة الدهر العبيد ، كونه أمين] .

ففى هذه الأمانة التى جعلتموها أصل دينكم ذكر الإيمان بثلاثة أشياء : بإله واحد خالق السموات والأرض ، خالق مايرى ومالايرى ، فهذا هو رب العالمين الذى لا إله غيره ، ولارب سواه ، وهو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء والمرسلين وهو الذى دعت جميع الرسل إلى عبادته وحده لاشريك له ونهوا أن يعبد غيره ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٥] : وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

ثم قلتم : [وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل

الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه مولود غير مخلوق ، مساو الأب فى الجوهر] . فصرحتم بالإيمان مع خالق السموات والأرض برب واحد مخلوق ، مساو الأب ابن الله الوحيد ، وقلتم [هو إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه] .

وهذا تصريح بالإيمان بإلهين أحدهما من الآخر وعلم الله القائم به أو كلامه أو حكمته القائمة به الذى سميتموه ابناً ، ولم يسم أحد من الرسل لصفة الله ابناً ليس هو إله حق من إله حق ، بل إله واحد ، وهذه صفة الإله ، وصفة الإله ليست بإله كما أن قدرته وسمعه وبصره وسائر صفاته ليست بآلهة ، ولأن الإله واحد ، وصفاته متعددة . والإله : ذات متصفة بالصفات قائمة بنفسها ، والصفة قائمة بالموصوف ، ولأنكم سميتم الإله جوهراً ، وقلتم : هو القائم بنفسه .

والصفة ليست جوهراً قائماً بنفسه ، وهم فى هذه الأمانة قد جعلوا الله والداً وهو الأب ، ومولوداً وهو الابن ، وجعلوه مساوياً له فى الجوهر، وقد نزه الله نفسه عن الأنواع الثلاثة ، فقالوا : مولود غير مخلوق مساو الأب فى الجوهر ، فصرحو بأنه مساوٍ فى الجوهر ، والمساوى ليس هو المساوى .

ولايساوى الأب فى الجوهر إلا جوهر ، فوجب أن يكون الأب جوهراً ثانياً . وروح القدس جوهراً ثالثاً كما سيأتى .

وهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر ، وثلاثة آلهة ، ويقولون مع ذلك : إنما نثبت جوهراً واحداً وإلهاً واحداً ، وهذا جمع بين النقيضين ، فهو حقيقة قولهم يجمعون بين جعل الآلهة واحداً ، وإثبات ثلاثة آلهة وبين إثبات جوهرا واحد ، وبين إثبات ثلاثة جواهر ، وقد نزه الله نفسه عن ذلك بقوله ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾ فنزه نفسه أن يلد كما يقولون هو الأب وأن يلد كما يقولون هو الابن وأن يكن له كفواً أحد

كما يقولون : إن له من يساويه فى الجوهـــر ، وإذا قلتم نحن نقول أَحَدِىُّ الذات

وثلاثي الصفات ، قيل لكم : قد صرحتم بإثبات إله الحق ، من إله حق وأنه مساو للأب في الجوهر ، وهذا تصريح بإثبات جوهر ثاني لابصفة فجمعتم بين القولين ، بين إثبات ثلاثة جواهر ، وبين دعوى إثبات جوهر واحد ، ولاينجيكم عن هذا اعتذار من اعتذر منكم كيحيى بن عدي ونحوه ، حيث قالوا هذا بمنزلة قولك : زيد الطبيب الحاسب الكاتب . ثم تقول : زيد الطبيب وزيد الحاسب وزيد الكاتب .

فهو مع كل صفة له حكم خلاف حكمه مع الصفة الأخرى ، وقد يفسرون الأقنوم بهذا ، فيقولون الأقنوم هو الذات مع الصفة ، فالذات مع كل صفة أقنوم ، فصار الأقانيم ثلاثة لأن هذا المثال لايطابق قولكم ، فإن زيداً هنا هو جوهر واحد له صفات : الطب ، والحساب ، والكتابة ، وليس هنا ثلاثة جواهر ، ولكن لكل صفة حكم ليس للأخرى .

ولا يقول عاقل : إن الصفة مساوية للموصوف في الجوهر ، ولا إن الذات مع هذه الصفة تساوي الذات مع الصفة الأخرى في الجوهر ، لأن الذات واحدة والمساوي ليس هو المساوي ، ولأن الذات مع الصفة هي الأب فإن كان هذا هو الذي اتحد بالمسيح فالمتحد به هو الأب ، ولأنكم قلتم عن هذا الذي قلتم : [إنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه الذي هو مساو الأب في الجوهر الذي نزل ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب وتألم] اقتضى ذلك أن يكون الإله الحق المساوي للأب في الجوهر صلب وتألم ، فيكون اللاهوت مصلوباً متألماً ، وهذا تقرُّ به طوائف منكم ، وطوائف تنكره ، لكن مقتضى أمانتكم هو الأول .

وأيضاً فإذا كان تجسد من روح القدس ومريم ، فإذا كان روح القدس هو حياة الله ، كما زعمتم فيكون المسيح كلمة الله وحياته فيكون لاهوته أقنومين من الأقانيم الثلاثة ، وعندهم إنما هو أقنوم الكلمة فقط ، وإن كان روح القدس ليس هو حياة الله بطل تفسيركم لروح القدس فإنه حياة الله .

وقيل لكم : لايجب أن يكون روح القدس صفة الله ولاأقنوماً ، ثم ذكرتم فى عقيدة أمانتكم أنكم تؤمنون بروح القدس الرب المحيى ، فأثبتم رباً ثالثاً قلتم : المنبثق من الأب . والإنبثاق : الإنفجار . كالاندفاق والإنصباب ونحو ذلك يقال : . بثق السيل موضع كذا ، يثقه بثقاً أى خرقه وشقه فانبثق أى انفجر ، فاقتضى ذلك أن يكون هذا الرب المحيى انفجر من الأب واندفق منه .

ثم قلتم : [هو الأب مسجود له وممجد ناطق فى الأنبياء] فجعلتموه مع الأب مسجوداً له فأثبتم إلهاً ثالثاً يسجد له .

ومعلوم أن حياة الله هى التى صفته ليست منبثقة منه ، بل هى قائمة به لاتخرج عنه ألبته ، وهى صفة لازمة له لاتتعلق بغيره ، فإن العلم يتعلق بالمعلومات ، والقدرة بالمقدورات والتكليم بالمخاطبين بخلاف التكلم فإنه صفة لازمة ، يقال علم الله كذا ، وقدر الله على كل شئ ، وكلم الله موسى .

وأما الحياة : فاللفظ الدال عليها لازم لايتعلق بغير الحى ، يقال :حيا يحيا حياة ولايقال حيا كذا ولابكذا . وإنما يقال : أحيا كذا . والإحياء فعل غير كونه حياً ؛ كما أن التعليم غير العلم . والأقدار غير القدرة والتكليم غير التكلم . ثم جعلتم روح القدس هذا ناطقاً فى الأنبياء عليهم السلام ، وحياة الله صفة قائمة به لاتحل فى غيره وروح القدس الذى تكون فى الأنبياء والصالحين ليس هو حياة الله القائمة به ؛ ولو كان روح القدس الذى فى الأنبياء هو أحد الأقانيم الثلاثة لكان كل من الأنبياء إلهاً معبوداً قد اتحد ناسوته باللاهوت كالمسيح عندكم ؛ فإن المسيح لما اتحد به أحد الأقانيم صار ناسوتا ولاهوتاً ؛ فإذا كان روح القدس الذى هو أحد الأقانيم الثلاثة ناطقاً فى الأنبياء كان كل منهم فيه لاهوت وناسوت كالمسيح ؛ وأنتم لاتقرون بالحلول والاتحاد إلا للمسيح وحده مع إثباتكم لغيره ماثبت له .

وهم تارة يشبهون الأقنومين – العلم والحياة التى يسمونها : الكلمة وروح القدس – بالضياء والحرارة التى للشمس مع الشمس ويشبهون ذلك بالحياة والنطق

الذى للنفس مع الشمس ؛ وهذا تشبيه فاسد ، فإنهم إن أرادوا بالضياء والحرارة ما يقوم بذات النفس فذلك صفة للشمس قائمة بها لم تحل بغيرها ولم تتحد بغيرها ؛ كما أن صفة الشمس كذلك . هذا إن قيل : إن الشمس تقوم بها حرارة ؛ وإلا فهذا ممنوع .

والمقصود هنا : بيان فساد كلامهم وقياسهم ؛ وإن أرادوا ماهو بائن عن الشمس قائم بغيرها ؛ كالشعاع القائم بالهواء والأرض والحرارة القائمة بذلك كان هذا دليلا على فساد قولهم من وجوه :

منها إن هذه أعراض منفصلة بائنة عن الشمس قائمة بغيرها لابها ؛ ونظير هذا ما يقوم بقلوب الأنبياء من العلم والحكمة والوحى الذى أنذروا به ، وعلى هذا التقدير فليس فى الناسوت شيئاً من اللاهوت ؛ وإنما فيه آثار حكمته وقدرته .

ومنها أن الحرارة والضوء القائم بالهواء والجدران أعراض قائمة بغير الشمس والكلمة وروح القدس عندهما جوهران .

ومنها : أن هذا ليس هو الشمس ولا صفة من صفات الشمس وإنما هر أثر حاصل فى غير الشمس بسبب الشمس ؛ ومثل هذا لاينكر قيامه بالأنبياء والصالحين ؛ ولكن ليس للمسيح عليه السلام بذلك اختصاص ، فما حلَّ بالمسيح حلَّ بغيره من المرسلين ، ومالم يحل بغيره لم يحل به فلا اختصاص له بأمر يوجب أن يكون إلهاً دون غيره من الرسل ، ولا هنا اتحاد بين اللاهوت والناسوت ، كما لم تتحد الشمس ولا صفاتها القائمة بها بالهواء ، والأرض التى حصل بها الشعاع والحرارة .

فصل فى معنى روح القدس

قالوا : وهذه الأسماء لم نسمها نحن معشر النصارى بها من ذات أنفسنا ، بل الله سمى لاهوته بها ، وذلك أنه قال على لسان موسى النبى فى التوراة مخاطباً بنى اسرائيل قائلاً : [أليس هذا الأب الذى صنعك وبراك واقتناك ؟] ، وعلى لسانه أيضاً قائلاً [وكان روح الله ترف على الماء] ، وقوله على لسان داود النبى

[زوحك القدس لاتنزع منى] وأيضاً على لسانه : [بكلمة الله تشددت السموات والأرض وبروح فاه جميع فواههن] .

وقوله على لسان أشعيا : [ييبس القتاد ويجف العشب ، وكلمة الله باقية إلى الأبد] ، وعلى لسان أيوب الصديق : [روح الله خلقنى وهو يعلمنى] .

وقال السيد المسيح فى الإنجيل المقدس للتلاميذ الأطهار : [اذهبوا إلى جميع العالم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به] ، وقد قال في هذا الكتاب : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ سورة الصافات : ١٧١] .

وقال أيضاً :﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ﴾ . [سورة المائدة : ١١٠] .

وقال أيضاً : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ . [سورة النساء : ١٦٤]

وقال فى سورة التحريم :﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روَحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتُبه وكانت من القانتين ﴾،[سورة التحريم:١٢] .

وسائر المسلمين يقولون : إن الكتاب كلام الله ، ولا يكون كلام إلا لحىٍّ ناطقٍ ، وهذه الصفات جوهرية تجرى مجرى الأسماء ، وكل صفة منها غير الأخرى والإله واحد لايتبعض ولايتجزأ .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن نقول أولا : إن كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لايكون إلا حقاً وصدقاً ، ولايكون فيه شئ يعلم بطلانه بصريح العقل ، وإن كان فيه مايعجز العقل عن معرفته بدون إخبار الأنبياء ، ولايكون كلام النبى الذى يخبر به مناقضاً لكلامه فى موضع آخر . ولا لكلام سائر الأنبياء ، بل كل ما أخبرت به الأنبياء فهو حق وصدق يصدّق بعضه بعضاً .

وقد أوجب الله علينا أن نؤمن بكل ما أخبروا به . وأخبروا بكفر من آمن ببعض ذلك وكفر ببعضه ، فما علم بصريح العقل لا يناقض ماعلم بالنقل الصحيح عن غيره ، ولكن قد يختلف بعض الشرع والمناهج في الأمر والنهى.

فأما ما يخبرون به عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وغير ذلك ، فلا يجوز أن يناقض بعضه بعضاً ، وإذا كان كذلك مما ينقلونه عن الأنبياء إنما تتم الحجة به إذا علم إسناده ومتنه فيعلم أنه منقول عنهم نقلاً صحيحاً ونعلم أن ترجمته من العبرية إلى اللسان الآخر ، كالرومية والعربية والسريانية ترجمة صحيحة ويعلم بعد ذلك أنهم أرادوا به ذلك المعنى ، وليس مع النصارى حجة عن الأنبياء تثبت فيها هذه المقدمات الثلاث ، ونحن فى هذا المقام يكفينا المنع والمطالبة لهم بتصحيح هذه المقدمات ، فإنهم ادعوا أن التثليث أخذوه عن الأنبياء فنحن نطالبهم بتصحيح هذه المقدمات .

والجواب الثاني : أنها تبين تفسير ما ذكروه أما قوله على لسان موسى عليه السلام مخاطبًا بنى إسرائيل قائلا: [أليس هذا الأب الذى صنعك وبراك واقتناك ؟] فهذا فيه أنه سماه أبا لغير المسيح عليه السلام ، وهذا نظير قوله لإسرائيل [أنت ابنى بكرى] ولداود [ابنى وحبيبى] وقول المسيح [أبى وأبيكم] وهم يسلمون أن المراد بهذا فى حق غير المسيح بمعنى الرب لا معنى التولد الذى يخصون به المسيح .

الثالث : أن هذا حجة عليهم ، فإذا كان فى الكتب المتقدمة تسميته أبًا لغيرالمسيح وليس المراد بذلك إلا معنى الرب علم أن هذا اللفظ فى لغة الكتب يراد به الرب فيجب حمله فى حق المسيح على هذا المعنى . لأن الأصل عدم الاشتراك فى الكلام .

الرابع : أن استعماله فى المعنى الذى خصوا به المسيح إنما يثبت إذا علم إنه أريدا لمعنى الذى ادعوه فى المسيح ، فلوا أثبت المعنى بمجرد إطلاق لفظ الأب لزم الدور ، فإنه يعلم أنه أريد به ذلك من حيث يثبت أنه كان يراد به فى حق الله هذا المعنى ولا يثبت ذلك حتى يعلم أنه أريد بـه ذلك المعنى فى حق المسيح . فإنه توقف

العلم بكل منهما على الآخر لم يعلم واحد منهما فتبين أنه لا علم عندهم فإذا بأنه أريد في حق المسيح بلفظ الأب ما خصوه به في محل النزاع .

الوجه الخامس : أنه لا يوجد فى كتب الأنبياء وكلامهم إطلاق اسم الأب والمراد به اللاهوت ، ولا إطلاق اسم الابن والمراد به شئ من اللاهوت ولا كلمته ولا حياته بل لا يوجد لفظ الابن إلا والمراد به المخلوق ، فلا يكون لفظ الابن إلا لابن مخلقوق .

وحينئذ فيلزم من ذلك أن يكون مسمى الابن فى حق المسيح هو الناسوت وهذا يبطل قولهم : إن الابن وروح القدس إنهما صفتان لله ، وأن المسيح اسم اللاهوت والناسوت ، فتبين أن نصوص كتب الأنبياء تبطل مذهب النصارى ، وتناقض أمانتهم ، فهم بين أمرين :

١ - بين الإيمان بكلام الأنبياءوبطلان دينهم .

٢ - وبين تصحيح دينهم وتكذيب الأنبياء ، وهذا هو المطلوب .

فصل فى معنى الروح

قالوا : وعلى لسانه أيضاً قائلا : [وكان روح الله ترف على الماء] فيقال : هذا فى السفر الأول « سفر الخليفة » فى أوله ، لما ذكر أنه فى البدء خلق السموات والأرض ، وأنه كانت الأرض مغمورة بالماء وكانت روح الله ترف على الماء أخبر أنه كان الماء فوق التراب والهواء فوق الماء وروح الله:هى الريح التى كانت فوق الماء

هذا تفسير جميع الأمم المسلمين واليهود وعقلاء النصارى ولفظ الكلمة بالعبرية « روح » بضم الراء وتشديد الواو ، وهى الروح والريح تسمى « روحا » وجمعها : أرواح ، ولم يرد بذلك أن حياة الله كانت ترف على الماء .

فإن هذا لا يقوله عاقل ، فإن حياة الله صفة قائمة لا تفارقه ولا تقوم بغيره فيمتنع أن تقوم بماء أو غيره فضلا عن أن ترف على الماء والذى يرف على الماء جسم قائم بنفسه ، وهذا إخبار عن الريح التى كانت تتحرك فوق الماء .

ومثـل هذا قـول النبى صلى الله عليه وسلم : (١) لا تسبوا الريح فإنها من روح الله ، تأتى بالرحمـة وتأتى بالعذاب ، فلا تـسبوها ولكن تعوذوا بالله من شـرها ، وسلوا الله خيرها » وقوله : (٢) « إنى لأجد نفس الرحمن من قبل اليمين » .

فصل في عدم خصوصية روح القدس بالمسيح

قالوا : وقوله على لسان داود النبى صلى الله عليه وسلم : [روح القدس لا تنزع منى] .فيقال : هذا دليل على أن روح القدس التى كانت فى المسيح من هذا الجنس فعلم بذلك أن روح القـدس لا تختص بـالمسيح ، وهم يسلمـون ذلك فإن مـا فى الكتب التى بأيديهم فى غير موضع أن روح القدس حلت فى غير المسيح ، فى داود ، وفى الحواريين ، وفى غيرهم .

وحينئـذ فإن كان روح القـدس هو حياة الله ، ومن حلت فـيه يكون لاهوتًا ، لزم أن يكون إلهًا ، لزم أن يكون كـل هؤلاء فيـهم لا هوت وناسـوت كـالمسيح ، وهذا

---

(١) « صحيح »رواه أحمد (١/٣٩١ ، ٤٥٢)
ورواه أبو يعلى فى مسنده (٩/١٩٨ ، ١٩٩ح٥٢٩٧٧)
ورواه الطبرانى فى « الكبير» (١٠/٢٠٩ ، ٢١٠ح١٠٣٥٢)
ورواه البزار كما فى « كشف الأستار » (٤/٣١ح٣١٢٢)
ورواه ابن حبان كما فى « الإحسان » (٣/٢٥٣ح٩٧٢)
وقال الهيثمى فى « المجمع » (١٠/١٣٦) : « رواه أحمد وأبو يعلى والبزار إلا أنه قال : وذهاب غمى مكان همى ، والطبرانى ، ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح غير أبى سلمة الجهنمى وقد وثق ابن حبان » أ هـ
وللمزيد انظر السلسلة الصحيحة للألبانى (١/١٣٩ : ١٤٢ح٩٩)
(٢) هذا الحديث ليس له أصل بهذا اللفظ وجاء الحديث عن أبى هريرة بلفظ « وأجد نفس ربكم من قبل اليمن » رواه أحمد (٢/٥٤١)
والحديث ورد « مختصراً » عند البخارى ومسلم دون ذكر الشاهد بإسنادٍ آخر
قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١/١٠٤) : « رجـاله ثقات » وذكـره الهيثمى فى المجمع (١٠/٥٥:٥٦) وقال : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح غير شبيب و وهو ثقة »
وانظر تخريج العراقى للإحياء (٣/٢٢٢) ، وكشف الخفا(١/٢٥١ح٦٥٩) ، (١/٣٠٤ح٨٠١)

خلاف إجماع المسلمين والنصارى واليهود .

ويلزم من ذلك أيضًا أن يكون المسيح فيه لا هوتان : الكلمة ، وروح القدس ، فيكون المسيح مع الناسوت أقنومين : أقنوم الكلمة وأقنوم روح القدس . وأيضًا فإن هذه ليست صفة لله قائمة به ، فإن صفة الله القائمة به بل وصفة كل موصوف لا تفارقه ، وتقوم بغيره ، وليس فى هذا أن الله اسمه روح القدس ، ولو أن حياته اسمها روح القدس ، ولا أن روح القدس الذى تجسد منه المسيح ، ومن مريم هو حياة الله سبحانه وتعالى ، وأنتم قلتم : إنا معاشر النصارى لم نسمه بهذه الأسماء من ذات أنفسنا ، ولكن الله سمى لا هوته بها ، وليس فيما ذكرتموه عن الأنبياء أن الله سمى نفسه ، ولا شيئًا من صفاته روح القدس ، ولا سمى نفسه ولا شيئًا من صفاته ابنا فبطل تسميتكم لصفته التى هى الحياة بروح القدس ولصفته التى هى العلم بالابن

وأيضًا فأنتم تزعمون أن المسيح مختص بالكلمة والروح فإذا كانت روح القدس فى داود عليه السلام والحواريين وغيرهم بطل ما خصصتم به المسيح ، وقد علم بالاتفاق أن داود عبدالله عزوجل ، وإن كانت روح القدس فيه ، وكذلك المسيح عبدالله وإن كانت روح القدس فيه ، فما ذكرتموه عن الأنبياء حجة عليكم لأهل الإسلام ، ولا حجة لكم .

فصل فى تحريف روح القدس فى الإنجيل

قالوا : أيضًا على لسان داود النبى عليه السلام : [بكلمة الله تشددت السموات والأرض ، وبروح فاه فواههن] .

فيقال : أما قوله « بكلمة الله تشددت السموات والأرض » فهو أيضًا حجة عليكم لوجوه : أحدها : أن الله خلق الأشياء بكلمته التى هى « كن » ، كما قال فى التوراة : [ليكن كذا ، ليكن كذا ، ليكن كذا] وكذلك فى الزبور [لأنه قال فكانوا ، وأمر فخلقوا] فجعل كونهم عن قوله .

ومثله فى الزبور [الكل بحكمة صنعت] ، وفى القرآن : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾ ، [يس : ٨٢] وليس المسيح هو هذه الكلمات .

الثاني : أن كلمة الله اسم جنس ، فإن كلمات الله لا نهاية لها قال تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ، [سورة الكهف : ١٠٩]

والتوراة تدل على تعدد الكلمات ، وإذا كان كذلك ، فالمسيح ليس هو مجموع الكلمات ، بل خلق بكلمة منها .

الثالث : أن المسيح عندكم هو الخالق وأنتم مع قولكم : إنه الابن والكلمة تقولون ، إنه الإله الخالق ، وتقولون : [إنه إله حق من إله حق] وتقولون : [إله واحد] فتجمعون بين النقيضين ، وإذا كان هو الخالق فهو الذى يشدد السموات والأرض ، لا يقال به تشددت السموات والأرض ، وإنما يقال به فيما كان صفة للموصوف ، فيقال : خلق الله الأشياء بكن ، وخلق الأشياء بقدرته .

وقوله : [بكلمته تشددت السموات والأرض] يقتضى أن الكلمة صفة بها ، لأنها هى الخالقة والمسيح عندكم هو الخالق ليس هو صفة خالق بها .

والرابع : أن كلمة الله يراد بها جنس كلماته قال تعالى : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ﴾ : [سورة التوبة : ٤٠].

وكقول النبى صلى الله عليه وسلم : (١) « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا

---

(١) « متفق عليه » عن « عبد الله بن قيس »

رواه البخارى فى كتاب « العلم » باب « من سألوه وه قائم عالماً جاك » (١/٢٦٨ح١٢٣) رواه أيضاً برقم (٢٨١٠ ، ٣١٢٦ ، ٧٤٥٨)

ورواه مسلم فى كتاب « الإمارة » باب « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »(٣/١٥١٢،١٥١٣ح١٩٠٤))

ورواه أبو داود فى كتاب « الجهاد » باب « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا» (٧/٢٩٣ح٢٥٠٠)

ورواه الترمذى فى كتاب « الجهاد » باب « ما جاء من يقاتل رياءً وللدنيا » (٥ / ٢٨١ ح ١٦٩٧)=

فهو فى سبيل الله » وحينئذ فالمواد أن الله أقام السموات والأرض بكلمته كقوله «كن» وليس فى هذا تعرض للمسيح عليه السلام .

وأما نقلكم أنه قال : [وبروح فاه جميع فواههن] فهذه الكلمة سواء كانت حقًا أو باطلا لاحجة لكم فيها لأنه إن أريد بهذه الكلمة حياة الله فإثبات حياة الله حق ، وهو لم يسم حياة الله روح القدس ، كما زعمتم وإن أراد شيئًا غير حياة الله لم تنفعكم فأنتم ادعيتم حياة روح القدس ، حتى قلتم مراده فى الإنجيل بقوله : [عمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس] هو حياة الله ، وادعيتم أن الأنبياء سموه بذلك ، ولم تذكروا نقلا عن الأنبياء أنهم سموا حياته روح القددس ، بل ذكرتم عنه ما يوافق ما فى القرآن أن روح القدس ليس المراد بها حياة الله ، ولو قدر أن هذا اللفظ استعمل فى هذا وهذا لم يتعين أن المسيح أراد بقوله : [روح القدس] حياة الله فكيف إذا لم يستعمل فى كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فى حياة الله قط .

فصل فى إبطال دعوى أن حياة الله تسمى روحا

قالوا : وقوله على لسان أيوب الصديق [روح الله خلقنى وهو يعلمنى] .

فيقال : هذا لا حجة فيه لأنكم ادعيتم أن الأنبياء سمت حياة الله روح القدس ، وهذا لم يقل روح القدس ، بل قال روح الله .

وروح الله يراد بها الملك الذى هو روح اصطفاها الله فأحبها ، كما قال فى القرآن الكريم : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا * فتمثل لها بشراً سويا* قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ ، ١٩] .

=وفى الباب عن عمر .

ورواه النسائى فى كتاب « الجهاد » باب « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا » (٦/٢٣)

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الجهاد » باب « النية فى القتال » (٢/٩٣١ح٢٧٨٣)

فقد أخبر أنه أرسل إليها روحه فتمثل لها بشراً سويًا ، وتبين أنه رسوله ، فعلم أن المراد بالروح ملك هو روح اصطفاها فأضافها إليه كما يضاف إليه الأعيان التى خصها بخصائص يحيها ، كقوله : ﴿ ناقة الله وسقياها ﴾ . [سورة الشمس : ١٣] . وقوله : ﴿ وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ ، [سورة الحج : ٢٦] . وقوله ﴿ عينًا يشرب بها عباد الله ﴾ ، [سورةالإنسان : ٦] . والمضاف إلى الله إن كان صفة لم تقم بمخلوق كالعلم والقدرةوالكلام والحياة كان صفة له ، وإن كان عينًا قائمة بنفسها أو صفة لغيره كالبيت والناقة والعبد والروح كان مخلوقًا مملوكًا مضافًا إلى خالقه ومالكه ، لكن الإضافة تقتضى اختصاص المضاف بصفات تميز بها عن غيره حتى استحق الإضافة ، كما اختصت الكعبة والناقة والعباد الصالحون بأن يقال فيهم ﴿ بيت الله ﴾ ﴿ وناقة الله ﴾ ﴿ وعباد الله ﴾ كذلك اختصت الروح المصطفاة بأن يقال لها ﴿ روح الله ﴾ بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشياطين والكفار فإنها مخلوقة لله ، ولا تضاف إليه إضافة الأرواح المقدسة ، كما لا تضاف إليه الجمادات كما تضاف الكعبة ، ولا نوق الناس كما تضاف ناقة صالح التى كانت آية من آياته .

كما قال : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ ، [سورة الأعراف : ٧٣] ، وإذا كان كذلك فهذا اللفظ إن كان ثابتًا عن النبى وترجم ترجمة صحيحة فقد يكون معناه أن الملك صورنى فى بطن أمى ، وهو يعلمنى ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (١) « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يا رب ، أجله ، فيقول ربك ما

---

(١)« صحيح »

رواه مسلم فى كتاب « القدر » باب « كيفية الخلق الآدمى ...» (٢٠٣٧/٤ح٢٦٤٥)

شاء ، ويكتب الملك . ثم يقـول : يا رب رزقه ، فيقـول ربك ما شـاء ويكتب الملك ؛ ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده ؛ فلا يزاد على أمر ولا ينقص » . رواه مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفارى .

وقد يقال : من هذا قوله فى الزبور فى مزمور الخليقة [ترسل روحك فيخلقون] وفى المزمور أيضاً [هو قال فكانوا وأمر فخلقوا] فقد يضاف الخلق إلى الملك .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٩] .

فأخبر أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً بإذن الله ، كذلك الملك يخلق النطفة فى الرحم بإذن الله

ولا يجوز أن يريد به أن حياة الله خلقتنى ، وتعلمنى فإن الصفة لا تخلق ولا تعلم ، وإنما يخلق ويعلم الرب الموصوف الذى خلق الإنسان من علق ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، ولكن هو سبحانه يخلق بواسطة الملائكة ، فإن الملائكة رسل لله فى الخلق فجاز أن يضاف الفعل إلى الوسائط تارة ، وإلى الرب أخرى ، وهذا موجود فى الكتب الإلهية فى غير موضع كما فى القرآن :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت في منامها ﴾ ، [سورة الزمر : ٤٢] .

وفى موضع آخر : ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٦١].

وفى موضع ثالث : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ [سورة السجدة : ١١]

والجميع حق فإذا وجد لفظ له المعنى فى كلام بعض الأنبياء ، ولم يوجد له معنى

يخالف ذلك من كلامهم كان حمله على ذلك المعنى أولى من حمله على معنى يخالف كلامهم ولا يوجد فى كلامهم أن حياة الله تسمى روحا ، ولا أن صفات الله تخلق المخلوقات .

فصل فى قوله [وكلمته باقية إلى الأبد]

قالوا : قوله : على لسان أشعيا النبى [ييبس القتاد ، ويجف العشب و كلمته باقية إلى الأبد .].

فيقال : إمـا أن يريد بكلمة الله علمه أو كلمة معينة أو يكون كلمة الله اسم جنس ، وعلى التقديرات فلا حجة لكم فى ذلك ، فإنه إن كان كلمة الله اسم جنس لكل ما تكلم به ـ كما قال : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (١) « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

ولهذا جمعها فى قوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلا ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٥] .

وفى قوله : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ، [سورة الكهف : ١٠٩] .

فالمراد بذلك أن ما قاله الله فهو حق ثابت لا يبطل .

كما قال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٣٧] .

يعنى بتمامها نفاد ما وعدهم به من النصر على فرعون ، وإهلاكه ، وإخراجهم إلى الشام .

---

(١) سبق تخريجه

وقال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلا ﴾ ، ومنه قوله : ﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ﴾ . [الكهف : ٢٧]

وقوله : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ ،[سورة الفتح : ٢٥] .

ومن هذا الباب قول المسيح [السماء والأرض يزولان ، وكلامى هذا لا يتغير فإن أراد علم الله فعلم الله باق ، سواء أراد علمه القائم بذاته أو معلومه الذى أخبر ببقائه فلا حجة لكم فيه ، وكذلك إن أراد كلمة معينة ، فإن المسيح عندكم ليس كلمة معينة من كلامه ، بل هو عندكم هو الكلمة ، وهو الله الخالق ، وليس فى هذا اللفظ ما يدل على أنه أراد بالكلمة المسيح ، والمسيح عندكم أزلى أبدى لا يوصف بالبقاء دون القدم ، ولوقدر أنه أراد بالكلمة المسيح فنحن لا ننكر أنه تسمى بالكلمة ، لأنه قال له : كن فكان كما سيأتى بيان ذلك ، ويريد بذلك إما بقاؤه إلى أن ينزل إلى الأرض ، وإما أن يريد بقاء ذكره والثناء عليه ولسان الصدق له إلى آخر الزمان : ومما يوضح هذا أنه ليس المراد به ما يدعونه أنه قال :[وكلمة الله باقية إلى الأبد] فوصفها بالبقاء دون القدم .

وعندهم أن الكلمة المولودة من الأب قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ، مثل هذا لا يحتاج أن يوصف بالدوام والبقاء بخلاف ما وعد به من النعيم والرحمة والثواب ، فإن يوصف بالبقاء والدوام كما فى القرآن : ﴿ أكلها دائم ﴾ ، [سورة الرعد : ٣٥]

وقوله : ﴿ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾ ، [سورة ص : ٥٤]

وفى الزبور [اعترفوا للرب ، فإنه صالح ، وإنه إلى الأبد رحمته] .

فصل فى معنى التعميد باسم الأب والابن

قالوا : وقال السيد المسيح فى الإنجيل المقدس لتلاميذه الأطهار [اذهبوا إلى جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس الإله الواحد ، وعلموهم أن الأقانيم الثلاثة وليس فيه شئ يدل على ذلك لا نصاً ولا ظاهراً ، فإن لفظ الإبن لم يستعمل قط فى الكتب الإلهية فى معنى صفة من صفات الله ، ولم يسم أحد من الأنبياء علم الله ابنه ، ولا سموا كلامه ابنه ، ولكن عندكم أنهم سموا عبده أو عباده ابنه أو بنيه واذا كان كذلك فدعواكم أن المسيح أراد بالعلم ابن الله وكلامه دعوى فى غاية الكذب على المسيح ، وهو حمل للفظ على ما لم يستعمله هو ولا غيره فيه لا حقيقة ولا مجازاً فأى كذب وتحريف لكلام الأنبياء أعظم من هذا ولو كان لفظ الابن يستعمل فى صفة الله لسميت حياته ابناً ، وقدرته ابناً فتخصيص العلم بلفظ الإبن الحياة خطأ ثانى لو كان لفظ الإبن يستعمل فى صفة الله ، فكيف إذا لم يكن كذلك ، وكذلك روح القدس لم يستعملوها فى حياة الله ، ولا أرادوا بهذا اللفظ حياة هى صفته ، انما أرادوا بذلك ما ينزله على الصديقين والأنبياء ، ويؤيدهم به كما فى قول داود :

[روحك القدس لا ينزع منى] وعندما أن روح القدس حلت فى الحواريين ، وقد قدمنا أن روح القدس يراد به الملك ، ويراد به ما يجعله فى القلوب من الهدى والقوة ، ومنه قوله فى بعض النبوات ، وفى تلك الأيام [أسكب من روحى على كل قديس] .

وفى زابور داود:[روحك الصالح يهدينى فى أرض مستقيمة] يوضح هذا أنهم قالوا فى أمانتهم [الـــذى من أجلنا نحن البـــشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء] وذكروا أن ذلك فى الكتب المقدسة لا يكون إلا حقاً، ولا ريب أن فيها مثل ما فى القرآن ، وفى القرآن أن الله أرسل روحه إلى مريم فنفخ فيها فحملت بالمسيح عليه السلام قال تعالى :

﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا* قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً * فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ ، [سورة مريم : ١٧-٢٢] : إلى آخر القصة ،قال تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ [سورة الأنبياء : ٩١] ، وقال تعالى : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ [سورة التحريم : ١٢] وهذا الروح : هو الرسول ، كما قال : ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ [سورة مريم :١٩].

ونفخ فيها من هذا الروح المسيح مخلوقاً من الروح ، ومن أمه مريم ، كما قالوا فى الأمانة : [إنه تجسد من مريم ومن روح القدس] لكن اعتقدوا أن روح القدس التى خلق المسيح منها ومن مريم هى حياة الله ، وهذا ليس فى الكتب مايدل عليه ، بل الكتب كلها صريحة فى نقيض هذا ، وهو أيضاً مناقض لقولهم إن المتحد بالمسيح هو أقنوم الكلمة ، وهو العلم ، فإن كان قد تجسد من مريم ، وأقنوم الكلمة لم يكن تجسد من روح القدس لم يكن من الكلمة وإن كان منهما جميعاً كان المسيح أقنومين : أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح .

والنصارى بفرقهم الثلاثة كلهم يقولون : إنما المتحد به أقنوم الكلمة لا أقنوم الحياة ، فتبين تناقضهم فى أمانتهم ، وتبين خطؤهم فيما فسروا به كلام الأنبياء .

وتبين أن ماثبت عن الأنبياء فهو حق موافق لما أخبر به محمد خاتم النبيين لايتناقض مع شئ من كلام الأنبياء ، كما أنه لايناقض شئ من كلامهم صريح

المعقول ، وتبين أنهم حملوا كلام الأنبياء فى لفظ الابن وروح القدس وغيره على ما لم يوجد استعمال هذا اللفظ فيه ، وتركوا حمله على المعنى الموجود فى كلامهم ، فكيف يجوز أن يحمل لفظ روح القدس على معنى لم يستعمله فيه الأنبياء ، ولا أرادوه به ، ويترك حمله على المعنى المعروف الذى يستعملونه فيه دائماً .

وهل هذا إلا من فعل من يحرّف كلام الأنبياء ، ويفترى الكذب عليهم ؟ بل ظاهر هذا الكلام أن يعمدوهم باسم الأب الذى يرون به فى لغتهم الرب والابن الذى يريدون به فى لغتهم المربى ، وهو هنا المسيح وهو الروح القدس الذى أيد الله به المسيح من الملك والوحى وغير ذلك ، وبهذا فسر هذا الكلام من فسره من أكابر علمائهم .

فصل فى عدم حجية ما ادعوه من الأقانيم

فهذا ما ذكروه فى كتابهم يحتجون بها على مايعتقدونه من الأقانيم الثلاثة قائلين إن تسمية الله أنه أب وابن وروح القدس أسماء لم نسمه نحن النصارى بها من ذات أنفسنا ، بل الله سمى لاهوته بها .

وقد تبين أنه ليس فيما ذكروه عن الأنبياء مايدل لانصاً ولاظاهراً على أن أحداً من الأنبياء سمى الله ، ولاشيئاً من صفاته أبداً ولا روح قدس .

وتبين أن تسميتهم لعلم الله وكلامه ابنا ، وتسميتهم لحياته روح القدس أسماء ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان ، وأنه ليس معهم على ما ادعوه من الأقانيم حجة أصلاً لاسمعية ولاعقلية ، وأنه ليس لقولهم بالتثليث وحصرهم لصفات الله فى ثلاثة مستند شرعى .

كما تبين أنه ليس له مستند عقلى ، وأن القوم ممن قيل فيهم : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير ﴾ [سورة الملك : ١٠] . وممن قيل فيهم : ﴿ أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً ﴾

[سورة الفرقان : ٤٤] .

فصل فى بطلان دعوى تأييد القرآن لهم

ثم أخذوا يزعمون أن فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم حجة لهم على الأقانيم التى ادعوها ، وهم ابتدعوا القول بالأقانيم والتثليث قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

ذلك معروف عندهم من حين ابتدعوا الأمانة التى لهم التى وضعها الثلاث مائة وثمانية عشر منهم بحضرة قسطنطين الملك ، فإذا لم يكن لهم مستند عقلى ولاسمعى عن الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم . فكيف يكون لهم مستند فيما جاء به صلى الله عليه وسلم بعد ابتداعهم الأمانة .

لاسيما مع العلم الظاهر المتواتر أن محمداً صلى الله عليه وسلم كفَّرهم فى الكتاب الذى أنزل عليه وضللهم ، جاهدهم بنفسه وأمر بجهادهم كقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧ ، ٧٢]

وقوله تعالى : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ ، [سورة التوبه : ٣٠] وقال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ ، [سورة المائدة ٧٣] وقال : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] ونحو ذلك من الآيات ، وقالوا : وقد قال فى هذا الكتاب أيضاً : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا الصالحين) فيقال لهم : حرفتم لفظ الآية ومعناها فإن لفظها : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١ - ١٧٣] . فالكلمة التى سبقت لعباده المرسلين قوله : ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ .

أخبر أنه سبق منه كلمة لعباده المرسلين لينصرنَّهم ، كما قال تعالى : ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربك لكان لزاماً وأجلٌ مسمى ﴾ ، [سورة طه : ١٢٩] ، وقوله :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقُضِي بينهم وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ ، [سورة هود : ١١٠] ، وقوله : ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ ، [سورة غافر : ٦] . وقوله : ﴿ وماتفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ﴾، [سورة الشورى : ١٤] . وقوله : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ، [سورة السجدة : ١٣] .

والكلمة فى لغة العرب : هى الجملة المفيدة سواء كانت جملة إسمية أو فعلية وهى القول التام ، وكذلك الكلام عندهم هو الجملة التامة .

قال سيبويه : واعلم أنهم يحكون بالقول ما كان كلاماً ولايحكون به ما كان قولا ، ولكن النحاة اصطلحوا على أن يسموا ما تسميه العرب حرفاً يسمونه كلمة مثل زيد وعمرو ، ومثل قعد وذهب وكل حرف جاء لمعنى ليس باسم ولافعل مثل إن و ثم ، وهل ولعل .

وقال تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ ، [سورة الكهف : ٤] فسمى هذه الجملة كلمة .

وقال تعالى : ﴿ مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٤] وهو قول لا إله إلا الله .

وقال تعالى : ﴿ إليه يصعدُ الكلمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [سورة فاطر : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ . [سورة آل عمران : ٦٤]

وقوله تعالى : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ [سورة الفتح ١٦] . وقال النبى صلى الله عليه وسلم . (١) « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن

(١) « متفق عليه »

خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » ؛ وقال صلى الله عليه وسلم (١) : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

ألا كل شئ ماخلا الله باطل

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (١) « اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة » ، ولما شاع عند المشتغلين بالنحو استعمال لفظ الكلمة فى الاسم أو الفعل وحرف المعنى صاروا يظنون أن هذا هو كلام العرب ، ثم لما وجد بعضهم ماسمعه من كلام العرب أنه يراد بالكلمة الجملة التامة صار يقول :

=رواه البخارى فى كتاب « الدعوات » باب « فضل التسبيح »(١١/٢١٠ح٦٤٠٦) ورواه أيضاً برقم ٦٦٨٢،٧٥٦٣)

ورواه مسلم فى كتاب « الدعوات » باب « فضل التسبيح والتهليل والدعاء » (٤/٢٠٧٢ح٢٦٩٤)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « الدعوات » باب «٦١ » (٩/٤٣٤ ، ٤٣٥ح٣٥٣٤)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « عمل اليوم والليلة » باب « ما يثقل الميزان » (٦/٢٠٧ ، ٢٠٨ح١٠٦٦٦)

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الأدب » باب « فضل التسبيح » (٢/١٢٥١ح٣٨٠٦)

(١) « متفق عليه »

ورواه البخارى فى كتاب « مناقب الأنصار » باب « أيام الجاهلية » (٧/١٨٣ح٣٨٤١) ورواه أيضاً برقم(٦١٤٧ ، ٦٤٨٩)

ورواه مسلم فى كتاب « الشعر » باب «١» (٤/١٧٦٨ ، ١٧٦٩ح٢٢٥٦)

ورواه الترمذى فى كتاب « الاستئذان » باب « ما جاء فى إنشاء الشعر » (٨/١٤١ح٣٠٠٧)

ورواه أيضاً فى « الشمائل » باب « ما جاء فى صفة كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعر » (ص٢٠٣ح٢٣٢)

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الأدب » « الشعر » (٢/١٢٣٦ح٣٧٥٧)

(٢) « متفق عليه » « عن عدى بن حبان » =

وكلمة بها كلام قد يؤم

فيجعل ذلك من القليل ، ومنهم من يجعل ذلك مجاز وليس الأمر كذلك بل هذا اصطلاح هؤلاء النحاة ، فإن العرب لم يعرفوا عنهم أنهم استعملوا لفظ الكلمة ، والكلام إلا من الجملة التامة ، وهكذا نقل عنهم أئمة النحو كسيبويه وغيره ، فكيف يقال : إن هذا هو المجاز ، وإن هذا قليل وكثير .

كما أن لفظ القديم فى لغة العرب هو المتقدم على غيره كما قال تعالى : ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ ، [سورة يس : ٣٩] . وقوله تعالى : ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ١١] وقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ماكنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾، [سورة الشعراء : ٧٥ ، ٧٦] ، ثم إن من أهل الكلام من خص لفظ القديم بما لم يسبقه عدم أو لم يسبقه غيره وصار هذا عندهم هو حقيقة اللفظ حتى صار كثير منهم يظن أن استعمال القديم فى المتقدم على غيره مطلقاً مجاز .

فتبين أن مراده تعالى بقوله : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١] من جنس قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً ﴾ ،[سورة طه :١٢٩] فسبق منه كلمته بما سيكون من نصر المرسلين وملء جهنم من الجنة والناس أجمعين ونحو ذلك ، فحرف هؤلاء الضلال لفظ الآية فقالوا «

=ورواه البخارى فى كتاب « الزكاة » باب « الصدقة قبل الرد » (٣٣٠/٣ح١٤١٣)
ورواه أيضاً برقم (١٤١٧، ٣٥٩٥ ، ٦٠٢٣ ، ٦٥٣٩ ، ٦٥٤٠ ، ٦٥٦٣ ، ٧٤٤٣ ، ٧٥١٢)
ورواه مسلم فى كتاب « الزكاة » باب « الحث على الصدقة .. » (٧٠٣/٢ ، ٧٠٤ح١٠١٦)
ورواه الترمذى فى كتاب « صفة القيامة » باب « ما جاء فى شأن الحساب والقصاص » (٩٨/٧ ، ٩٩ح٢٥٢٩)
ورواه النسائى فى كتاب « الزكاة » باب « القليل فى الصدقة»(٧٤/٥ ، ٧٥)
ورواه ابن ماجه فى « المقدمة » باب « فيما أنكرت الجهمية » (٦٦/١ح١٨٥)
ورواه أيضاً برقم (١٨٤٣)

لعبادنا الصحالين » وجعلوا « الكلمة » هى المسيح وليس فى اللفظ مايدل على ذلك بوجه من الوجوه ، ولا فى كون المسيح سبق لعبادنا المرسلين فى معنى صحيح ، وقد قال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١ : ١٧٣]

فصل فى محاولتهم تحريف القرآن

قالوا : وقال أيضاً : ﴿ ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٠] .

فيقال : هذا مما لاريب فيه ، ولاحجة لكم فيه ، بل هو حجة عليكم فإن الله أيد المسيح عليه السلام بروح القدس ، كما ذكر ذلك فى هذه الآية ، وقال تعالى فى البقرة : [٨٧] ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلّنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجاتٍ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾، [سورة البقرة : ٢٥٣] .

وهذا ليس مختصاً بالمسيح ، بل قد أيد غيره بذلك ، وقد ذكروا هم أنه قال لداود: [روحك القدس لاتنزع منى] ، وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت (١) « اللهم أيده بروح القدس » .

وفى لفظ (٢) « روح القدس معك مادمت تنافح عن نبيه » .

وكلا اللفظين فى الصحيح .

وعند النصارى أن الحواريين حلت فيهم روح القدس ، وكذلك عندهم روح القدس حلت فى جميع الأنبياء .

(١) سبق تخريجه

(٢) سبق تخريجه

وقد قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فإستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون * وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزّل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ [سورة النحل : ٩٨ - ١٠٢] .

وقد قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٤] .

وقال : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ ، [سورة البقرة : ٩٧] .

فقد تبين أن روح القدس هنا جبريل ، وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب لا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ [سورة النحل : ٢]

قال : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ ، [سورة غافر : ١٥] .

فهذه الروح التى أوحاها ، والتى تنزل بها الملائكة على من يشاء من عباده غير

الروح الأمين التى تنزل بالكتاب ، وكلاهما يتسمى روحًا ، وهما متلازمان ، فالروح التى ينزل بها الملك مع الروح الأمين التى ينزل بها روح القدس ، يراد بها هذا وهذا .

وبكلا القولين فسر المفسرون قوله فى المسيح ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ سورة البقرة : ٨٧] .

ولم يقل أحد إن المراد بذلك حياة الله ، ولا الفظ يدل على ذلك ، ولا استعمل فيه وهم إما أن يسلموا أن روح القدس فى غيره ليس المراد بها حياة الله ، فإذا ثبت أن لها معنى غير الحياة ، فلوا استعمل فى حياة الله أيضًا لم يتعين أن يراد بها ذلك فى حق المسيح ، فكيف ولم يستعمل فى حياة الله فى حق المسيح ، وأما أن يدعوا أن المراد بها حياة الله فى حق الأنبياء والحواريين فإن قالوا ذلك لزمهم أن يكون اللاهوت حالا فى جميع الأنبياء والحواريين ، وحينئذ فلا فرق بين هؤلاء وبين المسيح .

ويلزمهم أيضًا أن يكون فى المسيح لا هوتان : لا هوت الكلمة ، ولا هوت الروح ، فيكون قد اتحد به أقنومان ، ثم فى قوله تعالى : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ [سورة البقرة : ٨٧] يمتنع أن يراد بها الله ، فإن حياة الله صفة قائمة بذاته لا تقوم بغيره ، ولا تختص ببعض الموجودات غيره . وأما عندهم فالمسيح هو الله الخالق ، فكيف يؤيد بغيره ، وأيضًا فالمتحد بالمسيح هو الكلمة دون الحياة ، فلا يصح تأييده بها .

فتبين أنهم يريدون أن يحرفوا القرآن كما حرفوا غيره من الكتب المتقدمة ، وأن كلامهم فى تفسير المتشابه من الكتب الإلهية من جنس واحد .

فصل فى معنى كلمة الله

قالوا : وقال أيضًا : ﴿وكلم الله موسى تكليما ﴾ فيقال لهم : وأى حجة لكم فى

هذا ، وإنما هو حجة عليكم ، فإنه ثبت أن الله كلم موسى تكليما ، وكلام الله الذى سمعه منه موسى عليه السلام ، ليس هو المسيح فعلم أن المسيح ليس هو كلام الله ، وعندهم هو كلمة الله ، وهو علم الله ، هو الله .

ومعلوم أن كلام الله كثير كالتوراة والإنجيل والقران ، وغير ذلك من كلامه وليس المسيح شيئًا من ذلك ، والمسيح عندهم خالق ولو كان المسيح نفس كلام الله لم يكن خالقًا ولا معبودًا فإن كلام الله ليس هو الإله المعبود ، بل كلامه كسائر صفاته مثل حياته وقدرته ولا يقول أحد : يا علم الله اغفرلى ، ولا ياكلام الله اغفرلى ، وإنما يعبد ويدعى الإله الموصوف بالعلم والقدرة والكلام الذى كلم الله موسى تكليما .

فصل فى معنى ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾

قالوا : وقال أيضًا فى سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾، [سورة التحريم : ١٢] .

فيقال : أما قوله تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ . وقوله فى سورة الأنبياء : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [الأنبياء : ٩١] . فهذا قد فسرة قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويًا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًا ﴾ [سورة مريم : ١٧ : ١٩].

وفى القراءة : ﴿ لأهب لك غلامًا زكيًا ﴾ .

فأخبرأنه رسوله وروحه ، وأنه تمثل لها بشراً ، وأنه ذكر أنه رسول الله إليها ، فعلم أن روحه مخلوق مملوك له ، وليس المراد حياته التى هى صفته سبحانه وتعالى

وكذلك قوله :﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ وهو مثل قوله فى آدم عليه

السلام﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾ [سورة الحجر : ٢٩] . وقد شبه المسيح بآدم فى قوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٩] .

والشبهة فى هذا نشأت عند بعض الجهال من أن الإنسان إذا قال : روحى ، فروحه فى هذا الباب هى الروح التى فى البدن ، وهى عين قائمة بنفسها ، وإن كان من الناس من يعنى بها الحياة ، والأنسان مؤلف من بدن وروح ، وهى عين قائمة بنفسها عند سلف المسلمين وأئمتهم وجماهير الأمم .

والرب تعالى منزه عن هذا ، وإنه ليس مركبًا من بدن وروح ، ولا ولا يجوز أن يراد بروحه ما يريد الإنسان بقوله : روحى ، بل تضاف إليه ملائكته وما ينزله على أنبيائه من الوحى والهدى والتأييد ، ونحو ذلك .

فصل فى معنى القرآن كلام الله

قالوا : وسائر المسلمين يقولون : إن الكتاب كلام الله ، ولا يكون كلام إلا لحى ناطِق ، وهذه صفات جوهرية تجرى مجرى الأسماء ، وكل صفة منها غير الأخرى ، فالإله واحد ، خالق واحد ، رب واحد لا يتجزأ

فيقال لهم : إن الكتاب، أى القرآن كلام الله ، فهذا حق ، والكلام لا يكون إلا لمتكلم .

والمسلمون يقولون : إن الله حى متكلم ، وإنه تكلم بالتوراة والإنجيل والقرآن ، وغير ذلك من كلامه ، والقرآن قد أخبر بكلام الله فى مواضع كثيرة ، وهل يسمى ناطقًا وكلامه نطقًا ؟

فيه نزاع فبعض المسلمين يجيزه ، وبعضهم يمنع منه لكونه لم يرد به الشرع ، وليس فى التوراة والإنجيل والزبور تسمية الله ناطقًا ، بخلاف لفظ القول والكلام ،

وقد تنازع المسلمون بعد ظهور البدع فيهم ، كما تنازع أهل الكتاب فى كلام الله وهو قائم به أو مخلوق منفصل عنه ؟ والذى عليه سلف الأمة وأئمتها وجمهورها أن كلام الله قائم به ، وكذلك سائر ما يوصف به من الحياة والقدرة وغير ذلك.

وأحدث قوم منهم ـ بعد انقراض الصحابة وأكابر التابعين ، بعد أكثر من مائة سنة من موت النبى صلى الله عليه وسلم ـ أنه مخلوق خلقه فى غيره وشاركهم فى هذه البدعة كثير من اليهود والنصارى والنصارى .

وظهرت هذه المقالة بعد المئة الثانية ، وانتصر لها قوم من الولاة ، وغيرهم ثم أطفأها الله بمن أقامه الله من أئمة الإسلام والسنة ، الذين بينوا فسادها وبينوا ما اتفق عليه السلف من أن كلام الله منزل منه غير مخلوق ، بل منه بد ، لم يبتد من شئ من المخلوقات ، ومع هذا فلم يقل أحد من المسلمين : إن كلام الله يكون إلهًا ولا ربًا .

وكذلك حياته لم يقل أحد منهم إن حياته تكون إلهًا ولا ربًا ، ولا أنه مساو للرب تعالى فى الجوهر.

فصل فى الصفات الجوهرية وهلي تجرى مجرى الأسماء ؟

وأما قولهم : هذه صفات جوهرية تجرى مجرى أسماء ، فإن أرادوا بقولهم :جوهرية أن كل صفة جوهر ، فهذا كلام ظاهر الفساد ، فإن الصفة القائمة بغيرها لا تكون جوهرًا قائمًا بنفسه ، ومن ظن أن حرارة النار القائمة بها جوهر قائم بنفسه كالنار ، فهو إما مصاب فى عقله ، وإما مسفسط معاند .

والأول : يستحق علاج المجانين .

والثانى : يستحق العقوبة التى تردعه عن العناد ، ثم إن جاز أن تكون الصفة جوهرًا كانت القدرة أيضًا جوهرًا ، وإن أرادوا بقوله جوهرية أنها صفات ذاتية ، وغيرها صفات فعلية كالخالق والرازق ، فمعلوم أن صفاته الذاتية منها القدرة

وغيرهم ها لم تنحصر فى هذه .

وأيضًا فالكلام ، وإن كان قائمًا بذاته . فقيل : هو متعلق بمشيئته وقدرته ، وهو قول السلف والأكثرين ، وقيل : ليس كذلك ، والمتكلم قيل : هو من فعل الكلام ولو كان منفصلاً عنه ، وقيل هو من قام به الكلام ، وإن لم يكن بمشيئته وقدرته . وقيل : المتكلم من قام به الكلام بمشيئته وقدرته .

وهذا قول السلف والأكثرين ، فبطل قولهم على كل تقدير ، وإن أرادوا بالجوهرية أنها ذاتية مقومة ، وباقى ا لصفات عرضية على رأى أهل المنطق اليونان الذين يفرقون فى الصفات اللازمة للموصوف بين هذا وهذا ، كان هذا فاسداً من وجوه :

منها أن تفريق هؤلاء فى الصفات اللازمة للموصوف بين صفة وصفة ، وجعل بعضها ذاتيًا مقومًا داخلا فى الماهية ، وبعضها عرضيًا لاحقًا خارجًا عن الماهية ، كلام باطل عند جماهير نظار الأمم من أهل الملل ، وغيرهم ، كما قد بسط الكلام عليه فى الرد على هؤلاء المتفلسفة ، وبين أن ما يدعونه من تركب الأنواع من الأجناس والفصول إنما هو تركب فى الأذهان لاحقيقة له فى الأعيان ، وأن ما يقوم بالأذهان يختلف باختلاف تصور الأذهان .

فتارة يتصور الشئ مجملاً ، وتارة يتصوره مفصلا ، وماسموه تمام الماهية ، والدخل فى الماهية ، والخارج عنها اللازم لها يعود عند التحقيق إلى ما يدل عليه اللفظ بالمطابقة والتضمن والالتزام .

ومدلول اللفظ هو بحسب ما يعينه المتكلم ويقصده ويتصوره ، وهذا يختلف باختلاف إرادات الناس لا يرجع ذلك إلى حقيقة عقلية ولا صفة ذاتية للموجودات .

ولهذا لما كان كلامهم باطلا لم يمكنهم ذكر فرق صحيح بين الذاتى والعرضى اللازم إذ كان كلاهما لازمًا للموصوف ، بل ذكروا ثلاثة فروق والثلاثة باطلة ، واعترف حذاقهم ببطلانها ، كقولهم : إن الذاتى يثبت للموصوف بلا وسط ،

والعرضى اللازم إنما يثبت بوسط ، ثم حذاقهم يفسرون الوسط بالدليل ، كما فسره ابن سينا .

ومنهم من يفسر الوسط بصفة قائمة بالموصوف كما يفسره الرازى وغيره ، وهؤلاء لم يفهموا مراد أولئك فزاد غلطهم ، وأولئك أرادوا بالوسط الدليل ، كما يريدون بالحد الأوسط ما يعرف باللام فى قولك (لأنه) فصار العرضى اللازم عندهم ما يعلم ثبوته للموصوف بدليل ، وهذا لا يرجع إلى حقيقة ثابتة فى نفس الأمر ، بل هذا أمر يتعلق بالعالم بالصفات .

فمنهم من يكون تام التصور فيعلم لزوم الصفة للموصوف بلا دليل .

ومنهم من لا يكون تام التصور فلا يعلم ذلك إلا بدليل ، ثم كل ما كان مستلزمًا لشئ ، فإنه يمكن الاستدلال به عليه ، إذ كان الدليل هو الذى يلزم من تحققه المدلول ، فيكون الوسط كل ما كان مستلزمًا للعرض ، فيكون العرض لازم اللازم .

وهم معترفون بأن من العرضيات ما يلزم بلا وسط ، وقد مثلوا ذلك بالزوجية والفردية فى العدد ، فإن العلم بأن الأربعة زوج والثلاثة فرد وإن كان ظاهرًا لكن العلم بأن خمسمائة وثلاثة وأربعين نصف ألف وستة وثمانين قد يفتقر إلى دليل ، وقد يفتقر إلى تأمل ، وفكر .

وهم يقولون ما يقول ابن سينا - أفضل متأخريهم - وغيره من أن العرض المنقسم إلى الكيف والكم وغير ذلك هو ذاتى لموصوفاته .

واللون المنقسم إلى السواد والبياض هو ذاتى للمتلون .

والسوادية والبياضية صفتان ذاتيتان ، بخلاف الزوجية والفردية .

قالوا : لأن كون هذا أسود وأبيض وعرضًا قائمًا بغيره ، لا يفتقر إلى استدلال ونظر بخلاف كون هذا العدد زوجًا أو فردًا ، فإنه قد يفتقر إلى نظر و استدلال ،

فإنه ينقسم إلى قسمين متساويين أولا ينقسم .

ومعلوم أن هذا فرق يعود إلى علم العالم بهذه الصفات ، هل هو جلى أو خفى وهل يفتقر إلى نظر واستدلال أو لا يفتقر ، أو ليس هو فرقًا يعود إلى الصفة فى نفسها ولا إلى موصوفها ، فعلم أنه ليس بين ما جعلوه ذاتيا مقومًا داخلاً فى الماهية ، وما جعلوه عرضيًا لازمًا خارجًا عن الماهية ، فرق يعود إلى نفس الماهية التى هى الذات الموصوفة الموجودة فى الخارج ، ولا إلى صفاتها ، بل جميع صفاتها اللازمة لها سواء فى ليست الماهية مركبة من هذا دون هذا ولا فيها شئ يتقدم على الماهية فى ذلك الوجود الخارجى .

كما يقولون : إن الذاتى يتقدم على الماهية فى الوجود والذهن ، ولا هى الصفات جواهر موجودة فى الخارج أجزاء الأجسام المركبة ، وإنماهى صفات قائمة بالموصوف يمتنع تقدم شئ منها على الموصوف .

ولكن إذا قيل فى الإنسان : هو جسم حساس نام متحرك بالإرادة ناطق ، فهنا قد يتصور الذهن هذه الأمور ، ويعبر عنها فكل واحد منهما جزء من الجملة التى فى ذهنه ، ولسانه.

والجملة التى فى ذهنه ولسانه مركبة من هذه الأجزاء لا أن الإنسان الموجود فى الخارج مركب من هذه الأجزاء ، وأنها متقدمة عليه أو إنها جواهر ، فإن هذا كله مما يعلم بصريح العقل أنه باطل ، لكن هؤلاء المتفلسفة اليونان ، ومن اتبعهم كثيراً ما يشتبه عليهم ما يتصورونه فى الأذهان بما يوجد فى الأعيان ، كما أثبت من أثبت قدمائهم مثل « فيثاغورث » وأتباعه أعداداً مجردة موجودة فى الخارج .

وقد رد ذلك عليهم سائر العقلاء ، كما رده من بعده منهم

وقالوا : إن العدد المجرد ، والمقدار المجرد إنما يوجد فى الذهن ، لا فى الخارج ، وإنما يوجد فى الخارج المعدودات والمقدورات ، مثل الأجسام المتفرقة التى تعد

كالكواكب ، أو المتصلة التى تقدر كالأفلاك ، وذلك هو المتصف بالكم المتصل والكم المنفصل الموجود فى الخارج .

وأثبت أصحاب أفلاطون الكليات العقلية فى الخارج التى يسمونها « المثل الأفلاطونية » ، وزعموا أنها قديمة أزلية ، وأثبتوا بعدًا موجودًا جوهرًا : هو الخلاء ، وجوهرًا قائما بنفسه : هو الدهر ، وجوهرًا مجردًا قائمًا بنفسه : هو المادة والهيولى الأزلية .

وهذه كلها إنما تتصور فى الأذهان لا فى الأعيان ، بل وما أثبتوه من العقول المجردة العشرة هى أيضًا عند التحقيق ترجع إلى ما يجرده الذهن ، ويقدره فيه لا إلى موجود فى الخارج .

وأصل قولهم : المجردات والمفارقات هو مأخوذ من مفارقة النفس الناطقة للبدن بالموت ، وهذا حق ، فإن الذى عليه الأنبياء وأتباعهم ، وجمهور العقلاء أن الروح تفارق البدن ، وتبقى بعد فراق البدن ، ومن قال من متكلمة أهل الملل أنه لا يبقى بعد البدن روح تفارقه ، وأن الروح جزء من البدن أو عرض من أعراض البدن فقوله مع أنه خطأ فى العقل الصريح هو أيضًا مخالف لكتب الله المنزلة ولرسله ، ولمن اتبعهم من جميع أهل الملل ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : التنبيه على أن تفريق هؤلاء اليونانيين فى الصفات اللازمة للموصوف بين الصفات الذاتية والعرضية اللازمة . وجعلهم اللازمة : منها ما هو لازم للماهية ، ومنها ما هو لازم لوجودها ، هو مبنى على أصلين فاسدين لهم خالفهم فيها جمهور عقلاء الأمم من نظار أهل الملل وغيرهم .

أحد الأصلين : هو ما تقدم من جعلهم الصفات اللازمة للموصوف هى فى الخارج منقسمة إلى ذاتى جزء من الماهية داخل فيها ، وإلى عرضى خارج عنها لازم لها .

والثانى : زعمهم أن كل موجود ممكن ، وله فى الخارج ماهية هى ذاته وحقيقته

غير الموجود المعلوم المعين الثابت فى الخارج ، وهذا أيضًا مما اشتبه عليهم فيه ما فى الذهن بما فى الخارج .

فإنه إذا أريد بالماهية ما يتصور فى الذهن ، وهو القول فى جواب ما هو وبالوجود ما هو ثابت متحقق فى الخارج ،فمعلوم أن هذا غير هذا ، كما يقولون إنا نتصور المثلث قبل أن نعلم وجوده فى الخارج ، فمعلوم أن ماهية املثلث غير المثلث الموجود فى الخارج .فإنه يقال لهم إن أردتم أن ما يتصور في الذهن من المثلث غير الموجود فى الخارج .

وهذا حق ، لكن ليس فى هذا ما يدل على أنه فى الخارج عن الذهن شيئين :

أحدهما : ماهيةالمثلث التى هى حقيقته وذاته .

والثانى : المثلث الموجود الذى هو زاوية الحائط ، وإن أردتم أن فى الخارج شيئين ، فهذا غلط ، وهذا الموضع مما اشتبه على كثير من النظار حتى صار بعض أكابرهم حائرًا متوقفًا .

وبعضهم يختلف قوله ويتناقض وسبب ذلك عدم تميزهم بين ما يتصور فى الأذهان وبين ما يوجد فى الأعيان ، ثم هذا الموضوع نقلوه إلى الكلام فى صفات الله اللازمة له كحياته وعلمه وقدرته هل هى ذاتية أو عرضية ؟

إن قيل : ذاتية لزم أن تكون له أجزاء متقدمة عليه تركب منها ، وإن كانت عرضية لازمة لزم أن يكون قابلاً وفاعلاً . فإن كونه فاعلاً غير كونه قابلاً فلزم أن يكون فيه جهتان ، وهذا من التركيب الذى زعموه منتفيًا ، وذلك يستلزم التركيب ، وهو التركيب من الذاتيات ، وقد بين فساد هذا من وجوه متعددة :

منها: أن التركيب المعقول هو تركيب الحيوان والنبات والمعادن من أبعاضه وأخلاطه ، وتركيب المبنيات والملبوسات والأطعمة والأشربة من أبعاضها وأخلاطها .

أما تركيب الأجسام من الجواهر المنفردة أو من المادة والصورة ، فهذا مما تنازع فيه

جمهـوز العقلاء ، وكذلك تركـيب الشئ من الموجود ، والماهية سـواء كان واجبًا أو ممكنًا هو مما تنازع فيه جمهور العقلاء ، وكذلـك تركبه من الصفات الذاتية المشتركة والمميزة التى يسمونها : الجنس ، والفصل .

وأما اتصاف الذات بصفات تقوم بها ، فهـذا هو الذى يعرفه عامة العقلاء ، ولكن لا يسـمون هذا تركـيبًا ، فـمن سمـاه تركيبًا لم يكن نزاعـه اللفظى قادحًا فـيمـا علم بالأدلة السمعية والعقلية .

ثم هم يقولون : المركب يفتـقر إلى أجـزائه ، أجزاؤه وغيـره ، وواجب الوجود لا يفتقـر إلى غيره ، وهذه كلها ألفاظ مجـملة ، فإن لفظ الافتقار هنا لم يعنوا به افـتقار المفعول إلى فاعله ، ولا المعلول إلى علته الفـاعلية ، فإن جزء الشئ لا يكون فاعلة ولا علتـه الموجبـة له ، بل يريدون به التـلازم والاشـتراط ، فـإن وجود المجـمـوع مسـتلزم لوجود أجزائه ، وهو مشروط بذلك .

ومنها : أن لفظ الجـزء ليس مرادهم جـزءًا مـباينًا للجـملة ، فـإن جزء الجـملة ليس مباينًا لها . ومنها لفظ الغير ، فإنه يراد بالغيرين ما يجوز مباينة أحدهما لصاحبه ، أو مفارقته له بزمان أو مكان أو وجود ، ويراد بهما ما يجوز العلم بأحدهما دون الآخر، وبعض المجموع وصـفة الموصوف لا يجب أن تفارقـهو بل قد يجوز أن تبـاينه تباينه ويجوز أن لا تباينه .

فصفات الرب عز وجل اللازمة له لا يجوز أن تفارقه وتباينه ، وحينئذ فمن الناس من لا يسميها غيرًا له ، ومن سماها غيرًا له فذاته مستلزمة لهـا ليـست الصفات فاعلة للذات ، ولا علة موجبة لها

ولفظ واجب الوجـود يراد به الموجـود بنفـسه الذى لا فـاعل له ، ولا علة فـاعلة ، وذات الرب عـز وجل وصـفـاته واجـبة الوجـود بهـذا الاعـتبـار ، ويراد به مع ذلك المستغنى عن محل يقوم به ، والذات بهذا المعنى واجبة دون الصفات ، ويراد به مـا

لا تعلق له بغيره ، وهذا لا حقيقة له ، فإن الرب تعالى له تعلق بمخلوقاته لاسيما عن هؤلاء الفلاسفة الدهرية الذين يقولون : إنه موجب بذاته للأفلاك مستلزم لها ، فيجعلونه ملزومًا لمفعولاته ، فكيف ينكرون أن تكون ذاته ملزومة لصفاته ؟

وهؤلاء المتفلسفة اليونان الذين يسمون « المسائين » أتباع أرسطو صاحب التعاليم : المنطق ، والطبيعى ، والرياضى ، والإلهى ، يقولون : إن موضوع العلم الطبيعى متعلٍ بالمادة فى الذهن ، والخارج وهو الجسم وأحكامه .

والثاني الرياضى : و هو متعلق بالمادة فى الخارج لا فى الذهن ، فإنه لا يوجد عدد ولا مقدار فى الخارج إلا فى جسم فى الخارج أو عرض ممدود ، أو مقدر منفصل بخلاف الذهن ، فإنه يجرد إعداداً ومقادير مجردة عن المعدودات والمقدورات .

والثالث : الذى يسمونه علم ما بعد الطبيعة باعتبار السلوك العلمى ، وهو علم ماقبلها باعتبار الوجود العينى ، ويسمونه أيضًا « العلم الإلهى » وموضوعه عندهم : المجرد عن المادة فى الذهن والخارج ، وهو الموجود من حيث هو موجود وانقسامه إلى جوهر وعرض ، وانقسام الجوهر إلى جسم ، وغير جسم وانقسام غير الجسم إلى المادة والصورة والعقول والنفوس .

والعلة الأولى يسميها أرسطو وأتباعه جوهرًا. ولايسميها واجب الوجود . وأما متأخروهم كابن سينا وأتباعه يسمونها واجب الوجود ولايسمونها جوهرًا ، والكلام على هؤلاء مبسوط فى موضع آخر ، إذ المقصود هنا أن هذه الأمور التى يقولون هى موضوع العلم الإلهى ، هي المجردة عندهم عن المادة فى الذهن والخارج هى عند التحقيق وجودها فى الأذهان ، ولا فى الأعيان .

فإن الوجود العام الكلى لا يوجد عامًا كليًا إلا فى الأذهان لا فى الأعيان ، كما أن الإنسان العام الكلى ، والحيوان العام الكلى لايوجد عامًا كليًا إلا فى الذهن ، لا فى الأعيان .

وقد بسط الكلام على هؤلاء فى غير هذا الموضع ، وبين أن اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل ، أقرب إلى الحق فى الأمور الإلهية منهم .

وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر ، ولكن نبهنا عليها لتعلقها هنا بقول هؤلاء النصارى إن صفات الرب الثلاث هى جوهرية دون غيرها ، وإنهم إن عنوا بذلك ما يعنيه هؤلاء بالذاتية ، فقولهم باطل مبنى على أصل باطل .

فإن تفريق هؤلاء اليونان فى الصفات اللازمة بين الذاتى والعرضى الازم للموجود ، والعرضى اللازم للماهية ، والعرضى اللازم للموصوف فرق باطل ، وقد ذكروا ثلاث فروق كلها باطلة ، كما تقدم :

الأول : الوسط .

والفرق الثانى : تقدم الذاتى ذهنًا ، ووجودًا بخلاف اللازم العرضى .

والثالث : توقف الحقيقة على الذاتى .

وقد تبين بطلان هذا فى غير هذا الموضع . والنصارى ليس مرادهم بالجوهرية ما يريده هؤلاء بالذاتية ، فلهذا لم نبسط الكلام عليه ، بل يقولون : إن الثلاثة جواهر ، وهؤلاء المنطقيون يفرقون بين اللازم للماهية ، واللازم لوجودها بناء على أن فى الخارج شيئين : الوجود ، وماهية أخرى غير الوجود .

والكلام على هذا كله مبسوط فى موضع آخر .

ومنها : أنه لو قدر أن صفات الموصوفات اللازمة لها تنقسم إلى ذاتى مقوم ، وعرضى لازم ، وأن صفات الرب سبحانه كذلك ، لم يكن تخصيص العلم بأنه ذاتى أولى من القدرة ، فليس ذكر القائم بنفسه الحى العالم بأولى من ذكر القائم بنفسه الحى القادر .

والنصارى لما كانت الأقانيم عندهم ثلاثة ، وزعموا أن الشرع المنزل دل على

ذلك ، وكانوا فى ذلك مخالفين للشرع المنزل إليهم ، كما قد بسط فى موضعه ، صار طائفة منهم يقولون : موجود حى عالم ، وطائفة يقولون : موجود عالم قادر ، فيجعلون القادر مكان الحى ، ويجعلون روح القدس هو القدرة .

وهذا القول وإن كان أحسن فى المعنى لكن تفسير روح القدس بالقدرة فى غاية البعد الذى يظهر فساده لكل أحد ، ولابد لهم من إثبات أقنوم الكلمة الذي يقولون تارة :هى العلم ، وتارة : هي الحكمة ، ويسمونها تارة : النطق ، كما سموها فى كتابهم هذا ، لأن الذى اتحد بالمسيح عندهم هى أقنوم الكلمة فصاروا تارة يضمون إليها الحياة ، وتارة يضمون إليها القدرة . والأب تارة يقولون : هو الوجود ، وتارة يقولون : القائم بنفسه ، وتارة يقولون : الذات ، وتسمى القائم بنفسه بالسريانية : الكيان ، وتارة يقولون : الجود .

وكل هذا من الحيرة والضلال ، لأنهم لا يجدون ثلاث معانى هى المستحقة لأن تكون جوهرية دون غيرها من الصفات سواء فسرت الجوهرية بأنها جواهر ، أو بأنها ذاتية مقومة أو بغير ذلك .

ومنها قولهم : تجرى مجرى أسماء ، فإن أرادوا بذلك أسماء أعلام أو جامدة ، وسائرها صفات ، فاسم الحى والعالم اسم مشتق يدل على معنى العلم والحياة ، كما يدل القدير على القدرة ، وإن أرادوا أنه يسمى بها ، فلله تعالى أسماء كثيرة ، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى .

ومن أسمائه القدير ، والقدرة تستلزم من قدرته على المخلوقات ما لا يدل عليه العلم ، وخلقه للمخلوقات يدل على قدرته أبلغ من دلالته على علمه ، واختصاصه بالقدرة أظهر من اختصاصه بالعلم ، حتى إن طائفة من النظار كأبى الحسن الأشعرى ، وغيره يقول : أخص وصفه القدرة على الإختراع ، فلا يوصف بذلك غيره .

والجهم بن صفوان قبله يقول : ليس فى الوجود قادر غيره ، ولا لغيره قدرة . والأشعرى وإن أثبت للمخلوق قدرة ، لكن يثبت قدرة لا تؤثر فى المقدور ، ولم يقل أحد من العقلاء إن أخص وصفه الحياة والعلم ، ولا أن غيره ليس بحىّ ، ولا عالم فكان جعل القدير اسما وغيره صفة إن كان الفرق حقا أولى من العكس ، فكيف إذا كان الفرق باطلا فإن أسماءه تعالى التى يعرفها الناس هى أسماء وهى صفات فى اصطلاح أهل العربية تدل على معانى ، هى صفاته القائمة به .

فالحى يدل على الحياة والعليم يدل على العلم والقدير يدل على القدرة ، هذا مذهب سلف الأمة وجماهيرها وجماهير الأمم . ومن الناس فرقة شاذة تزعم أن هذه الأسماء لا تدل على معانى كأسماء الأعلام ، وقد تنازع الناس فيما يسمى به سبحانه ، ويسمى به غيره كالحى والعليم والقدير .

فالجمهور على أنه حقيقة فيهما وقالت طائفة كأبى العباس الناشىء : إنها حقيقة فى الرب عز وجل مجاز فى المخلوق . وقالت طائفة عكس هؤلاء من الجهمية والملاحدة والمتفلسفة إنها مجاز فى الرب عز وجل حقيقة فى المخلوق ، والأولون هى عندهم متواطئة ، وقد يسمونها مشككة لما فيها من التفاضل . وبعضهم يقول : هى مشتركة اشتراكًا لفظيًا .

فصل فى قولهم فى تباين الصفات وتوافقها

وأما قولهم : كل صفة منها غير الأخرى ، فهذا إن أرادوا به أن صفات الرب سبحانه وتعالى قد تباينه وتنفصل عنه ، وهو حقيقة قولهم ، ويقولون مع ذلك إنها متصلة به فهو جمع بين النقيضين ، وتمثيلهم بشعاع الشمس تمثيل باطل ، وهو حجة عليهم لا لهم .

فإن الشعاع القائم بالهواء والأرض والجبال والشجر والحيطان ، ليس هو قائم بذات الشمس .

والقائم بذات الشمس ، ليس هو قائمًا بالهواء والأرض . فإن قالوا : ما يقوم به من العلم يفيض منه على قلوب الأنبياء علوم ، كما يفيض الشعاع من الشمس . قيل لهم : لا اختصاص للمسيح بهذا ، بل هذا قدر مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء ، وليس في هذا حلول ذات الرب ولا وصفته القائمة به بشيء من مخلوقاته ، ولا أن العبد بما حل فيه من العلم والإيمان يصير إلهاً معبوداً ، وإن أرادوا أنها قائمة به ، وتسمى كل واحدة غير الأخرى .

فهناك نزاع لفظي ، هل تسمى غيراً أو لا تسمى غيراً ؟ فإن من الناس من يقول : كل صفة للرب عز وجل فهي غير الأخرى ، ويقول : الغيران ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر ، أو ما جاز العلم بأحدهما مع الجهل بالآخر . ومنهم من يقول ليست هي الأخرى ، ولا هي هي لأن الغيرين ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر ، أو ما جاز مفارقة أحدهما الآخر ، بزمان أو مكان أو وجود . والذي عليه سلف الأمة وأئمتها إذا قيل لهم علم الله وكلام الله ، هل هو غير الله أم لا ؟ لم يطلقوا النفي ولا الاثبات ، فإنه إذا قيل لهم غيره أَوْهَمَ أنه مباين لهم .

وإذا قال ليس غيره أوهم أنه هو ، بل يستفصل السائل ، فإن أراد بقوله غيره أنه مباين له منفصل عنه فصفات الموصوف لا تكون مباينة له منفصلة عنه ، وإن كان مخلوقًا ، فكيف بصفات الخالق ؟ وإن أراد بالغير أنها ليست هي هو ، فليست الصفة هي الموصوف ، فهي غيره بهذا الاعتبار ، واسم الرب تعالى إذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما يستحقه من صفات الكمال ، فيمتنع وجود الذات عَرِيَّة عن صفات الكمال .

فاسم الله يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال ، وهذه الصفات ليست زائدة على هذا المسمى ، بل هي داخلة في المسمى ، ولكنها زائدة على الذات المجردة التي تثبتها نفاة الصفات ، فأولئك لما زعموا أنه ذات مجردة قال هؤلاء بل الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات .

وأما فى نفس الأمر ، فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها ، بل الرب تعالى هو الذات المقدسة والموصوفة بصفات الكمال ، وصفاته داخلة فى مسمى أسمائه سبحانه وتعالى .

فصل فيما قالوه فى التثليث

وقولهم : فالإله واحد ، خالق واحد ، رب واحد . هو حق فى نفسه ، لكن قد نقضوه بقولهم فى عقيدة إيمانهم : [نؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، مساوٍ الأب فى الجوهر] فأثبتوا هنا إلهين ، ثم أثبتوا روح القدس إلهًا ثالثًا ، وقالوا إنه مسجود له ، فصاروا يثبتون ثلاثة آلهة ، ويقولون : إنما نثبت إلهًا واحداً ، وهو تناقض ظاهر ، وجمع بين النقيضين : بين الإثبات والنفى .

ولهذا قال طائفة من العقلاء : إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى ، وذلك إن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا ، بل تكلموا بجهل ، وجمعوا فى كلامهم بين النقيضين ، ولهذا قال بعضهم : لو اجتمع عشر نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا . وقال آخر : لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولا ، وامرأته قولا آخر ، وابنه قولا ثالثًا .

فصل في تناقض ماقالوه مع ما في الأمانة

وقولهم : [لا يتبعض ولا يتجزأ] مناقض لما ذكروه فى أمانتهم ، ولما يمثلونه به ، فإنهم يمثلونه بشعاع الشمس ، والشعاع يتبعض ويتجزأ ، فإن ما يقوم منه بهذا الموضع بعض وجزء منه ، ويمكن زوال بعضه مع بقاء بعض ، فإنه إذا وضع على مطرح الشعاع شيء فصل ما بين جانبيه ، وصار الشعاع الذى كان بينهما على ذلك الفوقانى فاصلا بين الشعاعين السافلين .

يبين ذلك أن الشعاع قائم بالأرض والهواء ، وكل منهما متجزىء متبعض ، وما

قام بالمتبعض فهو متبعض ، فإن الحال يتبع المحل ، وذلك يستلزم التبعيض والتجزىء فيما قام به .

ويقولون أيضًا : إنه اتحد بالمسيح وإنه صعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب ، وعندهم أن اللاهوت منذ اتحد بالناسوت لم يفارقه ، بل لما صعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب كان الصاعد عندهم هو المسيح الذى هو ناسوت ولاهوت إله تام ، وإنسان تام ، فهم لا يقولون : إن الجالس عن يمين الأب هو الناسوت فقط ، بل اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت ، فأى تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا ؛ وليس هذا من كلام الأنبياء حتى يقال : إن له معنى لا نفهمه ، بل هو من كلام أكابرهم الذى وضعوه وجعلوه عقيدة إيمانهم ، فإن كانوا تكلموا بما لا يعقلونه ، فهم جهال لا يجوز أن يتبعوا ، وإن كانوا لا يعقلون ما قالوه فلا يعقل أحد من كون اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت المجرد عن الاتحاد ، إلا أن هذا اللاهوت المجرد منفصل مباين للاهوت المتحد ، وليس هو متصلا به ، بل غايته أن يكون مماسًا له ، بل يجب أن يكون الذى يماس اللاهوت المجرد هو الناسوت مع اللاهوت المتحد به،فهذا حقيقة التبعيض والتجزئة مع انفصال أحد البعضين عن الآخر

وأيضًا فيقال لهم : المتحد بالمسيح أهو ذات رب العالمين ، أم صفة من صفاته ؟ فإن كان هو ذات الأب فهو الأب نفسه ، ويكون المسيح هو الأب نفسه ، وهذا مما اتفق النصارى على بطلانه فإنهم يقولون : هو الله ، وهو ابن الله ، كما حكى الله عنهم ، ولا يقولون هو الأب والأبن .

والأب عندهم هو الله ، وهذا من تناقضهم ، وإن قالوا المتحد بالمسيح صفة الرب فصفة الرب لا تفارقه ، ولا يمكن اتحادها ولا حلولها فى شىء دون الذات .

وأيضًا فالصفة نفسها ليست هى الإله الخالق رب العالمين ، بل هى صفة ، ولا يقول عاقل : إن كلام الله ، أو علم الله أو حياة الله هى رب العالمين الذى خلق السماوات والأرض ، فلو قدر أن المسيح هو صفة الله نفسها لم يكن هو الله ، ولم

يكن هو رب العالمين ، ولا خالق السموات والأرض .

والنصارى يقولون : إن المسيح رب العالمين خالق كل شيء ، وهو خالق آدم ، ومريم .وإن كان ابن آدم ومريم ، فإنه خالق ذلك بلاهوته ، هو ابن آدم ومريم بناسوته ، فلو قدر أن المسيح هو صفة الرب لم تكن الصفة هي الخالق ، فكيف والمسيح ليس هو صفة الله نفسها ، بل هو مخلوق بكلمة الله وسمى كلمة الله ، لأن الله كوّنه « بكن » ؟

وقال تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤ ، ٣٥] وسماه روحه ، لأنه خلقه من نفخ روح القدس فى أمه ، لم يخلقه كما خلق غيره من أب آدمى .

قال الله تعالى : ﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٥ : ٤٧] .

وإن قالوا : المتحد به بعض ذلك دون بعض ، فقد قالوا بالتبعيض والتجزئة ، فهم بين أمرين : إما بطلان مذهبهم ، وإما اعترافهم بالتبعيض والتجزئة مع بطلانه ، وأيضًا فقولهم : [إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، ومولود غير مخلوق ، مساو للأب ، فى الجوهر ، ابن الله الوحيد ، المولود قبل كل الدهور] .

يقال لهم : هذا الابن المولود المساوى للأب فى الجوهر ، الذى هو إله حق من إله حق هو صفة قائمة بغيرها أو عين قائمة بنفسها ، فإن كان الأول فالصفة ليست إلهًا ولا هى خالقه ، ولا يقال لها :مولودة من الله ولا أنها مساوية لله فى الجوهر ، ولم يسم قط أحد من الأنبياء ، ولا أتباع الأنبياء صفات الله لا ابناً له ولا ولدًا ، ولا قال

: إن صفة الله تولدت منه ، ولا قال عاقل : إن الصفة تولدت من الذات القديمة .

وهم يقولون : إن المسيح إله خلق السموات والأرض لا تحاد ناسوته بهذا الابن المولود قبل كل الدهور ، المساوى الأب فى الجوهر .

وهذا كله نعت عين قائمة بنفسها ، كالجواهر القائمة بنفسها ، لا نعت صفات قائمة بغيرها ، وإذا كان كذلك التبعيض والتجزئة لازمة لقولهم ، فإن القول بالولادة الطبيعية مستلزم لأن يكون خرج منه جزء ، قال تعالى : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين * أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين * وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهة مسوداً وهو كظيم * أو من ينشؤا فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين * وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾ ، [سورة الزخرف : ١٥ - ١٩]

وأما هذا المعنى الذى يثبته من يثبته من علماء النصارى ويسمونه ولادة وبنوة ، فيسمونه الصفة القديمة الأزلية القائمة بالموصوف ابنا ، ويسمونها تارة : النطق بالكلمة ، وتارة : العلم ، وتارة : الحكمة .

ويقولون : هذا مولود من الله ، وابن الله ، فهذا لم يقله أحد من الأنبياء وأتباعهم ، ولا من سائر العقلاء غير هؤلاء المبتدعة من النصارى ، ولا يفهم أحد من العقلاء من اسم الولادة والبنوة هذا المعنى .

والأنبياء لم يطلقوا لفظ الابن إلا على مخلوق ، وهم يقولون : هو أب للمسيح بالطبع ، ولغيره بالوضع فلا يعقل جمهور العقلاء وغيرهما من هذا إلا البنوة المعقولة بانفصال جزء من الولد ، وهذا ينكره من ينكره من علمائهم ، لكنهم لم يتبعوا الأنبياء ، ولم يقولوا ماتعقله العقلاء ، فضلوا فيما نقلوه عن الأنبياء وأضلوا أتباعهم فيما قالوه وعوامهم ، وإن كانوا لا يقولون : إن ولادة الله مثل ولادة الحيوان بانفصال شئ يوجد ، فيقولون : ولادة لا هوتية بانفصال جزء من اللاهوت حل فى

الناسوت لا يعقل من الولادة غير هذا .

وأيضًا فقولهم : [ونؤمن بروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب الذى هو مع الأب مسجود له وممجد ناطق فى الأنبياء] ، فقولهم المنبثق من الأب الذى هو مسجود وممجد يمتنع أن يقال هذا فى حياة الرب القائمة به ، فإنها ليست منبثقة منه كسائر الصفات ، إذ لو كان القائم بنفسه منبثقًا لكان علمه وقدرته وسائر صفاته منبثقة منه ، بل الإنبثاق فى الكلام أظهر منه فى الحياة ، فإن الكلام يخرج من المتكلم ، وأما الحياة فلا تخرج من الحى ، فلو كان فى الصفات ما هو منبثق لكان الصفة التى يسمونها الابن ، ويقولون : هى العلم والكلام أو النطق والحكمة أولى بأن تكون من الحياة التى هى أبعد عن ذلك من الكلام ، وقد قالوا أيضًا : أنه مع الأب مسجود له وممجد ، والصفة القائمة بالرب ليست معه مسجودًا لها ، وقالوا : هو ناطق فى الأنبياء وصفة الرب القائمة به لا تنطق فى الأنبياء . بل هذا كله صفة روح القدس الذى يجعله الله فى قلوب الأنبياء ، أو صفة ملك من الملائكة كجبريل ، فإذا كان هذا منبثقًا من الأب ، والانبثاق الخروج ، فأى تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا .

وإذا شبهوه بانبثاق الشعاع من الشمس كان هذا باطلا من وجوه منها :

أن الشعاع عرض قائم بالهواء والأرض ، وليس جوهرًا قائمًا بنفسه ، وهذا عندهم حى مسجود له ، وهو جوهر .

ومنها : أن ذلك الشعاع القائم بالهواء والأرض ليس صفة للشمس ، ولاقائمًا بها وحياة الرب صفة قائمة به .

ومنها : أن الانبثاق خصوا به روح القدس ، ولم يقولوا فى الكلمة إنها منبثقة .

والانبثاق لو كان حقًا لكلام الكلام أشبه منه بالحياة ، وكلما تدبر أجهل العالم كلامهم فى الأمانة وغيرها وجد فيه من التناقض والفساد ما لا يخفى إلا على العباد

ووجد فيه من مناقضة التوراة والإنجيل ، وسائر كتب الله ما لا يخفى على من تدبر هذاوهذا.

ووجد فيه من مناقضة صريح المعقول ما لا يخفى إلا على معاند أو جهول ، فقولهم متناقض فى نفسه مخالف لصريح المعقول ، وصحيح المنقول عن جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين .

فصل فيما قالوه من التجسيم والحلول

قالوا : وأما تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتها معا ، أى الكلمة مع الناسوت ، فإنه لم يخاطب البارى أحدًا من الأنبياء إلا وحيًا أو من وراء حجاب ، حسب ما جاء فى هذا الكتاب بقوله : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ [سورة الشورى :٥١].

وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا فى الكثائف مثل روح القدس وغيرها ، فكلمة الله التى بها خلقت اللطائف والكثائف تظهر فى غير كثيف كلا!

ولذلك ظهر عيسى ابن مريم إذ الإنسان أجل ما خلقه الله ، ولهذا خاطب الخلق وشاهدوا منه ما شاهدوا .

والجواب من طرق :

أحدها : أنه يقال : هذا الذى ذكروه، وادعوا أنه تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق ، وولادتهما معًا أى الكلمة مع الناسوت ، وهو الذى يعبر عنه باتحاد اللاهوت بالناسوت ، وهو أمر ممتنع فى صريح العقل ، وما علم أنه ممتنع فى صريح العقل لم يجز أن يخبر به رسول ، فإن الرسل إنما تخبر بما لا يعلم بالعقل أنه ممتنع ، فأماما يعلم بصريح العقل أنه ممتنع ، فالرسل منزهون عن الإخبار عنه .

الطريق الثانى : أن الأخبار الإلهية صريحة بأن المسيح عبدالله ليس بخالق العالم والنصارى يقولون : هو إله تام وإنسان تام .

الطريق الثالث : فيما ذكروه ، فأما الطريق الأول فمن وجوه :

أحدها : أن يقال : المتحد بالمسيح إما أن يكون هو الذات المتصفة بالكلام أو الكلام فقط ، وإن شئت قلت : المتحد به ، إما الكلام مع الذات ، وإما الكلام مع الذات ، وإما الكلام بدون الذات ، فإن كان المتحد به الكلام مع الذات كان المسيح هو الأب وهو الابن وهو روح القدس ، وكان المسيح هو الأقانيم الثلاثة .

وهذا باطل باتفاق النصارى ، وسائر أهل الملل ، وباتفاق الكتب الإلهية ، وباطل بصريح العقل كما سنذكره إن شاء الله .

وإن كان المتحد به هو الكلمة فقط ، فالكلمة صفة ، والصفة لا تقوم بغير موصوفها والصفة ليست إلهًا خالقًا ، والمسيح عندهم إله خالق ، فبطل قولهم على التقديرين ، وإن قالوا : المتحد به الموصوف بالصفة ، فالموصوف هو الأب والمسيح عندهم ليس هو الأب . وإن قالوا : الصفة فقط ، فالصفة لا تفارق الموصوف ولا تقوم بغير الموصوف، والصفة لا تخلق ولا ترزق ، وليست الإله ، والصفة عن يمين الموصوف . والمسيح عندهم صعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وأما كونه هو الأب فقط ، وهو الذات المجردة عن الصفات ، فهذا أشد استحالة وليس فيهم من يقول بهذا الوجه .

الثاني : أن الذات المتحدة بناسوت المسيح مع ناسوت المسيح إن كانتا بعد الاتحاد ذاتين ، وهما جوهران كما كانا قبل الاتحاد ، فليس ذلك باتحاد .

وإن قيل : صار جوهرًا واحدًا ، كما يقول من يقول منهم : إنهما صارا كالنار مع الحديد أو اللبن مع الماء : فهذا يستلزم استحالة كل منهما ، وانقلاب صفة كل منهما ، بل حقيقته كما استحال الماء واللبن إذا اختلطاوالنار مع الحديدة وحينئذ فيلزم أن يكون اللاهوت استحال وتبدلت صفته وحقيقته ، والاستحالة لاتكون إلا بعدم شئ ووجود آخر ، فيلزم عدم شئ من القديم الواجب الوجود بنفسه ، وما وجب

قدمه استحال عدمه ، وما وجب وجوده امتنع عدمه ، فإن القديم لا يكون قديمًا إلا لوجوبه بنفسه ، أو لكونه لازمًا للواجب بنفسه . إذ لو لم يكن لازما له - بل كان غير لازم - ألم يكن قديمًا بقدمه والواجب بنفسه يمتنع عدمه ، ولازمه لا يعدم إلا بعدمه ، فإنه يلزم انتفاء اللازم انتفاء الملزوم .

الوجه الثالث : أن يقال : الناس لهم فى كلام الله عز وجل عدة أقوال ، وقول النصارى باطل على جميع الأقوال التى قالها الناس فى كلام الله فثبت بطلانه على كل تقدير ، وذلك أن كلام الله سبحانه إما أن يكون صفة له قائمًا به ، وإما أن يكون مخلوقًا له بائنًا عنه ؛ وإما أن يكون لا هذا ولا هذا ، بل هو ما يوجد فى النفوس ، وهذا الثالث هو أبعد الأقوال عن الأقوال الأنبياء وهو قول من يقول من الفلاسفة والصابئة : إن الرب لا تقوم به الصفات وليس هو خالقًا باختياره.

ويقولون مع ذلك : إنه ليس عالمًا بالجزئيات ولا قادرًا عن تغيير الأفلاك بل كلامه عندهم ما يفيض على النفوس ، وربما سموه كلامًا بلسان الحال ، وهؤلاء ينفون الكلام عن الله ، ويقولون ليس بمتكلم ، وقد يقولون : متكلم مجازًا لكن ما نطقت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطلقه من دخل فى الملل منهم ثم فسره بمثل هذا ، وهذا أحد قولى الجهمية .

والقول الثانى : أنه متكلم حقيقة لكن كلامه مخلوق خلقه فى غيره وهو قول المعتزلة وغيرهم ، والقول الآخر للجهمية ، وعلى هذين القولين فليس لله كلام قائم به حتى يتحد بالمسيح ، أو يحل به ، والمخلوق عرض من الأعراض ليس بإله خالق ، وكثير من أهل الكتاب : اليهود ، والنصارى من يقول بهذا وهذا .

وأما القول الأول : وهو قول سلف الأمة وأئمتها وجمهورها وقول كثير من سلف أهل الكتاب وجمهورهم - فإما أن يقال الكلام قديم النوع بمعنى أنه لم يزل متكلمًا بمشيئة أو قديم العين ، وإما أن يقال ليس بقديم ، بل هو حادث ، والأول هو

القول المعروف عن أئمة السنة والحديث .

وأما القائلون بقدم العين ، فهم يقولون الكلام لا يتعلق بمشيئته وقدرته لا عتقادهم أنه لا تحله الحوات ، وما كان بمشيئته وقدرته لا يكون إلا حادثًا ، ولهم قولان : منهم من قال القديم معنى واحد ، أو خمسة معان ، وذلك المعنى يكون أمرًا ونهيًا وخبرًا ، وهذه صفات له لاأقسام له ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة ،

ومنهم من قال : هو حروف ، أو حروف وأصوات قديمة الأعيان .

والقول الثالث : إنه متكلم بمشيئته وقدرته كلامًا قائمًا بذاته ، قالوا : وهو حادث ، ويمتنع أن يكون قديمًا ، لا متناع كون المقدور المراد قديمًا ، وهذه الطوائف بنواأقوالهم على أن ما لم يخل عن الحوادث ، فهو حادث لامتناع وجود ما لا نهاية له عندهم ، وإذا امتنع ذلك تعين أن يكون لنوع الحوادث ابتداء ، كما للحادث المعنى ابتداء ولم يسبق الحوادث كان معه أو بعده فيكون حادثًا فلهذا منع هؤلاء أن تكون كلمات الله لانهاية لها فى الأزل ، وإن كان من هؤلاء من يقول بدوام وجودها فى الأبد .

وأما القول بأن كلمات الله لا نهاية لها مع أنها قائمة بذاته فهو القول المأثور عن أئمة السلف ، وهو قول أكثر أهل الحديث ، وكثير من أهل الكلام ، ومن الفلاسفة ، وهذه الأقوال قد بسط الكلام عليها فى غير موضع ، والمقصود هنا أن قول النصارى باطل فى كل قول من هذه الأقوال الأربعة كما تقدم بيان بطلانه على ذلك القولين ، فإنه على قول الجمهور الذين يجعلون لله كلمات كثيرة إما كلمات لا نهاية لها ولم تزل ، وإما كلمات لها ابتداء ، وإذا كان له كلمات كثيرة فالمسيح ليس هو الكلمات التى لا نهاية لها وليس هو كلمات كثيرة بل إنما خلق بكلمة من كلمات الله فى الكتب الإلهية : القرآن والتوراة .

إنه يخلق الأشياء بكلماته .

قال تعالى فى قصة بشارة مريم بالمسيح : ﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٧].

وقال أيضًا : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٩].

وقال : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤ ، ٣٥]وقد أخبر الله فى القرآن بخلقه للأشياء بكلماته فى غير موضع بقوله : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾ ، وفى التوراة : [ليكن يوم الأحد ليكن كذا ، ليكن كذا] .

وأيضًا فعلى قول هؤلاء وعلى قول من يجعل كلامه إما معنى واحدًا وإما خمسة معانى ، وإما حروف وأصوات هى شئ واحد فكلهم يقولون : إن الكلام صفة قائمة بالموصوف لا يتصور أن يكون جوهرًا قائمًا بنفسه ، ولا يتصور أن يكون خالقًا ، ولا للكلام مشيئة ولا جوهر آخر غير جوهر المتكلم ، ولا يتحد بغير المتكلم ، بل جمهورهم يقولون : إنه لا يحل أيضًا بغير المتكلم .

ومن قال بالحلول منهم فلا يقول : إن الحال جوهر ، ولا إله خالق ، فتبين أن ما قاله النصارى باطل على جميع الأقوال التى قالها الناس كلام الله مع أن أكثر هذه الأقوال خطأ ، ولما كان قول النصارى فساده أظهر للعقلاء كان الخطأ الذى فى أكثر هذه الأقوال قد خفى على العقلاء الذين قالوها ، ولم يخف عليهم فساد قول النصارى .

وأيضًا فالذين قالوا بالحلول من الغلاء الذين يكفرهم المسلمون ، كالذين يقولون بحلوله فى بعض أهل البيت أو بعض المشايخ ، وهم إن كانوا كفارًا شاركوا

النصارى فى الحلول ، ولكن لم يقولوا إن الكلمة التى حلت هى الإله الخالق ، فيتناقضون تناقضاً مثل ما فى قول النصارى .

ومن التناقض البين ما ليس فى قول هؤلاء ، وإن كان فى بعض الوجوه قولهم شر من قول النصارى .

والوجه الرابع : أن يقال لو كان المسيح نفس كلمة الله فكلمة الله ليست هى الإله الخالق للسموات والأرض ، ولا هى تغفر الذنوب ، وتجزى الناس بأعمالهم ، سواء كانت كلمة صفة له أم مخلوقة له كسائر صفاته ومخلوقاته ، فإن علم الله وقدرته وحياته لم تخلق العالم ، ولا يقول أحد : يا علم الله اغفر لى ، وياقدرة الله توبى على ، وياكلام الله ارحمنى ، ولا يقول يا توراته أو يا إنجيله أو يا قرآنه اغفر لى و ارحمنى ، وإنما يدعو الله سبحانه ، وهو سبحانه متصف بصفات الكمال فكيف والمسيح هو نفس الكلام ؟

فإن المسيح جوهر قائم بنفسه ، والكلام صفة قائمة المتكلم ، وليس هو نفس الرب المتكلم ، فإن الرب المتكلم هو الذى يسمونه الأب ، والمسيح ليس هو الأب عندهم ، بل الابن ، فضلوا فى قولهم من جهات ، منها جعل الأقانيم ثلاثة ، وصفات الله لا تختص بثلاثة .

ومنها : جعل الصفة خالقة ، والصفة لا تخلق .

ومنها : جعلهم المسيح نفس الكلمة ، والمسيح خلق بالكلمة ، فقيل له : كن فكان ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى تفسير ذلك ، وإنما خص المسيح بتسميته كلمة الله دون سائر البشر لأن سائر البشر خلقوا على الوجه المعتاد فى المخلوقات بخلق الواحد من ذرية آدم من نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، وخلقوا من ماء الأبوين الأب والأم .

والمسيح عليه السلام لم يخلق من ماء رجل ، بل لما نفخ روح القدس فى أمه حبلت به ، وقال الله له : كن فكان ، ولهذا شبهه الله بآدم فى قوله : ﴿ إن مثل

عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٩] فإن آدم عليه السلام خلق من تراب وماء ، فصار طينا ثم أيبس الطين ، ثم قال له : كن فكان ، وهو حين نفخ الروح فيه صار بشراً تاماً ، لم يحتج بعد ذلك إلى ما احتاج إليه أولاده بعد نفخ الروح ، فإن الجنين بعد نفخ الروح يكمل خلق جسده في بطن أمه ، فيبقى في بطنها نحو خمسة أشهر ، ثم يخرج طفلا يرتضع ثم يكبر شيئًا بعد شئ ، وآدم عليه السلام حين خلق جسده قيل له كن فكان بشراً تامًا ينفخ الروح فيه ، ولكن لم يسم كلمة الله لأن جسده خلق من التراب والماء ، وبقى مدة طويلة - يقال : أربعين سنة - فلم يكن خلق جسده إبداعيًا في وقت واحد ، بل خلق شيئًا فشيئا ، خلق الحيوان من الطين معتاد في الجملة

وأما المسيح عليه السلام فخلق جسده خلقًا إبداعيًا بنفس نفخ روح القدس في أمه ، قيل له : كن فكان ، فكان له من الاختصاص - بكونه خلق بكلمة الله - مالم يكن لغيره من البشر ، ومن الأمر المعتاد في لغة العرب وغيرهم أن الأسم العام إذا كان له نوعان خصت أحد النوعين باسم وأبقت الاسم العام مختصاً بالنوع كلفظ الدابة والحيوان ، فإنه عام في كل ما يدب وكل حيوان ، ثم لما كان للآدمي اسم يخصه بقي كلفظ الحيوان يختص به البهيم .

ولفظ الدابة يختص به الخيل أو هي والبغال والحمير ونحو ذلك ، وكذلك لفظ الجائز والممكن ، وذوى الأرحام ، وأمثال ذلك ، فلما كان لغير المسيح ما يختص به ، أبقى اسم الكلمة العامة مختصاً بالمسيح .

الطريق الثاني : أن ما ذكروه حجة عليهم ، فإن الله إذا لم يكلم أحداً من الأنبياء إلا وحيًا أو من وراء حجاب ، فالمسيح عيسى ابن مريم يجب أن لا يكلمه إلا وحيًا أو من وراء حجاب ، أو يرسل إليه رسولا .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب ﴾ ، [سورة الشورى : ٥١] يعم كل بشر : المسيح وغيره ، وإذا امتنع أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب فامتناع أن يتحد به ، أو يحل فيه أولى وأحرى فإن ما اتحد

به وحل فيه كلمة من غير حجاب بين اللاهوت والناسوت ، وهم قد سلموا أن الله لا يكلم بشراً إلا من وراء حجاب .

الوجه الثالث : أن قوله ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب ﴾ ، [سورة الشورى : ٥١] يقتضى أن يكون الحجاب حجابًا يحجب البشر كما حجب موسى ، فيقتضى ذلك أنهم لا يرونه فى الدنيا ، وإن كلمهم كما أنه كلم موسى ولم يره موسى ، بل سأل الرؤية فقال : ﴿ رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ ، [سورة الأعراف ١٤٣].

قيل : [أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد فى الدنيا] ، وعندهم فى التوراة أن الإنسان لا يمكنه أن يرى الله فى الدنيا فيعيش ، وكذلك قال عيسى لما سألوه عن رؤية الله فقال : [إن الله لم يره أحد قط] . وهذا معروف عندهم ، وإذا كان كذلك فلابد أن يكون الحجاب الحاجب للبشر ليس هو من البشر ، وهذا يبطل قول النصارى فإنهم يقولون : إن الرب احتجب بحجاب بشرى ، وهو الجسد الذى ولدته مريم فاتخذه حجابًا ، وكلم الناس من ورائه .

والقرآن يدل على أن الحجاب ليس من البشر .

يبين هذا الوجه الرابع : وهو أن ذلك الجسد الذي ولدته مريم هو من جنس أجسام بنى آدم ، فإن جاز أن يتحد به ، ويحل فيه ، ويطيق الجسد البشرى ذلك في الدنيا بما يجعله الله فيه من القوة جاز أن يتحد بغيره من الأجسام بما يجعله فيه من القوة ، وإذا جاز أن يتحد به جاز أن يكلمها بغير حجاب بينه وبينها بطريق الأولى والأحرى .

وهذا خلاف ماذكروه وخلاف القرآن ، فتبين أن نفي الأنبياء لأن يراه المرء في الدنيا هو نفي لماسته بشر بطريق الأولى والأحرى . والناسوت المسيحي هو بشر . فإذا لم يمكنه أن يرى الله ، فكيف يمكنه أن يتحد به ، ويماسه ويصير هو وإياه كاللبن والماء ، والنار والحديد ، أو كالروح والبدن ؟

والوجه الخامس : أنه من المعلوم أن رؤية الآدمي له أيسر من إتحاده به ، وحلوله فيه ، وأولى بالإمكان فإذا كانت الرؤية فى الدنيا قد نفاها الله ، ومنعها على ألسن رسله موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، فكيف يجوز اتصاله بالبشر واتحاده به .

الوجه السادس : أنه لو كان حلوله في البشر مما هو ممكن وواقع لم يكن لاختصاص واحد من البشر بذلك دون من قبله وبعده ، فإن القدوة شاملة والمقتضى – وهو وجود الله وحاجة الخلق – موجود ، ولهذا لما كانت الرسالة ممكنة أرسل من البشر غير واحد ، ولما كان سماع كلامه للبشر ممكنًا سمع كلامه غير واحد . ورؤيته في الدنيا بالأبصار لم تقع لأحد باتفاق علماء المسلمين ، لكن لهم في النبى صلى الله عليه وسلم قولان ، والذي عليه أكابر العلماء وجمهورهم أنه لم يره بعينه ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

والخلة لما كانت ممكنة اتخذ إبراهيم خليلا ، واتخذ محمداً أيضًا خليلا كما في الصحيحين من غير وجه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) : « إن الله

(١) « موضوع » رواه ابن ماجه فى « المقدمة » باب « فضل العباس بن عبد المطلب » (١/٥٠ح١٤١) عن « عبد الله بن عمرو » وقال البوصيرى فى « الزوائد » (١/٧٣) : « هذا إسناد ضعيف لا تفاقهم على ضعف عبد الوهاب بل قال فيه أبوداود يضع الحديث . وقال الحاكم : روى أحاديث موضوعة وشيخه إسماعيل اختلط بآخره »

ورواه الحاكم (٢/٥٥٠) عن « جندب » وقال ك « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

ورواه الطبرانى فى « الكبير » (٨/٢٣٧ح٧٨١٦) عن « أبى أمامة » وقال الهيثمى فى « المجمع » (٩/٤٥) وفيه على بن يزيد الألهانى وهو ضعيف ، قلت : وعبيد الله بن زحر مثله وحكم شيخنا بوضعه »

وقال الألبانى فى « ضعيف الجامع » (رقم ١٥٣٠) : « حديث ابن عمرو موضوع » وعزاه لابن ماجه والضعيف برقم (٣٠٣٤) وقال أيضاً عن حديث « أبى أمامة » فى « ضعيف الجامع » (رقم ١٥٣١) « موضوع » وعزاه للطبرانى والضعيفة (رقم ٣٠٣٥)

اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » . وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « لو كنت متخذًا - من أهل الأرض - خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » يعني نفسه .

الوجه السابع ، قولهم : وإذا كانت اللطائف لاتظهر إلا في الكثائف مثل الروح وغيرها ، فكلمة الله التي بها خلقت الكثائف تظهر في غير كثيف كلا ؟ فيقال لهم : ظهور اللطائف في الكثائف كلام مجمل ، فإن أردتم أن روح الإنسان تظهر في جسده ، أو الجني يتكلم على لسان المصروع ونحو ذلك فليس هذا مما نحن فيه ؛ وإن أردتم أن الله تعالى نفسه يحل في البشر ، فهذا محل النزاع فأين الدليل عليه؟ وأنتم لم تذكروا إلا مايدل على نقيض ذلك .

والوجه الثامن : أن هذا أمر لم يدل عليه عقل ولانقل ، ولانطق نبي من الأنبياء بأن الله يحل في بشر ، ولا ادعى صادق قط حلول الرب ، وإنما يدعي الكذابون كالمسيح الدجال الذي يظهر في آخر الزمان ، ويدعي الإلهية فينزل الله تبارك وتعالى عيسى ابن مريم مسيح الهدى فيقتل مسيح الهدى - الذي ادعيت فيه الإلهية بالباطل - المسيح الدجال الذي ادعى الإلهية بالباطل ، ويبين أن البشر لايحل فيه رب العالمين .

---

(١) « صحيح »

رواه مسلم في كتاب « فضائل الصحابة » باب « من فضائل أبي بكر رضي الله عنه » (١٨٥٥/٤ ، ١٨٥٦ح٢٣٨٣)

ورواه الترمذي في كتاب « المناقب » باب « مناقب أبي بكر » (١٣٧/١٠ - ١٣٩ح٣٧٢٥) وقال : « وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة وابن عباس وابن الزبير . »

ورواه النسائي في الكبرى في كتاب « المناقب » باب « فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه » (٣٥/٥ ، ٣٦ح٨١٠٤ ، ٨١٠٥)

ورواه ابن ماجه في كتاب « المقدمة » باب « فضل أبي بكر رضي الله عنه » (٣٦/١ح٩٣)

ولهذا لما أنذر النبى صلى الله عليه وسلم بالمسيح الدجال ، وقال (١) « ما من نبي إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال حتى نوح أنذر قومه به » .

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم له ثلاث دلائل ظاهرة تظهر لكل مسلم تبّين كذبه .

أحدها (٢) : قوله مكتوب بين عينيه كافر « كـ ف ر » ويقرأه كل مؤمن : قارئ وغير قارئ .

الثاني قوله (٣) : «واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت ». فبين أن الله لايراه أحد في الدنيا بعينه ، وكل بشر فإنه يرى في الدنيا بالعين ، فعلم أن الله لايتحد ببشر .

الثالث : قوله (٤) : إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور . ودلائل نفي الربوبية عنه كثيرة ، ولكن لما كان حلول اللاهوت في البشر واتحاده به مذهبًا ضل به طوائف كثيرون من بني آدم : النصارى وغيرهم ، وكان المسيح الدجال يأتى بخوارق عظيمة ، والنصارى احتجوا على إلهية المسيح بمثل ذلك .

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم من علامات كذبه أموراً ظاهرة لايحتاج فيها إلى بيان موارد النزاع التى ضل فيها خلق كثير من الآدميين ، فإن كثيرًا من الناس ، بل أكثرهم تدهشهم الخوارق حتى يصدقوا صاحبها قبل النظر في إمكان دعواه ، وإذا صدقوه صدقوا النصارى فى دعوى الهية المسيح ، وصدقوا أيضًا من ادعى الحلول والاتحاد فى بعض المشايخ ، أو بعض أهل البيت أو غيرهم من أهل الإفك والفجور .

---

(١) سبق تخريجه

(٢) سبق تخريجه

(٣) سبق تخريجه

(٤) سبق تخريجه

وبهذا يظهر الجواب عما يورده بعض أهل الكلام كالرازى على هذا الحديث حيث قالوا : دلائل كون الدجال ليس هو الله ظاهرة ، فكيف يحتج النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ؟ وهذا السؤال يدل على جهل قائله بما يقع فيه بنو آدم من الضلال ، وبالأدلة البينة التى تبين فساد الأقوال الباطلة ، وإلا فإذا كان بنو إسرائيل في عهد موسى ظنوا أن العجل هو إله موسى ، فقالوا : ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ وظنوا أن موسى نسيه .

والنصارى مع كثرتهم يقولون : أن المسيح هو الله ، وفي المنتسبين إلى القبلة خلق كثير يقولون : ذلك كثير في المشايخ ، أو أهل البيت حتى إن كثيراً من أكابر شيوخ المعرفة والتصوف يجعلون هذا نهاية التحقيق والتوحيد ، وهو أن يكون الموحِّد هو الموحَّد وينشدون :

ما وحَّد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد

توحيد من يخبر عن نعته عارية أبطالها الواحد

توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد

فكيف يستبعد من إظهار الدجال هذه الخوارق العظيمة أن يعتقد فيه أنه الله ، وهو يقول : أنا الله ، وقد اعتقد ذلك فيمن لم يظهر فيه مثل خوارقه من الكذابين ، وفيمن لم يقل : أنا الله كالمسيح ، وسائر الأنبياء والصالحين .

الوجه العاشر : قولهم فكلمة الله التى بها خلقت اللطائف تظهر في غير كثيف كلا . فيقال لهم : كلمة الله التى يدعون ظهورها فى المسيح ، أهى كلام الله الذي هو صفته أو ذات الله المتكلمة أو مجموعهما ؟ فإن قلتم : الظاهر فيه نفس الكلام فهذا يراد به شيئان :

إن أريد به أن الله أنزل كلامه على المسيح ، كما أنزله على غيره من الرسل ، فهذا حق اتفق عليه أهل الإيمان ، ونطق به القرآن .

وإن أريد به أن كلام الله فارق ذاته وحلّ في المسيح أو غيره ، فهو باطل مع أن هذا لاينفع النصاري ، فإن المسيح عندهم إله خلق السموات والأرض ، وهو عندهم ابن آدم وخالق آدم ، وابن مريم وخالق مريم ، ابنها بناسوته وخالقها بلاهوته . وإن أرادوا بظهور الكلمة ظهور ذات الله أو ظهور ذاته وكلامه في الكثيف الذي هو الإنسان ، فهذا أيضاً يراد به ظهور نوره في قلوب المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ كوكب دريٌّ ﴾ ، [سورة النور :٣٥] .

وكما ظهر الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران ، وكما تجلى لإبراهيم ، كما ذكره في التوراة ، فهذا لايختص بالمسيح ، بل هو كغيره كما هو له .

وإن أرادوا أن ذات الرب حلّت في المسيح ، أو في غيره فهذا محل النزاع ، فأين دليلهم على إمكان ذلك ، ثم وقوعه ؟ مع أن جماهير العقلاء من أهل الملل وغيرهم يقولون : هذا غير واقع ، بل هو ممتنع .

الوجه الحادي عشر : قولهم : فكلمة الله التى بها خلقت اللطائف تظهر فى غير كثيف كلاً ، كلام باطل . فإن ظهور ما يظهر من الأمور الإلهية إذا أمكن ظهوره فظهوره في اللطيف أولى من ظهوره في الكثيف ، فإن الملائكة تنزل بالوحى على الأنبياء عليهم السلام ، وتتلقى كلام الله من الله ، وتنزل به على الأنبياء عليهم السلام ، فيكون وصول كلام الله إلى الملائكة قبل وصوله إلى البشر ، وهم الوسائط كما قال تعالى : ﴿ أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء ﴾ ، [سورة الشورى : ٥١] . والله تعالى أيّد رسله من البشر حتى أطاقوا التلقى عن الملائكة ، وكانت الملائكة تأتيهم أحيانا فى غير الصورة البشرية ، وأحيانًا في الصورة البشرية ، فكان ظهور الأمور الإلهية باللطائف ووصولها إليهم أولى منه بالكثائف ، ولو جاز أن

يتحد الرب سبحانه بحيّ من الأحياء ويحلّ فيه ، لكان حلوله فى ملك من الملائكة واتحاده به أولى من حلوله واتحاده بواحد من البشر .

الوجه الثانى عشر : أن الناسوت المسيحى عندهم الذى اتحد به هو البدن والروح معًا ، فإن المسيح كان له بدن وروح ، كما لسائر البشر ، واتحد به عندهم اللاهوت ، فهو عندهم اسم يقع على بدن وروح آدميين وعلى اللاهوت ، وحينئذ فاللاهوت على رأيهم إنما اتحد في لطيف وهو الروح ، وكثيف وهو البدن لم يظهر في كثيف فقط ، ولولا اللطيف الذى كان مع الكثيف ، وهو الروح لم يكن للكثيف فضيلة ولاشرف .

الوجه الثالث عشر : أنهم يشبهون اتحاد اللاهوت بالناسوت باتحاد الروح بالبدن كما شبهوا هنا ظهوره فيه بظهور الروح في البدن ، وحينئذ فمن المعلوم أن مايصيب البدن من الآلام تتألم به الروح ، وماتتألم به الروح يتألم به البدن فيلزمهم أن يكون الناسوت لما صلب وتألم وتوجع الوجع الشديد كان اللاهوت أيضًا متألمًا متوجعًا . وقد خاطبت بهذا بعض النصارى فقال لى : الروح بسيطة ، أى لايلحقها ألم ، فقلت له : فما تقول في أرواح الكفار بعد الموت أمنعّمة أو معذّبة ؟ فقال : هي في العذاب . فقلت : فعلم أن الروح المفارقة تنعم وتعذب ، فإذا شبهتم اللاهوت في الناسوت بالروح في البدن لزم أن تتألم إذا تألم الناسوت كما تتألم الروح إذا تألم البدن ، فاعترف هو وغيره بلزوم ذلك .

الوجه الرابع عشر : أن قولهم : وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف فكلمة الله لاتظهر إلا فى كثيف كلاً تركيب فاسد لادلالة فيه ، وإنما يدل إذا بينوا أن كل لطيف يظهر في كثيف ، ولايظهر في غيره حتى يقال : فلهذا ظهر الله في كثيف ، ولم يظهر في لطيف ، وإلا فإذا قيل : إنه لايحل في لطيف ، ولا كثيف ، أو قيل إنه يحل فيهما بطل قولهم بوجوب حلوله في المسيح الكثيف ، دون اللطيف ،

وهم لم يؤلفوا الحجة تأليفًا منتجًا ، ولا دلوا على مقدماتها بدليل ، فلا أتوا بصورة الدليل ، ولا مادته ، بل مغاليط لاتروج إلا على جاهل يقلدهم .

ولايلزم من حلول الروح في البدن أن يحل كل شئ في البدن ، بل هذه دعوى مجردة وأرواح بنى آدم تظهر في أبدانهم ، ولاتظهر في أبدان البهائم ، بل ولافي الجن ، والملائكة تتصور في صورة الآدميين ، وكذلك الجن والإنسان لايظهر في غير صورة الإنسان فأي دليل من كلامهم على أن الرب يحل في الإنسان الكثيف ، ولايحل في اللطيف ؟

والقوم شرعوا يحتجون على تجسيم كلمة الله الخالقة فقالوا : وأما تجسيم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معًا ، أي الكلمة مع الناسوت فإن الله لم يكلم أحدًا من الأنبياء إلا وحيًا ، أو من وراء حجاب ، وليس فيما ذكروه قط دلالة لا قطعية ولاظنية على تجسيم كلمة الله الخالقة ، وولادتها مع الناسوت .

الوجه الخامس عشر : أنهم قالوا : وأما تجسم كلمة الله الخالقة ، ثم قالوا : فكلمة الله التى بها خلقت اللطائف فتارة يجعلونها خالقة ، وتارة يجعلونها مخلوقًا بها ، ومعلوم أن الخالق ليس هو المخلوق به والمخلوق به ليس هو الخالق ، فإن كانت الكلمة خالقة ، فهى خلقت الأشياء ، ولم تخلق الأشياء بها ، وإن كانت الأشياء خلقت بها ، فلم تخلق الأشياء ، بل خلقت الأشياء بها، ولو قالوا : إن الأشياء خلقت بها بمعنى أن الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له : كن فيكون ، لكان هذا حقًا لكنهم يجعلونها خالقة ، مع قولهم بما يناقض ذلك .

الوجه السادس عشر : أن يقال لهم : إذا كان الله لم يخاطب بشرًا إلا وحيًا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه مايشاء ، فتكليمه للبشر بالوحى ومن وراء حجاب ، كما كلم موسى ، وبإرسال ملك كما أرسل الملائكة ، إما أن يكون كافيا فى حصول مراد الرب من الرسالة إلى عباده ، أو ليس كافيا ، بل لابد من

حلوله نفسه في بشر ، فإن كان ذلك كافيًا أمكن أن يكون المسيح مثل غيره فيوحي الله إليه أو يرسل إليه ملكًا فيوحي بإذن الله مايشاء ، أو يكلمه من وراء حجاب كما كلم موسى ، وحينئذ فلاحاجة به إلي اتحاده ببشر مخلوق . وإن كان المتكلم ليس كافيا وجب أن يتحد بسائر الأنبياء ، كما اتحد بالمسيح فيتحد بنوح وإبراهيم وموسى وداود وغيرهم ، يبين هذا :

الوجه السابع عشر : وهو أنه من المعلوم أن الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح أفضل من عوام النصارى الذين كانوا بعد المسيح ، وأفضل من اليهود الذين كذبوا المسيح ، فإذا كان الرب قد يفضل باتحاده في المسيح حتى كلم عباده بنفسه فيتحد بالمسيح محتجبًا ببدنه الكثيف ، وكلم بنفسه اليهود المكذبين للمسيح وعوام النصارى ، وسائر من كلمه المسيح فكان أن يكلم من هم أفضل من هؤلاء من الأنبياء والصالحين بنفسه أولى وأحرى مثل من يتحد بإبراهيم الخليل ، فيكلم إسحق ويعقوب ولوطًا محتجبا ببدن الخليل ، أو يتحد بيعقوب فيكلم أولاده أو غيرهم محتجبا ببدن يعقوب ، أو يتحد بموسى بن عمران فيكلم هارون ويوشع ابن نون وغيرهما محتجبا ببدن موسى ، فإذا هو كان سبحانه لم يفعل ذلك ، إما لامتناع ذلك ، وإما لأن عزته وحكمته أعلى من ذلك مع عدم الحاجة إلى ذلك ، علم أنه لايفعل ذلك في المسيح بطريق الأولى والأحرى .

الوجه الثامن عشر : أنه إذا أمكنه أن يتحد ببشر فاتحاده بملك من الملائكة أولى وأحرى وحينئذ فقد كان اتحاده بجبريل الذى أرسله إلى الأنبياء أولى من اتحاده ببشر يخاطب اليهود ، وعوام النصارى .

فصل فيما ادعوه من ظهوره فى عيسى ابن مريم

قالوا : ولذلك ظهر فى عيسى ابن مريم ، إذ الإنسان أجل ماخلقه الله ولهذا خاطب الخلق ، وشهدوا منه ماشاهدوا .

فيقال : إن ادعيتم ظهوره في عيسى كما ظهر في إبراهيم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وكما يظهر في بيوته التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وذلك بظهور نوره ومعرفته ، وذكر أسمائه وعبادته ، ونحو ذلك من حلول ذاته في البشر ولا اتحاده به ، فهذا أمر مشترك بين المسيح وغيره فلا اختصاص للمسيح بهذا ، وهذا أيضاً قد يسمى حلولاً ، وعندهم أن الله يحل في الصالحين ، وهذا مذكور عندهم في بعض الكتب الإلهية ، كما في كتبهم في المزمور الرابع من الزبور .

يقول داود عليه السلام في مناجاته لربه : [وليفرح المتوكلون عليك إلى الأبد ، ويبتهجون ، وتحل فيهم ويفتخرون] فأخبر أنه يحل في الصالحين المذكورين ، فعلم أن هذا لا اختصاص للمسيح به ، وليس المراد بهذا باتفاقهم واتفاق المسلمين أن ذات الله نفسه تتحد بالبشر ، ويصير اللاهوت والناسوت كالنار والحديد ، والماء واللبن ، ونحو ذلك مما يمثلون به الاتحاد ، بل هذا يراد به حلول الإيمان به ومعرفته ، ومحبته وذكره وعبادته ، ونوره وهداه .

وقد يعبر عن ذلك بحلول المثال العلمي ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الله في السموات وفى الأرض ﴾ ، [سورة الأنعام : ٣] . ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾ ، [سورة الروم : ٢٧] .

فهو سبحانه له المثل الأعلى فى قلوب أهل السموات وأهل الأرض .

ومن هذا الباب مايرويه النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه قال (١) : « يقول

---

(١) رواه البخارى معلقاً (٥٠٨/١٣) فى كتاب « التوحيد » باب قوله تعالى « لا تحرك به لسانك » ورواه أيضاً فى كتاب « خلق أفعال العباد » (ص ١٣١ ح٣٤٤) .
ورواه ابن ماجه فى كتاب كتاب « الأدب » باب « فضل الذكر » (١٢٤٦/٢ ح٣٧٩٢)
وقال البوحيدى فى « الزوائد » (١٨٨/٣ ح١٣٢٣) : « هذا إسناد حسن ، محمد بن مصعب القرقصانى قال فيه صالح بن محمد : ضعيف فى الأوزاعى ، وروى عن الأوزاعى غير حديث كلها منا كير وليس لها أصول قلت : لم ينفرد به محمد بن مصعب ، فقد رواه ابن حبان فى صحيحه من=

الله : أنا مع عبدى ماذكرنى ، وتحركت بي شفتاه » فأخبر أن شفتيه تتحرك به أي باسمه ، وكذلك قوله في الحديث الصحيح (١) : « عبدي مرضت فلم تعدني ، فيقول العبد : رب كيف أعودك وأنت رب العالمين .، فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده » .

فقال : « لوجدتني عنده » ولم يقل : لوجدتنى إياه ، وهو عنده أي في قلبه ، والذي في قلبه المثال العلمي .

وقال تعالى : « عبدي جعت فلم تطعمني ، فيقول : وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانًا جاع ، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي » ، ولم يقل : لوجدتني قد أكلته .

وكذلك قوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى :(٢) « من عادى لي وليًا فقد آذنته

طريق أيوب بن سويد عن الأوزاعى به ، وأيوب بن سويد ضعيف أيضاً » ، محمد بن مصعب قال عند الحافظ فى « التقريب » (رقم ٦٣٠٢) : « صدوق ، كثير الغلط »، أيوب بن سويد : قال عن أيضاً الحافظ فى التقريب » (رقم « ٦١٥ ») : « صدوق ، يخطئ »

=ورواه ابن بن المبارك؛ فى « الزهد » (ص ٣٣٩ح ٩٥٦)

ورواه أحمد (٢/٥٤٠)

ورواه ابن حبان فى « صحيحه » (٣/٩٧ح٨١٥) ورواه الحاكم (١/٤٩٦) وصحح إسناده ووافقه الذهبى

ورواه البيهقى فى « الشعب » (٣/٤٠٥ ، ٤٠٦ح٥٠٦ ، ٥٠٧) وعزاه إليه الحافظ فى « الفتح » (١٣/٥٠٩) فى الدلائل لكنه عزاه له فى التغليف فى الدعوات

ورواه أيضاً البغوى فى « شرح للسنه » (٥/١٣ ح٢٤٢)وانظر تغليف التعليق (٥/٣٦٢: ٣٦٤) وقد عزاه أيضاً إلى الطبرانى فى الدعاء وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٢/٣١٧ح٣٠٥٩)

(١) « صحيح »

رواه مسلم في كتاب « البر » باب « فضل عيادة المريض » (٤/١٩٩٠ح ٢٥٦٩)

(٢) سبق تخريجه .

بالحرب ، وما تقرَّب إليَّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » .

وفي رواية « فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشي ، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنّه ، وماترددت عن شئ أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته » .

وهذا الحديث قد يحتج به القائلون بالحلول العام ، أو الاتحاد العام . أو وحدة الوجود ، وقد يحتج به من يقول : بالخاص من ذلك ، كأشباه النصارى .

والحديث حجة على الفريقين ، فإنه قال : « من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب » فأثبت ثلاثة : وليًا له ، وعدوا يعادي وليًا له ، وميَّز بين نفسه وبين وليه ، وعدو وليه ، فقال : « من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب » ولكن دل ذلك على أن وليه الذى والاه فصار يحب مايحب ، ويبغض مايبغض ، ويوالي من يوالي ، ويعادي من يعادي ، فيكون الرب مؤذنًا بالحرب لمن عاداه ، بأنه معاد لله .

ثم قال تعالى : « وماتقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه » ففرق بين العبد المتقرب ، والرب المتقرب إليه ، ثم قال : « ولايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه » فبين أنه يحبه بعد تقربه بالنوافل والفرائض .

ثم قال : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها » وعند أهل الحلول والاتحاد العام أو الوحدة هو صدره وبطنه وظهره ورأسه وشعره ، وهو كل شئ ، أو في كل شئ قبل التقرب وبعده ، وعند الخاص صار هو ، وهو كالنار والحديد ، والماء واللبن لايختص بذلك آلة الإدراك والفعل .

ثم قال تعالى : « فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبي يمشي » وعلى قول

هؤلاء ، الرب هو الذي يسمع ويبصر ويبطش ويمشي ، والرسول إنما قال : « فبي » ثم قال : « ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » فجعل العبد سائلاً مستعيذاً ، والرب مسئولاً مستعاذاً به ، وهذا يناقض الاتحاد ، وقوله : « فبي يسمع » مثل قوله : « ماتحركت به شفتاه » يريد به المثال العلمي .

وقول الله : « فيكون الله في قلبه » أي معرفته ومحبته وهداه وموالاته ، وهو المثال العلمي ، فبذاك الذي في قلبه يسمع ويبصر ويبطش ويمشي .

والمخلوق إذا أحب المخلوق أو عظمه أو أطاعه يعبر عنه بمثل هذا ، فيقول : أنت في قلبي وفي فؤادي ، ومازلت بين عيني ، ومنه قول القائل :

مثالك في عيني وذكراك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب ؟

وقول الآخر :

ومن عجبي أني أحنُّ إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويطلبهم قلبي وهم بين أضلعي

ومثل هذا كثير مع علم العقلاء أن نفس المحبوب المعظم هو في نفسه ليست ذاته في عين محبه ولافي قلبه ، ولكن قد يشتبه هذا بهذا حتي يظن الغالطون أن نفس المحبوب المعبود في ذات المحب العابد .

ولذلك غلط بعض الفلاسفة حتى ظنوا أن ذات المعلوم المعقول يتحد بالعالم العاقل ، فجعلوا العقول والعقل والعاقل شيئًا واحداً ، ولم يميزوا بين حلول مثال المعلول ، وبين حلول ذاته ، وهذا يكون لضعف العقل وقوة سلطان المحبة والمعرفة ، فيغيب الإنسان بمعبوده عن عبادته وبمحبوبه عن محبته وبمشهوده عن شهادته ، وبمعروفه عن معرفته فيفنى من لم يكن عن شهود العبد لا أنه نفسه يغدم ويفنى من لم يزل في شهوده ، ومن هذا المقام إذا غلط قد يقول مسلمًا مثل مايحكى عن أبى يزيد

البسطامي : سبحاني سبحاني ، أو مافي الجبة إلا الله . وفي هذا يذكر حكاية ، وهو أن شخصاً كان يحب آخر ، فألقى المحبوب نفسه في ماء فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فلم وقعت أنت ؟ فقال : غبت بك عني ، فظننت أنك أني . فهذا العبد المحب لما استولى على قلبه سلطان المحبة صار قلبه مستغرقًا في محبوبه ، لايشهد قلبه غير مافي قلبه وغاب عن شهود نفسه وأفعاله فظن أنه هو نفس المحبوب ، وهذا أهون من أن يظن أن ذات المحبوب نفسه .

فهذا الظن لاتحاد الذات أو لحلولها ظن غالط وقع فيه كثير من الناس ، فالذين قالوا : إن المسيح أو غيره من البشر هو الله ، أو أن الله حال فيه قد يكون غلطتهم من هذا الجنس لما سمعوا كلاماً يقتضى أن الله في ذات الشخص ، وجعلوا فعل هذا فعل هذا ، ظنوا ذاك اتحاد الذات وحلولها .

وإنما المراد أن معرفة الله فيه ، وإتحاد المأمور به ، والمنهى عنه ، والموالى والمعادي كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ ، [سورة الفتح : ١٠] . وقوله : ﴿ من يُطع الرسولَ فقد أطاعَ الله ﴾ [سورة النساء : ٨٠] .

وليس ذلك لأن الرسول هو الله ولا لأن الله نفسه حال في الرسول ، بل لأن الرسول أمر بما يأمر الله به ، وينهى عما ينهى الله عنه ، ويحب مايحبه الله ، ويبغض مايبغضه الله ، ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداء الله .

فمن بايعه على السمع والطاعة ، فإنما بايع الله على السمع والطاعة ، ومن أطاعه فإنما أطاع الله .

وكذلك المسيح ، وسائر الرسل إنما يأمرون بما يأمر الله به ، وينهون عما نهى الله عنه ، ويوالون أولياء الله ، ويعادون أعداء الله ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن صدقهم فقبل منهم ما أخبروا به فقد قبل عن الله ، ومن والاهم فقد والى الله ، ومن عاداهم وحاربهم فقد عادى الله وحارب الله ، ومن تصور هذه الأمور تبين له أن

لفظ الحلول قد يعبر بها عن معنى صحيح ، وقد يعبر بها عن معنى فاسد .

وكذلك حلول كلامه في القلوب ، ولذلك كره أحمد بن حنبل الكلام في لفظ حلول القرآن في القلوب ، كما ذكر في غير هذا الموضع .

ومما يوضح هذا أن الشئ له وجود في نفسه هو ، وله وجود في المعلوم والأذهان ووجود في اللفظ واللسان ، ووجود في الخط والبيان : ووجود عيني شخصي ، وعلمي ولفظي ، ورسمي ، وذلك كالشمس مثلا فلها تحقق في نفسها ، وهي الشمس التي في السماء ، ثم يتصور بالقلب الشمس ، ثم ينطق اللسان بلفظ الشمس ، ويكتب بالقلم الشمس .

والمقصود بالكتابة مطابقة اللفظ ، وباللفظ مطابقة العلم ، وبالعلم مطابقة المعلوم ، فإذا رأى الإنسان في كتاب خط الشمس أو سمع قائلا يذكر قال : هذه الشمس قد جعلها الله سراجًا وهاجًا ، وهذه الشمس تطلع من المشرق وتغرب في المغرب ، فهو يشير إلى ماسمعه من اللفظ ورآه من الخط ، وليس مراده نفس اللفظ والخط ، فإن ذلك ليس هو الشمس التي تطلع وتغرب وإنما مراده مايقصد بالخط واللفظ ويراد بهما ، وهو المدلول المطابق لهما ، وكذلك قد يرى اسم الله مكتوبا في كتاب ، ومعه اسم صنم ، فيقول : آمنت بهذا ، وكفرت بهذا ، ومراده أنه مؤمن بالله كافر بالصنم ، فيشير إلى اسمه المكتوب ومراده المسمى بهذا الاسم ، وكذلك إذا سمع من يذكر أسماء الله الحسنى قال : هذا رب العالمين ، ومراده المسمى بتلك الأسماء ، ومن هذا قول أنس بن مالك (١) : كان نقش خاتم النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة

(١) « صحيح »
رواه البخارى فى كتاب « الخميس » باب « ما ذكر من درع النبى صلى الله عليه وسلم .. »
(٦/٢٢٤ح٣١٠٦)
ورواه أيضاً برقم (٥٨٧٨)
ورواه الترمذى فى كتاب « اللباس » باب « ما جاء فى نقش الخاتم » (٥/٤٢٤ح١٧٩٩) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب « وفى الباب عن ابن عمر .

أسطر : محمد رسول الله ، محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر .

ومراده بهذه الأسماء الخط لهذا وهذا ، وهذا لا اللفظ ولا المسمى ، ومما يشبه هذا مايرى في المرآة أو الماء ، مثل أن يرى الشمس أو غيرها في ماء أو مرآة فيشار إلى المرئى ، فيقال : هذا الشمس ، وهذا وجهي أو وجه فلان ، وليس مراده أن نفس الشمس أو وجهه أو وجه فلان حل في الماء أو المرآة ، ولكن لما كان المقصود بتلك الرؤية هو الشمس وهو الوجه ذكره ، ثم قد يقال : رآه رؤية مقيدة في الماء : وقد يقال : رآه بواسطة الماء والمرآة ، وقد يقال : رأي مثاله وخياله المحاكي له . ولكن المقصود بالرؤية هو نفسه ، ومثل هذا كثير .

ومعلوم أن مافي القلوب من المثال العلمي المطابق للمعلوم أقرب إليه من اللفظ ، واللفظ أقرب من الخط ، فإذا كان يشار إلى اللفظ والخط ، والمراد هو نفسه ، وإن لم يكن الخط واللفظ هو ذاته ، بل به ظهر وعرف فلأن يشار إلى مافي القلب ، ويراد به المعروف الذي ظهر للقلب وتجلى للقلب ، وصار نوره في القلب بطريق الأولى .

والعقلاء إنما تتوجه قلوبهم إلى المقصود والمراد دون الوسائل ، ويعبرون بعبارات تدل على ذلك لظهور مرادهم بها ، كما يقولون لمن يعرف علم غيره ، أو لمن يأمر بأمره ، ويخبر بخبره ،هذا فلان ، فإذا كان مطلوبهم علم عالم أو طاعة أمير فجاء نائبه القائم مقامه في ذلك ، قالوا هذا فلان ، أي المطلوب منه هو مع هذا ، فا لاتحاد المقصود بهما يعبرون عن أحدهما بلفظ الآخر .

كما يقال : عكرمة : هو ابن عباس ، وأبو يوسف : هو أبو حنيفة ، ومن هذا الباب مايذكر عن المسيح عليه السلام أنه قال : [أنا وأبى واحد ، من رآني فقد رأى أبى] .

وقوله تعالى فيما حكاه عنه رسوله (١) : « عبدى مرضت فلم تعدني ، عبدى

---

(١) سبق تخريجه .

جعت فلم تطعمنى » ويشبهه قوله : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ ، [سورة الفتح : ١٠] . فينبغى أن يعرف هذا النوع من الكلام ، فإنه تنحل به إشكالات كثيرة ، فإن هذا موجود في كلام الله ورسله وكلام المخلوقين في عامة الطوائف ، مع ظهور المعنى ومعرفة المتكلم والمخاطب أنه ليس المراد أن ذات أحدهما اتحدت بذات الآخر .

بل أبلغ من ذلك يطلق لفظ الحلول والاتحاد ، ويراد به معنى صحيح ، كما يقال فلان وفلان بينهما اتحاد ، إذا كانا متفقين فيما يحبان ويبغضان ، ويواليان ويعاديان ، فلما اتحد مرادهما ومقصودهما صار يقال هما متحدان ، وبينهما اتحاد ، ولايعني بذلك أن ذات هذا اتحدت بذات الآخر ، كاتحاد النار والحديد ، والماء واللبن ، أو النفس والبدن ، وكذلك لفظ الحلول والسكنى والتخلل وغير ذلك كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني   وبذا سمى الخليل خليلا

والمتخلل مسلك الروح منه هو محبته له وشعوره به ، ونحو ذلك لا نفس ذاته ، وكذلك قول الآخر :

ساكن فى القلب يعمره   لست أنساه فأذكره

والساكن في القلب هو مثاله العلمى ومحبته ومعرفته ، فتسكن في القلب معرفته ومحبته لاعين ذاته ، وكذلك الآخر :

إذا سكن الغدير على صفاء   وجنّب أن يحركه النسيم

بدت فيه السماء بلا امتراء   كذاك الشمس تبدو والنجوم

كذاك قلوب أرباب التجلى   يرى في صفوها الله العظيم

وقد يقال : فلان مافي قلبه إلا الله ، وماعنده إلا الله ، يراد بذلك : إلا ذكره

ومعرفته ومحبته وخشيته وطاعته ، ومايشبه ذلك أي ليس في قلبه مافي قلب غيره من المخلوقين ، بل ما فى قلبه إلا الله وحده ، ويقال : فلان ماعنده إلا فلان إذا كان يلهج بذكره ، وبفضله على غيره .

وهذا باب واسع مع علم المتكلم والمستمع أن ذات فلان لم تحل في هذا ، فضلاً عن أن تتحد به ، وهذا كما يقال عن المرآة إذا لم تقابل إلا الشمس : ما فيها إلا الشمس أي لم يظهر فيما غير الشمس .

وأيضًا فلفظ الحلول يراد به حلول ذات الشئ تارة ، وحلول معرفته ومحبته ومثاله العلمى تارة كما تقدم ذكره ، وعندهم فى النبوات أن الله حل فى غير المسيح من الصالحين ، وليس المراد به أن ذات الرب حلت فيه ، بل يقال : فلان ساكن في قلبي ، وحالٌ في قلبي ، وهو في سري ، وسويداء قلبي ، ونحو ذلك ، وإنما حلٌ فيه مثاله العلمى ، وإذا كان كذلك فمعلوم أن المكان إذا خلا ممن يعرف الله ويعبده لم يكن هناك ذكر الله ، ولاحلت فيه عبادته ومعرفته ، فإذا صار في المكان من يعرف الله ويعبده ويذكره ظهر فيه ذكره ، والإيمان به وحل فيه الإيمان بالله وعبادته وذكره ، وهو بيت الله عز وجل ، فيقال : إن الله فيه ، وهو حالٌ فيه .

كما يقال : إن الله في قلوب العارفين ، وحالٌ فيهم ، والمراد به حلول معرفته والإيمان به ومحبته ، ونحو ذلك ، وقد تقدم شواهد ذلك ، فإذا كان الربُ في قلوب عباده المؤمنين ، أي نوره ومعرفته ، وعبر عن هذا بأنه حال فيهم ، وهم حالون في المسجد قيل : إن الله في المسجد ، وحال فيه بهذا المعنى ، كما يقال : الله في قلب فلان ، وفلان ماعنده إلا الله ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح (١) « أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده » .

(١) سبق تخريجه

ومما يزيد ذلك إيضاحاً مايراه النائم من بعض الأشخاص في منامه ، فيخاطبه ويأمره وينهاه ويخبره بأمور كثيرة ، وهو يقول : رأيت فلانًا في منامي فقال لي : كذا ، وقلت له : كذا ، وفعل كذا ، وفعلت كذا . ويذكر أنواعًا من الأقوال والأفعال.

وقد يكون فيها علوم وحكم وآداب ينتفع بها غاية المنفعة ، وقد يكون ذلك الشخص الذي رأي في المنام حيًا ، وهو لايشعر بأن ذاك رآه في منامه فضلاً عن أن يكون شاعراً بأنه قال أو فعل ، وقد يقص الرائى عليه رؤياه ، ويقول له الرائي : ياسيدي رأيتك فى فقلت لى : كذا ، وأمرتني بكذا ، ونهيتنى عن كذا ، والمرئى لايعرف ذلك ، ولايشعر به ، لأن المرئى الذي حل في قلب الرائى هو المثال العلمي المطابق للعيني ، كما يرى الرائي في المرآة أو الماء الشخص الموجود في الخارج ، فهو المقصود ، وبعض المرئيين في المنام قد يدري بأنه رؤى في المنام ويكاشف بذلك الرائي كما قد يكاشفه بأمور أخرى ، لا لأنه نفسه حل فيه .

والرؤيا إذا كانت صادقة كان ذلك القول والعمل مناسبًا لحال المرئى ، مما هو عادته بقوله وبفعله بنفسه ، فمثل للرائى مثاله قائلاً له وفاعلاً ليعلم أنه نفسه بقوله وبفعله فينتفع بذلك الرائي ، كما يحكى للإنسان قول غيره وعمله ليعرف بذلك نفس القول والعمل المحكي ، فإن كثيراً من الأشياء لاتعرفه الناس أو أكثرهم إلا بالمثل المضروب لـــه إما في اليقظة وإما في المنام ، مع العلم بأن عين هذا ليس عين هذا ، ومن توهم أنه إذا رأى شخصًا في منامه بأن ذاته نفسها حلت فيه دل على جهله ، فإن المرئى كثيراً مايكون حيًا وهو لايشعر بما رآه ، ذلك لاروحه تشعر ولاجسمه ، فلا يتوهم أن ذات روحه تمثلت في صورته الجسمية للنائم ، بل الممثل في نفس الرائى مثال مطابق له وجسمه وروحه حيث هما .

ثم الرؤيا قد تكون من الله ، فتكون حقًا وقد تكون من الشيطان ، كما ثبت تقسيمها إلى هذين في الأحاديث الصحيحة ، والشيطان كما قد يتمثل في المنام

بصورة شخص يراه كثير من الناس يضل بذلك من لم يكن من أهل العلم والإيمان ، كما يرى لكثير من مشركي الهند وغيرهم إذا مات ميتهم يرونه قد جاء بعد ذلك وقضى ديونًا ، ورد ودائع وأخبرهم بأمور عن موتاهم ، وإنما هو شيطان تصور في صورته وقد يأتيهم في صورة من يعظمونه من الصالحين ، ويقول : أنا فلان ، وإنما هو شيطان .

وقد يقوم شيخ من الشيوخ ، ويخلف موضعه شخصًا في صورته يسمونه روحانية الشيخ ورفيقه ، وهو جنى تصور في صورته ، وهذا يقع لكثير من الرهبان وغير الرهبان من المنتسبين إلى الإسلام ، وقد يرى أحدهم في اليقظة من يقول له : أنا الخليل ، أو أنا موسى أو أنا المسيح ، أو محمد ، أو أنا فلان لبعض الصحابة أو الحواريين ويراه طائرًا في الهواء ، وإنما يكون ذلك من الشياطين ، ولاتكون تلك الصورة مثل صورة ذلك الشخص .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :(١) « من رآني في المنام فقد رآني حقًا ، فإن الشيطان لايتمثل في صورتي » فرؤيته في المنام حق ، وأما في اليقظة فلايرى بالعين هو ، ولا أحد من الموتى ، مع أن كثيرًا من الناس قد يرى في اليقظة من يظنه نبيًا من الأنبياء إما عند قبره ، وإما عند غير قبره .

وقد يرى القبر انشق ، وخرج منه صورة إنسان فيظن أن الميت نفسه خرج من قبره ، أو أن روحه تجسدت وخرجت من القبر ، وإنما ذلك جنيٌّ تصور في صورته ليضل ذلك الرائي ، فإن الروح ليست مما تكون تحت التراب وينشق عنها التراب ، فإنها وإن كانت قد تتصل بالبدن ،فلا يحتاج في ذلك إلى شق التراب ، والبدن لم ينشق عنه التراب ، وإنما ذلك تخييل من الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لكثير من

---

(١) سبق تخريجه

المتسبين إلى المسلمين ، وأهل الكتاب ، والمشركين .

ويظن كثير من الناس أن هذا من كرامات عباد الله الصالحين ، ويكون من إضلال الشياطين ، كما قد بسط الكلام في هذا الباب في غير هذا الكتاب ، مثل (الفرقان بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان) وغير ذلك .

فصل في أنه لا دليل على حلول ذاته واتحاده بالمسيح

وإن أردتم بقولكم ظهر في عيسى حلول ذاته واتحاده بالمسيح أو غيره . فهذه دعوى مجردة من غير دليل متقدم ولامتأخر ، وكون الإنسان أجلّ ماخلقه الله لو كان مناسبًا لحلوله فيه أمر لايختص به المسيح ، بل قد قام الدليل على أن غير عيسى عليه السلام أفضل منه مثل إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وهذان اتخذهما الله خليلين ، وليس فوق الخلة مرتبة ، فلو كان يحل في أجلّ ماخلقه الله من الانسان لكونه أجلّ مخلوقاته لحل في أجل هذا النوع ، وهو الخليل ، ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وليس معهم قط حجة على أن الجسد المأخوذ من مريم إذا لم يتحد باللاهوت على أصلهم أنه أفضل من الخليل وموسى .

وإذا قالوا : إنه لم يعمل خطيئة ، فيحيى بن زكريا لم يعمل خطيئة ومن عمل خطيئة وتاب منها فقد يصير بالتوبة أفضل مما كان قبل الخطيئة ، وأفضل ممن لم يعمل تلك الخطيئة والخليل وموسى أفضل من يحيى الذى يسمونه « يوحنا المعمداني » .

وأما قولهم : ولهذا خاطب الخلق ، فالذى خاطب الخلق هو عيسى ابن مريم ، وإنما سمع الناس صوته لم يسمعوا غير صوته ، والجني إذاحل في الانسان وتكلم على لسانه يظهر للسامعين أن هذا الصوت ليس هو صوت الآدمي ، ويتكلم بكلام يعلم الحاضرون أنه ليس كلام الآدمي .

والمسيح عليه السلام لم يكن يسمع منه إلا مايسمع من مثله من الرسل ؛ ولو كان المتكلم على لسان الناسوت هو جنيًا أو ملكا لظهر ذلك وعرف أنه ليس هو البشر ،

فكيف إذا كان المتكلم هو رب العالمين ؟ فإن هذا لو كـان حقًا لظهر ظهوراً أعظم من ظهور كلام الملك والجنى على لسان البشر بكثير كثير.

وأما ما شاهدوه من معجزات المسيح عليه الصلاة والسلام فقد شاهدوا من غيره ما هو مثلها وأعظم منهـا ، وقد أحيا غيره الميت وأخبر بالغيوب أكثر منـه ، ومعجزات موسى أعظم من معجزاته وأكثر ، وظهور المعجزات على يديه يدل على نبوته ورسالتـه ، كمـا دلت المعجزات على نبوة غيره ، ورسالـتهم لا تدل على الإلهية . والدجـال لما ادعى الإلهيـة لم يكن مايظهـر على يديه من الخوارق دليلا عليـها ، لأن دعوى الإلهية ممتنعة ، فلا يكون في ظهور العجائب مايدل على الأمر الممتنع .

فصل فيما تأوله اليهود في البشارة بالمسيح

قالوا : قد قال الله على أفواه الأنبياء المرسلين ، الذين تنبوا على ولادته من العذراء الطاهرة مريم ، وعلى جميع أفعاله التى فعلهـا في الأرض ، وصعوده إلى السمـاء ، وهذه النبوات جميعـها عند اليهود مقرين ومعترفين بهـا ويقرونها في كنائسهم ، ولم ينكروا منها كلمة واحدة .

فيقال : هذا كل مما لاينازع فيه المسلمون ، فإنه لاريب أنه ولد من مريم العـذراء البتـول التى لم يمسـها بشـر قط ، وأن الله أظهـر على يديه الآيات ، وأنه صعـد إلى السماء ، كما أخبر الله بذلك فى كتـابه كما تقدم ذكره ، فإذا كان هذا مما أخبرت به الأنبيـاء في النبوات التى عند اليهـود لم ينكروا ذلك ، وإن كان اليهـود يتأولون ذلك على غيـر المسيح ، كما في النبوات من البشارة بمحـمد صلى الله عليه وسلم ، فـهو حق ، وإن كان الكافرون به من أهل الكتاب يتأولون ذلك على غيره .

فصل فى الفرق بين المسيح والمسيخ

قالوا : وسئلنا أن نذكر من بعض قول الأنبـياء الذين تنبـؤا على السيد المسيـح ، ونزوله إلى الأرض ، قـال « عزرا » الكاهن حيث سباهم « بـختنصر الفـريدي » إلى

أرض بابل إلى أربعمائة واثنين وثمانين سنة : [يأتي المسيح ويخلص الشعوب والأمم] ، وفي كمال هذه المدة أتى السيد المسيح ، فيقال : أما قول عزرا الكاهن فليس فيه إلا إخباره بأنه يأتي المسيح ويخلص الشعوب والأمم ، وهذا مما لا يتنازع فيه المسلمون ، فإنهم يقرون بما أخبر الله به في كتابه من إتيان المسيح عليه السلام ، وتخليص الله به كل من آمن به من الشعوب والأمم إلى أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم .

فكل من كان مؤمنا بالمسيح ، متبعًا لما أنزل عليه من غير تحريف ولا تبديل ، فإن الله خلصه بالمسيح من شر الدنيا والآخرة ، كما خلص الله تعالى بموسى من اتبعه من بني إسرائيل ، ومن حرف وبدّل فلم يتبع المسيح ومن كذّب محمدا صلى الله عليه وسلم فهو كمن كذب المسيح بعد أن كان مقرًا بموسى عليه السلام .

ولكن هذا النص وأمثاله حجة على اليهود الذين يتأوّلون ذلك على أن هذا ليس هو المسيح ابن مريم ، وإنما هو مسيح ينتظر ، وإنما ينتظرون المسيح الدجال مسيح الضلالة ، فإن اليهود يتبعونه ويقتلهم المسلمون معه حتى يقول الشجر والحجر : يامسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله . وهكذا قال في النبوة الثانية التي ذكروها عن « أرميا » النبي عليه السلام .

فصل في أن عيسى ليس بدعًا من الرسل

قالوا : وقال « أرميا » النبي عن ولادته في ذلك الزمان : [يقوم لداود ابن ، وهو ضوء النور يملك الملك ، ويعلم ويفهم ويقيم الحق والعدل في الأرض ، ويخلص من آمن به من اليهود ومن بني إسرائيل وغيرهم ويبقى بيت المقدس بغير مقاتل ، ويسمى الإله] ، وأما قوله [ابن لداود] لأن مريم كانت من نسل داود ، ولأجل ذلك قال [ويقوم لداود ابن] .

والجواب أن يقال : قد قال فيه : [ويخلص من آمن به من اليهود ، ومن بني

إسرائيل] وهو كما فسرنا به التخليص الذي نقلوه عن عذرا الكاهن .

وأما قوله [واسمه الإله] فهذا يدل على أنه ليس هو الله رب العالمين ، وإنما لفظ الإله اسم سمى به كما يسمى موسى إلهًا لفرعون عندهم في التوراة ، إذا لو كان هوالله رب العالمين لكان أجل من أن يقال ويسمى الإله ، فإن الله تبارك وتعالى لايعرف بمثل هذا ، ولايقال فيه : إن الله يسمى الإله ولقال : يأتى الله بنفسه فيظهر ، ويقال : يملك الملك ، ورب العالمين مازال ولايزال مالكا للملك سبحانه .

وأيضًا فإنه قال : [يقوم لداود ابن هو ضوء النور] ومعلوم أن الإبن الذى من نسل داود الذي اسم أمه مريم هو الناسوت فقط ، فإن اللاهوت ليس من نسل بشر ، وقد تبين أن هذا الناسوت الذي هو ابن داود ، ويسمى الإله فعلم أن هذا اسم للناسوت المخلوق لا للإله الخالق .

وأيضًا فإنه قال : وهو ضوء النور لم يجعله النور نفسه ، بل جعله ضوء النور والله تعالى منوِّر كل نور ، فكيف يكون هو ضوء النور ، والله تعالى قد سمى محمدًا صلى الله عليه وسلم سراجًا منيرا ، ولم يكن بذلك خالقًا ، فكيف إذا سمى ضوء النور ؟

وأيضًا فإنه لم يجعل القائم إلا ابن داود ، وابن داود مخلوق ، وأضاف الفعل إلى هذا المخلوق ، ولو كان هذا هو الله رب العالمين قد اتحد بالناسوت البشري لبيِّن « أرميا » وغيره من الأنبياء ذلك بيانًا قاطعًا للعذر ، ولم يكتفوا بمثل هذه الألفاظ التى هى إما صريحة أو ظاهرة فى نقيض ذلك أو مجملة لاتدل على ذلك فإنه من المعلوم أن إخبارهم بإتيان نبي من الأنبياء أمر معتاد ممكن ، ومع هذا يذكرون فيه من البشارات والدلائل الواضحة مايزيل الشبهة .

وأما الإخبار بمجئ الرب نفسه وحلوله ، أو اتحاده بناسوت بشرى فهو :

إما ممتنع غير ممكن كما يقوله أكثر العقلاء من بني آدم ، ويقولون : يعلم بصريح

العقل أن هذا ممتنع .

وإما ممكن كما يقوله بعض الناس ، وحينئذ فإمكانه خُفي على أكثر العقلاء ، وهو أمر غير معتاد ، وإتيان الرب بنفسه أعظم من إيتان كل رسول ونبي ، لاسيما إذا كان إتيانه باتحاده ببشر لم يظهر على يديه من الآيات مايختص بالإلهية ، بل لم يظهر على يديه إلا ماظهر على يد غيره من الأنبياء ماهو مثله وأعظم منه ، والله تعالى لما كان يكلم موسى ولم يكن موسى يراه ولايتحد لابموسى ولابغيره ، ومع هذا فقد أظهر من الآيات على ذلك ، وعلى نبوة موسى مالم يظهر مثله ولاقريب منه على يد المسيح .

فلو كان هو بذاته متحداً بناسوت بشري لكان الأنبياء يخبرون بذلك إخباراً صريحاً بيناً لايحتمل التأويلات ، ولكان الرب يظهر على ذلك من الآيات مالم يظهر على يد رسول ولانبي ، فكيف والأنبياء لم ينطقوا في ذلك بلفظ صريح بل النصوص الصريحة تدل على أن المسيح مخلوق ولم تأت آية على خلاف ذلك ، بل إنما تدل الآيات على نبوة المسيح .

فصل في أن ما جاء في الإنجيل نظير مافي التوراة

قالوا : وقال « أشعيا » النبي : [قل لصهيون هنا تفرح وتتهلل ، فإن الله يأتي ويخلص الشعوب ، ويخلص من آمن به وبشعبه ويخلص مدينة بيت المقدس ، ويظهر الله ذراعه الطاهر فيها لجميع الأمم المبددين ويجعلهم أمة واحدة ، ويبصّرون جميع أهل الأرض من خلاص الله ، لأنه يمشي معهم وبين يديهم ويجمعهم إله إسرائيل] .

فيقال : هذا يحتاج أولا : أن يعلم أن في هذه النبوة أن هذا الكلام نقل بلاتحريف للفظه ، ولاغلط في الترجمة ولم يثبت ذلك ، وإذا ثبت ذلك فحينئذ هو نظير مافي التوراة من قوله : [جاء الرب من طور سينا ، وأشرق من ساعير ،

واستعلن من جبال فاران] .

ومعلوم أنه ليس في هذا مايدل على أن الله حالٌ في موسى بن عمران ، ولا متحد به ، ولا أنه حال في جبال فاران ، ولا أنه متحد بشيءٍ من طور سينا ، ولاساعير .

وكذلك هذا اللفظ لايدل على أنه حال في المسيح ومتحد به ، إذ كلاهما سواء ، **وإذا قيل** : المراد بذلك قربه ودنوه كتكليم موسى ، وظهور نوره وهداه وكتابه ودينه ، ونحو ذلك من الأمور التي وقعت ، قيل وهكذا في المسيح عليه السلام .

وقوله : [ويظهر الله ذراعه الطاهر لجميع الأمم المبددين] ، قد قال في التوراة مثل هذا في غير موضع ، ولم يدل ذلك على اتحاده بموسى عليه السلام ، كقوله : وأما قوله عن الأمم المبددين فيجعلهم أمة واحدة ، فهم الذين اتبعوا المسيح ، فإنهم كانوا متفرقين مبددين فجعلهم أمة واحدة .

وأما قوله : ويبصرون جميع أهل الأرض خلاص الله ، لأنه يمشي معهم وبين يديهم ، ويجمعهم إله إسرائيل ، فمثل هذا في التوراة في غير موضع ، ولم يدل ذلك على اتحاده بموسى ولاحلوله فيه ، كقوله في السفر الخامس من التوراة يقول موسى لبني إسرائيل : [لاتهابوهم ولاتخافوهم ، لأن الله ربكم سائر بين أيديكم هو محارب عنكم] .

وفي موضع قال موسى : [إن الشعب هو شعبك ، فقال : أنا أمضى أمامك فارتحل ، فقال : إن لم تمض أنت أمامنا وإلا فلا تصعدنا من ههنا ، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أني وجدت أمامك نعمة كذا يعلمك إلا بسيرك معنا] .

وفي السفر الرابع من الفصل الثالث عشر : [ربى اصعدن هؤلاء من بينهم بقدرتك ، فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونه عينًا بعين ، وغمامك يقيم عليهم ، وبعمود غمام يسير بين أيديهم نهارًا ، وبعمود نار ليلا] .

وفي التوراة أيضًا :

يقول الله لموسى : [إني آت إليك في غلظ الغمام لكي يسمع القوم مخاطبتي لـك] .

ثم قوله :

[اجمع سبعين رجلا من شيوخ بني إسرائيل ، وخذهم إلى خباء العرب يقفون معك حتى أخاطبهم] .

فصل في معنى حلول الله

قالوا : وقال « زكريا » النبي :

[افرحي يا بيت صهيون ، لأني آتيك وأحل فيك وأترابًا ، قال الله : ويؤمن بالله في ذلك اليوم الأمم الكثيرة ، ويكونون له شعبًا واحدًا ، ويحل هو وهم فيك ، وتعرفين أني أنا الله القوي الساكن فيك ، ويأخذ الله في ذلك اليوم الملك من يهودا ، ويملك عليهم إلى الأبد] .

فيقال مثل هذا قد ذكر عندهم عن إبراهيم وغيره من الأنبياء أن الله تجلى له ، واستعلن له وترايا له ، ونحو هذه العبارات ، ولم يدل على حلوله فيه .

وكذلك إتيانه ، وهو لم يقل إنى أحل فى المسيح وأتحد به ، وإنما قال عن بيت صهيون : [آتيك وأحل فيك] كما قال مثل ذلك عندهم فى غير هذا ولم يدل على حلوله فى بشر ، وكذلك قوله : [وتعرفين أنى أنا الله القوى الساكن فيك] ، ولم يرد بهذا اللفظ حلوله فى المسيح ، فإن المسيح لم يسكن بيت المقدس وهو قوى بل كان يدخلها وهو مغلوب مقهور حتى أخذ وصلب أو شبهه ، والله سبحانه إذا حصلت معرفته والإيمان به فى القلوب اطمأنت وسكنت .

وكان بيت المقدس لما ظهر فيه دين المسيح عليه بعد رفعه حصل فيه من الإيمان بالله ومعرفته ما لم يكن قبل ذلك .

وجماع هذا أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور وسائر

نبوات الأنبياء لم تخص المسيح بشئ يقتضى اختصاصه باتحاد اللاهوت به وحلوله فيه ، كما يقوله النصارى ، بل لم تخصه إلا بما خصه به محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] .

فكتب الأنبياء المتقدمة ، وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم يصدق بعضها بعضاً ، وسائر ما تستدل به النصارى على إلهيته من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك الكلمات فى حق غير المسيح ، فتخصيص المسيح بالإلهية ودون غير باطل ، وذلك مثل اسم الابن والمسيح ، ومثل حلول روح القدس فيه ، ومثل تسميته إلهاً ، ومثل ظهور الرب أو حلوله فيه أو سكونه فيه أو فى مكانه .

فهذه الكلمات وما أشبهها موجودة فى حق غير المسيح وعندهم ، ولم يكونوا بذلك آلهة ، ولكن القائلين بالحلول والاتحاد فى حق جميع الأنبياء والصالحين قد يحتجون بهذه الكلمات .

وهذا المذهب باطل باتفاق المسلمين واليهود والنصارى ، وهو باطل فى نفسه عقلاً ونقلاً ، وإن كان لطوائف من أهل الإلحاد والبدع المنتسبين إلى المسلمين واليهود والنصارى تقول به فهؤلاء اشتبه عليهم ما يحل فى قلوب العارفين به من أهل الإيمان به ومعرفته ونوره وهداه والروح منه ، وما يعبر عنه بالمثل الأعلى ، والمثال العلمى .

وظنوا أن ذلك الرب ، كمن يظن أن نفس اللفظ بالاسم هو المعنى الذى فى القلب ، أو نفس الخط هو نفس اللفظ ، ومن يظن أن ذات المحبوب حلت فى ذات المحب واتحدت به ، أو نفس المعروف المعلوم حل فى ذات العالم العارف به واتحد به مع العلم اليقينى أن نفس المحبوب المعلوم باين عن ذات المحب وروحه وبدنه لم يحل واحد منهما فى ذات المحب .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ ، [سورة الروم : ٢٧] . وقال تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾ ، [سورة الزخرف : ٨٤] وقال تعالى :﴿ وهو الله فى السموات و فى الأرض ﴾ ، [سورة الأنعام : ٣].

فالمؤمنون يعرفون الله ويحبونه ويعبدونه ويذكرونه ويقال هو فى قلوبهم ، والمراد معرفته ومحبته وعبادته ، وهو المثل العلمى ليس المراد نفس ذاته ، كما يقول الإنسان لغيره :أنت فى قلبى ، ومازلت فى قلبى وبين عينى ، ويقال :

ساكن فى القلب يعمره لست أنساه فأذكره

وقال :

إن بيتًا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج

ومن قول القائل :

ومن عجبى أنى أحن إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معى
وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

وقال :

مثالك فى عينى وذكرك فى فمى ومثواك فى قلبى فأين تغيب ؟

والمساجد : هى بيوت الله التى فيها تظهر ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ [سورة النور : ٣٥]

قال أبى بن كعب : مثل نوره فى قلوب المؤمنين ، ثم قال : ﴿ نور على نور ﴾ ، ثم قال : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ ، [سورة النور : ٣٦] فذكر سبحانه نوره فى قلوب المؤمنين ، ثم ذكر ذلك فى بيوته كذلك ماذكرفى الكتب الأولى

وأما الإتيان والمجئ والتجلى فعندهم فى التوراة يقول الله لموسى : [إنى آتى إليك فى غلظ الغمام لكى يسمع القوم مخاطبتى لك] ثم قوله : [اجمع سبعين رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ، وخذهم إلى خباء العرب يقفون معك حتى أخاطبهم].

وفى السفر الرابع لما تكلم مريم وهارون فى موسى : [حينئذ تجلى الله بعمود الغمام قائمًا على باب الخبأ ونادى يا هارون ويا مريم ، فخرجا كلاهما فقال اسمعا كلامى إنى أنا الله فيما بينكم].

وفى الفصل الثالث عشر : [إن أصعدت هؤلاء من بينهم بقدرتك فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونه عينًا بعين وغمامك يقيم عليهم ، وبعمود غمام يسير بين أيديهم نهاراً ، وبعمود نار ليلاً].

وفى السفر الخامس قول موسى لبنى إسرائيل : [لا تهابوهم ولا تخافوهم ، لأن الله ربكم السائر بين أيديكم ، وهو يحارب عنكم] .

وفى موضع آخر قال موسى : [إن الشعب هو شعبك ، فقال : يا موسى أنا أمضى أمامك فارتحل ، فقال : إن لم تمض أنت معنا وإلا فلا تصعدنا من ههنا ، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أنى وجدت أمامك نعمة كذا بعلمك إلا بسيرك معنا] .

وفى المزمور الرابع من الزبور عندهم يقول : [وليفرح المتكلون عليك إلى الأبد ويبتهجون ويحل فيهم ويفتخرون] فأخبر أنه يحل فى جميع الصديقين أى معرفته ومحبته فإنهم متفقون على أن ذات الله لم تحل فى الصديقين وكذلك فى رسائل يوحنا الإنجيلى : [إذا أخفا بعضنا بعضًا نعلم أن الله يلبث فينا] ، أى محبته ، ونظائره كثيرة .

فصل فيما يوافق فيه المسلمون النصارى

قالوا : وقال « عاموص » النبى : [ستشرق الشمس على الأرض ، ويهتدى بها

الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل] ، قالوا : فالشمس هو السيد المسيح ،و الضالون الذين اهتدوا به هم النصارى المختلفة ألسنتهم ، الذين كانوا من قبله عابدين الأصنام وضالين عن معرفة الله ، فلما أتوهم التلاميذ وأنذروهم بما أوصاهم السيد المسيح فتركوا عبادة الأصنام واهتدوا باتباعهم السيد المسيح .

فيقال : هذا مما لا ينازع فيه المسلمون وإنما ينازع في مثل هذا وأمثاله اليهود والمكذبون للمسيح عليه السلام ، كما ينازع كفار أهل الكتاب في محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما المسلمون فيؤمنون بجميع كتب الله ورسله ، وأن المسيح عليه الصلاة والسلام أشرق نوره على الأرض ؛ كما أشرق قبله نور موسى عليه الصلاة والسلام ، وأشرق بعده نور محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً *وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٤٥، ٤٦].

فسماه الله سراجاً منيراً وسمى الشمس سراجاً وهاجاً ، والسراج المنير أكمل من السراج الوهاج ، فإن الوهاج له حرارة تؤذى ، والمنير يهتدى بنوره من غير أذى بوهجه .

وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ ، [سورة الأعراف: ١٥٧] . وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣].

والمسلمون مقرون بأن كل من كان متبعاً لدين المسيح عليه السلام الذى لم يغير

ولم يبدل فإنه اهتدى بالمسيح من الضلالة ، ومن كفر به من نبى إسرائيل فإنه ضال ، بل كافر كما قال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فاما الذين كفروا فأعذبهم عذابًا شديداً فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥- ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون : نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] .

وقوله : [ستشرق الشمس على الأرض ويهتدى بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل] ، يناسب قوله فى التوراة : [جاء الرب من طور سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران] ، فإن إشراقه من ساعير هو ظهور نوره بالمسيح ، كما أن مجيئه من طور سينا : هو ظهور نوره بموسى ، و استعلانه من جبال فاران هو ظهور نوره بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وبهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله فى القرآن بقوله : ﴿ والتين والزيتون * وطور سنين * وهذا البلد الأمين ﴾ ، [سورة التين : ١: ٣]. فبلد التين والزيتون هى الأرض المقدسة التى بعث منها المسيح ، وكان بها أنبياء بنى إسرائيل ، وأسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم إليها وظهرت بها نبوته ، وطور سنين المكان الذى كلم الله فيه موسى بن عمران ، وهذا البلد الأمين هو بلد مكة التى بعث الله منه محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن .

فصل فى شهادة الرب

قالوا : وقال فى السفر الثالث من أسفار الملوك: [والآن يارب إله إسرائيل لتحقيق كلامك لداود ، لأنه حق أن يكون ، إنه سيسكن الله مع الناس على الأرض ، اسمعوا أيتها الشعوب كلكم ، ولتنصت الأرض ، وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهداً من بيته القدوس ، ويخرج من موضعه وينزل ويطأ على مشاريق الأرض فى شأن خطيئة بنى يعقوب هذا كله] .

فيقال : هذا السفر يحتاج إلى أن يثبت أن الذى تكلم به نبى ، وأن ألفاظه ضبطت وترجمت إلى العربية ترجمة مطابقة ، ثم بعد ذلك يقال فيه ما يقال فى أمثاله من الألفاظ الموجودة عندهم ، وليس فيها ما يدل على اتحاده بالمسيح فإن قوله : [إن الله سيسكن مع الناس فى الأرض] لا يدل على المسيح ، إذ كان المسيح لم يسكن مع الناس فى الأرض ، بل لما أظهر الدعوة لم يبق فى الأرض إلا مدة قليلة ، ولم يكن ساكنًا فى موضع معين ، وقبل ذلك لم يظهر عنه شئ من دعوى النبوة فضلا عن الإلهية ، ثم إنه بعد ذلك رفع إلى السماء فلم يسكن مع الناس فى الأرض ، وأيضاً فإذا قالوا سكونه هو ظهوره فى المسيح عليه السلام قيل لهم : أما الظهور الممكن المعقول ، كظهور معرفته ومحبته ونوره، وذكره وعبادته ، فهذا لا فرق فيه بين المسيح وغيره

وحينئذ فليس فى هذا اللفظ ما يدل على أن هـذا السكون كان بالمسيح دون غيره ، وإن كان بالمسيح فليس هذا من خصائصه عليه السلام ، وليس فى ظهوره فيه أو حلوله معرفته ومحبته ومثاله العلمى ما يوجب اتحاد ذاته به .

له : [فيكون الرب عليها شاهداً] ، فيقال أولا شهود الله على عباده لا له ، أو اتحاده ببعض مخلوقاته ، بل هو شهيد على العباد بأعمالهم كما الله شهيد على ما يفعلون ﴾ [سورة يونس : ٤٦].

ولفظ النص : [ولتنصت الأرض ، وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهداً] ، وهذا كما فى التوراة : إن موسى لما خاطب بنى إسرائيل أشهد عليهم ، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان يقول لأمته لما بلغ الناس يقول « ألا هل بلغت » ؟ **فيقولون** : نعم ، فيقول : « اللهم اشهد» .

وحينئذ فليس فى هذا تعرض لسكون المسيح هو الله ، وقد يقال أيضًا : ليس فيه أن المراد بلفظ الرب هنا هو الله ، ولفظ الرب يراد به السيد المطاع ، وقد غاير بين اللفظين ، فقال : هناك :إنه سيسكن الله مع الناس ، فقال : فيكون الرب عليها شاهداً ، والأنبياء يشهدون على أممهم ، كما قال المسيح عليه السلام : ﴿ وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٧].

وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾ ، [سورة المزمل : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ ، [سورة النساء : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ ، [سورة النحل : ٨٩] .

وحينئذ فيكون الرب الشهيد هو المسيح ، الذى هو الناسوت ، وهو الذى جاء من بيت المقدس ، وخرج من موضعه ، ونزل ووطئ على الأرض من أجل خطيئة بنى يعقوب فإنهم لما أخطأوا وبدلوا أرسل الله إليهم المسيح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده وطاعته ، فمن آمن به كان سعيداً مستحقًا للثواب ، ومن كفر به كان شقيًا مستحقًا للعذاب .

فصل فى أن كل ما ذكروه حجة عليهم

قالوا : وقال « ميخا » النبى: (وأنت يا بيت لحم قرية يهودا بيت أفرانا منك يخرج لى رئيس الذى يرعى شعبى إسرائيل ، وهو من قبل أن تكون الدنيا ، لكنه لا يظهر إلا فى الأيام التى تلده فيها الوالدة وسلطانه من أقاصى الأرض إلى أقاصيها).

والجواب : أن عامة ما يذكرونه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حجة عليهم ، لا لهم كما ذكروه عن المسيح عليه السلام فى أمر التثليث ، فإنه حجة عليهم لا لهم ، وهكذا تأملنا عامة ما يحتج به أهل البدع والضلالة من كلام الأنبياء فإنه إذا تدبر حق التدبر وجد حجة عليهم لا لهم ، فإن كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هدى وبيان وهم معصومون لا يتكلمون بباطل .

فمن احتج بكلامهم على باطل فلا بد أن يكون فى كلامهم ما يبين به أنهم أرادوا الحق لا الباطل ، وهذا مثل قوله فى هذه النبوة : [منك يخرج لى رئيس] ، فهذا صريح فى أن هذا الذى يخرج هو رئيس لله ليس هو الله ، بل هو رئيس له كسائر الرؤساء الذين لله وهم الرسل والأنبياء المطاعون مثل : داود وموسى وغيرهما.

ولهذا قال : [الذى يرعى شعبى إسرائيل] ، ولو كان هو لكان هو راعى شعب نفسه ، أما قوله : [وهو من قبل أن تكون الدنيا] ، فهذا مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ميسرة الفجر .

وقد قيل له : يا رسول الله متى كنت نبيًا ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، وفى لفظ : متى كتبت نبيًا ؟ قال (١) : « وآدم بين الروح والجسد » ، وفى مسند

---

(١) « صحيح »

رواه الترمذى فى كتاب « المناقب » باب « ما جاء فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم (١٠/٧٧ ، ٧٨ح٣٦٨٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث أبى هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه » وصححه الألبانى فى « صحيح سنن الترمذى » (١٨٩/٣ح٢٨٥٦)

ورواه الطبرانى فى « الكبير » (٣٥٣/٢٠ح٨٣٣ ، ٨٣٤)

الإمام أحمد عن العرباض بن سارية عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : « إنى عند الله لمكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول أمرى دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى رأت حين ولدتنى أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام » . فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه كان نبيًا ، وكتب نبيًا وآدم بين الروح والجسد ، وإنه مكتوب عند الله خاتم النبيين وآدم منجدل فى طينته .

ومراده صلى الله عليه وسلم أن الله كتب نبوته ، وأظهرها وذكر اسمه ، ولهذا جعل ذلك فى ذلك الوقت بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه ، كما يكتب رزق المولود وأجله وعمله ، وشقى هو أو سعيد بعد خلق جسده ، وقبل نفخ الروح فيه .

وكذلك قول القائل فى المسيح عليه السلام وهو من قبل أن تكون الدنيا ، فإنه مكتوب مذكور من قبل أن تكون الدنيا .

فإنه قد ثبت فى الصحيح عن عبدالله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف

=ورواه أحمد (٥/٥٩) عن «مسيرة الفجر »
ورواه من نفس الطريق ابن أبى عاصم فى كتاب « السنن » (١/١٧٩ح٤١٠) ، وقال الهيثمى فى « المجمع » (٨/٢٢٣) : رواه من والطبرانى ورجاله ورجال الصحيح وللمزيد انظره السلسلة الصحيحة رقم(١٨٥٦)

(١) رواه أحمد (٤/١٢٧ ، ١٢٨)
ورواه البزار كما فى كشف الأستار (١١٢٣: ١١٣ح٢٣٦٥)
ورواه الحاكم (٤١٨١٢ ، ٦٠٠) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .
ورواه البزار كما فى « كشف الأستار » (٣/١١٢ ، ١١٣ح٢٣٦٥)وقال : لا نعلمه يروى بإسناد أحسن من هذا ، وسعيد بن سويد شامى ليس به بأس وأبو بكر بن أبى مريم تقدم ذكرنا له » أهـ
ورواه الطبرانى فى « الكبير » (١٨/٢٥٢ ، ٢٥٣ح٦٢٩: ٦٣١)
ورواه ابن حبان كما فى « الإحسان » (١٤/٣١٢ ، ٣١٣ح٦٤٠٤) ورواه ابن أبى عاصم فى "السنن » (١/١٧٩ح٤٠٩)
=

سنة ، وكان عرشه على الماء » .

وفى صحيح البخارى عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) : « كان الله ولم يكن شئ قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شئ ، ثم خلق السموات والأرض » .

وهو قد قال قبل أن تكون الدنيا ، ولم يقل إنه كان قديمًا أزليًا مع الله لم يزل كما يقول النصارى : إنه صفة الله الأزلية ، بل وقت ذلك بقوله : « قبل أن تكون الدنيا » ولا يحسن أن يقال فى رب العالمين كان قبل أن تكون الدنيا ، فإنه سبحانه قديم أزلى ، ولا ابتداء لوجوده فلا يوقت بهذا المبدأ ، لا سيما إن أريد بكون الدنيا عمارتها بآدم وذريته ، فإن الدنيا قد لا تدخل فيها السموات والأرض ، بل يجعل من الآخرة وأرواح المؤمنين فى الجنة فى السموات ، ويراد بالدنيا الحياة الدنيا أو الدار الدنيا ولهذا قال : لكنه لا يظهر إلا فى الأيام التى تلده فيها الوالدة كما يظهر غيره من الأنبياء بعد أن تلده أمه .

والوالدة إنما ولدت الناسوت ، وأما اللاهوت فهو من عندهم مولود من الله القديم الأزلى ، وإذا قالوا فهى ولدت اللاهوت مع الناسوت كان هذا معلوم الفساد من وجوه كثيرة ، وإذا قيل : لم خص عيسى المسيح عليه السلام بالذكر ؟ قيل : كما

=وقال الهيثمى فى « المجمع » (٢٢٣/٨) : رواه أحمد بأسانيد والبزار والطبرانى بنحوه .. وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد وقد وثق ابن حبان » أ هـ

وقال الألبانى فى تحقيق لكتاب « السنه » لابن أبى عاصم : « الحديث صحسح وإسناده ضعيف ، سعيد بن سويد الكلبى مدلس ، وأبو بكر بن أبى مريم مختلط ، والحديث أخرجه أحمد وغيره ، وهو مخرج فى الضعيفة (٢٠٥٨) وإنما صححه لأن له شاهد أخر جنه فى الصحيحة (١٥٤٦) وإنما خرجته فى الذى قبله لزيادة فى آخره عند أحمد وغيره أيضاً لم أجد له شاهداً » أهـ

(١) « صحيح » « عن عبد بن عمرو »

رواه مسلم فى كتاب « القدر » باب « حجاج آدم وموسى عليهما السلام » (٢٠٤٤/٤ ح٢٦٥٣)

ورواه الترمذى فى كتاب « القدر » باب « ١٦ » (٣٧٠/٦ ح٢٢٤٥) وقال « هذا حديث حسن صحيح غريب »

خص محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر ، لأن أمر المسيح كان أظهر وأعظم ممن قبله من الأنبياء بعد موسى .

وكذلك أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان أظهر وأعظم من جميع الأنبياء قبله ، وإذا عظم الشئ كان ظهوره فى الكتاب أعظم .

وظن بعض النصارى أن المراد بذلك وجود ذات المسيح يضاهى ظن طائفة من غلاةالمنتسبين إلى الإسلام و غيرهم الذين يقولون إن ذات النبى صلى الله عليه وسلم كانت موجودة قبل خلق آدم .

ويقولون : إنه خلق من نور رب العالمين ، ووجد قبل خلق آدم ، وإن الأشياء خلقت منه حتى يقولون فى محمد صلى الله عليه وسلم من جنس قول النصارى فى المسيح حتى قد يجعلون مدد العالم منه ، ويروون فى ذلك أحاديث وكلها كذب مع أن هؤلاء لا يقولون إن المتقدم هو اللاهوت ، بل يدعون تقدم حقيقته وذاته ، ويشيرون إلى شئ لا حقيقة له ، كما تشير النصارى إلى تقدم لاهوت اتحد به لا حقيقة له .

ومن هؤلاء الغلاة من يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال إنى كلى بشر فقد كفر . ومن قال ليست بيشر فقد كفر » ويحتجون بقوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٤٠] .

فيجعلون فيه شيئًا من اللاهوت مضاهاة للنصارى .

وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم بالحديث ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى فى الصحيحين ، أنه قال (١) : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله » .

وقد قال تعالى : ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولاً ﴾ ، [سورة

---

(١) سبق تخريجه .

الإسراء : ٩٣] .وهذا من جنس الغلاة الذين يقولون : إن الرب يحل في الصالحين ، ويتكلم على ألسنتهم ، وإن الناطق في أحدهم هو الله لا نفسه ، وقول هؤلاء من جنس قول النصارى في المسيح ، ويقول أحدهم إن الموحِّد هو الموحَّد وينشدون :

ما وحد الواحد من واحد   إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته   عارية أبطلهــا الواحد

توحيده إياه توحيـــده   ونعت من ينعته لاحد

وهو من جنس قول الذين يجعلون روح الإنسان قديمة أزلية ، ويقولون : هي صفة لله فيجعلون نصف الإنسان لا هوتًا ، ونصفه ناسوتًا ، لكن اللاهوت عندهم هو روحه لا لاهوت واحد كما يقول النصارى ، وعلى قول هؤلاء مع قول النصارى يكون في المسيح وأمثاله ممن ادعى فيه اتحاد اللاهوت به لاهوتان روحه لاهوت ، والكلمة لاهوت ثان . ومن جنس هؤلاء من ينشد ما يحكى عن الحلاج أنه أنشد :

سبحان من أظهر ناسوته   ســر سنا لاهوته الثــاقب

ثم بدا في خلقه ظــاهرا   في صورة الآكل الشارب

حتى لقــد عاينه خلقـــه   كلحظة الحاجب للحاجب

ولو قدر أن نفسه هي التي كانت قبل أن تكون الدنيا ، فهذا لا يدل على أنه الله أو صفة الله ، بل إذا قال من يدعى أن روحه كانت موجودة حينئذ المراد روحه كان هذا أقرب من قول النصارى ، وفي الجملة ما يخبر عن المسيح أنه كان قبل أن تكون الدنيا بمنزلة ما عند أهل الكتاب عن سليمان أنه قال : [كنت قبل أن تكون الدنيا] ثم قد ثبت باتفاق الخلائق أن سليمان لم يكن اللاهوت متحداً به ، فعلم أن مثل هذا الكلام لا يوجب اتحاد اللاهوت به ، بل المسلمون يعدلون في القول ، ويفسرون كلام الله في كتبه بعضه ببعض ويجعلون كلامه يصدق بعضه بعضًا لا يناقض بعضه

بعضاً .

وأما أهل الضلال والنصارى وغيرهم فيفضلون المفضول على من هو أفضل منه ، وينقصون الفاضل حقه ، ويغلون في المفضول ويبخسون الأنبياء حقوقهم مثل تنقصهم لسليمان ، فإن كثيراً من اليهود والنصارى يطعنون فيه :

منهم من يقول : كان ساحراً ، وأنه سحر الجن بسحره .

ومنهم من يقول : سقط عن درجة النبوة فيجعلونه حكيماً لانبياً ، ولهذا ذكر الله في القرآن تبرئة سليمان عن ذلك . وذلك أن سليمان سأل الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده ، فسخر لسليمان الريح تجرى بأمره رخاءا حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد ، فسخر له الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، ولما طلب من الملأ يأتوه بعرش « بلقيس » ملكة اليمن ، وكان هو بالشام ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقويٌ أمين * قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طَرْفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ [سورة النمل : ٣٨ – ٤٠] .

فلما مات عمدت الشياطين إلى أنواع من الشرك فكتبوها ووضعوها تحت كرسيه ، وقالوا : كان سليمان يسخر الجن بهذا ، فصار هذا فتنة لمن صدق بذلك وصاروا طائفتين طائفة علمت أن هذا من الشرك والسحر ، وأنه لايجوز فطعنت في سليمان كما فعل ذلك كثير من أهل الكتاب اليهود والنصارى .

وطائفة قالت : سليمان نبي ، وإذا كان قد سخر الجن بهذا دل على أن هذا جائز ، فصاروا يقولون ويكتبون من الأقوال التي فيها الشرك والتعزيم والإقسام بالشرك والشياطين ماتحبه الشياطين وتختاره ويساعدونهم لأجل ذلك على بعض مطالب الإنس إما إخباراً بأمور غائبة يخلطون فيه كذبا كثيراً ، وإما تصرف في

بعض الناس ، كما يقتل الرجل أو يمرض بالسحر ، أو تسرق الشياطين له بعض الأموال ونحو ذلك مما فيه إعانة الشياطين للإنس على أمور تريدها الإنس لأجل مطاوعة الانس وموافقتهم للشياطين على ماتريده الشياطين من الكفر والفسوق والعصيان .

وكثير منهم يضيف ذلك إلى سليمان وإلى « آصف بن برخيا » ويصورون خاتم سليمان ، وقد يأخذون الرجل الذي صار من إخوانهم إلى مواضع فيرونه شخصاً ، ويقولون هذا سليمان بن داود ، كما قد جرى مثل ذلك لمن نعرفه من المشايخ الذين كانت تقترن بهم الشياطين ، وكان لهم خوارق شيطانية من جنس خوارق السحرة والكهان .

فنزه الله تعالى سليمان من كذب هؤلاء وهؤلاء الذين جعلوه يسخر الشياطين بنوع من الشرك والسحر ، هؤلاء جرّحوه ؛ وهؤلاء زعموا أنهم يتبعونه . فقال تعالى : ﴿ واتبعوا ماتتلوا الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلاتكفر فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون مايضرهم ولاينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٠٢ ، ١٠٣] .

ومثل هذا كثير يحكي عن بعض الأنبياء ، أو بعض أهل العلم والدين ، من أمور ليست من شرع الله فيصدق بها بعض الناس وتصير فتنة لطائفتين مصدقين بها :

طائفة تقدح في ذلك النبي والرجل الصالح بما هو منه برئ .

وطائفة تقول إنها تتبعه فيم يقول ، وهذا موجود في كثير مما يحكيه أهل الكتاب

عن الأنبياء ، فإن اليهود يذكر عنهم مايقدح من نبوتهم .

والنصارى تجعل ذلك قدوة لهم فيما يبتدعونه ، وهذا مبسوط في موضع آخر ، فالمقصود هنا أن الكلام الذي وصف به المسيح إنما وصفه به الأنبياء قبله ، أو أخبر به عن نفسه ، موجود مثله في حق غيره ، ولم يكن أحدهم بذلك لاهوتا وناسوتا ، ولا اتحد اللاهوت والناسوت ، ولا استحق أحدهم بذلك أن يعبد ويصلى له ويسجد ويدعا كما يدعا الله ، ويضاف إليه مايضاف إلى الله من الخلق والبعث والثواب والعقاب ، وليس للمسيح صلوات الله عليه آية خارقة إلا ولغيره مثلها وأعظم منها ، ولاقيل فيه كلمة ، إلا قيل في غيره مثلها وأعظم منها ، إلا ماخصه فيه القرآن .

فصل في الموهم التشبيه من آيات الكتب النبوية

قالوا : وقال « حيقوق » النبى : [إن الله في الأرض يترآى ، ويختلط مع الناس ويمشى معهم] .

وقال « أرميا » النبى : [الله بعد هذا في الأرض يظهر وينقلب مع البشر فيقول : أنا الله رب الأرباب] .

والجواب : أن هذا يحتاج إلى تثبيت نبوة هذين ، وإلى ثبوت النقل عنهما وثبوت الترجمة الصحيحة المطابقة ، وبعد هذا يكون حكم هذا الكلام حكم نظائره ، ففي التوراة ما هو من هذا الجنس ، ولم يدل ذلك باتفاق المسلمين واليهود والنصارى على أن الله حلٌ في موسى ، ولافى غيره من أنبياء بني إسرائيل ، بل قوله يترآى هوبمنزلة يتجلى ويظهر ، وقد ذكر فى التوراة أنه تجلى وترآى لإبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام من غير أن تكون ذاته حلت بأحد منهم ، ومافي القلوب من المثال العلمي وبمعرفته ومحبته وذكره يطلق عليه مايطلق على المعروف بنفسه ، لعلم الناس أن المراد به المثال العلمى .

ومافي القلوب من معرفته المعروف ومحبته ليس المراد به نفس المعروف المحبوب ،

فإذا قال القائل : أنت والله في قلبي أو في سويداء قلبي ، أو قال له : والله مازلت في قلبي ، ومازلت في عيني ، ونحو ذلك علم جميع الناس أنه لم يرد ذاته ، فإذا رأوا من يذكر عالمًا مشهوراً أو شيخًا مشهوراً ، فيذكر علمه وعمله ، ويحيى ذلك بين الناس ، قالوا : قد صار فلان ، يعني المعروف المذكور عندنا وبين أظهرنا لعلم المخاطبين بالمراد .

ويقول أحدهم لمن مات والده : أنا والدك أي قائم مقامه ، ويقولون للولد القائم مقام أبيه : من خلف مثلك ما مات . وإذا رأوا عكرمة مولى ابن عباس الذي معه علمه يقولون : جاء ابن عباس ، وابن عباس بين الناس ، لأن مولاه نائب عنه وقام مقامه ، وإذا بعث الملك نائبًا قائمًا مقامه يقولون : جاء الملك الفلانى ، لأن هذا النائب قائم مقامه مظهر لأمره ونهيه وأحواله .

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : يقول الله : (١) « عبدى مرضت فلم تعدني ، فيقول العبد : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ، أما لو عدته لوجدتني عنده . عبدي جعت فلم تطعمني ، فيقول : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي . عبدي ، عطشت فلم تسقني ، فيقول : رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي استسقاك فلم تسقه ، أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي » .

فجعل جوع عبده جوعه ، ومرضه مرضه ، لأن العبد موافق لله فيما يحبه ويرضاه ويأمر به وينهى عنه ، وقد عرف أن الرب نفسه لايجوع ولايمرض .

ومعلوم أن وصفه بالجوع والمرض أبعد من وصفه بالمشي بين الناس والاختلاط

---

(١) سبق تخريجه

بهم ، ولهذا نظائر كثيرة موجودة في كلام الأنبياء وغير الأنبياء من الخاصة والعامة ، ولايفهم عاقل من ذلك أن ذات المذكور اتحدت بالآخر ، أو حلت فيه إلا من هو جاهل كالنصاري .

والناس يرون الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك في الماء الصافي ، وفي المرآة المجلوة ، ونحو ذلك .

ويقول أحدهم : رأيت وجه فلان في هذه المرآة ، ورأيت الشمس والقمر في المرآة أو في الماء ، مع علم كل عاقل أن نفس الشمس والقمر وغيرهما لم تحلا لا في المرآة ولافي الماء ، ولكن هذه رؤية مقيدة رآها بواسطة المثال الذي تمثل في المرآة أو الماء ، سواء كان ذلك شعاعًا منعكسًا أو غير ذلك ، ومن هذا الباب قول القائل :

إذا ظهر الغدير على صفاء ... وجُنِّب أن يحركه النسيم

ترى فيه السماء بلا امتراء ... كذاك الشمس تبدو والنجوم

كذاك قلوب أرباب التجلي ... تري في صفوها الله العظيم

فقد أخبر أن الله يري في قلوب العارفين ، كما ترى الشمس والنجوم في الماء الصافي ، بل يتصور لأحدهم صورة من يعرفه بحمرة أو خضرة أو سواد ، فيقول : والله هذا هو فلان بعينه ، مع علمه وعلم كل من سمعه أنه مثاله المطابق لصورته لاعينه ، وذلك لمماثلة تلك الصورة لصورته يريد أن هذا تمثيل مطابق له لايخالف .

ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم (١) : « من رآني فى المنام فقد رآني حقًا ، فإن الشيطان لايتمثل في صورتي » لم يرد أنه رأى جسدى الذي في القبر ، وروحي التي في الجنة حالة في ذاته ، فإن هذا ممتنع لوجوه كثيرة ، فلهذا قال : « فإن الشيطان لايتمثّل في صورتي » .

---

(١) سبق تخريجه

ولما دخل جماعة من الصحابة على المقوقس ملك النصارى بمصر ، واستخبرهم عن دينهم فأخبروه بذلك ، فإذا عنده شبه الربعة العظيمة مذهبة ، وإذا فيها أبواب صغار ففتح منها بابا فاستخرج منه خرقة حرير سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذا رجل طوال أكثر الناس شعراً ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قالوا : قلنا : لا ، فقال : هذا آدم .

ثم أعاد وفتح بابا آخر ، فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذا رجل ضخم الرأس عظيم شعر كشعر القبط أحمر العين ، فقال : أتعرفون هذا ؟ فقلنا : لا ، فقال : هذا نوح .

ثم أعاد وفتح بابًا آخر فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذا رجل أبيض الرأس واللحية ، كأنه يبتسم ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا ؟ لا ، فقال هذا إبراهيم .

ثم أعاده وفتح بابًا آخر فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء ، قال أتعرفون من هذا ؟ قلنا : النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : هذا والله محمد رسول الله .

قال : والله يعلم أنه قام ثم قعد ثم قال : الله بدينكم إنه بينكم ! قلنا : الله بديننا إنه نبينا كأنما ننظر إليه .

ثم قال : أما إنه كان آخر الأبواب ، ولكنى عجلته لكم لأنظر ماعندكم .

ثم أعاد وفتح بابًا باباً وهو يقول : هذا موسى ، هذا هارون ، هذا داود ، هذا سليمان ، هذا عيسى .

وهذا كله لظهور المراد ومعرفة الناس بمقصود المتكلم ، كما يقال لمن كتب اسمه في كتاب : هذا فلان .

ومعلوم أن الموجود في الكتاب اسمه المكتوب ، لاذاته الموجودة في الخارج ،

ومــن هذا البـاب قولــه تعـالى : ﴿ وكل شئ فعلوه في الزُّبر ﴾ [سورة القـمر : ٥٢] .

وإنما في الزبر ذكر أعمالهم وكتابة ذلك ، ويقال في كتابة الوثائق : هذا ما أصدق فلان ، وهذا مايقضى عليه فلان وفلان ، ويقال : هذا ذكر ما أصدق فلان أو يقاضى عليه فلان وفلان ، فيشار إلى الموجود تارة ، وإلى ذكره تارة .

ومعلوم أن المـوجود في الكتاب ذكـره لا عينه ، بل ذلك وجـود الخط في الأذهان المطابق لذكره باللفظ .

والشئ له وجود في الأعيان ، ووجـود في الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود في البنان ، ووجـود عـيني وعلمـي ورسمـي ولفظي ، وفي كل من الأربعـة يذكـر ، ويشار إليه مـع القرآن والضمائر التى تبين تارة أن المشـار إليه هو الخط المطابق للفظ ، وتارة تكون الإشارة إلى اللفظ المطابق للمعنى .

ومعلوم أن المعنى الذي في القلب أقرب إلى الموجود في الخارج من اللفظ والخط ، فإذا أشير إلى ما فى قلب العارف بعين المحب له الذاكر له ،فإنه المعروف المحبوب كان أقرب لاسيـما وقد يغلب الذكر والمعرفة والمحبة على القلب حتى يغيب بموجوده عن وجوده ، وبمعروفه عن معروفه ، وبمذكوره عن ذكـره ، حتى يقـول أحدهم فى هذه الحال : سبحانى ، أو ما فى هذه الجبة إلا الله .

ومعلوم أن ذات الله تبارك وتعالى ليست الذى فى قـلبه ، بل فى قلبه مثاله العلمى ومعرفـته ومحبتـه ، فغاب بذلك عن نفسـه ، هذا وإن كان يقوله الغالط ، فـيقول من ليس بغالط : الله فى قلب فـلان ، وفلان ما عنده إلا الله ، ومن أراد الله فـليذهب إلى فلان وليس مرادهم أن ذات الله فى قلبه ، بـل مثاله العلمى ومعرفته وذكره ومـحبته ، وأنه لا يعـبد إلا الله ، ولا يرجـو إلا إياه ولا يخاف إلا إياه ، ولا يعـمل إلا بالله ، ولا يأمر إلا بطـاعته فـيفنى بعـبادته عن عـبادة ما سـواه ، وبطاعتـه عن طاعة مـا سواه ،

وبمحبته عن محبة ما سواه .

فما قيل فى المسيح عليه السلام وأمثاله من هذا فهو حق لكن لا اختصاص للمسيح بهذا .

وإذا كان مثل هذا الكلام كثيراً موجوداً فى كلام الأنبياء وغيرهم بل هو المعروف فى كلامهم ولا يوجد قط عن أحد من الأنبياء أنه جعل ذات الله فى قلب أحد من البشر علم أن النصارى تركوا المحكم من كلام الأنبياء عليهم السلام ، وتمسكوا بالمتشابه كأمثالهم من الضلاّل ، فاشتبه عليهم المعلوم بالقلوب المذكور بالألسن بالموجود فى نفسه ، فظنوا أن نفس المثال العلمى هو الوجود العينى ، كما يظن ذلك كثير من الغالطين وهؤلاء يقولون بالحلول تارة وبالاتحاد أخرى ، ولا يفرقون بين حلول الإيمان بين حلول الإيمان والمعرفة والمثال العلمى فى القلب وبين حلول الذات المعلومة المحبوبة .

ولهذا يعتقد كثير من هؤلاء أنهم يكلمون الله ويكلمهم ، ويقول أحدهم : أوقفنى ، وقال لى ، وقلت له : وتكون مخاطبته ومناجاته مع هذا المثال العلمى بحسب ما عندهم من الاعتقاد فى الله تعالى ، وكثير منهم يتمثل له الشيطان ويقول : أنا ربك فيخاطبه بظنه ربه ، وإنما هو الشيطان .

ومنهم : من يرى عرشاً عليه نور ، أو يرى ما يظنه الملائكة وهم شياطين وذلك شيطان .

وكثير من هؤلاء يظن أنه أفضل من الأنبياء ، وأنه يدخل إلى الله بلا إذن خلاف الأنبياء ويكون ذلك الإله يعتقده هو الشيطان ، والذين لا يتمثل لهم الشيطان يخاطب أحدهم من فى قلبه فتخاطبه تلك الصورة العلمية ويقدر أنها تخاطبه ، ويظن ذلك مخاطبة الحق له .

وهذا كالرجل يذكر بعض أصحابه فيمثله فى قلبه ويخاطبه مخاطبة من يعاتبه أو

يعتذر إليه ، ويقدر خطابه تلك الصورة ، ويقول قلت لك : كذا ، وقلت لى :كذا .

ونفس الشخص لا يكلمه ولا يسمع كلامه ، وإنما هو المثال كما قد يصور صورة الإنسان يخاطبها الإنسان ويقدر ذلك مخاطبة لصاحب الصورة ، والنصارى أدخل فى هذا من غيرهم ، فإنهم يخاطبون الصور الممثلة فى الكنائس كصورة مريم والمسيح والقديسين ، ويقولون : إنما نقصد خطاب أصحاب تلك الصورة نستشفع بهم .

وهذا مما حرمه الله على ألسن جميع النبيين ولم يشرع لأحد أن يدعو الملائكة ولا الأنبياء والصالحين من الأموات ، فكيف بالصور الممثلة لهم كما قد بسط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أن كثيراً ما يوجد فى كلام الناس الأنبياء وغيرهم من ذكر ظهور الله عز وجل ، والمراد به ظهوره فى قلوب عباده بالمعرفة والمحبة والذكر ، ولهذا لما كان يقصد بذكر اسمه ذكر المسمى صار من يقول : إن الاسم هو المسمى لا أن نفس اللفظ هو المسمى . فإن هذا لا يقوله عاقل وتنزيه الاسم وتسبيحه تنزيه للمسي وتسبيح له .

كما قال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ◦ الذى خلق فسوى ﴾ ، [سورة الأعلى : ١ ،٢] وقال : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، [سورة الواقعة : ٩٦] . وقال : ﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾ ، [سورة الرحمن : ٧٨] .

وجاء فى حديث (١) : « لا تقوم القيامة حتى لا يعبد الله اسم » أى لا يعبد الله باسم من أسمائه ، فإنه إذا قيل : دعوت الله وعبدته ، فإنما فى اللفظ الاسم والمقصود

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ ولكن روى مسلم فى كتاب « الإيمان » باب « ذهاب الإيمان آخر الزمان » (١/١٣١ح١٤٨) بإسناده عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : الله ، والله » وفى رواية : « لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله ، الله »

هو المسمى .

وهذا الذى ذكرناه من تفسير ظهور اللاهوت فى المسيح وغيره بأن المراد ظهور ما فى القلوب من توحيد الله ومعرفته ومحبته وذكره ونوره وهداه وروحه ، هو مما يفسر به ذلك كثير من علماء النصارى ، فإنهم يفسرون اتحاد اللاهوت بالناسوت بظهور اللاهوت فيه كظهور نقش الخاتم فى الشمع والطين .

ومعلوم أن الحال فى الشمع والطين هو مثال نقش الخاتم لا أن فى الشمع والطين شيئاً من الخاتم ، بل ظهر فيه نقش الخاتم .

وكذلك يظهر نور الله وروحه فى الأنبياء والصالحين ، وهذا المعنى لا يختص به المسيح عليه السلام ، بل يشترك فيه وسائر الرسل ، بل وكل مؤمن له من هذا نصيب بحسب إيمانه .

فصل فى معنى « عما نويل »

فالوا : وقال « اشعيا » النبى : [ها هى العذراء تحبل وتلد ابناً ، ويدعى اسمه عما نويل] .

وعما نويل كلمة عبرانية تفسيرها بالعربى « الهنا معنا » فقد شهد النبى أن مريم ولدت اللاهوت المتحد بالناسوت كلاهما .

فيقال : ليس فى هذا الكلام أن مريم ولدت اللاهوت المتحد بالناسوت ، وأنها ولدت خالق السموات والأرض ، بل هذا الكلام يدل على أن المولود ليس هو خالق السموات والأرض ، فإنه قال : تلد ابناً .

وهذا نكرة فى الإثبات كما يقال فى سائر النساء : إن فلانه ولدت ابناً ، وهذا دليل على أنه إن من البنين . ليس هو خالق السموات والأرضين ثم قال : ويدعى اسمه « عما نويل » فدل بذلك على أن هذا اسم يوضع له ، ويسمى به كما يسمى الناس أبناءهم بأسماء الأعلام ، أو الصفات التى يسمونهم بها .

ومن تلك الأسماء ما يكون مرتجلا ارتجلوه .

ومنها : ما يكون جملة يحكونها ، ولهذا كثير من أهل الكتاب يسمى ابنه عما نويل ، ثم منهم من يقول العذراء المراد بها غير مريم . ويذكرون فى ذلك قصة جرت

ومنهم من يقول : بل المراد بها مريم ، وعلى هذا التقدير فيكون المراد أحد معنيين :

إما أنه يريد أن إلهنا معنا بالنصر والاعانة ، فإن بنى إسرائيل كانوا قد خذلوا بسبب تبديلهم ، فلما بعث المسيح عليه السلام بالحق كان الله مع من اتبع المسيح والمسيح نفسه لم يبق معهم ، بل رفع إلى السماء ، ولكن الله كان مع اتبعه بالنصر والإعانة .

كما قال تعالى : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] . وهذا أظهر .

وإما أن يكون يسمى المسيح إلهاً ، كما يقولون : إنه يسمى موسى إله فرعون أى هو الآمر الناهى له المسلط عليه ، وقد حرف بعضهم معنى هذه الكلمة ، فقال : معناها الله معنا ، فقال من رد عليهم علمائهم يقال لهم : أهذا هو القائل أنا الرب ولا إله غيرى وأنا أميت وأنا أحيى ، أم هو القائل لله : إنك أنت الإله الحق وحدك الذى أرسلت يسوع المسيح ؟ وإذا كان الأول باطلاً والثانى هو الذى شهد به الإنجيل وجب تصديق الإنجيل وتكذيب من كتب فى الإنجيل أن « عمانويل » تأويله « الله معنا » بل تأويل عمانويل « معنا إله » وليس المسيح مخصوصاً بهذا الاسم ، بل عمانويل اسم يسمى به النصارى واليهود من قبل النصارى .

وهذا موجود فى عصرنا هذا فى أهل الكتاب من سماه أبوه عمانويل معنى «

شريف القدر » ، قال : وكذلك السريان أكثرهم يسمون أولادهم عمانيل ، قلت : ومعلوم أن الله مع المتقين والمحسنين والمقسطين بالهداية والنصر والإعانة ، ويقال للرجل في الدعاء : الله معك فإذا سمي الرجل بقوله « الله معك » كان هذا تبركاً بمعنى هذا الاسم ، وإذا قيل إن المسيح سمي الله معنا ، أو إلهنا معنا ونحو ذلك كان ذلك دليلاً على أن الله مع من اتبع المسيح وآمن به فيكون الله هاديه وناصره ومعينه .

فصل في التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم

وقالوا : وقال أشعيا أيضاً : [إن غلاماً ولد لنا ، وإننا أعطيناه الذي رياسته على عاتقيه وبين منكبيه ويدعى اسمه ملكا عظيم المشيه مسيراً عجيباً إلهاً قوياً مسطاً رئيس السلامة في كل الدهور ، وسلطانه كامل ليس له] ، فيقال ليس في هذه البشارة دلالة بينة أن المراد به المسيحح عليه السلام ، ولو كان المراد به المسيح لم يدل على مطلوبهم ، بل يقال المراد بها محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه الذي رياسته على عاتقيه وبين منكبيه من جهتين :

من جهة أن خاتم النبوة على بعض كتفيه وهو علامة من أعلام النبوة الذي أخبرت به الأنبياء وعلامة ختمهم .

ومن جهة أنه بعث بالسيف الذي يتقلد به على عاتقه ويرفعه إذا ضرب به على عاتقه ، ويدل على ذلك قوله : [مسلط رئيس قوى السلامة] ، وهذا صفة محمد صلى الله عليه وسلم المؤيد المنصور المسلط رئيس السلامة ، إن دينه الإسلام ومن اتبعه سلم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، ومن استيلاء عدوه عليه .

والمسيح عليه السلام لم يسلط على أعدائه كما سلط محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كان أعداؤه بحيث يقدرون على صلبه ، وعند النصارى قد صلبوه ، وعند المسلمين ألقى الله شبهه على غيره فصلب ، ذاك المشبه ، فبهذه الطريق دفع الله

الصلب عنه لا يقهر أعدائه وإهلاكهم وذلهم له ، كما نصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم على أعدائه ، وقال [فى كل الدهور سلطانه كامل ليس له فناء] وهذا صفة خاتم الرسل الذى لا يأتى بعده نبى ينسخ شرعه ، وسلطانه بالحجة واليد كامل لا يحتاج فيه إلى الاستعانه بشرع آخر ، وشرعه ثابت باق إلى آخر الدهر .

فصل فى أن روح القدس هو روح الله

قالوا : وقال « أشعيا » أيضاً : [يخرج عصاه من بيت سى وينبث نور منها ، ويحل فيه روح القدس روح الله ، روح الحكمة والفهم ، روح الحيل والقوة روح العلم وخوف الله . وفى تلك الأيام يكون أصل يسبى آية للأمم ، وبه يؤمنون وعليه يتوكلون ، ويكون لهم التتاج والكرامة إلى دهر الداهرين] .

والجواب : إن هذا الكلام بعد المطالبة بصحة نقله عن النبى ، وصحة الترجمة له باللسان العربى هو حجة على النصارى لا لهم ، فإنه لا يدل على أن المسيح هو خالق السموات والأرض ، بل يدل على مثل ما دل عليه القرآن من أن المسيح عليه السلام أيد بروح القدس ، فإنه قال : [ويحل فيه روح القدس ، وروح الله ، وروح الحكمة والفهم ، روح الحيل والقوة ، روح العلم وخوف الله] ولم يقل تحل فيه حياة الله فضلاً عن أن يقول حل فيه الله أو اتحد به ، ولكن جعل روح القدس هى روح الله ، وهى روح الحكمة والفهم والعلم ، وهى روح الحيل والقوة .

كما أن عندهم فى التوراة أن الذين كانوا يعملون فى قبة الزمان حلت فيهم روح الحكمة روح الفهم ، وروح العلم فهى ما يحصل به الهدى والنصر ، كما قال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ﴾ ، [سورة ص : ٤٥] فقال : هى روح الله ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب

ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾ [سورة النحل : ٢] فما أنزله يسمى هدى ، وروح الله ، ووحى الله ، ونور الله ، ونحو ذلك .

وقال تعالى لما ذكر أنبياءه من ذرية إبراهيم فقال : ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨٤ – ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ ، [سورة طه : ١٢٣] وسماه نور الله كقوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم ﴾ ، [سورة النور : ٣٥] . فهذا هدى الله ، ونور الله هو روح الله كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ [سورة المجادلة : ٢٢] .

فصل فى أن المسيح إنما هو رب الملائكة

قالوا : وقال « أشعيا » أيضاً : [من أعجب الأعاجيب أن رب الملائكة سيولد من

البشر] .

فيقال : مثل هذا الكلام لا بد أن يكون قبله كلام وبعده كلام ، وهو منقول من لغة إلى لغة ونحن نعلم قطعاً أنه لم يرد أن رب العالمين يولد من البشر ، ولو أراد ذلك لم يقل رب الملائكة فقط ، فإن الله رب كل شئ لكن قد يريد أنه يولد من البشر من يكون سيد الملائكة تخدمه وتكرمه ، كما سجدت الملائكة لأبى البشر آدم .

والنصارى يسلمون أن اللاهوت ما هو متولد من البشر ، وإنما المتولد من البشر هو الناسوت وليس هو رب العالمين بالاتفاق ، فعلم أنه لا حجة لهم فى ظاهر اللفظ إن قدر سلامته من التغيير .

ونظير هذا ما عندهم فى إنجيل متى : [إن ابن الإنسان يرسل ملائكته ، ويجمعون كل الملوك رباً على الأمم فليقونهم فى آتون النار] . قال بعض علماء أهل الكتاب : لم يرد بذلك أن المسيح هو رب الأرباب ، ولا أنه خالق الملائكة ، بل رب الملائكة ، أوصى الملائكة بحفظ المسيح بشهادة النبى القائل : [إن الله يوصى ملائكته بك ليحفظوك] .

ثم شهادة « لوقا » أن الله أرسل له ملكاً من السماء ليقويه قال : « وإذا شهد الإنجيل باتفاق الأنبياء والرسل بأن الله يوصى ملائكته بالمسيح فيحفظونه علم أن الملائكة تطيعه للمسيح بالأمر ، وهو والملائكة فى خدمة رب العالمين » .

وقال المسيح لتلاميذه :[من قبلكم فقد قبلنى ، ومن قبلنى فقد قبل من أرسلنى] .

وقال المسيح : [من أنكرنى قدام الناس أنكرته قدام ملائكة الله] .

وقال الذى ضرب عبد رئيس الكهنة : [أغمد سيفك ، ولا تظن أن لا أستطيع أن أدعو الله الأب فينتقم لى أكثر من اثنى عشر جوقا من الملائكة] .

فصل فى شهادة علمائهم على التحريف

قالوا : ومثل هذا القول فى كتب الله المنزلة على أفواه الأنبياء والرسل شئ كثير عند النصارى جميعهم ، المختلفة ألسنتهم المفرقين فى سبعة أقاليم العالم المتمسكين بدين النصرانية ، قول واحد ، ونص واحد على ما تسلموه من الحواريين حين أنذروهم وردوهم عن عبادة الأصنام إلى معرفة الله تعالى ، سلموها إليهم كل أمة بلسانها ، وهى على هئتها إلى يومنا هذا .

والجواب عن هذا من وجوه :

أحدها: أن القول فى سائر ما يذكرونه من النصوص كما تقدم ، وقد تكلم على هذا من تكلم عليه من علماء النصارى الذين هداهم الله ، وبينوا ما وقع فى ذلك من تحريفهم لمعانى الكتب التى عندهم ، وذكروا مما عندهم من النصوص الصريحة بأن المسيح عبد الله ليس هو الله ما تبين به بطلان قولهم ، وأنهم ممن تركوا المحكم من الآيات واتبعوا المتشابه ، ولهذا أنزل الله فيهم : ﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧] .

وهذا كقوله المسيح عليه السلام لما سئل عن الساعة فقال : [لا يعلمها إنسان ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الأب فقط] فنفى عن نفسه علم الساعة ، وهذا يدل على شيئين : على أن اسم الابن إنما يقع على الناسوت دون اللاهوت ، فإن اللاهوت لا يجوز أن ينفى عنه علم الساعة ، ويدل على أن الابن لم يكن يعلم الله ، وهذا يبطل قولهم بالاتحاد ، فإنه لو كان الاتحاد حقا كما يزعمون لكان الابن يعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه ، فإنه هو الله عندهم ، والناسوت لا يتميز عندهم عن اللاهوت فيما يوصف به المسيح من كونه عالما قادراً يحيى ويميت .

وقال المسيح لتلاميذه : [آمنوا بالله وآمنوا بى] وقال أيضاً : [من يؤمن بى فليس يؤمن بى فقط ، بل وبالذى أرسلنى] ، وهم يذكرون أن المسيح عليه السلام استصرخ لله قائلا : [إلهى إلهى انظر لماذا تركتنى وتباعدت عن خلاصى] .

الوجه الثانى : قولهم إن هذه الكتب التى بأيديهم من التوارة والإنجيل ، وسائر النبوات تسلموها من الحواريين كل أمة بلسانها ، وهى على هيئتها قول لم يقيموا على صحته دليلا ، بل ادعوا ذلك دعوى مجردة .

ومثل هذا النقل إن لم يثبت بالتواتر لم يحتج به فى المسائل العلمية ، لا سيما إذ قيل فى **الوجه الثالث** : إن هذا الكذب ظاهر ، فإن كثيراً من الألسنة ليس عند أهله إنجيل قديم ، ومن ذلك لسان العرب ؛ فإن العرب النصارى كثيرون قبل الإسلام ، ولا تعرف توراة ولا إنجيل ولا نبوات عربية ، إلا ما عرب من النسخ العبرية والرومية والسريانية ، ونحن نطالبهم بهذه الكتب التى بالعربية التى فى زمن الحواريين أين هى ، ومن رآها ؟ ولو قدر أنها كانت بالعربية ، فهذه النسخ اليوم العربية الموجودة بأيدى الناس هى مما عرب مما بأيديهم ، وحينئذ فلا تعرف صحتها إن لم تعرف صحة الترجمة ، ويثبت نقل تلك عن المسيح عليه السلام ، وهكذا القول فى سائر الألسن.

الوجه الرابع : أن التوراة والنبوات التى نقلت من نسخ اليهود والأناجيل هى أربعة كتبت بعد المسيح عليه السلام ، واثنان ممن كتبها لم يريا المسيح ، وهما لوقا ومرقس ، واثنان رأياه وهما يوحنا ومتى .

والنسخ إنما كثرت عن الأربعة وما ينقله الأربعة لا يجب أن يكون متواتر معلوماً ، وإذا كثرت الألسن بها فمن بعد الأربعة ، لا إن الذين سمعوها من المسيح عليه السلام تكلموا باثنين وسبعين لساناً ، فإن هذا لم يقله أحد ، ولا يقوله عاقل ، إذ الحواريون كانوا اثنى عشر لم يكونوا اثنين وسبعين ، فإذا قيل إنه نقلها اثنان وسبعون فهم

كراماتهم على أنهم معصومون كالأنبياء،بل يجوز عليهم الغلط مع ثبوت كراماتهم .

والحواريون عندهم ليسوا بأنبياء وإن سموهم رسلا ، فهم رسل المسيح ، لا رسل الله تبارك وتعالى .

الوجه السادس : أن فى هذه الكتب التي بأيديهم ما يناقض قولهم من الأقوال الصريحة الكثيرة ماهو أكثر وأصرح مما احتجوا به على قولهم .

والواجب حينئذ التمسك بالصريح المحكم ، ورد المتشابه ، لايجوز التمسك بالمتشابه به ورده المحكم إليه .

الوجه السابع : أنه بتقدير أن يكون في الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانًا - سواء كانت منقولة عن الحواريين نقلاً صحيحًا ، أو كان نقل أكثرها أو كثير منها - مترجمة من لغة إلى لغة .

فمعلوم أنه بكل لسان عدة نسخ ، ولو لم يكن بها إلا لسان واحد مع كثرة النسخ بها في مشارق الأرض ومغاربها لم يكن لأحد أن يقطع بأن جميع النسخ على لفظ واحد ونص واحد كما ادعاه هؤلاء في الاثنين وسبعين لسانًا ، حيث قالوا مثل هذا القول في كتب الله المنزلة على أفواه الأنبياء والرسل كثير عند النصارى جميعهم ، المختلفة ألسنتهم ، المتفرقين في سبعة أقاليم العالم ، المتمسكين بدين النصرانية ، قول واحد ونص على ماتسلموه من الحواريين ، وردوهم عن عبادة الأصنام فسلموها إليهم كل أمة بلسانها ، وهي على هيئتها إلى يومنا هذا ، فإن هذا الكلام يتضمن عدة دعاوي ليس فيها مايمكن قائله أن يكون عالمًا به فعلم أن هؤلاء تكلموا بهذا الكلام بلا علم ، بل بالجهل والضلال ، كما هو عادتهم ، فإنه يقال لهم : من الذي جمع كل نسخة في العالم من جميع التوراة والإنجيل والزبور وسائر النبوات الأربعة والعشرين بلسان واحد كالعربى مثلا ، وهل ميز جميع النسخ فلم يجد نسخة تزيد على نسخة ولاتنقص عنها ؟.

ومعلوم إن كـان هذا ممكنًا أمكن أن يقال : جـمعـها جامع وغير بعض ألفـاظها . فـلايمكنهم دعوى بقـائها بلا تغيير ، وإن لم يمكن ذلك لم يمكن أحدًا أن يقـول : أنا أعلم موافقة كل نسخة من نسخ هذه الكتب لكل نسخـة توجد في سبعة أقاليم العالم بذلك اللسان ، فضـلا عن اثنين وسبعين لسانًا ، فـضلا عن أن يقال : أنا أعلم أن هذه الألسن كلها تكلمت بها الحواريون ، وهي باقية على لفظهم إلى اليوم .

ومعلوم أن الإنسـان إذا أمكنه جمع نسخ كـتـاب واحد من جميع الفنون من كتب الطب والحسـاب والهندسة والنحو والفقـه والحديث كان إمكان تغـيير بعض ألفاظ تلك النسخ أيسر عليهم من مقابلة الفاظ كل نسخة بالفاظ النسخ مثلها .

فإن هذا لا يقـدر عليه في العادة ، بل هو متعذر أو متعسّر ، ولا سيمـا المقابلة أن كانت بين اثنين فكل منـهما ينقل للآخر لفـظ نسخته فـيكون مدار المقابلة على خبر واحد لم يقترن بخبره ما يعلم به صدقه ، فقد يغلطان أو يكذبان جميعاً .

وإن كـانت بين عدد يحـصل بهم العلم احـتـاجت كل نسخـة بكل لسـان إلى أن يشهد بلفظهـا جمع يحصل بهم العلم ؛ وأولئك بأعيانهم يشهـدون بلفظ كل نسخة بكل لسـان ، وشهدوا بلفظ كـل نسخة ، ويشـهد لهم من هو مـثلهم بلفظ النسـخة الأخرى وموافقتها لها ، وهؤلاء أو مثلهم بموافقة النسخة الثانية .

ومعلوم أن هذا لم يفـعله أحد ولا يقدر عليـه أحد ، بل لو اجتـمع ملوك النصارى على ذلك وعلـمـاء بلادهم على ذلك لم يقـدروا عليـه ، فإن من النسـخ مـا هو عند المسلمين ، ومنها ما هو فى بلاد لا حكم لهم عليها، وأيضاً فقد يكون فى بلادهم من النسخ مالم يظهرها أصحابها .

فكل من شهد من النصـارى وغيرهم بأن كل نسخة فى العـالم بهذه الكتب توافق جميع النسخ فـهو شاهد زور شـهد بما لا يعلـم ، بل شهد بما يـعلم أنه كاذب فـيه ، وكذلك لو شهد بمثل هذه النسخ أى كتاب كان ، فإن العادة المعروفة أن نسخ الكتب

تختلف ويزيد بعضها وينقص بعضها ، والقرآن المنقول بالتواتر لم يكن الاعتماد فى نقله على نسخ المصاحف ، بل الاعتماد على حفظ التواتر له فى صدورهم .

ولهذا إذا وجد مصحف يخالف حفظ الناس أصلحوه ، وقد يكون فى بعض نسخ المصاحف غلط ، فلا يلتفت إليه مع أن المصاحف التى كتبها الصحابة قد قيد الناس صورة الخط ورسمه ، وصار ذلك أيضًا منقولا بالتواتر ، فنقلوا بالتواتر لفظ القرآن حفظًا ، ونقلوا رسم المصاحف أيضًا بالتواتر .

ونحن لا تدعى اتفاق جميع نسخ المصاحف كما لا ندعى أن كل من يحفظ القرآن لا يغلط ، بل ألفاظه منقولة بالتواتر حفظًا ورسمًا فمن خرج عن ذلك علم الناس أنه غالط لمخالفته النقل المتواتر ، بخلاف هذه الكتب ، فإن النصارى لم يحفظوها كلها فى قلوبهم تلقيا لها عن الحواريين حفظًا منقولا بالتواتر ، بل لم يكن أحد منهم يحفظها كلها ، فضلا عن أن يحفظها كلها أهل التواتر ، فضلا عن أن يحفظ كل لسان منهما من تواتر بهم ذلك اللسان .

وهذا أمر معلوم لجميع النصارى وغيرهم أنه لم يحفظها كلها بكل لسان من زمن الحواريين عدد التواتر ، بل ولا فى زمن من الأزمان ، بل بعد انتشار النصارى وكثرتهم وتفرقهم فى الأقاليم السبعة لا يكاد يوجد فيهم من يحفظ كلها عن قلبه ، كما يحفظ صبيان مكاتب المسلمين القرآن ، فكيف يحفظها فى كل زمان أهل التواتر ؟ فكيف يحفظ كل لسان من الإثنين وسبعين أهل التواتر ؟

وإذا كان اعتمادهم إنما هو على الكتب ، وهم لا يمكنهم معرفة اتفاق جميع النسخ بلسان واحد فضلا عن جميع الألسنة علم أن دعواهم إنما لم تزل متفقة على نص واحد ولفظ واحد ، وأن جميع نسخها متفقة فى هذا الزمان ، وفيما قبله كلام مجازف يتكلم بلا علم . بل يتكلم بما يعلم أنه باطل .

الوجه الثامن : أن هذا لو قدر إمكانه ، فإنما يكون منقولا لو لم يعلم أنه كذب

فكيف مع العلم بأنه كذب ؟ فإنه يوجد فى هذا الزمان نسخ التوراة والإنجيل والزبور والنبوات مختلفة متناقضة .

والنسخ التى عند النصارى مختلفة ، وهى أيضًا تخالف نسخ اليهود والسامرة فى مواضع ، وحينئذ فإذا قالت النصارى : نسخنا هى الصحيحة لم يكن هذا أولى من قول اليهود : نسخنا هى الصحيحة .

بل معلوم أن اعتناء اليهود بالتوراة أعظم من اعتناء النصارى ، ثم بعد هذا ما ذكروه لا يكفى إن لم يعلم أن نسخهم توافق النسخ التى عند اليهود حتى السامرة ، وهذا غير معلوم .

وإن قالوا : إذا خالف نقل اليهود لنقل الحواريين لم يلتفت إليه لأنهم معصومون كان هذا مبنيًا على دعوى عصمتهم ، وقد عرف فساده ، وإذا قالت النصارى : نحن ننقلها عن الحواريين المعصومين ، قالت اليهود : نحن ننقلها عن موسى المعصوم باتفاق أهل الملل ، أو عن العارف المعصوم باتفاق اليهود والنصارى ، وكثير من المسلمين . فالتوراة باتفاق الخلق مأخوذة عن موسى بن عمران وهو معصوم ، وإنما يطعن من يطعن في نقل بعضها ، لانقطاع التواتر في أثناء المدة لما خرب البيت المقدس ولم يبق فيه ساكن أكثر من سبعين سنة ، فيقول بعض الناس : إن بعض ألفاظها غُيِّر حينئذ ، ويقول بعضهم : لم تغير ألفاظ جميع النسخ وإنما غير ألفاظ بعض النسخ ، وانتشرت النسخ المغيرة عند كثير من الناس حتى لايعرفون غيرها ، ثم بنو إسرائيل لم يزل فيهم نبي بعد نبي حتى جاء المسيح .

وبعد المسيح فلم يزالوا خلقًا كثيراً لايمكن تواطؤهم – في مشارق الأرض ومغاربها – على تغيير جميع نسخ التوراة ، بخلاف الإنجيل فإنه إنما نقله أربعة ، ومن كتب التوراة والزبور والنبوات من أتباع المسيح ، فإنما كتبوها من النسخ التي كانت بأيدي اليهود !

وإذا قالوا : كانوا معصومين ، فهذا ممنوع عند المسلمين واليهود ، وعلى تقدير تسليمه فاليهود ينقلونها أيضاً عن المعصوم قبل هؤلاء ، فلا يمكن مع هذا أن يدع مدع أن النبوات التي عند النصارى تواترت عن المعصوم أعظم من تواتر ماعند اليهود ، بل لايشك العقلاء العادلون أن نقل حروف التوارة أصح من نقل حروف الإنجيل .

وهذا أمر يعرف من وجوه متعددة ؛ فإن التوراة أخذت عن المعصوم باتفاق أهل الملل ، وكانت منقولة قبل المسيح بين الأنبياء وبين بنى إسرائيل أعظم من نقل الإنجيل ، وبعد المسيح نقلها اليهود والنصارى .

وإذا كان كذلك ، فإذا وجد ما عند اليهود والسامرة من نسخ النبوات يخالف ماعند النصارى فى بعض الألفاظ كان هذا دليلا على أن هذه الكتب ليست ألفاظها منقولة عن نص واحد ، وأنه ليس كل لفظ من ألفاظها متواتراً ، والله أعلم .

الوجه التاسع : أن جميع ماعندهم من النصوص الصحيحة لايدل على مذهبهم ألبتة نصاً ، بل غاية مايدعون فيها الظهور ، وهم منازعون في ذلك حتى يقال ، بل الظاهر فيما يحتجون به خلاف قولهم .

ومعلوم أن أصول الإيمان التي يؤمن أهل الإيمان بها ، ويكفرون من خالفها لابد أن تكون معلومة عندهم عن الأنبياء ، والعلم لايحصل بلفظ علم محتمل فعلم أنه لاعلم عندهم عن الأنبياء عليهم السلام ، وهو محل النزاع .

الوجه العاشر : أن أصرح ما عندهم من التثليث ، هو قوله : [عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس] ، وعلى هذا القول بنوا قولهم بالتثليث ، وأثبتوا لله ثلاثة أقانيم .

ولفظ الأقانيم لم ينطق به أحد من الأنبياء ، ولا أحد من الحواريين باتفاقهم ، بل

هو مما ابتدعوه . قيل : إنه لفظ رومى معناه : الأصل ، ثم أقنوم الابن تارة ، يقولون « هو علم الله » وتارة يقولون : « هو حكمة الله » وتارة يقولون : « هو كلمة الله » وتارة يقولون : « هو نطق الله وروح القدس » ، وتارة يقولون : « هو حياة الله » وتارة يقولون : « هو قدرة الله » .

والكتب المنقولة عن الأنبياء عندهم ليس فيها تسمية شئ من صفات الله لاباسم ابن ولاباسم روح القدس ، فلا يوجد أن أحداً من الأنبياء يسمى علم الله وحكمته وكلامه ابنًا ، ولاسمى حياة الله أو قدرته روح القدس ، بل روح القدس في كلام الأنبياء يراد بها معنى ليس هو حياة الله ، كما يراد بها لك الله أو ماينزله في قلوب الأنبياء والصالحين من هداه ونوره وتأييده ، ونحو ذلك .

وإذا كان كذلك علم أن مافسروا به قول المسيح عليه السلام : [عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس] ، كذب صريح عليهم ، وكذلك مافسروا به كلام الأنبياء من إثبات الأقانيم الثلاثة كذب صريح عليهم ، كقولهم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرادوا به إثبات ثلاثة آلهة ، فإن هذا مما يعلم بالضرورة ضلالهم فيه وافترائهم على الأنبياء ، ويعلم أن إله الثلاثة هو إله واحد ليس إله إبراهيم إله آخر غير إله إسحاق حتى لو قيل بالأقانيم ، فلا يقول عاقل : إن أحد الأقانيم إله هذا ، والأقنوم الآخر إله الآخر ، فإن هذا لم يقله أحد من العقلاء ، لا النصارى ولاغيرهم ، يقولون : إن الأب إله إبراهيم مثلاً ، والإبن إله إسحاق ، وروح القدس إله يعقوب ، بل هم متفقون مع قولهم بالتثليث إن الجميع إله واحد لجميع المرسلين ، ليس إله هذا أقنوماً وإله الآخر أقنوماً آخر ، فعلم أن مايفسرون به كلام الأنبياء كذب ، لايصح لا على تثليثهم الذي ابتدعوه ، ولا قول أهل التوحيد لرسل الله تعالى .

فصل فيما بدّله اليهود وغيروه وكفروا به

قال الحاكي عنهم : فقلت لهم : إذا كانت هذه النبوات عند اليهود وهم مقرون معترفون بها أنها حق وأنها عقيدة أن تكمل عند مجئ المسيح فأي حجة لهم يحتجون بها عن الإيمان به ؟

أجابوا قائلين : إن الله اختار بني إسرائيل واصطفاهم على الناس له شعبًا في ذلك الزمان ، وحيث كانوا في أرض مصر في عبودية فرعون أرسل إليهم موسي النبي دلّهم على معرفة الله ، ووعدهم أن الله يخلصهم من عبودية فرعون ، ويخرجهم من مصر ويريهم أرض الميعاد التي هي أرض بيت المقدس ، فطلب موسى من الله وعمل العجائب قدام عيونهم .

وضرب أهل مصر العشر ضربات ، وهم يرون ذلك جميعه ، ويعلمون أن الله يصنعه لأجلهم وأخرجهم من مصر بيد قوية وشق لهم البحر وأدخلهم فيه ، وصار لهم الماء حائطًا عن يمينهم وحائطًا عن شمالهم ، ودخل فرعون وجميع جنوده في البحر وبنو إسرائيل ينظرون ذلك ، فلما برز موسى وبنو إسرائيل من البحر ، وخلفهم فرعون بجنوده فيه أمر الله لموسى أن يرد عصاه إلى الماء فعاد الماء كما كان وغرق فرعون وجميع جنوده في البحر وبنو إسرائيل يشهدون ذلك .

فلما غاب عنهم موسى أتى الجبل ليناجي ربه وأخذ لهم التوراة من يد الله وتركوا عبادة الله ونسوا جميع أفعاله ، وكفروا به وعبدوا رأس العجل من بعد ذلك ، ثم عبدوا الأصنام مرارًا كثيرة ليس مرة واحدة ، وذبحوا لها الذبائح ليست حيوانات بل بنيهم مع البنات حسبما ذكر فيما قبل ذلك ، وجميع أفعالهم مكتوبة في أخبار بني إسرائيل ، فلما رأى الله قساوة قلوبهم وغلظ رقابهم وكفرهم به ، ورأى أفعالهم النجسة الخبيثة غضب عليها وجعلهم مرذولين ، وطبع على قلوبهم فلا يؤمنون ، وجعلهم مهانين فى جميع الأمم وليس لهم ملك ولا بلاد ولا نبى ولا كاهن إلى الأبد

حسبما تنبأت عليهم الأنبياء على ما ذكرناه قبل ، وتشهد به كتبهم التى فى إيديهم إلى يومنا هذا .

وكذا قال الله لأشعيا : [اذهب إلى هذا الشعب ، فقل لهم تسمعون سماعاً ولا تفهمون ، وتنظرون نظراً ولا تبصرون ، لأن قلب هذا الشعب قد غلظ وقد سمعوا بأفهامهم سمعاً ثقيلاً ، وقد غمضوا أعينهم لعلا يبصروا بها وسمعوا بآذانهم ولا يفهمون بقلوبهم ويرجعون إلى فأرحمهم] .

وقال أشعيا : [قال الله : هكذا مقت نفسى سبوتكم ورءوس شهودكم صارت عندى مرذلة وقال : وفى ذلك اليوم بقول الله : [سأبطل السبوت والأعياد كلها وأعطيكم سنة جديدة مختارة لا كالسنة التى أعطيتها لموسى عبدى « يوم خوريب » يوم الجمع الكثير ، بل سنة جديدة مختارة آمر بها وأخرجها من صهيون] فصهيون هى أورشليم ، والسنة الجديدة المختارة : هى السنة التى تسلمناها نحن معشر النصارى من يدى الرسل والحواريين الأطهار الذين خرجوا من أورشليم ، وداروا فى سبعة أقاليم العالم وأنذروا بهذه السنة الجديدة ، فأى بيان يكون أوضح وأصح من هذا البيان ، إذ قد أوردناه من قول الله ، ولا سيما وأعداؤنا اليهود المخالفون لديننا شهدوا لنا بصحة ذلك جميعه .

وأما حجة اليهود فى هذه النبوات يقولون ويعتقدون أنها حق وأنها قول الله ، لكن يقولون : إنها عقيدة أن تكمل وتتم عند مجئ المسيح ، لكن المسيحيين ينكرون مجيئه ، ويقولون بعد ما جاء ، وأن الذى جاء ليس هو المسيح ، هذا قولهم وكفاهم أنهم يكفرون ويفتخرون مع الكفر ، ويقولون إن المسيح كان ضالاً مضلاً ، وأما المسيح الحق فعتيد ، إنه يأتى ويكمل نبوات الأنبياء إذا جاء ، وإذا جاء اتبعناه وكنا أنصاره ، وهذا رأيهم واعتقادهم فى السيد المسيح ، فماذا يكون أعظم من هذا الكفر الذى هم عليه ؟

ولأجل ذلك فى هذا الكتاب سماهم المغضوب عليهم لأجل خلافهم لقول الذى أرسل نطقه على أفواه الأنبياء ، ولما كنا نحن النصارى متمسكين بما أمرنا به الرسل الأطهار سمانا فى هذا الكتاب المنعم عليهم ، وأما قولنا فى الله ثلاثة أقانيم إله واحد ، فهو أن الله نطق به وأوضحه فى التوراة ، وفى كتب الأنبياء ، ومن ذلك ما جاء فى السفر الأول من التوراة يقول : [حيث شاء الله أن يخلق آدم قال لنخلق خلقاً عن شبهنا ومثالنا] ، فمن هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروح قدسه ، وحين خالف آدم وعصى ربه [ها آدم قد صار كواحد منا] .

وهذا واضح أن الله قال هذا القول لابنه ، أى كلمته وروح قدسه ، وقال هذا القول يستهزئ بآدم ، أى طلب أن يصير كواحد منا صار عرياناً مفتضحاً .

وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة ، وقال فى التوراة : [وأمطر الرب من عند الرب من السماء على سدوم وعامورة ناراً وكبريتاً] ، وأوضح بهذا ربوبيته الأب والابن بذكر ثالث .

والجواب : أن يقال : أما كفر اليهود كلهم لما أرسل المسيح عليه السلام إليهم فلم يؤمنوا به وكفر من كفر منهم قبل ذلك ، إما بقتل النبيين ، وإما بتكذيبهم ، وإما بالشرك ، وإما بغير ذلك ، مما كفروا فيه بما أنزل الله فهذا حق .

وهـذا هو نظير كفر النصارى لهم الذين بلغتهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقام الله عليهم الحجة به فلم يؤمنوا به ، وكفرمن كفر منهم قبل ذلك بما أنزل الله إما بتكذيب بعض ما أنزله وإما بتبديله ، وإما بجعل ما لم ينزله منزلا منه ، وإما بغير ذلك مما فيه كفر بما أنزل الله عز وجل .

وكذلك ما ذكر من أن الله أقام سنة جديدة وعهداً جديدا ، وهو ما بعث به المسيح عليه السلام من الشريعة التى بعث بها وفيها تحليل بعض ما حرمه الله فى التوراة ، كما فى القرآن عن المسيح : ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم﴾ ،فهذا أيضاً حق .

فصل في البدع التي أحدثتها النصارى

وأما قولكم : السنة الجديدة المختارة هي السنة التي تسلمناها من يدي الرسل الأطهار ، على ما تسلموها من المسيح عليه السلام .

فيقال : لو كنتم على تلك السنة لم تغيروها لم ينفعكم المقام عليها ، إذا كذبتم الرسول النبي الأمي الذي بعث إليكم وإلى سائر الخلق بسنة أخرى أكمل من السنن التي كانت قبله ، كما لم ينفع اليهود ، ولو تمسكوا بسنة التوراة ، ولم يتبعوا سنة المسيح الذي أرسل إليهم ، بل من كذب برسول واحد فهو كافر .

كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله وقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ [سورة النساء : ١٥٠] .

فإنه وإن كانت السنة التي جاء بها المسيح عليه السلام حقاً ، وكل من كان متبعاً له فهو مؤمن مسلم من أولياء الله ، من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، ما قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ . فمن اتبع المسيح كان مؤمناً ، ومن كفر به كان كافراً .

وقال تعالى : ﴿ يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا

يحب الظالمين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥ - ٥٧] .

لكن غيرتموها وبدلتموها قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فصرتم كفاراً بتبديل شريعة المسيح ، وتكذيب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما فرت اليهود بتبديل شريعة التوراة ، وتكذيب شريعة الإنجيل ، ثم كفروا بتكذيب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى سائر رسل الله أجمعين .

فإن المسيح لم يسن لكم التثليث والقول بالأقانيم ، ولا القول بأنه رب العالمين ، ولا سن لكم استحلال الخنزير وغيره من المحرمات ، ولا ترك الختان ، ولا الصلاة إلى المشرق ، ولا اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، ولا الشرك واتخاذ التماثيل والصليب ، ودعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والصالحين وغيرهم ، وسؤالهم الحوائج ، ولا الرهبانية وغير ذلك من المنكرات التى أحدثتموها ولم يسنها لكم المسيح ، ولا ما أنتم عليه هى السنة التى إسلمتموها من رسل المسيح ، بل عامة ما أنتم عليه من السنن أمور محدثة مبتدعة بعد الحواريين ، كصومكم خمسين يوماً زمن الربيع ، واتخاذكم عيداً يوم الخميس والجمعة والسبت ، فإن هذا لم يسنه المسيح ولا أحد من الحواريين ، وكذلك عيد الحواريين : الميلاد والغطاس وغير ذلك من أعيادكم .

بل عيد الصليب إنما ابتدعته « هيلانة » الحرانية القندقانية أم قسطنطين فأنتم تقولون : إنها هى التى أظهرت الصليب وصنعت لوقت ظهوره عيداً ، وذلك بعد المسيح والحواريين بمدة طويلة فى زمن ملك قسطنطين بعد المسيح بأكثر من ثلثمائة سنة .

وفى ذلك الزمان أحدثتم الأمانة المخالفة لنصوص الأنبياء فى غير موضع ، وأظهرتم استحلال الخنزير وعقوبة من لا يأكله ، وابتدعتم فى ذلك الزمان تعظيم الصليب وغير ذلك من بدعكم ، وكذل كتب القوانين التى عندكم التى جعلتموها سنة وشريعة فيها شئ عن الأنبياء والحواريين ، وكثير مما فيها ابتدعه من بعدهم لا ينقلونه لا عن المسيح ولا عن الحواريين ، فكيف تدعون أنكم على السنة والشريعة التى كان

عليها المسيح عليه السلام ، وهذا مما يعلم بالاضطراد والتواتر أنه كذب بين .

فصل فى الفرق بين المشابهة والمماثلة

قالوا : وأما قولنا فى الله ثلاثة أقانيم إله واحد ، فهو أن الله نطق به وأوضحه فى التوراة وفى كتب الأنبياء ، ومن ذلك ما جاء فى السفر الأول من التوراة يقول حيث شاء الله أن يخلق آدم قال الله : ﴿ لنخلق خلقاً على شبهنا ومثالنا ﴾ ، فمن هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروحه ؟

وحين خالف آدم وعصى ربه ، قال الله تعالى : [ها آدم قد صار كواحد منا] ، وهو قول واضح أن الله قال هذا القول لابنه وروح قدسه .

والجواب : أن استدلالهم بهذا على قولهم فى المسيح هو غاية الفساد والضلال ، فإن لفظ التوراة : [نصنع آدم كصورتنا وشبهنا] ، وبعضهم يترجمه [نخلق بشراً على صورتنا وشبهنا] .

والمعنى واحد ، وهو كما قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) : « إن الله خلق آدم على صورته » وفى رواية (٢) « على صورة الرحمن » فقولهم من هو شبهه ومثاله

---

(١) « متفق عليه » عن أبى هريرة

رواه البخارى فى كتاب الإستئذان »باب « بدء السلام » (١١/٥ح٦٢٢٧)

ورواه البخارى فى كتاب « أحاديث الأنبياء » باب « خلق آدم وذريته » (٤١٧/٦ح٣٣٢٦) من ذكر الشاهد

ورواه مسلم فى كتاب « صفته الحق والنار » باب « يدخل الجنة أقوام .. »(٢١٨٣/٤ ، ٢١٨٤ ح٢٨٤١)

(٢) هذه الرواية وردت عن « ابن عمر »

رواه الطبرانى فى « الكبير » (٤٣٠/١٢ح١٣٥٨٠)

وقال الهيثمى فى « المجمع » (١٠٦/٨) : ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إسماعيل الطالقاني وهو ثقة وفيه ضعف » .

وقد رواه ابن خزيمة فى كتاب « التوحيد » (ص٣٨) =

سوى كلمته وروحه من أبطل الأباطيل من وجوه :

أحدها : أن الله ليس كمثله شئ ، وليس لفظ النص على مثالنا .

الثاني : أنه لا اختصاص للمسيح بما ذكر على كل تقديرحق وباطل بأى تفسير فسر قوله : [سنخلق بشراً على صورتنا وشبهنا] ولم يخص ذلك المسيح .

الثالث : أنهم إن أرادو بالكلمة التى هى شبهه ومثاله صفته ، التى هى العلم القائم به والحياة القائمة به مثلاً ، فالصفة لا تكون مثالاً للموصوف ، إذ الموصوف هو الذات القائمة بنفسها ، والصفة قائمة بها ، والقائم بغيره لا يكون مثل القائم بنفسه .

وإنأرادوا به شيئاً غير صفاته ، مثل بدن المسيح وروحه ، فذلك مخلوق له ، والمخلوق لا يكون مثل الخالق ، وكذلك روح القدس سواء أريد به ملك أو هدى وتأييد ، ليس مثلا لله عز وجل .

الرابع: أنه قال [لنخلق خلقاً] ، أو قال : [نخلق آدم أو نخلق بشراً على صورتنا وشبهنا] ، وعلى ما قالوه : [نخلق خلقاً على شبهنا ومثالنا] ، وبكل حال ، فهذا مخلوق وكلمة الله وروحه عندهم غير مخلوق ، فامتنع أن يكون المراد بذلك كلمته وروحه .

وإن قالوا : أراد بذلك الناسوت المسيحى ، فلا فرق بين ذلك الناسوت وسائر النواسيت ، مع أن المراد بذلك النص آدم أبو البشر باتفاق الأمم و والناسوت نفسه ليس هو كلمة الله وروحه .

الخامس : أنه لو قدر أنه أريد بذلك أن كلام الله يشبه ذاته من بعض الوجوه ، مثل كونه قديماً بقدمه ، لم يكن فى ذلك ما يدل على الأقانيم الثلاثة .

=ورواه الآجرى فى الشريعة (ص٣١٥)

ورواه ابن أبى عاصم فى السنة (١/٢٢٨ ، ٢٢٩ح٥١٧)

ورواه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص٢٩١)

=والحديث قال عنه ابن حجر فى فتح البارى (٥/٢١٧) : بإسناد رجاله ثقات وذكر تصحيح الإمام أحمد لهذا الحديث ، وراجع كتاب التوحيد لابن خزيمة .

وكذلك اللفظ المعروف وهو قوله : [سنخلق بشراً على صورتنا وشبهنا] ، فهذا لا يدل على التثليث بوجه من الوجوه ،وشبه الشئ بالشئ يكون لمشابهته له من بعض الوجوه ، وذلك لا يقتضى التماثل الذى يوجب أن يشتركا فيما يجب ويجوز ويمتنع وإذا قيل هذا حى عليم قدير ، وهذا حى عليم قدير فتشابها فى مسمى الحى والعليم والقدير ، لم يوجب ذلك أن يكون هذا المسمى مماثلا لهذا المسمى فيما يجب ويجوز ويمتنع .

بل هنا ثلاثة أشياء :

أحدهما : القدر المشترك ، الذى تشابها فيه ، وهو معنى كلى لا يختص به أحدهما ، ولا يوجد كلياً عاما مشتركا إلا فى علم العالم .

والثانى : ما يختص به هذا ، كما يختص الرب به من الحياة والعلم والقدرة

والثالث : ما يختص به العبد من الحياة والعلم والقدرة ، فما اختص به الرب عز وجل لا يشركه فيه العبد ، ولا يجوز عليه شئ من النقائص التى تجوز على صفات العبد ، وما يختص به العبد لا يشركه فيه الرب ، ولا يستحق شيئاً من صفات الكمال التى يختص به الرب عز وجل .

وأما القدر المشترك كالمعنى الكلى الثابت فى ذهن الإنسان فهذا لا يستلزم خصائص الخالق ولا خصائص المخلوق ، فالاشتراك فيه لا محذور فيه .

ولفظ التوراة فيه : [سنخلق بشراً على صورتنا يشبهنا] ، لم يقل : على مثالنا ، وهو كقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا يقولن أحدكم : قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته » فلم تذكر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، كموسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم إلا لفظة « شبه » دون لفظ « مثل » .

وقد تنازع الناس : هل لفظ الشبه بمعنى واحد أو معنيين على قولين :

أحدهما: أنهما بمعنى واحد ، وأن ما دل عليه لفظ المثل مطلقا ومقيداً يدل عليه لفظ الشبه ، وهذا قول طائفة من النظار .

والثاني : أن معناهما مختلف عند الإطلاق لغة وشرعاً وعقلاً ، وإن كان مع التقيد والقرينة يراد بأحدهما ما يراد بالآخر ، وهذا قول أكثر الناس ، وهذا الإختلاف مبنى على مسألة عقلية ، وهو أنه هل يجوز أن يشبه الشئ بشئ من وجه دون وجه وللناس فى ذلك قولان ، فمن منع أن يشبه من وجه دون وجه قال : المثل والشبه واحد ، ومن قال إنه قد يشبه الشئ الشئ من وجه دون وجه ، فرق بينهما عند الإطلاق ، وهذا قول جمهور الناس ، فإن العقل يعلم أن الأعراض مثل الألوان تشتبه في كونها ألوانا مع أن السواد ليس مثل البياض ، وكذلك الأجسام والجواهر عند جمهور العقلاء تشتبه فى مسمى الجسم والجوهر ، وإن كانت حقائقها ليست متماثلة ، فليست حقيقة الماء مماثلة لحقيقة التراب ، ولا حقيقة النبات مماثلة لحقيقة الحيوان ؛ ولا حقيقة النار مماثلة لحقيقة الماء ، وإن اشتركا فى أن كلا منهما جوهر وجسم وقائم بنفسه .

وأيضاً فمعلوم فى اللغة أن يقال : هذا يشبه هذا ، وفيه شبه من هذا ، وإذ أشبهه من بعض الوجوه ، وإن كان مخالفاً فى الحقيقة .

قال الله تعالى : ﴿ وأتُوا به متشابهاً ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥] .

وقوله :﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾،[سورة آل عمران:٧]

﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٨] .

فوصف القولين بالتماثل ، والقلوب بالتشابه لا بالتماثل ، فإن القلوب وإن اشتركت فى هذا القول فهى مختلفة لا متماثلة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس » .

فدل على أنه يعلمها بعض الناس ، وهى فى نفس الأمر ليست متماثلة ، بل بعضها حرام وبعضها حلال .

والوجه السادس : أن قوله : [سنخلق خلقاً على شبهنا] لا يتناول صفته ، مثل كلامه وحياته القائمة بـه ، فإن ذلك ليس بمخلوق ، وحينئذ فهذا لا يتناول اللاهوت الذى يزعمون أنه تدرع الناسوت ، فإن اللاهوت ليس بمخلوق .

وأما الناسوت فهو كسائر نواسيت الناس لا اختصاص له ، بأن يكون شبيهاً لله دون سائر النواسيت ، فقوله : فمن هو الشبه المخلوق سوى كلمته وروحه باطل على كل تقدير .

وأما قوله : [ها آدم قد صار كواحد منا] ، وقولهم : إن هذا قول واضح أن الله قال : هذا القول لابنه وروح قدسه ، فإن أرادوا أن يجعل الذى صار كواحد منا لابنه ، كان هذا من أبطل الكلام ، فإن هذا الابن إن كان المراد به الكلمة التى هى صفة لله ، فتلك لم يخلق لها أمر يصير كواحد منهم ، وتلك لا تسمى آدم ولا سماها الله ابناً .

وإن أريد به ناسوت المسيح فذاك مخلوق مبتدع يمتنع أن يكون كالقديم الأزلى ، وأيضاً فإن الله قال هذا عن آدم ، وآدم ليس هو المسيح ، ولا يجوز أن يقال : آدم ويراد به المسيح ، كما لا يجوز أن يقال : عصى آدم ويراد به المسيح ، وأيضاً فإنه قال : [ها آدم كواحد منا] وهذا إشارة إلى أمر قد كان فى الزمن الماضى ، ليس هو إشارة إلى ما سيكون بعد ذلك بألوف السنين ، وإن أرادوا أن الله قال لابنه الذى هو

كلمته وروحه وهذا هو مرادهم ، كقولهم : إنه قال القول يستهزئ بآدم - أى أنه طلب أن يصير كواحد صار هكذا عرياناً مفتضحاً ، ويكون شبهتم قوله منا لأنه عبر بصيغة الجمع ، وكذلك إن أرادوا هذا بقوله « نخلق بشراً على صورتنا وشبهنا » فاحتجوا على التثليث بصيغة الجمع .

وهذا مما احتج به نصارى نجران على النبى صلى الله عليه وسلم فاحتجوا بقوله تعالى « إنا ، ونحن » قالوا وهذا يدل على أنهم ثلاثة ، وكان هذا من المتشابه الذى اتبعوه ابتغاء الفتنه وابتغاء تأويله ، وتركوا المحكم المبين الذى لا يتحمل إلا واحداً ، فإن الله فى جميع كتبه الإلهية قد بين أنه إله واحد ، وانه لا شريك له ، ولا مثل له .

وقوله : « إنا ، ونحن » لفظ يقع فى جميع اللغات على من كان له شركاء وأمثال ، وعلى الواحد المطاع العظيم الذى له أعوان يطيعونه ، وإن لم يكونوا شركاء ولا نظراء والله تعالى خلق كل ما سواه ، فيمتنع أن يكون له شريك أو مثل ، والملائكة وسائر العالمين جنوده .

قال تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ ، [سورة المدثر : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ [سورة الفتح : ٧] .

فإذا كان الواحد من الملوك يقول : إنا ونحن ولا يريدون إنهم ثلاثة ملوك فمالك الملك رب العالمين ورب شئ ومليكه هو أحق بأن يقول : إنا ، ونحن مع أنه ليس له شريك ولا مثل ، بل له جنود السموات والأرض .

وأيضاً فمن المعلوم أن آدم لم يطلب أن يصير مثل الله ولا مثل صفاته كعلمه وصفاته ، وأيضاً فليس فى ظاهر اللفظ أن الله خاطب صفاته بذلك .

وأيضاً فالصفة القائمة بالموصوف لا تخاطب ولا تخاطب ، وإنما يخاطب الموصوف ، ولم يكن قد خلق آدم ناسوت المسيح ولا غيره من البشر حتى يخاطب ،

فعلم أن دعواهم أن الله خاطب صفتـه التى سموها هم ابنا وروح قدس كلام باطل ، بل قد يخاطب ملائكته ، وآدم عليه السلام أراد ما أطعمه الشيطان من الخلد والملك .

كما قال تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد و ملك لا يبلى ﴾ [سورة طه : ١٢٠] .

فصل فى الصفة ليست ابنا

قالوا : وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة ، قال فى التوراة : [وأمطر الرب من عند الرب من السماء على سدوم وعامورة نارا وكبريتاً] وأوضح بهذا ربوبية الأب والابن .

والجواب : أن احتجاجهم بهذا من أبطل الأباطيل لوجوه :

أحدها : أن تسمية الله علمه وحياته ابناً ورباً تسمية باطلة ، لم يسم موسى فى التوراة شيئاً من صفات الله باسم الابن ولا باسم الرب ، فدعوى المدعى أن موسى عليه السلام أراد بالرب شيئاً من صفات الله ، أو أن له صفة تسمى ابنه كلام باطل .

الثانى : أنه لو قدر أن صفة الله تسمى بذلك معلوم أن الذى أمطر ، كان هو الذى كان المطر عنده ، لم يكن المطر عند أحدهما والآخر هو المطر ، كما لا يجوز أن يقال خلق أحدهما من شئ عند الآخر ، ولا أنزل أحدهما المطر من سحاب الآخر .

الثالث : أن الصفة لا تفعل شيئاً ، ولا عندها شئ ، بل هى قائمة بالموصوف ، والذات المتصفة بالصفة هى التى تفعل ، وعندها يكون ما يكون .

الرابع : أن هذا بمنزلة قوله : [أمطر الرب من عنده] لكن جعل الاسم الظاهر موضع المضمر إظهاراً لأن الأمر له وحده فى هذا وهذا .

ومثل هذا في القرآن كقوله ﴿ الحاقة * ما الحاقة ﴾ [سورة الحاقة : ١ ، ٢] .

﴿ القارعة * ما القارعة ﴾ ، [سورة القارعة : ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ [سورة غافر : ٢] ﴿ تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ﴾ [سورة فصلت : ٢] .

والله هو المنزل ولم يقل منى .

فصل في معنى الرب

قالوا : نذكر ثالثًا ، وقال داود في الزبور فى المزمور المئة والتسعة قائلا :

[قال الرب : لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك تحت موطأ قدميك] .

والجواب من وجوه :

أحدها : أنه لايجوز أن يراد بربى شيئًا من صفات الله ، فإنه لم يسم داود ولا أحد من الأنبياء شيئًا من صفات الله ربًا ولا ابنًا ، ولا قال أحد لشئ من صفات الله : يارب ارحمني ، ولاقال لعلم الله أو كلامه أو قدرته : يارب ، وإذا لم يكونوا يسمون صفات الله ربًا ، فلو كان المسيح صفة من صفاته لم يجز أن يكون هو الله المراد بلفظ الرب ، فكيف وناسوته أبعد عن اللاهوت أن يراد بذلك ؟ فعلم أنهم لم يريدوا بذلك لا اللاهوت ولا الناسوت .

الثاني : أنه قال : قال الرب لربى ، فأضاف إليه الثاني دون الأول ، وأنه هو ربه الذي خلقه ، وعامة ما عند النصارى من الغلو أن يقولوا : إله حق من إله حق ، ويجعلونه خالقًا بأن يجعلوه أحق من الأب بكونه رب داود ، فهذا لم يقولوه ، وهو ظاهر البطلان .

الثالث : أنه ليس في هذا ذكر الأقانيم الثلاثة غايته لو كان لماتأوّلوه أن يكون فيه ذكر الابن ، وأما الأقانيم الثلاثة فلم ينطق بها شئ من كتب الله التى بأيديهم ، فضلا عن القرآن لابلفظها ولامعناها. بل ابتدعوا لفظ الأقنوم ، وعبروا به على ماجعلوه مدلول كتب الله ، وهي لاتدل على ذلك ، فكانوا في ذلك مترجمين لكلام الله ،

وهم لم يفهموا معناه ، ولاعبروا عنه بعبارة تدل على المراد .

الرابع : أنه قال لربى ، وهذا يراد به السيد ، كما قال يوسف : ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ ، [سورة يوسف : ٢٣] .

وقال لغلام الملك : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ، [سورة يوسف : ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ ، [سورة يوسف : ٤٢] .

ولهذا ذكر الأول مطلقًا والثاني مقيدًا فيكون المعنى وقال الله لسيدى : قال رب العالمين لسيدي ، وسماه سيدًا تواضعًا من داود وتعظيماً له لاعتقاده أنه أفضل منه .

فصل في معنى الابن

قالوا : نذكر رابعًا ، وقال في الزبور الثانى : [الذى قال لى : أنت ابني وأنا اليوم ولدتك] .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا ليس فيه تسمية صفات الله : علمه وحياته ابنًا ، ولا في ذكر الأقانيم الثلاثة ، فليس فيه حجة لشئ مما تدعونه .

والثاني : أن هذا حجة عليهم ، فإنه سمى داود ابنه ، فعلم أن اسم الابن ليس مختصًا بالمسيح عليه السلام ، بل سمى غيره من عباده ابنًا ، فعلم أن اسم الابن ليس لصفاته ، بل هو اسم لمن رباه من عبيده .

وحينئذ فلا يكون تسميته ابنًا لكون الرب أو صفته اتحدث به ، بل كما سمى داود ابنًا ، وكما سمى إسرائيل ابنًا فقال : [أنت ابنى بكري] .

وهذا في كتبهم ، كما ذاك في كتبهم فلا حجة فيه ، لأن قول غير المعصوم ليس بحجة .

الثالث أن قوله : [وأنا اليوم ولدتك] يدل على حدوث هذا الفعل ، وعندهم تولد الكلمة التي سموها الابن من الأب قديم أزلي ، كما قالوا في أمانتهم [وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق ، مساوى الأب في الجوهر الذي به كان كل شئ] .

فهذا الابن عندهم مولود من الأب قبل كل الدهور ، وذاك ولده في يوم خاطبه بعد خلق داود ، فلم يكن في هذا المحدث دليل على وجود ذلك القديم .

الوجه الرابع : أنه إذا كان الأب في لغتهم هو الرب الذي يربّى عبده أعظم مما يربى الأب ابنه ، كان معنى لفظ الولادة مما يناسب معنى هذه الأبوة ، فيكون المعنى : اليوم جعلتك مرحوماً مصطفى مختاراً .

والنصارى قد يجعلون الخطاب الذي هو ضمير لغير المسيح ، يراد به المسيح ، فقد يقولون : المراد بهذا المسيح ، وهذا باطل لايدل اللفظ عليه ، وبتقدير صحته ، فهو يدل على أن المسيح هو الناسوت المخلوق ، وهو المسمى بالابن ، كقوله [وأنا اليوم ولدتك] . واللاهوت عندهم مولود من قبل الدهور ، وحينئذ فإن كان المراد به يوم ولادته ، فالمعنى خلقتك وإن كان يوم اصطفاه ، فالمراد اليوم اصطفيتك وأحببتك ، كأنه قال : اليوم جعلتك والداً وإبناً ـ على لغتهم .

فصل في بطلان ما استدلوا به على التعدد

قالوا : نذكر خامساً ، وفي السفر الثاني من التوراة وكلم الله موسى من العليقة قائلا : (أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب) ولم يقل أنا إله إسحق .

بل كرر اسم الإله ثلاث دفوع قائلا : أنا إله وإله وإله لتحقق مسألة الثلاث أقانيم في لاهوته .

والجواب : أن الاحتجاج بهذا على الأقانيم الثلاثة من أفسد الأشياء ، وذلك يظهر

من وجوه :

أحدها : أنه لو أريد بلفظ الإله أقنوم الوجود ، وبلفظ الإله مرة ثانية أقنوم الكلمة ، وبالثالث أقنوم الحياة ، لكان الأقنوم الواحد إله إبراهيم ، والأقنوم الثاني إله إسحق ، والأقنوم الثالث إله يعقوب ، فيكون كل من الأقانيم الثلاثة إله أحد الأنبياء الثلاثة ، والأقنومين ليسا بإلهين له .

وهذا كفر عندهم ، وعند جميع أهل الملل ، وأيضاً فيلزم من ذلك أن يكون الآلهة الثلاثة ثلاثة ، وهم يقولون : إله واحد ، ثم هم إذا قالوا : كل من الأقانيم إله واحد ، فيجعلون الجميع إله كل نبي ، فإذا احتجوا بهذا النص على قولهم لزم أن يكون إله كل نبي ، ليس هو إله النبي الآخر ، مع كون الآلهة ثلاثة .

الوجه الثاني : أنه يقال : إن الله رب العالمين ، ورب السموات ورب الأرض ورب العرش ورب كل شئ ، فيلزم أن يكون رب كل شئ ، ويقال : إله موسى وإله محمد ، مع قولنا : إله إبراهيم وإسحق .

أفتراه أثبت إلهين : أحدهما اله ، والآخر إله الثلاثة ؟!

الوجه الثالث : أن العطف يكون تارة لتغاير الذوات ، وتارة لتغاير الصفات ، كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوّى * والذي قدّر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاءً أحوى ﴾ ، [سورة الأعلى : ١- ٥) .

والذى خلق هو الذي قدر وأخرج ، وكذلك قوله : ﴿ إلهك وإله آبائك ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٣] .

وهو هو سبحانه ، وقال إبراهيم الخليل صلوت الله عليه وسلامه لقومه : ﴿ أفرأيتم ماكنت تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدوٌ لي إلا ربُ العالمين * الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يُطعمني ويَسقين * وإذا مرضت فهو يّشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ ، [سورة

الشعراء : ٧٥ - ٨٢] .

والذي خلقه هو الذي يطعمه ويسقيه ، وهو الذي يميته ثم يحييه ، فقوله في التوراة : إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب هو من هذا الباب ، ولايختص هذا بثلاثة ، بل يقال في الاثنين والأربعة والخمسة بحسب مايقصد المتكلم ذكره من الصفات ، وفي هذا من الفائدة ماليس في قوله : إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فإنه لو قيل ذلك لم يفد إلا إنه معبود الثلاثة ، لا يدل على أنهم عبدوه مستقلين ، كل منهم عبده عبادة اختص بها ، لم تكن هي نفس عبادة الأول .

وأيضًا فإنه إذا قيل إله إبراهيم وإسحق ويعقوب دلَّ على عبادة كل منهم باللزوم ، وإذا قال : (وإله) دلَّ على معبود كل من الثلاثة ، فأعاده باسم الإله الذي يدل على العبادة دلالة باللفظ المتضمن لها ، وفي ذلك من ظهور المعني للسامع وتفرعه بصورة له من غير فكر ماليس في دلالة الملزوم .

فصل في أن الرب لايتعدد
وإنما الذى يتعدد هو التقديس

قالوا : وكذلك شهد « أشعيا » بتحقيق الثالوث بوحدانية جوهره ، وذلك بقوله : [رب القوات] ، وبقوله : [رب السموات والأرض] ومثل هذا القول في التوراة والمزامير شئ كثير حتى اليهود يقرأون هذه النبوات ، ولايعرفون لها تأويلا ، وهم مقرون بذلك ، ولاينكرون منه كلمة واحدة ، وإنما قلوبهم مغلوقة عن فهمه لقساوتها على ماذكرنا قبل ذلك ، وأنهم إذا اجتمعوا في كنيستهم كل سبت يقف الحران أمامهم ، ويقول كلامًا عبرانيًا هذا تفسيره ، ولايجحدونه : [نقدسك ونعظمك ، ونثلث لك تقديسًا مثلثًا ، كالمكتوب على لسان نبيك] .

فيصرخ الجميع مجاوبين : [قدوس قدوس قدوس ، رب القوات ، ورب السموات والأرض] .

فما أوضح إقرارهم بالثالوث ، وأشد كفرهم بمعناه فنحن لأجل هذا البيان الواضح الذي قاله الله في التوراة ، وفي كتب الأنبياء فجعلوه ثلاثة أقانيم جوهرًا واحدًا ، طبعة واحدة إلهًا واحدًا أبًا واحدًا ، خالقاً واحدًا ، وهو الذي نقوله : أب وابن وروح قدس .

والجواب : أما مافي كتب الأنبياء عليهم السلام من تسميته اسم الرب عند إضافته إلى مخلوق آخر فهو نمط تسميته اسم الإله ، وهذا لايقتضي تعدد الأرباب والآلهة ، ولهذا يقتضى جعلهم اثنين وأربعة إذا ذكر اللفظ مرتين وأربعة .

فكذلك إذا كان ثلاث مرات لايقتضى أن الأرباب ثلاثة ، وهم أيضًا لايقولون بثلاثة أرباب وثلاثة آلهة تدل على نقيض قولهم ، بل هم يزعمون أنهم إنما يثبتون إلهًا واحدًا ، ولكنهم يتناقضون فيصرحون بثلاثة آلهة ، ويقولون هم إله واحد .

والكتب لاتدل على قولهم المتناقض بوجه من الوجوه ، وأما ماذكروه من اعتراف اليهود بألفاظ هذه النبوات ، ودعواه أنهم لايعرفون لها تأويلا ، فإن أراد بالتأويل تفسيرها ومايدل عليه لفظها ، فهذا ظاهر لايخفي على الصبيان من اليهود وغيرهم .

ولكن النصاري ادعوا مايدل عليه اللفظ ، فهذا إنما يحتاج إليه أن أرادوا بالتأويل معني يخالف ظاهر اللفظ ، فهذا إنما يحتاج إليه – إن كان يحتاج إليه – إذا كان ظاهره معنى باطلاً ، لايجوز إرادته وليس ماذكر هنا من هذا الباب بل الكتب الإلهية يكثر فيها مثل هذا الكلام عند أهل الكتاب وعند المسلمين ، ولايفهم منها ثلاثة أرباب أو ثلاثة آلهة إلا من اتبع هواه بغير هدى من الله ، وقال قولا مختلفًا يؤفك عنه من أفك ، ومثل هذا موجود في سائر الكلام ، فقال : هذا أمير البلد الفلاني ، وأمير البلد الفلاني ، وأمير البلد الفلاني ، وهو أمير واحد .

ويقال : هذا رسول إلى الأميين ، ورسول إلى أهل الكتاب ، ورسول إلي الجن والإنس ، وهو رسول واحد .

فصل في معنى قوله : نثلث لك

وأما قولهم : [نقدسك ونعظمك ، ونثلث لك تقديسًا مثلثًا ، كالمكتوب على لسان نبيك أشعيا] .

قولهم : [قدوس قدوس قدوس ، رب القوات ، ورب السموات والأرض] فيقال : هذا الكلام صريح في أن المثلث هو نفس التقديس لانفس الإله المقدس .

وكذلك قولهم : [قدوس قدوس قدوس] ، قدسوه ثلاث مرات ، فإنه قال : [نقدسك ونثلث لك تقديساً مثلثاً] فنصب التثليث على المصدر الذى ينصب بفعل التقديس ، فقال : نقدسك تقديسًا مثلثًا .

فنصب التقديس على المصدر ، كما تقول : سبحتك تسبيحًا مثلثًا ، أي سبحتك ثلاث مرات ، وقال : نثلث لك أي نثلث تقديسًا لك ، لم يقل أنت ثلاثة ، بل جعلوا أنفسهم هم الذين يقدسون التقديس المثلث وهم يثلثون له ، وهذا صريح في أنهم يسبحونه ثلاث مرات ، لايسبحون ثلاثة آلهة ، ولاثلاثة أقانيم .

وهذا كما في السنن عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قال العبد في ركوعه : سبحان ربي العظيم ثلاثًا فقد تم ركوعه ، وذلك أدناه ، وإذا قال في سجوده : سبحان ربى الأعلى ثلاثًا فقد تم سجوده وذلك أدناه » والتسبيح هو تقديس الرب وأدناه أن يقدسه ثلاث مرات ، فمعنى قدسوه ثلاث مرات : لاتقتصروا على مرة واحدة .

ولهذا قالوا مجاوبين : قدوس قدوس قدوس ، فيقدسونه ثلاث مرات فعلم أن المراد حيث مادل على لفظه ، ومايفعلونه ممتثلين لهذا الأمر ، ومايفعل في نظير ذلك تثليث تقديسه ، وأن يقدس ثلاث مرات ، ولا أن يكون المقدس ثلاث أقانيم ، فإن هذا أمر لم ينطق نبي من الأنبياء به لا لفظًا ولامعنى ، بل جميع الأنبياء عليهم السلام أثبتوا إلهًا واحدًا له الأسماء الحسنى .

وأسماؤه متعددة تدل على صفاته المتعددة ، ولايختص ذلك بثلاثة أسماء ، ولابثلاثة صفات ، وليست الصفات أقنوما هو ذات وصفة ، بل ليس إلا ذات واحدة لها صفات متعددة ، فالتعدد في الصفات لافي الذات التى سموها الجوهر ، ولافي الذات والصفة التي يسمونها الأقنوم .

فصل في المسيح الذي تنتظره اليهود

قالوا : فما أعظم إقرارهم في الثالوث ، وأشد كفرهم بمعناه .

فيقال هذا من الافتراء الظاهر على اليهود وجعلهم كفاراً فلم يكن كفرهم لأجل إنكار الثالوث ، بل لو أقروا به كان زيادة كفرهم يزيد به عذابهم .

كما أن النصارى لما كفروا لم يكن كفرهم بإقرارهم بأن المسيح المبشر به قد ظهر ليس هو المسيح الدجال الذي تنتظره اليهود ، وإذا خرج كانوا شيعته ويقتلهم المسلمون معه شر قتلة ، حتى إن الشجر والحجر يقول : يامسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله .

بل لو كفروا بالمسيح كما كفرت اليهود لكان ذلك زيادة في كفرهم .

وعند اليهود ، وعندهم في التوراة من التوحيد المحض مما يبطل تثليثكم مالايخفى إلا عمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله ، وهداه الذي يهدى به عباده .

فصل فيما ذهب إليه النصارى من الأقانيم .

قالوا : فلأجل هذا البيان الواضح الذى قاله الله في التوراة ، وفي كتب الأنبياء يجعل ثلاثة أقانيم : جوهراً واحداً ، إلهاً واحدً ، ربًا واحداً ، خالقًا واحداً .

وهو الذي نقول : أب ، وابن ، وروح قدس .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن في التوراة والكتب الإلهية من إثبات وحدانية الله ، ونفي تعدد الآلهة ، ونفي إلهية ماسواه ماهو صريح في إبطال قول النصارى ونحوهم ، وليس

فيها ذكر الأقانيم لا لفظًا ولامعنى ، حيث يجعلون الأقنوم ، اسمًا للذات مع الصفة ، والذات واحدة ، والتعدد في الصفات لا في الذات .

ولا يمكن أن تتحد صفة دون الأخرى ، ولا دون الذات فيمتنع اتحاد أقنوم أو حلوله بشيء من المخلوقات دون الأقنوم الآخر ، ولا إثبات ثلاثة أقانيم ولا إثبات ثلاث صفات دون ماسواها في شئ من الكتب الإلهية ، ولا كلام الحواريين ، ولا إثبات إله حق من إله حق ، ولا تسمية صفات الله مثل كلامه وحياته لا ابنًا ولا إلهًا ولاربا ، ولا إثبات اتحاد الرب خالق السموات والأرض بشئ من الآدميين ، ولاحلول ذات وصفة دون ذات مع الصفات الأخرى ، ولا حلول نفس الصفة ببدنه في غيره ولا علمه ولا كلامه ولاحياته ، ولا غير ذلك .

بل جميع ما أثبتوه من التثليث والحلول والإتحاد ليس فى كتب الأنبياء التى بأيديهم ما يدل عليه ، بل فيها أقوال كثيرة صريحة بنقيض ذلك مع القرآن والعقل ، فهم مخالفون للمعقول وكتب الله المنزلة .

الثاني : أنهم يقولون إنما نثبت إلهاً واحداً ، ثم يقولون فى أمانتهم وأدلتهم وغير ذلك من كلامهم ما هو صريح بإثبات ثلاثة آلهة فينقضون كلام بعضهم ببعض ، ويقولون من الأقوال المتناقضة ما يعلم بطلانه كل عاقل تصوره .

وهذا لا ينضبط لهم قول مطرد ، كما يقول من يقول من عقلاء الناس .، إن النصارى ليس لهم قول يعقله عاقل ، وليست أقوالهم منصوصة عن الأنبياء ، فليس معهم لا سمع ولا عقل ، كما قال الله تعالى عن أصحاب النار : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ١٠].

وهم أيضاً يبطنون خلاف ما يظهرون ، ويفهم جمهور الناس مقالاتهم خلاف ما يزعم بعضهم أنه مرادهم ، فإنه قد تقدم آنفاً من استدلالهم بالتوراة ، قوله : [وكلم الله موسى من العليقة قائلا : أنا إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، وإله يعقوب] . قالوا : ولم يقل : أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، بل كرر اسم إله ثلاثة دفوع قائلاً : أنا

إله ، وإله ، وإله لتتحقق مسألة الثلاث أقانيم فى لاهوته ، فيقال لهم : وإن كان هذا التكرير لا يقتضى إلا إثبات إله واحد فلا حجة لكم فيه ، لو قال أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وإن كان يقتضى إثبات ثلاثة آلهة ، فقد أثبتم ثلاثة آلهه وأنتم تقولون : لا نثبت إلا إلهاً واحداً ، وإن كان المعنى : إنه إله واحد موصوف بأنه معبود إبراهيم ، ومعبود إسحاق ، ومعبود يعقوب .فلا حجة لكم فيه التثليث والأقانيم ، حيث تجعلون الأقنوم اسماً للذات مع صفة الذات واحدة ، فالتعدد فى الصفات لا فى الذات ، ولا يمكن أن تتحد صفة دون أخرى ، ولا دون الذات فيمتنع اتحاد أقنوم وحلوله بشئ من المخلوقات دون الأقنوم الآخر .

الوجه الثالث : قولهم : وهو الذى نقوله : أب وابن وروح القدس قد تقدم أن هذا القول هم معترفون بأنهم لم يقولوه ابتداء ، ولا علموا بالعقل التثليث الذى قالوه فى أمانتهم ثم عبروا عنه بهذه العبارة ، بل هذه العبارة منقولة عندهم فى بعض الأناجيل أن المسيح عليه الصلاة و السلام أمر أن يعمدوا الناس بها ، وحينئذ فالواجب إذا كان المسيح قالها أن ينظر ما أراد بها ، وينظر سائر ألفاظه ومعانيها ، فيفسر كلامه بلغته التى تكلم بها تفسيراً يناسب سائر كلامه .

وهؤلاء حملوا كلام المسيح والأنبياء عليهم السلام على شئ لا يدل عليه كلامهم ، بل يدل على نقيضه فسموا كلام الله ، أو علمه أو حكمته أو نطقه ابنا ، وهذه تسمية ابتدعوها لم يسم أحد من الأنبياء شيئا من صفات الله باسم الابن ولا باسم الرب ، ولا إله ، ثم لما أحدثوا هذه التسميه قالوا : مراد المسيح بالابن الكلمة ، وهذا افتراء على المسيح عليه السلام ، وحمل لكلامه على معنى لا يدل عليه لفظه .

ولفظ الابن عندهم فى كتبهم يراد به من رباه الله تبارك وتعالى ، فلا يطلق عندهم فى كلام الأنبياء لفظ اابن إلا على مخلوق يحدث ، ولا يطلق إلا على الناسوت دون اللاهوت ، فلا يسمى عندهم إسرائيل ابناً وداود ابناً لله ، والحواريون كذلك بل عندهم فى الإنجيل يوحنا فى ذكر المسيح إلى خاصته ، أى وخاصته لم يقبلوه ،

والذين قبلوه أعطاهم ليكونوا أبناء الله الذى ليس من دم ولا مشبه لحم ، ولا من مشبه رجل ، بل من الله ولد .

فهذا إخبار بأنهم يكونون جميعاً أبناء الله ، وهم معترفون بأنه ليس فيهم لاهوت يتحد بناسوت ، بل كل منهم ناسوت محض ، فعلم أن الكتب ناطقة بأن لفظ ابن الله يتناول الناسوت فقط ، وليس معهم لفظ ابن الله ، والمراد به صفة من صفات الله .فقولهم : إن المسيح أراد بلفظ الابن اللاهوت كذب بين عليه ، والمسيح يسمى ابناً بهذا الاعتبار ، وروح القدس لم يعبر بها أحد الأنبياء عن حياة الله التى صفته ، بل روح القدس فى كتب الله يراد بها الملك ، ويراد بها الهدى والوحى والتأييد فيقال : روح الله ، كما يقال : نور الله ، وهدى الله ، ووحى الله ، وملك الله ، ورسول الله لم يرد به أحد من الأنبياء ، بقوله روح الله وروح القدس ما يريده الإنسان بقوله « روحي » .فإن الإنسان مركب من روح وبدن ، وفى بدنه بخار يخرج من القلب ، ويسرى فى بدنه ، وله جوف يخرج منه هواء ويدخل فيه ، فإذا قيل : روح الإنسان فقد يراد بها الروح التى مع البدن ، وقد يراد بها البخار اللطيف الذى فى البدن وقد يراد بها الريح الذى يخرج من جوف البدن ، ويدخل فيه الله تبارك وتعالى - بإجماع المسلمين واليهود والنصارى - ليس هو روحا وبدناً كالإنسان وهو سبحانه أحد صمد لا جوف له ، ولا يدخل فيه شئ لا بخار ولا هواء متردد .

وقد يعبر بعض الناس بلفظ الروح عن الحياة ، والله تعالى حى له حياة ، ولكن لم ترد الأنبياء عليهم السلام بقولهم : روح القدس حياة الله بل أرادوا به ما يجعله الله فى قلوب الأنبياء وأيدهم به ، كما يراد بنور الله ذلك .

قال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره

من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم ﴾ ، [سورة النور : ٣٥] .

فضرب الله مثلا للمؤمن الذى جعل صدره كالمشكاة ، وقلبه كالزجاجة فى المشكاة ، ونور الإيمان الذى فى قلبه ، وهو نور الله كالمصباح الذى فى الزجاجة ، وذلك النور الذى فى قلبه ليس هو نفس صفة الله القائمة به .

فتبين أن العارف كلما تدبر ما قالته الأنبياء ، وما قاله أهل البدع من النصارى وغيرهم لم يجد لهم فى كلام الأنبياء ما يدل على نقيض ضلالهم لا ما يدل على ضلالهم .

فصل فى الكلمة وأنها صفة الرب

قالوا : وقد علمنا أنه لا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادة ثلاثة آلهة ، بل إله واحد ، كما لا يزمنا إذا قلنا : الإنسان ونطقه وروحه ثلاثة أناس ، بل إنسان واحد ، ولا إذا قلنا لهيب النار وضوء النار وحرارة النار ثلاثة نيران ، ولا إذا قلنا قرص الشمس وضوء الشمس وشعاع الشمس ثلاثة شموس ، وإذا كان رأينا فى الله تقدست أسماؤه وجلت آلاؤه فلا لوم علينا ، ولا ذنب لنا إذ لم نهمل ما تسلمناه ولا نرفض ما تقلدناه ونتبع ما سواه .

والجواب من وجوه :

أحدها : أنكم صرحتم بتعدد الآلهة الأرباب عن عقيدة إيمانكم وفى استدلالكم وغير ذلك من كلامكم ، فليس ذلكم شيئاً ألزمكم الناس به ، بل أنتم تصرحون بذلك ، كما تقدم من قولكم نؤمن بإله واحد ، ضابط الكل ، وخالق ما يرى ومالا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله ، الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، ونور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساو الأب فى الجوهر ، بروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب الذى معه الأب ، مسجود له وممجد .

فهـذا تصريح بالثلاثة أرباب ، وأن الابن إله حق من إله حق مع تصـريحكم بثلاثة أرباب ، وتصـريحكم بأن هذا إله حق مـن إله حق ، وتقـولون إن ذلـك إله واحـد ، وهذا تصريح بتعـدد الآلهة مع القول بإله واحد ، ولو لم تذكروا ما يقـتضى أنه جوهر آخر لأمكن أن يحـمل كلامكم على عطف الصـفة ، لكن كان يكـون كلامكم أعظم كفـراً ، فتكونون قـد جعلتم المسيـح هو نفس إله الواحـد الأب خالق مـا يرى وما لا يرى ، وهذا من أعظم كفركم مع أن هذا حـقيقة قولكم ، فإنكم تقولون : المسيح هو الله ، وتقولون : هو ابن اللـه ـ كما يقوله بعـض الناس ، بل القولان جميعاً بقولهـما فرق النصارى كالنسطورية واليعقوبية والملكية ونحوهم ، وهذا أيضاً من تناقضكم ، فإنه إن كـان هو الله لم يكن هو ابن الله سواء عبـر بالابن عن الصفة أو غيـرها ، فإن الأب هو الذات ليـست هى الصـفـة ، وإن عنى بالابن الذات مع صـفـة الكلام كـمـا تفسرون الأقنوم بذلك .

فهذا الذات متـصفة مع ذلك بالحياة والكلام سـواء عنوا به العلم أو البيان مع العلم هو مع الحياة قـائم بالأب ، والصفة ليست غـير الموصوف ، بل ولا يعبر عـنها بأنها ابن الموصوف ، ولا عبر بذلك أحد من الأنبياء عليهم السلام .

والمقصود أنهم لم يريدوا بقولهم ، وبرب واحد يسوع المسيح عطف الصفة ، وأن هذا هو الأب ، كما قال إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، وإله يعقوب ، فهذا إله واحد .

والعطف لتـغـاير الصـفـة ، فلـو كـان المراد بالابن نفس الأب لكـان هذا خـلاف مذهبهم ، ويكونون قد جعلوه إلهاً من نفسه ، فقالوا : إلهان ، بل ثلاثة ، وهو واحد

فهـذا لو أرادوه لكان أعظم من الكفر ، بل قـالوا : برب واحد يسـوع المسيح ابن الله الوحـيـد المولود من الأب كل الدهـور ، نور من نور ، إله حق ، مـن إله حق من جوهر أبيـه ، مولود غير مخلـوق ، فصرحـوا بأنه رب ، وأنه إله حق ، من إله حق ، وصرحوا بإله ثان مع الإله الأول .

قالـوا : مع ذلك إنه مولود من الأب قبل كل الدهور ، وأنه مولود غير مـخلوق ، فامتنع أن يريدوا بذلك الناسوت ، فإن الناسوت مخلوق .

وهـم يقولو ن : إن الكلمة هى المتولدة من الأب ، والـكلمة صفة المتكلـم وقائمة به ، والكلام ليس برب ولا بإله ، بـل هو كلام الرب الإله ، كـمـا أن سائر كـلام الله كالتوراة والإنجيل والقرآن ليس الرب والإله ، ثم قلتم : مساوٍ الأب فى الجوهرفاقتضى هذا أن يكون المولود الذى هو الكلمـة جوهراً وأنه مـساوٍ الأب فى الجـوهر والمساوى ليس المساوى .

وهذا يقتضى إثبـات جوهر ثان مساوٍ الجوهر الأول ، وهـو صريح بإثبات إلهين ، وتقـولون مـع ذلك : إنه إله واحـد جـوهر واحـد ، ولا يقـال الجـوهر مـع العلم الذى تعبـرون عنه بالأقنوم مسـاوِالجوهر الذى هو الذات ، فإن الجـوهر هو الذات وليس هنا جوهران : أحـدهما مجـرد عن العلم ، والآخر متـصف به ، حتى يقال : إن أحـدهما مسـاوٍ للآخر ، بل الرب تعـالى هو الذات المتصـفة بالعلم ، فـإن كان الأب هو الذات المجردة ، فالابن أكمل من الأب ، وهو الذات مع العلم ، والأب بعض الابن .

وكذلك يلزمـهم أن يكون الابن هو بعض روح القدس ، فإنهم فى أمانتـهم جعلوا روح القدس هو الرب المحيى هو الذات المتصـفة بالحياة ، والذات المجردة بعض ذلك ، فإن كان الأب هو الذات المجردة فالأب بعض روح القدس .

ثم قلتم فى أقـنوم روح القـدس الذى جـعلتـمـوه الرب المحيى أنه منبـثق من الأب مسجود ممجد ، ناطق فى الأنبياء ، فإن كـان المنبثق رباً حياً ، فهذا إثبات إله ثالث ، وقد جعلتم الذات الحية منبثـقة من الذات المجردة ، وفى كل منهما من الكفر والتناقض ما لا يخفى .

ثم جعلتم هـذا الثالث مسـجود له ، والمسجـود له هو الإله المعبـود ، وهذا تصريح بالسـجود لإله ثالـث مع ما فـيه مـن التناقض . ثم جعـلتمـوه ناطقـاً بالأنبيـاء ، وهذا تصريح بحلول هذا الأقنوم الثالث بجميع الأنبياء ، فيلزمكم أن تجعلوا كل نبى مركباً

من لاهوت وناسوت ، وأنه إله تام وإنسان تام ، كما قلتم فى المسيح إذ لا فرق بين حلول الكلمة ، وحلول روح القدس ، كلاهما أقنوم .

وأيضاً فيمتنع حلول إحدى الصفتين دون الأخرى ، وحلول الصفة دون الذات ، فيلزم الإله الحى الناطق بأقانيمه الثلاثة حالاً فى كل نبى ، ويكون كل نبى هو رب العالمين ، ويقال مع ذلك هو ابنه ، وفى هذا من الكفر الكبير والتناقض العظيم مالا يخفى ، وهذا لازم للنصارى لزوماً لا محيد عنه ، فإن ما ثبت لنظيره ولا يجوز التفريق بين المماثلين ، وليس لهم أن يقولون : الحلول أوالاتحاد فى المسيح ثبت بالنص ، ولا نص فى غيره لوجوه :

أحدها : أن النصوص لم تدل على شئ من ذلك ، كما قد بيّن

الثانى : أن فى غير المسيح من النصوص ما شابه النصوص الواردة فيه كلفظ الابن ، ولفظ حلول روح القدس فيه ، ونحو ذلك .

الثالث : أن الدليل لا ينعكس فلا يلزم من عدم الدليل المعين عدم المدلول ، وليس كل ما علمه الله وأكرم به أنبياءه أعلم به الخلق بنص صريح ، بل من جملة الدلالات دلالة الالتزام .

وإذ ثبت الحلول الاتحاد فى أحد النبيين لمعنى مشترك بينه وبين النبى الآخر وجب التسوية بين المتماثلين ، كما إذ ثبت أن النبى يجب تصديقه لأنه نبى ربه ، ويكفر من كذبه لأنه نبى فيلزم من ذلك يجب تصديق كل نبى وتكفير من كذبه .

الرابع : هب أنه لا دليل على ثبوت ذلك فى الغير ، فليزم تجويز ذلك فى الغير إذ لا دليل على انتقائه ، كما يقولون إن ذلك كان ثابتاً فى المسيح قبل إظهاره الآيات على قولهم ، وحينئذ فليزمهم أن يجوزوا فى كل نبى أن يكون الله قد جعله إلهاً تاماً وإنساناً تاما كالمسيح وإن لم بيعلم ذلك .

الخامس : لو لم يقع ذلك ، لكن جائز عندهم ، إذ لافرق فى قدرة الله بين اتحاده بالمسيح واتحاده بسائر الآدميين ، فليزمهم تجويز أن يجعل الله كل إنسان إلهاً تاما

وإنساناً تاماً ، ويكون كل إنسان مركباً من لاهوت وناسوت ، وقد تقرب إلى هذا اللازم الباطل من قال بأن أرواح بنى آدم من ذات الله ، وأنها لاهوت قديم أزلى فيجعلون نصف كل آدمى لاهوتاً ، وهؤلاء يلزمهم من المحالات أكثر مما يلزم النصارى من بعض الوجوه ، والمحالات التى تلزم النصارى أكثر من بعض الوجوه .

الوجه الثانى : قولهم : ولا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادة ثلاثة آلهة بل إله واحد ، كما لا يلزمنا إذا قلنا : الإنسان وروحه ونطقه ثلاث أناسى ، ولا إذا قلنا : النار وحرها وضوءها ثلاث نيران ، ولا إذا قلنا : الشمس وضوءها وشعاعها ثلاث شموس .

فيقال : هذا تمثيل باطل لوجوه :

أحدها : أن حر النار وضوءها القائم بها ليس ناراً من نار ، ولا جوهراً من جوهر ولا هو مساوى النار والشمس فى الجوهر ، وكذلك نطق الإنسان ليس هو إنساناً من إنسان ، ولا هو مساوى الإنسان فى الجوهر ، وكذلك الشمس وضوءها القائم بها وشعاعها القائم بها ليس شمساً ولا جوهراً قائماً بنفسه ، وأنتم قلتم إله حق من إله حق ، فقلتم فى الأمانة : [نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه مساوى الأب فى الجوهر] .

وقلتم فى روح القدس : [إنه رب ممجد مسجود له] فأثبتم ثلاثة أرباب .

الثانى : أن الضوء فى الشمس والنار يراد به نفس الضوء القائم بها ، ويراد به الشعاع القائم بالأرض والجدران ، وهذا مباين لها ليس قائما بها ، ولفظ النور يعبر به عن هذا وهذا ، وكلاهما صفة قائمة بغيرها وعرض ، وقد يراد بلفظ النور نفس النار ونفس الشمس واالقمر ، فيكون النور جوهراً قائماً بنفسه ، وإذا كان كذلك فهم جعلوا الأب رباً جوهراً قائماً بنفسه والابن أيضاً رباً جوهراً قائما بنفسه ، وروح القدس ربا جوهراً قائماً بنفسه .

ومعلوم أن ضوء النار والشمس وحرارتها ليس كل منهما شمساً وناراً قائمة بنفسها ، ولا جوهراً قائماً بنفسه ، فلو أثبتوا حياة الله وعلمه أو كلامه صفتين قائمتين به ، ولم يجعلوا هذا رباً جوهراً قائماً بنفسه ، وهذا رباً جوهراً قائماً بنفسه ، لكان قولهم حقا وتمثيلهم مطابقاً ، لكنهم لم يقتصروا على مجرد جعلهما صفتين لله حتى جعلوا كلا منهما رباً وجوهراً وخالقاً ، بل صرحوا بأن المسيح الذى يزعمون اتحاد أحدهما به إلهاً واحداً وخالقاً ؛ فلو كان نفس كلمة الله وعلمه لم تكن إلها خالقاً فإن كلام الله وعلمه ليس إلهاً خالقاً ، فكيف والمسيح مخلوق بكلمة الله ، وليس هو نفس كلمة الله ؟

الوجه الثالث : أن قولهم الشمس وشعاعها وضوءها إن أرادوا بالضوء ما يقوم بها وبالشعاع ما ينفصل عنها ، فليس هذا مثال النار وحرها ولهبها إذ كلاهما يقوم بها ، وعلى هذا فالشمس لم تقم بها إلى صفة واحدة لا صفتين ، فلا يكون التمثيل بها مطابقاً ، وإن أرادوا بالضوء والشعاع كلاهما ما يقوم بها ، أو كلاهما ما ينفصل عنها فكلاهما صفة واحدة ليس هما صفتان كالحياة والعلم ، فعلم أن تمثيلهم بالشمس خطأ ، وبعضهم يقول : الشمس وحرها وضوءها ، كما يقولون مثل ذلك فى النار .

وهذا التمثيل أصح لو ثبت أن فى جرم الشمس حرارة تقوم ، فإن هذا لم يقم عليه دليل ، وكثير من العقلاء ينكره ، ويزعم أن جرم الشمس والقمر والكواكب لا توصف بحرارة ولا برودة ، وهو قول أرسطو وأتباعه .

وأما تمثيلهم بروح الإنسان ونطقه ، فإن أرادوا بالروح حياته ، فليس هذا هو مفهوم الروح وإن أرادوا الروح التى تفارق بدنه بالموت وتسمى النفس الناطقة فهذه جوهر قائم بنفسه ليس عرضاً من أعراضه ، وحينئذ فيلزم أن تكون روح الله جوهراً قائمًا بنفسه مع جوهر آخر نظير بدن الإنسان ويكون الرب سبحانه وتعالى مركبًا من بدن وروح كالإنسان ، وليس هذا قول أهل الملل ، لا المسلمين ولا اليهود ولا النصاري ، فتبين أن تمثيلهم بالثلاثة باطل .

والوجه الرابع : أن التمثيل إما أن يقع بصفات الشمس والنار والإنسان أو النفس القائمة بهذه الجواهر أو بما هو مباين لذلك ، كالضوء الذي يقع على الأرض والحيطان والهواء ، وغير ذلك من الأجسام إذا قابلت الشمس أو النار أو الإنسان أو النفس القائمة بهذه الجواهر ، فإن أريد بهذا فهذا شعاع منعكس وضوء منقلب ، وليس هو صفة قائمة بالشمس والنار .

وإذا أريد بما حلّ في المسيح فهذا وهذا يسمى نوراً وروحًا ويسمى نور الله كما قال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دريٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ﴾ ، [سورة النور : ٣٥]

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ ،[سورة الشورى : ٥٢] .

فأخبر أنه جعل الروح الذي أوحاه نوراً يهدي به من يشاء .

وقال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ،[سورة المجادلة : ٢٢]

وقال تعالى : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ [سورة الاعراف : ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ ،[سورة الحديد : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ،[سورة النور : ٤٠] .

فإذا أريد ما حل في المسيح من الروح والكلمة بهذا المعنى فلا اختصاص للمسيح

بذلك ، فإن هذا يحل في جميع الأنبياء والمؤمنين وإن كانوا متفاضلين فيه بحسب درجاتهم ، وليس هذا الحال فيهم نفس صفة الله القائمة به ، وإن كان ذلك حاصلاً عنها ومسببًا عنها ، لكن ليس هو نفس صفة الله ، وإن كان من الناس من يقول : بل صفة الله التى اتصف بها حلت في العبد . فهذا القول خطأ ، فإن صفة الموصوف القائمة به يمنع قيامها بعينها بغيره ، ولكن الإنسان إذا تعلم علم غيره ، وبلغ كلام غيره يقال : هذا علم فلان وكلامه ، لأن هذا الثاني بلغه عنه .

والمقصود هو :علم الأول ، وكلامه ، مع العلم بأن نفس ماقام بذات الأول ليس هو عين ماقام بذات الثاني ، وإن كان قد يكون مثله ، وقد يكون الأول هو المقصود بالثاني مثل من بلغ كلام غيره ، فكلام المبلغ هو المقصود بالتبليغ .

وصفات المبلغ كحركته وصوته بها يحصل التبليغ ليس هو نفس المقصود ، وإذا قيل هذا كلام المبلغ عنه ، فالإشارة إلى حقيقة الكلام المقصود بالتبليغ ، لا إلى ما يختص به المبلغ من أفعاله وصفاته ، ولهذا شبه الناس من قال بحلول صفة الرب في عبده بالنصارى القائلين بالحلول ، وهو شبيه بهم من بعض الوجوه .

لكن النصارى لايقولون بحلول صفة مجردة ، بل بحلول الأقنوم الذي هو ذات متصفة بالصفة ، ويقولون : إن المسيح خالق ورازق ، وهو خالق آدم ومريم وهو ولد آدم ومريم ، وهو خالق لهما بلاهوته ابن لهما بناسوته . ويقولون : هو ابن الله ، وهو الله بلاهوته ، ، ويقولون أيضًا : باللاهوت والناسوت لأجل الاتحاد ، والله كفرهم بقولهم : ﴿ إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ونحو ذلك ، وإن أرادوا بتمثيلهم بصفات الشمس والنار والنفس التمثيل بنفس مايقوم بالشمس والنار والنفس من الضوء والحياة والنطق ، وجعلوا مايثبتونه من الأب والابن وروح القدس صفات لله ، كما أن هذه صفات لهذه المخلوقات .

قيل لهم أولا : لم يعبر أحد من الأنبياء عليهم السلام عن صفات الله باسم الأب والابن وروح القدس ، فليس لكم إذا وجدتم في كلام المسيح عليه السلام ، أو غيره

من الأنبياء ذكر الإيمان بالأب والابن وروح القدس ، أن تقولوا مرادهم بذلك صفة الله التى هى الكلمة والعلم ، ولا حياة الله إذ كانوا لم يريدوا هذا المعنى بهذا اللفظ ، وإنما أرادوا باسم الابن وروح القدس ماهو بائن عن الله عز وجل .

والبائن عن الله ليس صفة لله ، فضلاً عن أن يكون هو الخالق ، فضلا عن أن يكون البشر المتحد به خالقًا ، فقد ضللتم ضلالاً بعد ضلال ، ضلالاً حيث جعلتم مراد المسيح وغيره بالابن وروح القدس صفة الرب ، ثم ضلالاً ثانيًا حيث جعلتم الصفة خالقًا وربًا ، ثم ضلالاً ثالثًا حيث جعلتم الصفة تتحد ببشر هو عيسى .

ويسمى المسيح ويكون هو الخالق ورب العالمين فضللتم في الحلول ضلالاً مثلثًا بعد ضلالكم في التثليث أيضًا ضلالات أخر ، حيث أثبتم ثلاث صفات دون غيرها ، وجعلتموها جواهر أربابًا ، ثم قلتم إله واحد فضللتم ضلال مثلثا فى التثليث ، وضلالاً مثلثًا فى الاتحاد .

وقيل لكم ثانيا : إذا جعلتم ذلك صفات الله ، كما أن الضوء والنطق والحرارة صفات لما تقوم بها امتنع أن تحل بغيرها ، وامتنع مع الحلول أن تكون فاعلة فعل النار والشمس والنفس ، وأنتم جعلتم الكلمة والحياة حالة بغير الله ، وجعلتم مايحل به إلهًا خالقًا ، بل هو الإله الخالق ، ومعلوم أن أحدًا من العقلاء لا يجعل مايحصل فيه ضوء النار نارًا ، ولا ما يحصل فيه شعاع الشمس شمسًا ، ولا مايحصل فيه نطق زيد وعلمه هو نفس زيد ، فكان جعلكم المسيح هو الخالق للعالم مخالفًا لتمثيلكم .

وتبين بذلك أن ماذكرتموه لايطابقه شئ من الأمثلة ، إذا كان كلامًا باطلاً متناقضًا يمتنع تحققه ، فلا تمثيل بشئ من الموجودات السابقة المعلومة ، إلا كان تمثيلاً غير مطابق .

ولهذا يشبهون الحلول والاتحاد تارة بحلول الماء في الظرف ، وتارة بحلول النار في الحديد ، وتارة بالنفس في البدن ، وتارة بأنهما جوهر واحد اختلطا كاختلاط الماء واللبن ، وكل هذه الأمثال التي ضربوها له أمثال باطلة ، فإن الماء في الظرف

وغيره من الأوعية محتاج إلى وعائه لو انخرق وعاؤه لتبدد ، وهو محيط ولايتصف الظرف بشئ من صفات الماء ، والرب تعالى يمتنع أن يحتاج إلى شئ من مخلوقاته لا إلى العرش وغيره ، أو يحيط به شئ من الموجودات ، إذ هو الظاهر ، فليس فوقه شئ .

كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) : « أنت الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ ، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ ، وأنت الباطن فليس دونك شئ » ، فهو غنى عن كل ماسواه ، وكل ماسواه فقير إليه ، ولهذا لم يكن ماوصف به نفسه مماثلاً لصفات المخلوقين ، كما لم تكن ذاته كذوات المخلوقين فهو مستوٍ على عرشه ، كما أخبر عن نفسه مع غناه عن العرش .

والمخلوق المستوي على السرير أو الفلك أو الدابة لو ذهب ماتحته لسقط لحاجته إليه ، والله غنى عن كل ماسواه ، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش ، وفرق النصارى الثلاثة يقولون بالاتحاد فلاينفعهم التمثيل بحلول الماء في الظرف ، ولو قدر أنهم قالوا بالحلول المجرد مع أن الرب لايحتاج إلى الناسوت لايحويه ولايمسه ، بل كما خاطب موسى من الشجرة فهذا يوجب أن الناسوت لايتصف بشئ من الإلهية كالشجرة ،

---

(١) « صحيح »

رواه مسلم فى كتاب « الذكر والدعاء .. » باب « ما يقول عند النوم وأخذ المضجع » (٤/٢٠٨٤ح٢٧١٣)

ورواه الترمذى فى كتاب « الدعوات » باب (١٩) (٩/٣٤٣: ٣٤٥ح٣٤٦٠)

ورواه النسائى فى كتاب « النعوت » باب قوله جل ثناؤه « الأول والآخر والظاهر والباطن » (٤/٣٩٥ح٧٦٦٨ ، ٧٦٦٩)

ورواه أيضاً برقم (١٠٦٢٦)

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الدعاء » باب « ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه » (٢/١٢٧٤ ، ١٢٧٥ح٣٨٧٣)

ثم إنه معلوم بالضرورة أن الصوت الذي كان يسمع هو صوت الناسوت ، فالتمثيل بالشجرة أيضًا باطل ، كما بسط في موضعه .

وأما الحديد والخشب وغيرهما إذا ألقي في النار فإنه يستحيل نارًا لاتصاله بالنار ، لا أن النار التى استحال إليها كانت موجودة فحلت به هنا استحالة بلا حلول ، والنار الذي صارت في الحديدة حادثة عن تلك النار ليست إياها ، ثم تلك الحديدة إذا طرقت وقع التطريق على النار ، وكذلك إذا ألقيت في الماء ، فلو كان هذا تمثيلاً مطابقًا لكان الضرب والصلب والإهانة وقع على اللاهوت ، وكان اللاهوت هو الذي يغتسل بالماء ، وهو الذي يأكل ويشرب وهذا من أعظم الكفر .

ويحكي عن بعض طائفة منهم كاليعقوبية أنه يقول بهذا الكفر ، وإن كان كثير منهم كالملكية والنسطورية ينكره ، فهو لازم لهم ، وكذلك إذا شبهوه بالنفس والبدن ، فإن النفس تتألم تألم البدن ، وتستحيل صفاتها بكونها في البدن ، وتكتسب عن البدن أخلاقًا ، وصفات ، فلو كان هذا تمثيلاً مطابقًا لزم تألم اللاهوت بآلام البدن ، وأن يكون متألمًا بجوع البدن وعطشه وضربه وصلبه ، وأن يكون مستحيلا لما اكتسبه من صفات الناسوت الذي عندهم بمنزلة البدن للنفس ، وأما قولهم إذ لم نهمل ماتسلمناه ، ولم نرفض ماتقلدناه ، فقولهم في ذلك بمنزلة قول اليهود للمسيح : إنا لانهمل ماتسملناه ولانرفض ماتقلدناه من موسى عليه السلام .

وجواب الطائفتين من وجهين :

أحدهمـــا : أنكم بدلتم وحرفتم الكتاب الذي أنزل إليكم ، والشرع الذي شرع لكم ، وتدليل المعاني والأحكام لاريب فيه عند جميع عقلاء الأنام ، وما كان عليه اليهود بعد التبديل لم يكن هو الشرع الذى شرعه موسى عليه السلام ، وما كان عليه النصارى بعد التبديل لم يكن هو الشرع الذى شرعه المسيح عليه السلام .

والثاني : أنكم كذبتم بالكتاب الآخر ، والرسول الآخر الذي أرسل ، ومن كذب ما أنزل إليه من ربه والرسول الذي أرسل إليه كان كافرًا مستحقًا لعذاب الدنيا

والآخرة ، وإن كان قبل ذلك متبعًا لشرع رسول الله و كتاب غير مبدل ، فكيف إذا كان قد بدل من أحكامه ومعانيه ؟ !.

فصل عدم تناقض القرآن

وأمـا قولهم : ولنا هذه الشـهـادات والدلائل من الكتـاب الذي في أيدي هؤلاء القـوم .

فيقال : لايصح استشهادهم بهذا الكتاب ، واستدلالهم به من الوجوه ، فإنه الذي قـد جـاء به ، وقـد تواتر عنه أنه أخبـر مـرسل إليـهم ، وأنهم كـفـار إذا لم يؤمنوا به مستـحقون للجهـاد ، ومن لم يستحل جهـادهم فهو كافر ، والقـرآن مملوء بكفرهم ، فإن كان هذا رسولا من الله ، وقد أخبر بكفرهم ثبت أنهم كفار .

فإن الرسول لايقول على الله إلا حقًا لايكذب على الله في شئ ، ومن كذب على الله ولو فى كلمة واحدة فهو من الكذابين المفترين على الله الكذب ، مستحق لعقوبة الكذابين . كما قال تعالى : ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فـما منكم من أحدٍ عنه حـاجزين ﴾ ، [سورة الحاقة : ٤٤ — ٤٧] .

وقال تعـالى : ﴿ أم يقولون افترى عـلى الله كذبًا فإن يشاء الله يختم على قلبك ويمحُ الله الباطل ويحقُ الحقِ بكلماته ﴾ ، [سورة الشورى : ٢٤] .

وقال تعـالى : ﴿ وإذا بدَّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مـفْتر بل أكثرهم لايعلـمون * قل نزلهُ روح القـدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ ، ١٠٢] .

وقـال تعـالى : ﴿ وإذا تتلى عليـهم آياتنا بينات قـال الذين لايرجـون لقـاءنا إئت بقرآنٍ غير هذا أو بدِّله قل مايكون لي أن أُبدِّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا مايوحى إلىَّ إني أخـاف إن عصيت ربي عـذابَ يوم عظيم * قل لو شـاء الله مـاتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله أفلاتعقلون ﴾ ، [سورة يونس ١٥ ، ١٦] .

فمتى كانت كلمة من كلمات هذا الكتاب كذبا على الله لم يكن كتاب الله ، ولم يكن الذي جاء به رسول الله ، فإن الكاذب قد يصدق في أكثر مايقوله . لكن إذا كذب في بعض مايقوله كان كاذبًا ، والله تعالى لايرسل من يكذب عليه ، فإن المخلوق لايرضى أن يرسل من يعلم أنه يكذب عليه ، ولو فعل ذلك دل على جهله أو عجزه فكيف يرسل رب العالمين من يعلم أنه يكذب عليه .

وحينئذ فمتى كذبوا بكلمة واحدة مما في الكتاب لم يصح استشهادهم واستدلالهم بشئ مما في الكتاب ؟ وإن صدقوا بالكتاب كله لزمهم الإيمان بما جاء به واتباع شريعته ، والاعتراف بكفر الذين كذبوه ، وكفر الذين يقولون : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وإن الله ثالث ثلاثة .

وهذا بخلاف من آمن بالرسول ، ولم يثبت عنده بعض مانقل عنه ، أو لم يعرف معناه فإن هذا لايقدح في أصل إيمانه بالرسول .

فالمسلمون إذا كذبوا ببعض مانقل عن موسى والمسيح فهو لطعنهم في الناقل ، لا في النبي المنقول عنه .

وأما النصارى فيعلمون أن محمداً جاء بالقرآن فطعنهم في بعضه طعن في الرسول نفسه ، وكفر به ، وليس هذا بمنزلة ما مثلوا به من الوثيقة التي كتب وفاؤها في ظهرها ، فإن الذي له الدين أقر بالاستيفاء المسقط له ، فلم يبق هناك حق له يدعيه ، بخلاف مايخبر به الذي يقول : إنه رسول الله ، فإنه يقول : إن الله أنزل عليّ هذا الكتاب كله ، وأرسلني بكذا وكذا إلى كذا وكذا ، فإن كذب في شئ مما أخبر به عن الله لم يكن الله أرسله ، فإن الذى أرسله هو الذى جعله يبلغ عنه ما يقوله بلا زيادة ولا نقص ، وإرسال الله للرسول يتضمن شيئين :إنشاء الله للرسالة والله حكيم وهو أعلم حيث يجعل رسالته لا يجعلها إلا فيمن هو أكمل الخلق وأصدقهم .

ويتضمن إخبار الله عنه بأنه صادق عليه فيما يبلغه عنه مما يقول : إن الله أرسله

به فكلما صدقه بالآيات المعجزات في قوله : إنه أرسلني ، فقد صدقه بما يقول إنه أرسلني به ، إذ التصديق بكونه أرسله من غير معرفة بصدقه فيما يخبر به لافائدة فيه ، ولا يحصل به مقصود الإرسال .

والله عليم بما يشهد به لمن أرسله بخلاف المخلوق الذي يبعث من يظنه يصدق فيما يبلغه عنه ، فيظهر أنه كذب عليه ، والله يعلم عواقب الأمور ، والرسالة صادرة من علمه وحكمته وهو عليم ، ومن يكذب على الله ولو في كلمة لم يبلغ عنه ما يقوله على هذا الوجه فلا يكون رسوله.

ولهذا اتفق أهل الملل على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله لا يكذبون عليه عمداً ولا خطأ ، فإن هذا مقصود الرسالة فكان تمثيل هذا بالوثيقة تمثيلاً باطلاً ، فإن المدعى للإسقاط لم يدع كلاماً متناقضاً ، بل قال : أقررت الدين ثم وفيتك إياه وأنت تقر بوفائه وإقرارك مكتوب في ظهرها فليس لك أن تحتج بإقرار الدين دون إقرارك بالوفاء ، بل ما أن تعتبر ما في الوثيقة من إقراري وإقرارك ، وما أن تبطل الأمرين.

وهذا كلام عدل ، كالشيركين المتفاوضين ، مثل شريكي العنان ، وإذا قال لصاحبه إن حصل ربح فهو لي ولك ، وإن لم يحصل ربح فلا لي ولا لك .

وكذلك البائع والمؤاجر الذي يقول : إن كان بيننا معاوضة فعليك تسليم ما بذلته وعلى تسليم ما بذلته ، لا يستحق هذا إلا بهذا فهذا كله كلام عدل وإنصاف ، بخلاف الشخص الذي يقال فيه : إنه رسول الله ، والكتاب الذي يقال إنه كلام الله ، وإن الله أنزله ، فإن هذا إن كان رسولاً صادقاً فجميع ما بلغه عن الله حق ، وإن كان كاذباً لم يكن الله أرسله ، فجميع ما بلغه عن الله كذب علي الله ، فلا يجوز بمجرد خبره أن ينسب إلى الله شئ ولا يحتج بما يخبره به عن الله على شئ .

إلا ترى أن من ادعى الرسالة وعلم أنه كاذب كالأسود العنسي ، ومسيلمة

الكذاب ، وطليحة الأسدى ، والحارث الدمشقى ، وبابا الرومى ، وغير هؤلاء لا يجوز لأحد أن يحتج بشئ مما ذكروا أن الله أرسلهم به ، وإن كان ذلك القول قد علم أنه حق من جهة أخرى ، فإنه قد علم بكذبهم أن الله لم يرسلهم فأى شئ قالوا إن الله أنزل عليهم كاذبين فيه ، ومتى علم أنه كاذب فى نفس الخبر المعين ، لم يجز أن يحتج بجنس الذى علم أنه كاذب فيه .

كذلك لو قال رجل عندى أن موسى أو داود أو المسيح لم يرسلهم الله بشئ لكن كذبوا فى قولهم أن الله أرسلهم فإذا أراد مع هذا أن يحتج بما ينقل من التوراة والزبور والإنجيل عن الله كان متناقضاً ، وكان احتجاجه باطلا غير مقبول ، بل لو قال : أنا أشك فى بعض ما أخبروا به عن الله ، هل كذبوا فيه أم لا ؟ كان ذلك شكًا فى أن الله أرسلهم ، فإن من أرسله لا يكذب فى شئ لا خطأ ولا عمداً ، ومع شكه فى ذلك لا يجوز أن يحتج بشئ مما ينقلونه عن الله لتجويز أن يكونوا كاذبين فى نفس ذلك الذى نقلوه عن الله ، وليس هذا مثل رسول الواحد من الآدميين ، فإنه قد يكون أرسله ، ثم إن الرسول صدق فى بعض ما بلغه من مرسله ، وكذب فى البعض .

ويجوز على الآدمى أن يرسل من يكذب عليه لعدم علمه بكذبه ، أو عدم حكمته فى إرساله .

وأما الرب تعالى : فلا يجوز أن يرسل من يكذب عليه لا عمداً ولا خطأ ، وكذلك الشاهد والمخبر الذى قد علم أنه تارة يصدق وتارة يكذب يمكن أن يستدل ببعض أخباره الذى يظهر فيها صدقه لدلالات تقترن بذلك ، بخلاف الرسول فإنه إذا كذب كذبة واحدة امتنع أن يكون الله أرسله ، فصار جميع ما يبلغه عن قدر هو كاذب فى أن الله أرسله به ، فكذبه فى كلمة واحدة يوجب أنه كاذب فى جميع ما بلغه عن الله ؛ وأن جميع ما حكاه ورواه عن الله قد كذب فيه ، وإن قدر أن ذلك الكلام فى نفسه حق ، لكن تبليغه عن الله ونقله وروايته وحكايته عن الله كذب على الله .

وقد أخبر الله أنه ينسخ ما يلقيه الشيطان ، مما يناقض مقصود التبليغ بقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم • ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد • وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم • ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ [سورة الحج : ٥٢ - ٥٥]

وإن قالوا : خبره يناقض بعضه بعضًا كان الجواب من وجهين :

أحدهما : أن هذا أيضًا إن كان حقًا فإنه يقدح في رسالته ، فإن الرسول لا يناقض بعض خبره بعضًا ، ومن كان كذلك لم يصح لكم أن تحتجوا بشيء مما جاء به ، وإن كان باطلاً لم يرد عليه فعلم أن استدلالهم بما في هذا الكتاب على صحة دينهم الذي خالفوا به هذا الكتاب في غاية الفساد ، وهو جمع بين النقيضين واستدلال بما في الكتاب على ما يوجب بطلان الاستدلال بشيء مما في الكتاب .

إذا كانت النتيجة تستلزم فساد بعض مقدمات الدليل بطل الاستدلال بذلك الدليل ، الذي لا يصح إلا بصحة مقدماته ، فإذا كانت مقدمته لا تصح إلا مع فساد نتيجته ، ونتيجته مستلزمة لفساد مقدمته ، كان الجمع بين صحة المقدمة والنتيجة جمعًا بين النقيضين .

وكذلك من استدل بشيء من الكتاب على ما يناقض ما في الكتاب كاستدلال النصارى بآيات فيه على صحة دينهم كان تناقضًا ، فإنه إن صح ذلك الدليل بأن مدح دينهم مع ذمة كان متناقضًا ، الكتاب المتناقض لا يكون كتاب الله ، وإن فسد أحدهما ، إما فساد دينهم ، وإما فساد مدحه .

فالكتاب الذي فيه فساد لا يكون كتاب الله ، فيلزم أن ألا يكون كتاب الله على

التقديرين ، فلا يصح الاستدلال به من جهة كونه خبر الله ، وأما الاستدلال به من جهة كون المتكلم به رجلا عالمًا حكيمًا ، وهذا لا يفيد العلم إذ ليس معصومًا إلا الأنبياء عليهم السلام .

والنصارى يجوزون أن يكون معصومًا غير الأنبياء ، فبقدير أن يكون كذلك فهو حجة عليهم ، وإن قالوا : هو ررجل عالم ليس برسول من الله ، قيل لهم : فهذا قوله ليس بحجة لجواز أن يخطئ ، ولكن يعتضد يقوله ، وأما إذا ادعى أن الله أرسله وهو لم يرسله بهذا الكتاب كله ، فهذا كذاب لا يحتج بشئ من كلامه ، ولا يكون مثل هذا عدلاً فضلاً عن أن يكون حكيمًا ، بل هو من الذين إفتروا على الله كذبًا : ﴿ ومن أظلم ممن إفترى على الله كذبًا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شئ ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩٣] .

والجواب الثاني : أنا قد بينا ما ذكروه ، أنه لا يناقض شيئًا مما أخبر به ، وأنه ليس فى هذا الكتاب تناقض يحتجون به بوجه من الوجوه .

وأما قولهم : وأعظم حجتنا ما وجدناه فيه من الشهادة لنا بأن الله جعلنا فوق الذين كفووا إلى يوم القيامة .

فيقال : بل ما ذكروه حجة عليهم لا لهم ، فإن الله أخبر المسيح أنه جاعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وخبر الله حق ، ووعد الله صدق ، والله لا يخلف الميعاد ، فلما اتبع المسيح من آمن به جعلهم الله فوق الذين كفروا به من اليهود وغيرهم .

ثم لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الذى بعث به المسيح ، وسائر الأنبياء قبله ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم مصدقًا لما جاء به المسيح مبشراً برسول يأتى من بعده اسمه « أحمد » صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أتبع للمسيح عليه السلام من النصاى الذين غيروا شريعته ، وكذبوه فيما بشر به فجعل

الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم فوق النصارى إلى يوم القيامة .

كما جعلهم أيضًا فوق اليهود إلى يوم القيامة ، والنصارى بعد النسخ والتبديل ليسوا متبعين المسيح ، ولكنهم أتبع له من اليهود الذين بالغوا فى تكذيبه وسبه فإنهم كذبوه أولاً ، وكذبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم ثانيًا ، فصاروا أبعد عن المسيح من اليهود فكانوا مجعولين فوق اليود .

والمؤمنون أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، هم المتبعون للمسيح عليه السلام ، ومن سواهم كافر به ، فأمة محمدصلى الله عليه وسلم ، فوق اليهود والنصارى إلى يوم القيامة .

ولهذا لما جاء المسلون يقاتلون النصارى غلبوهم ، وأخذوا منهم خيار الأرض : الأرض المقدسة ، وما حولها من مصر والجزيرة ، وأرض العرب ، ولم يزل المسلون منتصرين على النصارى ، ولا يزالون إلى يوم القيامة.

لم تنتصر النصارى قط على جميع المسلمين ، وأنما تنتصر على طائفة من المسلمين بسبب ذنوبهم ، ثم يؤيد الله المؤمنين عليهم ، ولو كان النصارى هم المتبعون للمسيح عليه السلام ، والمسلمون كفاراً به لوجب أن ينتصروا على جميع المسلمين ، لأن جميع المسلمين ينكرون إلهية المسيح ويكفرون النصارى ، فعلم أن المتبعين للمسيح هم المسلمون دون النصارى .

فصل فى تناقض ما ذهب إليه النصارى
من اتحاد اللاهوت بالناسوت

قالوا : و أما تجسم كلمة الله الخالقة التى بها خلق كل شئ ، وتجسدها بإنسان مخلوق ، وهو الذى أخذ من مريم العذراء المصطفاة ، التى فضلت على نساء العالمين واتحدت الكلمة به اتحاداً بريا من اختلاط أو تغير أو استحالة ، وخاطب الناس كما خاطب الله لموسى النبى من العوسجة ففعل المعجزة بلاهوته وأظهر العجز بناسوته

والفعلان هما من المسيح الواحد .

والجواب : إن فى هذا الكلام من أنواع الكذب والكفر والتناقض أموراً كثيرة ، وذلك يظهر بوجوه :

الأول : إن قولهم كلمة الله الخالقة التى بها خلق كل شئ كلام متناقض ، فإن الخالق هو الإله الخالق ، وهو خلق الأشياء بكلامه ، وهو قول : « كن » فالخالق لم يخلق به الأشياء ، بل هو خلقها والكلام الذى به خلقت الأشياء ليس هو الخالق لها ، بل به خلق الخالق الأشياء .

والفرق بين الخالق والمخلوق ، وبين ما به خلق الخالق معقول ، وهؤلاء جعلوا الخالق هو الذى به خلقت المخلوقات ،فجعلوا الكلمة هى الخالق ، وجعلوا المخلوقات خلقت بها .

وإيضاح هذا أن الكلمة إن كانت مجرد الصفة ، فإن الصفة ليست خالقة ، وإن كانت الصفة مع الموصوف فهذا هو الخالق ، ليس هذا هو المخلوق به .

والثانى قولهم : تجسدها بإنسان مخلوق ، وقولهم : تجسم كلمة الله ، فإن قولهم تجسمت وتجسدت يقتضى أن الكلمة صارت جسداً وجسماً بالإنسان المخلوق ، وذلك يقتضى انقلابها جسداً وجسماً ، وهذا يقتضى استحالتها وتغيرها ، وهم قالوا : اتحاداً بريًا من تغير واستحالة .

الثالث قولهم : اتحدت الكلمة به اتحاداً بريا من اختلاط أو تغير ، أو استحالة ، كلام متناقض أيضا ، فإن الاتحاد أن يصير الاثنان واحداً ، فيقال قبل الاتحاد كان اللاهوت جوهراً والناسوت جوهراً آخر .

وإن شئت قلت : كان هذا شيئًا وهذا شيئًا أو هذا عينًا قائمة بنفسها وهذا عينا قائمة بنفسها فبعد الاتحاد إما أن يكونا اثنين كما كانا ، أو صار الاثنان واحداً ، فإن كانا اثنين كما كانا فلا اتحاد ، بل هما متعددان كما كانا متعددين ، وإن كانا قد

صارا شيئًا واحدًا ، فإن كان هذا الواحد هو أحدهما فالآخر قد عدم ، وهذا عدم لأحدهما لا اتحاده ، وإن كان هذا الذى صار واحدًا ليس هو أحدهما ، فلابد من تغييرهما واستحالتهما ، وإلا فلو كانا بعد الاتحاد اثنين باقيين بصفاتهما لم يكن هناك اتحاد .

فإذا قيل : اتحدا إتحادًا بريئًا من اختلاط أو تغير أو استحالة كان هذا كلامًا متناقضًا ينقض بعضه بعضًا ، فإن هذا إنما يكون مع التعدد والمباينة ، لا مع الاتحاد . يوضح ذلك أنه إذا اتحد الماء واللبن ، والماء الخمر ، ونحو ذلك . كان الحاصل من اتحادهما شيئًا ثالثًا ليس ماءً محضًا ولا لبنًا محضًا ، بل هو نوع ثالث ، وكل من الماء واللبن قد استحال وتغير واختلط ، وإما اتحاد بدون ذلك فغير معقول .

ولهذا عظم اضطراب النصارى فى هذا الموضع ، وكثر اختلافهم ، وصار كل منهم يرد على الآخر ما يقوله ، هو قولاً يكون مردودًا ،فكانت أقوالهم كلها باطلة مردودة ، إذ كانوا اشتركوا فى أصل فاسد يستلزم أحد أمور كلها باطلة ، فأى شئ أخذ من تلك اللوازم كان باطلاً ، ولا بد له منها فيأخذ هذا بعض اللوازم فيرده الآخر ، ويأخذ الآخر لازمًا آخرر فيرده الآخر .

وهذا شأن جميع المقالات الباطلة ، إذا اشترك فيها طائفة لزمها لوازم باطلة ، وفساد اللازم يدل على الملزوم ،فإنه إذا تحقق الملزوم ، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم .

وهذا يتبين بالوجه الرابع ، وهو أن يقال كثير من النصارى يقول : إنها بعد الاتحاد جوهر واحد ، وطبيعة واحدة ومشيئة واحدة ، وهذا القول يضاف إلى اليعقوبية .

ويقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا و امتزجا ، كما يختلط الماء واللبن ، والماء والخمر . وهذا القول هو حقيقة الاتحاد ، ولا يعقل الاتحاد إلا هكذا ، لكن فساده ظاهر لعقول الناس ، وإذا كان هذا لازمًا لقول النصارى ، وفساده ظاهر كان فساد اللازم يدل على فساد الملزوم ،. فإن حقيقة هذا القول أن الذى كان يأكل ويشرب

ويبول ويتغوط ، والذى ضرب وبصق فى وجهه ، ووضع الشوك على رأسه هو رب العالمين .

ونفس تصور هـذا القول مما يوجب العلم ببطلانه وتنزيه الله عـن ذلك ، وإن قائله من أعظم المفترين على الله .

قال تعالى : ﴿ وقـالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقـد جئتم شيئًا إدا * تكـاد السموات يتفطـرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا لـلرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السمـوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدًا * لقد أحصاهم وعدهم عدًا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا ﴾ .[سورة مريم : ٨٨ : ٩٥]

الوجه الخامس : قولهم : وخاطب الناس ، كما خاطب الله موسى من العوسجة ، يوجب أن يكون الذين كلمهم المسيح ممن آمن به وكفـربه هو بمنزلة موسى بن عمران الذى كلمه الله تكليمًا .

ومـعلوم أن تكليم الله لموسى عليـه الصلاة والسـلام ، مما فـضله به على غيـره من النبيين ، فإن كان آحاد الناس بمنزلة موسى بن عمران لزم أن يكون كل من آحاد الناس فى ذلك بمنزلة موسى بن عمران ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل .

الوجه السادس : أنه من المعلوم أن خطاب الله لأنبيـائه ورسله أفـضل من خطابه لمن ليس بنبى ولا رسول . والمسيح عليه السـلام لم يكلم عامة النبيين والمرسلين ، بل لم يكلم إلا ناسًا منهم آمن به ، ومنهم من كفر .

---

(١) ورد من طريق موضوع فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى ، متروك وكذبه أبو زرعة :
ورواه أبو حبان فى صحيحه (٧٦/٢ ك ٧٩ ح٣٦١)
ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٦٦/١ :١٦٨) وذكر طرقـه عن أبى ذر وعزاه ابن كثير فى البـداية والنهاية (١٥١/٢) إلى ابن مردوية أيضاً
وله طريق آخر فيه يحيى بن سعيد الساعدى قال عنه ابن حبان : لا يحل الإحتجاج به : رواه ابن عدى فى الكامل (٤٤٢/٧) ولم يذكر الشاهد =

والتحقيق أنه لم يكلم أحداً من رسل الله ، ولكن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله ، وهذا باطل ، ولو سلم فلم يكلم إلا اثنى عشر رسولا ، وقد بعث الله قبله رسلا كثيرين ، قد روى فى حديث أبى ذر أن (١) عدتهم ثلاثمائه وثلاثة عشر .

وقد قال الله فى القرآن : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [سورة فاطر : ٢٤]وفى الحديث الذى فى المسند عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) : « أنتم توفون سبعين أمة ، وأنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل » ، وهذه السبعون سواء كانت هى التى هداها الله ، أو هى الجميع فإنه يدل على أكثرية الرسل ، ولم يكلم الله أحداً من هؤلاء من بشر حل فيه ، فلو كان المكلم

=ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٩/٤)

ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٦٨/١)

وله طريق ثالث فيه المسعودى (وهو ثقة لكنه اختلط) : رواه أحمد (١٧٨/٥) وأيضاً (١٧٩/٥)

ورواه البزار كما فى كشف الاستاد (٩٣/١ح١٦٠)

ورواه النسائى فى سننه الكبرى فى كتاب « الاستعاذة » باب « الاستعاذة من شر شياطين الإنس » (٤٦١/٤ ح٧٩٤٤) أول هذا الحديث دون ذكر الشاهد .

وانظر البداية والنهاية (١٥١/٢ : ١٥٢) والكامل لابن عدى ، والحلية لأبى نعيم وتحقيق الأرنؤوط لابن حبان فى المواضع السابقة

للناس في عيسى هو الله لكان تكليم الله للذين كلمهم عيسى من الكفار . والمؤمنين أكمل من يكلمه رسل الله الذين أرسلهم .

الوجه السابع : أن الناسوت ناسوت المسيح هو من جنس سائر النواسيت ، والإنسان لا يستطيع أن يرى الله في الدنيا ، كما أخبر بذلك موسى وعيسى ومحمد ، فإذا لم يستطع أن يراه كان أن لا يستطيع الاتصال به ومماسته ، فضلا عن الاتحاد به أولى وأحرى .

الوجه الثامن : أن الله لما كلم موسى عليه السلام من الشجرة كان الكلام المسموع مخالفًا لما يسمع من كلام الناس ، ولهذا لم تطق بنو إسرائيل سماع ذلك الصوت ، بل قالوا لموسى : صف لنا ذلك ، وهذا عندهم في التوراة .

كما روى الخلال في كتاب السنة ، عن أحمد بن حنبل ، فيما رواه من حديث الزهري قال (١) : لما سمع موسى كلام الله قال : يا رب هذا الكلام الذي أسمع هو كلامك ؟ قال : نعم يا موسى هو كلامي ، وإنما كلمتك بقوة عشرة الآف لسان ولي قوة الألسن كلها ، وأنا أقوى من ذلك ، وإنما كلمتك على قدر ما يطيق بدنك ولو كلمتك بأكثر من هذا لمت . فلما رجع موسى إلى قومه قالوا له : صف لنا كلام ربك ، فقال : سبحان الله ، وهل أستطيع أن أصفه لكم ؟اقالوا : فشبهه لنا . قال : هل سمعتم أصوات الصواعق التي تقبل في أحلى حلاوة وسمعتموها فكأنه مثله » .

وأما المسيح عليه السلام ، فكان كل أحد يسمع صوته كصوت سائر الناس لم يتميز عنهم بما يوجب أن يكونوا سمعوا كلام الله كما سمعه موسى بن عمران .

الوجه التاسع : أن الجني إذا حل في الإنسي ، كما يحل في المصروع ، ويتكلم

(١) لم أقف عليه في الجزء المطبوع من كتاب « السنه » للخلال طبعة : دار الراية ، حيث لم يطبع إلا ثلاثة أجزاء في مجلد واحد .

والحديث من الإسرائيليات التي أرسلها الزهري ، وبين وبين موسى عليه السلام مفاوز تنقطع دونها أعناق المطيّ !!

على لسانه ، فإنه يتغير الكلام ويعرف الحاضرون أنه ليس هو كلام الإنسى مع أنه يتكلم بلسان الإنسى وحركة أعضائه ، فيعلم أن الصوت حصل بحركة بدن الإنسان مع العلم بأنه قد تغير تغيرا خالف به المعهود من كلام الإنسى والإنسان الذى حل فيه الجنى يغيب عنه عقله ولا يشعر بما تكلم الجنى على لسانه ، فرب العالمين سبحانه وتعالى لو حل فى بشر واتحد به وتكلم بكلامه ، وكان الكلام المسموع كلام الله المسموع منه لكان يظهر من الفرق بين ذلك وبين المعهود من كلام الإنسى ما هو فى غاية الظهور ، وكان يتغير حال الإنسى غاية التغير ، فإن الرب عز وجل لما تجلى للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا ، فإذا كان البدن الإنسى لا يثبت لتجليه للجبل ، فكيف يثبت لحلوله فيه ، يكلمه على لسانه من غير تغير فى البدن .

وقد كان الوحى والملائكة إذا نزلت على الأنبياء فى باطنهم يظهر التغير فى أبدانهم ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى ثقل حتى ينزل به البعير ، وإن كان فخذه على فخذ أحد ثقل حتى كاد يرضه .

وفى الصحيحين عن عائشة (١) : « أن الحارث بن هشام قال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ قال : أحيانًا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس وهو أشد على ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحيانًا يتمثل لى الملك يكلمنى فأعى ما يقول ، قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقًا » . وموسى عليه السلام لما سمع كلام الله مقت الآدميين ، لما وقر فى سمعه من كلام الله ، وكان النور يظهر على وجهه حتى كان يتبرقع . والمسيح عند النصارى

---

(١) « صحيح »
رواه البخارى فى كتاب « بدء الوحى » باب « ٢ » (٢٥/١ ، ٢٦ح٢) ورواه أيضاً برقم (٣٢١٥)
ورواه الترمذى فى كتاب « المناقب » باب « ما جاء كيف ينزل الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم » (١١٢/١٠ ، ١١٣ح٣٧١٣)
ورواه النسائى فى كتاب « افتتاح الصلاة » باب « ما جاء مع ما جاء فى القرآن » (٣٢٣/١ ، ٣٢٤ح١٠٠٥ ، ١٠٠٦) ورواه أيضاً برقم (١١١٢٨)

قد اتحد به اللاهوت من حين علقت به مريم ولم يزل متحداً به وهو حمل فى بطنها يعظم اتحاده به كلما كبر ، ثم كذلك كان متحداً به وهو صبى إلى أن رفع إلى السماء ، وقعد عن يمين أبيه ، وهو متحد به عندهم واللاهوت والناسوت جميعًا . ومع هذا لم يتغير بدن المسيح قبل أن يعمده « يوحنا» ويرى شبه الحمامة نازلاً عليه لم يظهر الآيات ، بل كان كآحاد الناس .

وأول ما ظهر من الآيات قلب الماء خمراً .

وموسى عليه السلام بمجرد ما سمع الكلام ، وكلمه الله ظهر عليه النور ، وأين سمع الكلام من الاتحاد به . وموسى لما سمع الكلام وكلمه الله من الشجرة نزلت الملائكة وظهر له من آيات الله وعظمته ما يناسب تكليم الله عز وجل .

والرب دائما عند النصارى متحد ببدن المسيح ولم يظهر من آيات الربوبية والعظمة إلا ما يظهر أكثر منه لبعض الأنبياء .

الوجه العاشر : أن المخاطب للناس إن كان هو مجموع اللاهوت والناسوت فكلامه صريح فى أنه مخلوق مربوب يدعو ويسأل ، والمجموع ليس بمخلوق يسأل الله ويعبده ، وإن كان اللاهوت وحده كما يقتضيه كلامهم هذا ، فهو أبعد ، وإن كان الناسوت وحده فلم يكن اللاهوت مخاطبًا للناس من الناسوت كما كلم الله موسى من الشجرة .

وأيضًا فلم يكن فرق بين حقيقة كلام الناسوت وكلام المسيح الصريح في أنه مخلوق كثير و هم يقرون به ، ولكن يقولون ذلك كلام عن الناسوت ، فيقال لهم حينئذ : فالمخاطب للناس هو الناسوت دون اللاهوت ، أنتم قلتم إن الله خاطب الخلق من بدن المسيح كما خاطب موسى من الشجرة .

والخطاب سمعه موسى من الشجرة ، هو كله كلام اللاهوت ، والكلام الذى كان يسمع من المسيح ليس فيه شئ يختص باللاهوت ، بل عامته صريح في أنه كلام

الناسوت .

الوجه الحادى عشر : أن الله لما كلم موسى من الشجرة ، كان الكلام كلام الله وحده لم يكن للشجرة كلام أصلاً بوجه من الوجوه ، فإن كان هذا المثل مطابقًا ، كان الذى يكلم الناس من ناسوت المسيح هو اللاهوت وحده .

ومعلوم أن في الإنجيل وغيره من النصوص الصريحة مايدل على أن الناسوت هو المتكلم ، مما يبين الفرق الواضح بين هذا وهذا .

الوجه الثاني عشر : أن الذي نادي موسى من الشجرة لم يتكلم إلا بكلام الربوبية فقال : ﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾ [سورة القصص : ٣٠] .

﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتُجزَى كل نفسٍ بما تسعى * فلا يصدنَّك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فَتَرْدىَ ﴾ [سور طه : ١٤ - ١٦] .

وسائر ماتكلم به كله يقتضى أنه كلام رب العالمين ، وأما المتكلم على لسان المسيح فلم يقل كلمة من هذا أصلاً ، بل كان في كلامه من الإقرار بأنه رسول الله ، وأنه مخلوق محتاج ، وأنه ابن البشر وغير ذلك مايناقض من كل وجه كلام المنادي لموسى من الشجرة ، فمن سوَّى بين هذا وهذا كان قد سوَّى بين رب العالمين وبين إنسان من الآدميين ، وهو أضل من الذين قال الله فيهم : ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسوِّيكم برب العالمين ﴾ [سورة الشعراء ٩٧ : ٩٨] .

فإن أولئك جعلوهم أندادًا لله في بعض الأمور مع اعترافهم بأنهم مخلوقون ، وهؤلاء الضلال جعلوا هذا الإنسان الذي يتكلم هو رب العالمين الذي كلم موسى من الشجرة ، وقالوا : إن هذا الذي كلم العباد هو ذاك الذي نادى موسى من الشجرة .

الوجه الثالث عشر : أن يقال : معلوم أن الله أجل وأعظم وأكبر من رسله بما لايقدر المخلوق قدره ، فلو كان هو الذي كلم الخلق على لسان المسيح ، وكان

الحواريون رسله الذين سمعوا كلامه منه بلا واسطة ، لكان الحواريين ، إما مثل موسى وإما أعظم .

ومعلوم أن المسيح نفسه لم تكن له آيات مثل آيات موسى ، فضلا عن الحواريين ، فإن أعظم آيات المسيح عليه السلام إحياء الموتى ، وهذه الآية قد شاركه فيها غيره من الأنبياء كإلياس وغيره .

وأهل الكتاب عندهم في كتبهم أن غير المسيح أحيا الله على يديه الموتى ، وموسى ابن عمران من جملة آياته العصا التى انقلبت فصارت ثعباناً مبينا حتى بلعت الحبال والعصى التي للسحرة ، وكان غير مرة يلقيها فتصير ثعبانا ثم يمسكها فتعود عصا .

ومعلوم أن هذه آية لم تكن لغيره وهي أعظم من إحياء الموتى ، فإن الإنسان إذا كانت فيه الحياة ، فإذا عاش فقد عاد إلى مثل حاله الأول والله تعالى يحيى الموتى بإقامتهم من قبورهم وقد أحيا غير واحد من الموتى فى الدنيا .

وأما انقلاب خشبة تصير حيوانًا ثم تعود خشبة مرة بعد مرة وتبتلع الحبال والعصي فهذا أعجب من حياة الميت ؛ وأيضًا فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتي على يد موسي وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح .

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ [سورة البقرة : ٥٥ ، ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ﴾ [سورة البقرة : ٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٣] .

وأيضًا فموسى عليه الصلاة والسلام كان يخرج يده بيضاء من غير سوء ، وهذا أعظم من إبراء البرص الذي فعله المسيح عليه السلام ، فإن البرص مرض معتاد ، وإنما العجب الإبراء منه ، وأما بياض اليد من برص ثم عودها إلى حالها الأول ففيه أمران عجيبان لايعرف لهما نظير .

وأيضًا فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن إهلاك الله لعدو موسى مالم يكن مثله للمسيح .

وأيضًا فموسى كان الله يطعمهم على يده المن والسلوى مع كثرة بني إسرائيل ويفجر لهم بضربه الحجر كل يوم اثنى عشر عينًا يكفيهم .

وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة ، ومن قلب الماء خمرًا ، ونحو ذلك مما يحكى عنه ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكان لموسى في عدوّه من القمل والضفادع والدم وسائر الآيات ما لم يكن مثله للمسيح ، فلو كان الحواريون رسلاً قد كلمهم الله مثل ما كلم موسى من الشجرة كانوا مثل موسى ، فكيف والمسيح نفسه لم يكن له آيات مثل آيات موسى ، ولو كان المسيح هو اللاهوت الذي كلم موسى لكن يظهر قدرته أعظم مما أظهره على يد موسى ، فإنه لم يحلّ في بدن موسى ، ولا كان اللاهوت يكلم الخلق من موسى ، كما يزعمه هؤلاء في المسيح ، ومع هذه فالآيات التى أيّد بها عبده موسى تلك الآيات العظيمة ، فكيف تكون آياته إذا كان هو نفسه الذى قد حلّ في بدن المسيح ، وهو الذى يخاطب الناس على لسان المسيح .

الوجه الرابع عشر : أن يقال إن قولهم إن الله خاطب الناس في المسيح ، كما خاطب موسى النبى من العوسجة من أبطل الباطل ، فإن الله باتفاق الأمم كلها لم يحل في الشجرة ولم يتحد بها ، كما يزعمون هم أنه حل بالمسيح واتحد به ، فإنه

عندهم حلَّ بباطن المسيح ، بل وبظاهره واتحد به باطنًا وظاهرًا والرب تعالى لم يكن في باطن الشجرة ولاحلَّ فيها ولا اتحد بها ، وقول الله إنه كلمه منها وناداه منها كقوله إنه :

﴿ نُودِيَ من شاطئ الوادى الأيمن ﴾ ، [سورة القصص : ٣٠] .

وذلك مثل قوله : ﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالوادى المقدَّس طوى ﴾ ، [سورة النازعات : ١٥ ، ١٦] .

وفي البقعة المباركة ونحو ذلك وليس في شيء من ذلك أن الرب حلّ في باطن الوادي المقدس ، أو البقعة المباركة أو الجانب الأيمن ، ولا أنه اتحد بشيء من ذلك ولاصار هو وشيء من ذلك جوهرًا واحدًا ولاشخصًا واحدًا ، كما يقول بعض النصارى : إن اللاهوت والناسوت صارا جوهرًا واحدًا ، وبعضهم يقول : صارا شخصًا واحدًا ، بل ولاقال أحد : إنه حلّ في شيء من ذلك كحلول الماء في اللبن ، أو النار في الحديد ، كما يقول بعضهم : إن اللاهوت حل في الناسوت ، كذلك لو قدر أن بعض الناس قال شيئًا من المقالات التي لاتدل عليها الكتب الإلهية ، ولاتعلم بالعقل لم يكن قوله حجة ، إذ لايحتج إلا بنقل ثابت عن الأنبياء ، أو بما يعلم بالعقل .

والوجه الخامس عشر : أن الذي كلم موسى وناداه هو الله رب العالمين وتكليمه له من الشجرة من جنس ما أخبر بنزوله إلى السماء الدنيا ، ونزوله يوم القيامة لحساب الخلق ، والكلام على ذلك مبسوط في غير هذا الموضع .

وأما حلوله في البشر أو اتحاده به فيمتنع من وجوه كثيرة عقلا وسمعًا، مع إنه لم يخبر به نبي .

وماتقوله النصارى في غاية التناقض ، فإنهم يزعمون أن المسيح هو الكلمة ، وهو الخالق لأن الكلمة والذات شيء واحد ، فلايفرقون بين الصفة والموصوف ثم يقولون :

المتحد بالمسيح هو الكلمة دون الذات التي يسمونهـا الأب ، ويقولون مع ذلك : إنه لم يتبعض ولم يتجزأ .

ومعلوم بصريح العقل أن الكلمة التي هي الصفة لايمكن مفارقتها للموصوف ، فلا تتحد وتحل دون الموصوف لاسيما والمتحد الحال عندهم هو الخالق ، فيجب أن يكون هو الأب وهم لايقولون المتحد الحال هو الأب ، بل هو الابن ، وإذ قالوا : إن الإبن هو المتحد الحال دون الأب ، فالمتحد ليس هو الذي اتحد ، والابن اتحد والأب ما اتحد .

ويقولون : إن المتحد أخذ عيسى حجاباً احتجب به ، ومسكناً يسكن فيه خاطب الناس فيه ، ويقولون مع ذلك : إنه اتحد به والأب لم يحتجب به ولم يسكن فيه ولم يتحد به فلزم قطعاً أن يكون منه شيء اتحد ومنه شيء لم يتحد ، فالأب لم يتحد والابن اتحد وهذا يناقض قولهم لم يتبعض ويبطل تمثيلهم بالمخاطب من الشجرة ، فإن ذلك هو الله رب العالمين ليس هو الابن دون الأب مع ما ذكر من الفروق الكثيرة البينة التي تبين بطلان تمثيل هذا بهذا .

الوجه السادس عشر : أن الرب عز وجل إذا تكلم تكلم بكلام الربوبية ، فلو كان في المسيح اللاهوت الذي أرسل موسى وغيره لم يخضع لموسى ولتوراته ويذكر أنه إنما جاء ليكملها لا لينقصها ، ولا كان يقوم بشرائعها فإن رب العالمين أعظم وأجلّ من ذلك ، بل لو كان ملكا من الملائكة لم يفعل مثل ذلك ، فكيف برب العالمين ؟

وإذا قالت النصارى : فعل ذلك خوفاً من بنى إسرائيل ، أو خوفاً أن يكذبوه كان عذرهم أقبح من ذنوبهم ، فرب العالمين ممن يخاف سبحانه وتعالى ؟!

وموسى لما كان فرعون يكذبه كان يظهر من الآيات مايدل بها فرعون وقومه مع عتوه وعتو قومه ، ولم تكن بنو إسرائيل أعتى من فرعون وقومه ، فلو كان هو رب العالمين كان مايؤيد به نفسه من الآيات أعظم مما يؤيد عبده موسى .

ومن عجائب النصارى أنهم يدعون فيه الإلهية مع ادعائهم فيه غاية العجز حتى صلب .

وأما المسلمون فيقولون : هو رسول مؤيد ، لم يصلب ، وهذه سنته سبحانه في رسله ، فإنه يؤيدهم وينصرهم على عدوهم ، كما نصر نوحًا وإبراهيم ومحمداً صلوات الله عليهم وسلامه ، فإذا كان لايجوز أن يكون رسولاً مغلوبًا ، فكيف يكون ربًا مصلوبًا ؟ .

الوجه السابع عشر : قولهم فعل المعجز بلاهوته ، وأظهر العجز بناسوته ، فيقال لهم : إن الله فعل من المعجزات ماهو أعظم من المعجزات التي ظهرت على يد المسيح عليه السلام ، ولم يكن متحداً بشيء من البشر ، فأي ضرورة به إلى أن يتحد بالبشر إذا فعل معجزات دون ذلك ؟

الوجه الثامن عشر : أن المسيح ظهرت على يديه معجزات كما ظهر لسائر المرسلين ، ومعجزات بعضهم أعظم من معجزاته ، ومع هذا فلم تكن المعجزات دليلاً على اتحاد اللاهوت بالنبي الذي ظهرت على يديه ، فعلم أن الاستدلال بظهور المعجزات على يدية في غاية الفساد .

والوجه التاسع عشر : أن اللاهوت إن كان متحداً بالناسوت لم يتميز فعله عن فعل الناسوت ، فإنهما إذا صارا شيئاً واحداً كان كل مافعله عن عجز ومعجز هو ذلك الواحد ، كالأمثال التي يضربونها لله سبحانه ، فإنهم يمثلون ذلك بالنار مع الحديد ، والماء مع مع اللبن والخمر .

ومعلوم أن الحديدة إذا أدخلت النار حتى صارت بيضاء كالنار البيضاء ففعلها فعل واحد ، ليس لها فعلان متميزان : أحدهما بالحديد ، والآخر بالنار ، بل فيها قوة الحديد وقوة النار ، بل فيها قوة ثالثة ليست قوة الحديد ولا قوة النار ، إذ ليست حديداً محضاً ولا ناراً محضاً .

وكذلك الماء إذا اختلط باللبن والخمر ، فالمتحد منها شيء واحد فعله فعل واحد منه ليس ماء محضًا ولا لبنًا محضًا ، ولايقول عاقل : إن له فعلين يتميز أحدهما عن الآخر فعلا بكونه لبنًا محضًا ، وفعلا بكونه ماء محضًا . فقولهم بالاتحاد يوجب استحالة اللاهوت بالناسوت ، وأن يصير فعل المتحد شيئًا واحدًا .

وإن كان اللاهوت لم يتحد به فهما اثنان شخصان جوهران وطبيعتان ومشيئتان ، وليس هذا دين النصاري مع أن حلول الرب عز وجل في البشر ممتنع ، وكذلك إذا مثلوه بالنفس مع البدن ، فإن النفس تتغير صفاتها بمفارقة البدن ، وكذلك البدن تتغير صفاته بمفارقة الروح له .

والإنسان الذي نفخت فيه الروح هو نوع ثالث ليس فيه بدن محض ، وروح محض حتى يقال : إنه يفعل كذا ببدنه ، وكذا بنفسه ، بل أفعاله تشترك فيها الروح فهو إذا أكل وشرب فالروح تتلذذ بالأكل والشرب ، وبها صار آكلاً شاربًا ، وإلا فالبدن الميت لا يأكل ولايشرب وإذا نظر واستدل سمع ورأي وتعلم ، فالنفس فعلت ذلك بالبدن ، والبدن يظهر فيه ذلك ، والروح وحدها لا تفعل ذلك ، وعندهم إن فعل هو فعل اللاهوت بعد الاتحاد.

والقول بهذا مع الإتحاد في غاية التناقض والفساد ولا يعقل نظير هذا في شيئ من الموجودات ، ونفس المتكلم بهذا من النصارى لا يتصور ما يقول ، ولا يمكنه أن يمثله بشيئ معقول .

فصل في امتناع كون المسيح إلهًا

قالوا : وقد جاء في هذا الكتاب ، الذي جاء به هذا الإنسان يقول : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١]

وهذا يوافق قولنا : إذ قد شهد أنه إنسان مثلنا بالناسوت الذي أخذ من مريم و كلمة

الله وروحه المتحدة فيه ، وحاشا أن تكون كلمة الله وروحه الخالقة مثلنا نحن المخلوقين وأيضًا قال في سورة النساء : ﴿ وماقتلوه وماصلبوه ولكن شُبّه لهم ﴾ . [سورة النساء : ١٥٧] فأشار بهذا القول إلى اللاهوت الذي هو كلمة الله التي لم يدخل عليها ألمٌ ولاعرض ، وقال أيضًا : ﴿ ياعيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ وقال في سورة المائدة عن عيسى إنه قال : ﴿ وكنتُ عليهم شهيدًا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيبَ عليهم وأنت على كل شئ شهيد ﴾ [سورة المائدة : ١١٧] فأعنى بموته عن موت الناسوت الذي أخذ من مريم العذراء .

قال أيضًا في سورة النساء : ﴿ وماقتلوه يقينًا * بل رفعه الله إليه ﴾ [سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] .فأشار بهذا إلى اللاهوت الذي هو كلمة الله الخالقة ، وعلى هذا القياس نقول : إن المسيح صلب وتألم بناسوته ، ولم يصلب ولا تألم بلاهوته .

والجواب من وجوه :

أحدها أن يقال : دعواهم على محمد صلى الله عليه وسلم أنه أثبت في المسيح اللاهوت والناسوت ، كما يزعمه هؤلاء النصارى فيه هو من الكذب الواضح المعلوم على محمد صلى الله عليه وسلم الذي يعلم من دينه بالاضطرار ، كما يعلم من دينه تصديق المسيح عليه السلام ، وإثبات رسالته فلو ادعى اليهود على محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان يكذِّب المسيح ويجحد رسالته كان كدعوى النصارى عليه أنه كان يقول : إنه رب العالمين ، وأن اللاهوت اتحد بالناسوت ، ومحمد صلى الله عليه وسلم قد أخبر فيما بلغه عن الله عز وجل بكفر من قال ذلك .

وبما يناقض ذلك في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأُمه ومن في الأرض جميعًا ولله ملك السموات والأرض ومابينهما يخلق مايشاء والله على كل شئ قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧] .

وقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه مَنْ يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحدٌ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّن اللذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلايتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت مِنْ قبله الرسل وأُمه صديقةٌ كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنَّى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولانفعًا والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبلُ وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢ - ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ - ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولما ضُرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا ءآلهاتنا خيرٌ أم هو ما ضربوه ه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة فلاتمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم * ولايصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون * إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط

مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾، [سورة الزخرف : ٥٧ - ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك إنك أنت علام الغيوب * ماقلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد ﴾ [سورة المائدة : ١١٦ ، ١١٧] .

فأخبر عن المسيح أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به بقوله أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكان عليهم شهيداً مادام فيهم ، وبعد وفاته كان الله الرقيب عليهم ، فإذا كان بعضهم قد غلط في النقل عنه أو في تفسير كلامه ، أو تعمد تغير دينه لم يكن على المسيح عليه السلام من ذلك درك ، وإنما هو رسول عليه البلاغ المبين .

وقد أخبر الله سبحانه أن أول ماتكلم به المسيح أن قال : ﴿ إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركًا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دُمت حيًا * وبرًا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًا ﴾ [سورة مريم ٣٠ - ٣٢] .

ثم طلب لنفسه السلام فقال : ﴿ والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًا ﴾ ، [سورة مريم : ٣٣] .

والنصارى يقولون : علينا منه السلام ، كما يقول الغالية فيمن يدعون فيه الإلهية كالنصيرية في عليّ ، والحاكمية في الحاكم .

الوجه الثاني : أن يقال إن الله لم يذكر أن المسيح مات ولاقتل ، وإنما قال : ﴿ ياعيسى إني متوفيك ، ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] وقال المسيح ﴿ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على

كل شئ شهيد ﴾ ،[سورة المائدة : ١١٧]

وقال تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غُلْفٌ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسولَ الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيبات أُحلَّت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٥ - ١٦١] .

فذم الله اليهود بأشياء منها : ﴿ قولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ حيث زعموا أنها بغيّ ، ومنها قولهم : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبّه لهم ﴾ ، وأضاف هذا القول إليهم ، وذمهم عليه ، ولم يذكر النصارى لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود ، ولم يكن أحد من النصارى شاهداً معهم ، بل كان الحواريون خائفين غائبين فلم يشهد أحد منهم الصلب ، وإنما شهده اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح ، والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم ، إنما نقلوه عن أولئك اليهود وهم شرط من أعوان الظلمة ، لم يكونوا خلقاً كثيراً يمتنع تواطؤهم على الكذب .

قال تعالى : ﴿ وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبّه لهم ﴾ فنفي عنه القتل ، ثم قال : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ﴾ .

وهذا عند أكثر العلماء معناه قبل موت المسيح ، وقد قيل قبل موت اليهودي وهو

ضعيف ، كما قيل إنه قبل موت محمد صلى الله عليه وسلم وهو أضعف ، فإنه لو آمن به قبل الموت لنفعه إيمانه به ، فإنه يقبل توبة العبد مالم يغرغر .

وإن قيل : المراد به الإيمان الذى يكون بعد الغرغرة لم يكن في هذا فائدة ، فإن كل أحد بعد موته يؤمن بالغيب الذي كان يجحده ، فلا اختصاص للمسيح به ، ولأنه قال : قبل موته ، ولم يقل بعد موته ، ولأنه لافرق بين إيمانه بالمسيح وبمحمد صلوات الله عليهما وسلامه ، واليهودي الذي يموت على اليهودية فيموت كافراً بمحمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام ، ولأنه قال : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ، وقوله : ﴿ ليؤمنن به ﴾ ، فعل مقسم عليه ، وهذا إنما يكون في المستقبل ، فدل ذلك على أن هذا الإيمان بعد إخبار الله بهذا ، ولو أريد قبل موت الكتابي لقال : وإن من أهل الكتاب إلا من يؤمن به ، ولم يقل « ليؤمنن به » .

وأيضاً فإنه قال : إن من أهل الكتاب وهذا يعم اليهود والنصارى ، فدل ذلك على أن جميع أهل الكتاب اليهود والنصارى يؤمنون بالمسيح قبل موت المسيح ، وذلك إذا نزل آمنت اليهود والنصارى بأنه رسول الله ليس كاذباً كما يقول اليهود ، ولاهو الله كما تقوله النصارى .

والمحافظة على هذا العموم أولى من أن يدعى أن كل كتابي ليؤمنن به قبل أن يموت الكتابي ، فإن هذا يستلزم إيمان كل يهودي ونصراني ، وهذا خلاف الواقع وهو لما قال : ﴿ وإن منهم إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ودل على أن المراد بإيمانهم قبل أن يموت هو علم أنه أريد بالعموم عموم من كان موجوداً حين نزوله أي لايختلف منهم أحد عن الإيمان به ، لا إيمان من كان منهم ميتاً .

وهذا كما يقال : إنه لايبقي بلد إلا دخله الدجال إلا مكة والمدينة ، أي في المدائن الموجودة حينئذ ، وسبب إيمان أهل الكتاب به حينئذ ظاهر ، فإنه يظهر لكل أحد أنه رسول مؤيد ليس بكذاب ولا هو رب العالمين .

فالله تعالى ذكر إيمانهم به إذا نزل إلى الأرض فإنه تعالى لما ذكر رفعه إلى الله بقوله : ﴿ إني متوفيك ورافعك إليّ ﴾ ، وهو ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ويموت حينئذ أخبر بإيمانهم به قبل موته ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون * وإنه لعلمٌ للساعة فلاتمترُنَّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم * ولايصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون * إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلفت الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٩ – ٦٥] .

في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (١) : « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً ، وإمامًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية » .

وقوله تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيما ﴾ بيان أن الله رفعه حيًا وسلمه من القتل ، وبين أنهم يؤمنون به قبل أن يموت .

وكذلك قوله ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ ، ولو مات لم يكن فرق بينه وبين

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخاري في كتاب « البيوع » باب « قتل الخنزير ... » (٤/٤٨٣ح٢٢٢٢) ورواه أيضاً برقم (٢٣٧٦، ٣٤٤٨، ٣٤٤٩)

ورواه مسلم في كتاب « الإيمان » باب « نزول عيسى بن مريم ... »(١/١٣٥ح١٥٥)

ورواه الترمذي في كتاب « الفتن » باب « ما جاء في نزول عيسى بن مريم » (٦/٤٨٨ ، ٤٨٩ح٢٢٣٤)

ورواه ابن ماجه في كتاب « الفتن » باب « فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم .. » (٢/١٣٦٣ح٤٠٧٨)

غيره .

ولفظ التوفي في لغة العرب معناه : الاستيفاء والقبض ، وذلك ثلاثة أنواع : أحدها : توفي النوم ، والثاني : توفي الموت ، والثالث : توفي الروح والبدن جميعًا ، فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس ، ويخرج منهم الغائط والبول ، والمسيح عليه السلام توفاه الله وهو في السماء الثانية إلى أن ينزل إلى الأرض ، ليست حاله كحالة أهل الأرض في الأكل والشرب واللباس والنوم ، والغائط والبول ، ونحو ذلك .

الوجه الثالث : قولهم إنه عنى بموته عن موت الناسوت . كان ينبغي لهم أن يقولوا على أصلهم : عنى بتوفيته عن توفي الناسوت . وسواء قيل موته أو توفيته فليس هو شيئًا غير الناسوت ، فليس هناك شئ غيره لم يتوف الله تعالى قال :

﴿ إني متوفيك ورافعك إليّ ﴾ فالمتوفي هو المرفوع إلى الله ، وقولهم : إن المرفوع هو اللاهوت مخالف لنص القرآن ، ولو كان هناك موت فكيف إذا لم يكن فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفي ، والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفي .

وكذلك قوله في الآية الأخرى : ﴿ وماقتلوه يقينا بل رفعه الله إليه ﴾ هو تكذيب لليهود في قولهم : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ ، واليهود لم يدعوا قتل لاهوت ، ولا أثبتوا لله لاهوتا في المسيح ، والله تعالي لم يذكر دعوى قتله عن النصارى حتى يقال : إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت ، بل عن اليهود الذين لايثبتون إلا الناسوت .

وقد زعموا أنهم قتلوه ، فقال تعالى : ﴿ وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه ﴾ فأثبت رفع الذي قالوا إنهم قتلوه ، وإنما هو الناسوت ، فعلم أنه هو الذي نفي عنه القتل ، وهو الذي رفع ، والنصارى معترفون برفع الناسوت ، لكن يزعمون أنه صلب وأقام في القبر إما يوما وإما ثلاثة أيام ، ثم صعد إلي السماء ، وقعد عن يمين الأب الناسوت مع اللاهوت .

وقوله تعالى : ﴿ وما قتلوه يقينا ﴾ معناه أن نفي قتله هو يقين لاريب فيه ، بخلاف الذين اختلفوا بأنهم في شك منه من قتله وغير قتله ، فليسوا مستيقنين أنه قتل ، إذ لاحجة معهم بذلك .

ولذلك كانت طائفة من النصارى يقولون : إنه لم يصلب فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود ، وكان قد اشتبه عليهم المسيح بغيره ، كما دل عليه القرآن وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره ، فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم بعض الناس : أنا أعرفه ، فعرفوه ، وقول من قالوا : معنى الكلام ماقتلوه علماً بل ظنا. قول ضعيف .

الوجه الرابع : أنه قال تعالى : ﴿ إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ ، فلو كان المرفوع هو اللاهوت لكان رب العالمين قال لنفسه أو لكلمته : (إنى رافعك إليّ) ، وكذلك قوله : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ فالمسيح عندهم هو الله .

ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلى نفسه ، وإذا قالوا : هو الكلمة فهم مع ذلك إنه الإله الخالق لايجعلونه بمنزلة التوراة والقرآن ، ونحوهما مما هو كلام الله الذي قال فيه : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ ، [سورة فاطر : ١٠] بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين ، ورفع رب العالمين إلى رب العالمين ممتنع .

الوجه الخامس قوله : ﴿ وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ ،[سورة المائدة : ١١٧] ، دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح ، فإن قوله كنت أنت يدل على الحصر ، كقوله إن كان هذا هو الحق ونحو ذلك ، فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيبًا على اتباعه ، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم المحصي أعمالهم المجازي عليها ، والمسيح ليس برقيب فلا يطلع على أعمالهم ، ولايحصيها ولايجازيهم بها .

فصل في كلمة الله ما هي

قالوا : وقد سماه الله أيضاً في هذا الكتاب خالقاً حيث قال : ﴿ وإذ تخلقُ من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٠] .

فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت المأخوذة من مريم ، لأنه كذا قال على لسان داود النبي .

[بكلمة الله خلقت السموات والأرض ، ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه] .

وهذا مما يوافق رأينا ، واعتقادنا في السيد المسيح لذكره ، لأنه حيث قال : وتخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله أى بإذن اللاهوت الكلمة المتحدة في الناسوت .

الجواب : إن جميع مايحتجون به من هذه الآيات وغيرها ، فهو حجة عليهم لا لهم ، وهكذا شأن جميع أهل الضلال إذا احتجوا بشئ من كتب الله وكلام أنبيائه ، كان في نفس ما احتجوا به مايدل على فساد قولهم ، وذلك لعظمة كتب الله المنزلة وما نطنق به أنبياؤه ، فإنه جعل ذلك هدى وبيانا للخلق وشفاء لما في الصدور ، فلابد أن يكون في كلام الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين من الهدي والبيان مايفرق الله به بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، لكن الناس يؤتون من قبل أنفسهم ، لامن قبل أنبياء الله تعالى .

إما من كونهم لم يتدبروا القول الذي قالته الأنبياء حق التدبر حتى يفقهوه ويفهموه .

وإما من جهة أخذهم ببعض الحق دون بعض ، مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزله الله دون بعض ، فيضلون من جهة مالم يؤمنوا به ، كما قال تعالى عن النصارى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظًا مما ذكروا به فأغرينا بينهم

العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ .[سورة المائدة :١٤]

وإما من جهة نسبتهم إلى الأنبياء مالم يقولوه من أقوال كذبت عليهم ومن جهة ترجمة أقوالهم بغير ماتستحقه من الترجمة ، وتفسيرها بغير ماتستحقه من التفسير الذي دل عليه كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فإنه يجب أن يفسر كلام المتكلم بعضه ببعض ، ويؤخذ كلامه هاهنا وهاهنا ، وتعرف ماعادته يعنيه ويريده بذلك اللفظ إذا تكلم به وتعرف المعاني التي عرف أنه أرادها في موضع آخر ، فإذا عرف عرفه وعادته في معانيه وألفاظه كان هذا مما يستعان به على معرفة مراده .

وأما إذا استعمل لفظه في معنى لم تجر عادته باستعماله فيه ، وترك استعماله في المعنى الذي جرت عادته باستعماله فيه ، وحمل كلامه علي خلاف المعني الذي قد عرف أنه يريده بذلك اللفظ يجعل كلامه متناقضًا ، ويترك كلامه على مايناسب سائر كلامه ، كان ذلك تحريفًا لكلامه عن موضعه ، وتبديلا لمقاصده وكذبًا عليه .

فهذا أصل من ضل في تأويل كلام الأنبياء على غير مرادهم ، فإذا عرف هذا ، فنقول : الجواب عما ذكروه هنا من وجوه :

أحدها : أن الله لم يذكر عن المسيح خلقًا مطلقًا ، ولاخلقًا عامًا ، كما ذكر عن نفسه تبارك وتعالى ، فأول ماأنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم ﴾ .[سورة العلق : ١ : ٥]

وقال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمايشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ﴾ .[سورة الحشر : ٢٢ : ٢٤]

فذكر نفسه بأنه الخالق البارئ المصور ، ولم يصف قط شيئًا من المخلوقات بهذا لا

مَلَكًا ولانبيًا ، وكذلك قال تعالى : ﴿ الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل * له مقاليد السموات والأرض ﴾ ، [سورة الزمر : ٦٢ ، ٦٣]

وقال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون * بديع السموات والأرض أنيٌ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم ﴾،[سورة الانعام: ١٠٠/١٠١]

ووصف نفسه بأنه رب العالمين ، وبأنه مالك يوم الدين ، وأنه له الملك وله الحمد ، وأنه الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأنه على كل شئ قدير ، وبكل شئ عليم ، ونحو ذلك من خصائص الربوبية ، ولم يصف شيئًا من مخلوقاته لاملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً بشئ من الخصائص التي يختص بها ، التي وصف بها نفسه سبحانه وتعالى .

وأما المسيح عليه السلام فقال فيه : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٠]

وقال المسيح عن نفسه : ﴿أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ﴾ ، فلم يذكر إلا خلق شئ معين خاص بإذن الله ، فكيف يكون هذا الخالق هو ذاك ؟

الوجه الثاني : أنه خلق من الطين كهيئة الطير ، والمراد به تصويره بصورة الطير ، وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس ، فإنه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير ، وغير الطير من الحيوانات ، ولكن التصوير محرم ، بخلاف تصوير المسيح ، فإن الله أذن له فيه .

والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيراً بإذن الله عز وجل ، ليس المعجزة مجرد خلقه من الطين ، فإن هذا مشترك ،

ولقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم المصورين ، وقال (١) : « إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون » .

الوجه الثالث : أن الله أخبر أن المسيح إنما فعل التصوير محرم ؟؟ ، والنفخ بإذنه تعالى ، وأخبر المسيح عليه السلام أنه فعله بإذن الله وأخبر الله أن هذا من نعمته التي أنعم بها على المسيح عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ ،[سورة الزخرف : ٥٩]

وقال تعالى له : ﴿ ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٠] .

وهذا كله صريح في أنه ليس هو الله ، وإنما هو عبدالله فعل ذلك بإذن الله ، كما فعل مثل غيره من ذلك الأنبياء ، وصريح بأن الإذن غير المأذون له والمعلم ليس هو المعلم ، والمنعم عليه وعلى والدته ليس هو إياه ، كما ليس هو والدته .

والوجه الرابع : أنهم قالوا : أشاروا بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت ، ثم قالوا في قوله [بإذن الله] أي بإذن الكلمة المتحدة في الناسوت ، وهذا يبين تناقضهم وافتراءهم على القرآن ، لأن الله أخبر في القرآن أن المسيح خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله ، ففرق بين المسيح وبين الله وبين أن الله هو الآذن للمسيح ،

---

(١) « متفق عليه » « عن عبد الله بن مسعود »

ورواه البخارى فى كتاب « اللباس » باب « عذاب المصورين يوم القيامة » ١٠٠/٣٩٦ح٥٩٥٠)

ورواه مسلم فى كتاب « اللباس » باب « تحريم تصوير صورة ..» (١٦٧٠/٣ح٢١٠٩)

ورواه النسائى فى كتاب « الزينة » باب « ذكر أشد الناس عذاباً » (٢١٦/٨)

وهؤلاء زعموا أن مراده بذلك أن اللاهوت المتحد بناسوت المسيح هو الخالق ، وهو الآذن فجعلوا الخالق هو الآذن ، وهو تفسير للقرآن بما يخالف صريح القرآن .

الوجه الخامس : أن اللاهوت إذا كان هو الخالق لم يحتج إلى أن يأذن لنفسه ، فإنهم يقولون : هو إله واحد وهو الخالق ، فكيف يحتاج أن يأذن لنفسه وينعم على نفسه ؟

الوجه السادس : أن الخالق إما أن يكون هو الذات الموصوفة بالكلام أو الكلام الذي هو صفة للذات ، فإن كان هو الكلام ، فالكلام صفة لاتكون ذاتًا قائمة بنفسها خالقة ، ولو لم تتحد بالناسوت ، واتحادها بالناسوت دون الموصوف ممتنع لو كان الاتحاد ممكنًا ، فكيف وهو ممتنع ؟

فقد تبين امتناع كون الكلمة تكون خالقة من وجوه ، وإن كان الخالق هو الذات المتصفة بالكلام ، فذاك هو الخالق لكل شئ رب العالمين ، وعندهم هو الأب ، والمسيح عندهم ليس هو الأب ، فلايكون هو الخالق لكل شئ ، والقرآن يبين أن الله هو الذي أذن للمسيح حتى خلق من الطين كهيئة الطير ، فتبين أن الذي خلق من الطين كهيئة الطير ليس هو الله ولا صفة من صفاته ، فليس المسيح هو الله ولا ابن قديم أزلي لله ، ولكن عبده فعل بإذنه .

الوجه السابع : قولهم فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت المأخوذ من مريم ، لأنه كذا قال على لسان داود النبي : [بكلمة الله خلقت السموات والأرض].فيقال لهم : هذا النص عن داود حجة عليكم ، كما أن التوراة والقرآن وسائر ما ثبت عن الأنبياء حجة عليكم ، فإن داود عليه السلام قال : [بكلمة الله خلقت السموات والأرض]. ولم يقل : إن كلمة الله هي الخالقة ، كما قلتم أنتم إنه أشار بالخالق إلى كلمة الله .

والفرق بين الخالق للسموات والأرض وبين الكلمة التي بها خلقت السموات

والأرض أمر ظاهر معروف ، كالفرق بين القادر والقدرة ، فإن القادر هو الخالق وقد خلق الأشياء بقدرته ، وليست القدرة هي الخالقة ، وكذلك الفرق بين المريد والإرادة ، فإن الله خلق الأشياء بمشيئته ، وليست مشيئته هي الخالقة ، وكذلك الدعاء والعبادة هي للاله الخالق لا لشئ من صفاته ، فالناس كلهم يقولون : يا الله ياربنا ياخالقنا ارحمنا واغفر لنا ، ولايقول أحد ياكلام الله اغفر لنا وارحمنا ، ولاياقدرة الله ، ويا مشيئة الله ، وياعلم الله اغفر لنا وارحمنا ، والله تعالى يخلق بقدرته ومشيئته وكلامه ، وليست صفاته هي الخالقة .

الوجه الثامن : أن قول داود عليه السلام : [بكلمة الله خلقت السموات والأرض] يوافق ماجاء في القرآن والتوراة ، وغير ذلك من كتب الأنبياء أن الله يقول للشئ : كن فيكون ، وهذا في القرآن في غير موضع ، وفي التوراة قال الله : [ليكن كذا ليكن كذا] .

الوجه التاسع : قولهم لأنه ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه ، إن أرادوا بكلمته كلامه ، وبروحه حياته فهذه من صفات الله كعلمه وقدرته ، فلم يعبر أحد من الأنبياء عن حياة الله بأنها روح الله ، فمن حمل كلام أحد من الأنبياء بلفظ الروح أنه يراد به حياة الله فقد كذب عليه ، ثم يقال : هذا كلامه وحياته من صفات الله كعلمه وقدرته ، وحينئذ فالخالق هو الله وحده وصفاته داخلة في مسمى اسمه ، لايحتاج أن تجعل معطوفة على اسمه بواو التشريك التي تؤذن فإن الله له شريك في خلقه ، فإن الله لاشريك له .

ولهذا لما قال تعالى : ﴿ الله خالق كل شئ ﴾ ، دخل كل ماسواه في مخلوقاته ، ولم تدخل صفاته كعلمه وقدرته ومشيئته وكلامه ، لأن هذه داخلة في مسمى اسمه ليست أشياء مباينة له ، بل أسماؤه الحسنى متناولة لذاته المقدسة المتصفة بهذه الصفات لايجوز أن يراد بأسمائه ذاتًا مجردة عن صفات الكمال ، فإن تلك حقيقة لها ، ويمتنع وجود ذات مجردة عن صفة فضلاً عن وجود ذاته تعالى مجردة عن

صفات كماله ، التي هي لازمة لذاته يمتنع تحقق ذاته دونها .

ولهذا لايقال : الله وعلمه خلق ، والله وقدرته خلق ، وإن أرادوا بكلمته وروحه المسيح أو شيئًا اتحد بناسوت المسيح ، فالمسيح عليه السلام كله مخلوق كسائر الرسل والله وحده هو الخالق ، وإن شئت قلت : إن أريد بالروح والكلمة ماهو صفة لله فتلك داخلة في مسمى اسمه ، وإن أريد ماليس بصفة فذلك مخلوق له كالناسوت .

الوجه العاشر : أن داود عليه السلام لايجوز أن يريد بكلمة الله المسيح لأن المسيح عند جميع الناس هو اسم للناسوت وهو عندهم اسم اللاهوت والناسوت لما اتحد ، والاتحاد فعل حادث عندهم ، فقبل الاتحاد لم يكن هناك ناسوت ولا مايسمى مسيحًا ، فعلم أن داود لم يرد بكلمة الله المسيح ، ولكن غايتهم أن يقولوا : أراد الكلمة التي اتحدت فيها بعد المسيح ، لكن الذي خلق بإذن الله هو المسيح ، كما نطق به القرآن بقوله : ﴿ يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ .

فالكلمة التي ذكرها وأنها هي التي بها خلقت السموات والأرض ليست هي المسيح الذي خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله ، فاحتجاجهم بهذا على هذا احتجاج باطل ، بل تلك الكلمة التي بها خلقت السموات والأرض لم يكن معها ناسوت حين خلقت باتفاق الأمم ، والمسيح لابد أن يدخل فيه الناسوت ، فعلم أنه لم يرد بالكلمة المسيح .

فصل في أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم

قالوا : وقال أيضًا في موضع آخر : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ ، [سورة آل عمران: ٥٩] فأعنى بقوله : ﴿مثل عيسى﴾ إشارة إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة لأنه لم يذكر هنا اسم المسيح ، وإنما ذكر اسم عيسى فقط .

وكما أن آدم خلق من غير جماع ومباضعة ، فكذلك جسد المسيح خلق من غير جماع ولامباضعة ، وكما أن جسد آدم ذاق الموت ، فكذلك جسد المسيح ذاق الموت ، وقد يبرهن بقوله أيضاً قائلا إن الله ألقي كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الأزلية الخالقة حلت في مريم وتجسدت بإنسان كامل ، وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان : طبيعة لاهوتية : التي هي طبيعة كلمة الله وروحه ، وطبيعة ناسوتية : التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به ، ولما تقدم به القول من الله تعالى على لسان موسى النبي إذ يقول : [أليس هذا الأب الذي خلقك وبراك واقتناك] ، قيل : وعلى لسان داود النبي : [روحك القدس لاتنزع مني] ، وأيضاً على لسان داود النبي : [بكلمة الله تشددت السموات وبروح فاه جميع فواههن] ، وليس يدل على هذا القول على ثلاثة خالقين ، بل خالق واحد : الأب ، ونطقه أي كلمته ، وروحه أي حياته .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾، [آل عمران : ٥٩] كلام حق فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشرى على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته ، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق زوجته حواء من غير ذكر بلا أنثى ، كما قال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾، [النساء :١] وخلق المسيح من أنثى بلاذكر ، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى ، وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح ، فإن حواء خلقت من ضلع آدم ، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم ، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا ، وهو أصل خلق حواء .

فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح ، فإذا كان سبحانه قادراً أن يخلقه من تراب ، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان ، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان ؟ وهو سبحانه خلق آدم من تراب ، ثم

قال له كن فيكون ، لما نفخ فيه من روحه ، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه ، وقال له : كن فيكون ، ولم يكن آدم بما نفخ من روحه لاهوتًا وناسوتًا ، بل كله ناسوت فكذلك المسيح كله ناسوت ، والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى ، لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وناظروه في المسيح ، وأنزل الله فيه ماأنزل ، فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى ، فكذب الله الطائفتين : هؤلاء في غلوهم فيه ، وهؤلاء في ذمهم له .

وقال عقب هذه الآية :﴿ فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق ومامن إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين * قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولانشرك به شيئًا ولايتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾، [سورة آل عمران : ٦١:٦٤] .

وقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم لقول الله فدعاهم إلى المباهلة فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ، ثم كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلي هرقل ملك الروم بقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا ﴾ إلى آخرها ، وكان أحيانًا يقرأ بها في الركعة الثانية من ركعتي الفجر ، ويقرأ في الأولى بقوله : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [البقرة:١٣٦] .

وهذا كله يبين به أن المسيح عبد ليس بإله ، وأنه مخلوق كما خلق آدم ، وقد أمر أن يباهل من قال إنه إله فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به ، ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ، ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين ، فإن كان النصارى

كاذبين في قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم ، وإن كان من قال ليس هو الله بل عبد الله كاذبًا حقت اللعنة عليه ، وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه علي الحق .

والنصارى لما لم يعلموا أنهم علي حق نكلوا عن المباهلة ، وقد قال عقب ذلك : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ومامن إله إلا الله ﴾ ، [آل عمران:٦٢] تكذيبًا للنصارى الذين يقولون : هو إله حق من إله حق ، فكيف يقال إنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت ، وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت ؟ وبهذا ظهر الجواب عن قولهم . قال في موضع آخر : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فأعني بقوله : عيسي أشار إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة ، لأنه لم يذكر الناسوت هاهنا اسم المسيح إلا ذكر عيسى فقط ، فإنه يقال : عيسى هو المسيح ، بدليل أنه قال : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولاً ليس هو بإله وأنه ابن مريم الذي هو ابن من مريم هو الناسوت ، وقال : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيرًا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافي السموات ومافي الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا ﴾ ، [النساء : ١٧١، ١٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ ، [التوبة : ٣٠].

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا ﴾ [المائدة : ١٧].

الوجه الثاني : أن ماذكروه من موته قد بينا أن الله لم يذكر ذلك وأن المسيح لم

يمت بعد ، وماذكروه من أنه صلب ناسوته دون لاهوته باطل من وجهين : فإن ناسوته لم يصلب، وليس فيه لاهوت ، وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة ، فيكفى فى مقابلتها المنع ، ولكن نقول فى الوجه الثالث : إنهم فى اتحاد اللاهوت بالناسوت يشبهونه تارة باتحاد الماء باللبن ، وهذا تشبيه اليعقوبية ، وتارة باتحاد النار بالحديد أو النفس بالجسم ، وهذا تشبيه الملكانية وغيرهم .

ومعلوم أنه لا يصل إلى الماء إلا وصل إلى اللبن ، فإنه لا يتميز أحدهما عن الآخر ، وكذلك النار التى فى الحديد متى طرق الحديد أو بصق عليه لحق ذلك بالنار التى فيه ، والبدن إذا ضرب وعذب لحق ألم الحق الضرب والعذاب للنفس فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضى أن الاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود وتعذيبهم وإتلافهم له والصلب الذى ادعوه .

وهذا لازم على القول بالاتحاد ، فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر لم يكن هناك اتحاد بل تعدد.

الرابع : أن هؤلاء الضلال لم يكفهم أن جعلوا إله السموات والأرض متحداً ببشر فى جوف امرأة ، وجعلوه له مسكنًا ، ثم جعلوا أخابث خلق الله أمسكوه وبصقوا فى وجهه ، ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه بين لصين ، وهو فى ذلك يستغيث بالله ويقول : « إلهى إلهى لم تركتنى » وهم يقولون الذى كان يسمع الناس كلامه هو اللاهوت ، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة ، ويقولون هما شخص واحد ، ويقول بعضهم : لهما مشيئة واحدة ، وطبيعة واحدة .

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم ، فيلزم أن يكون المتكلم الداعى المستغيث المصلوب هو اللاهوت هو المستغيث المتضرع وهو المستغاث به ، وأيضًا فهم يقولون :إن اللاهوت والناسوت شخص واحد ، فمع القول بأنهما شخص واحد إما أن يكون مستغيثًا وإما يكون مستغاثًا به ، وإما أن يكون داعيًا وإما أن يكون مدعوًا ،

فإذا قالوا : إن الداعى هو غير المدعو لزم أن يكون اثنين لا واحد ، وإذا قالوا : هما واحد ، فالداعى هو المدعو .

والوجه الخامس : أن يقال لا يخلو إلى أن يقولوا : إن اللاهوت كان قادراً على دفعهم عن ناسوته ، وإما أن يقولوا : لم يكن قادراً ، فإن قالوا لم يكن قادراً لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين ، وأن يكون العالمين مقهوراً مأسوراً مع قوم شرار اليهود ، وهذا من أعظم الكفر والتنقص برب العالمين ، وهذا أعظم من قولهم : إن لله ولداً ،وإنه بخيل ، وإنه فقير ، ونحو ذلك مما سب به الكفار رب العالمين .

وإن قالوا : كان قادراً ، فإن كان ذلك من عدوان الكفار على ناسوته وهو كاره لذلك ، فسنة الله فى مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به ، فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به ، وهذا بخلاف من قتل من النبيين وهو صابر ، فإن أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء ، والناسوت عندهم استغاث وقال : [إلهى إلهى لماذا تركتنى] وإن كان هو قد فعل ذلك مكراً ، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق ، فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق ، فكان الواجب أن لا يجزع ولا يهرب لما فى ذلك من الحكمة ، وهم يذكرون من جزع الناسوت وهربه ودعائهم ، ما يقتضى أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره ، ويقول بعضهم : مشيئتهما واحدة فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت ؟ بل لو يشاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين ، وقد اتفقا على المكر بالعدو ، لم يجزع الناسوت ، كما جى ليوسف مع أخيه لما وافقه على أنه يجعل الصواع فى رحله ، ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه ، لما ظهر الصواع فى رحله ، كما جزع أخوته حيث لم يعلموا ، وكثير من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون ، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذى يصفون به المسيح ، وهو يقتضى غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية .

الوجه السادس : قولهم إنه كلمته وروحه تناقض منهم ، لأن عندهم أقنوم الكلمة

فقط لا أقنوم الحياة .

الوجه السابع : قولهم : وقد برهن بقوله رأينا أيضًا في موضع آخر قائلا : إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم واتحدت بإنسان كامل .

فيقال لهم : أما قول الله في القرآن فهو حق ، ولكن ضللتم في تأويله كما ضللتم في تأويل غيره من كلام الأنبياء ، وما بلغوه عن الله ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ إذقالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مرريم وجيهًا في الدنيا والأخرة ومن المقربين * ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٥ -٤٧].

ففي هذا الكلام وجوه تبين أنه مخلوق ليس هو ما يقوله النصارى منها أنه قال : ﴿ بكلمة منه ﴾ وقوله بكلمة منه نكرة في الإثبات يقتضي أنه كلمة من كلمات الله ليس هو كلامه كله كما يقوله النصارى . ومنها أنه بين مراده بقوله بكلمة منه ، وأنه مخلوق حيث قال : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٧] .

كما قال في الآية الأخرى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾.

وقال تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [سورة مريم : ٣٤ ، ٣٥] .

فهذه ثلاثة آيات في القرآن تبين أنه قال له : ﴿ كن فيكون ﴾ وهذا تفسير كونه كلمة منه وقال اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، أخبر أنه ابن مريم ، وأخبر أنه ابن مريم

وأخبر أنه وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، وهذه كلها صفة مخلوق ، والله تعالى وكلامه الذى هو صفته لا يقال فيه شئ من ذلك ، وقالت مريم : ﴿ أنى يكون لى ولد ﴾ فبين أن المسيح الذى هو الكلمة هو ولد مريم .لا ولد الله سبحانه وتعالى .

وقال فى سورة النساء : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأماالذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابًا أليمًا ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيراً ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ -١٧٣] .

فقد نهى النصارى عن الغلو فى دينهم ، وأن يقولوا على الله غير الحق ، وبين أن : ﴿المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ ، وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله ، فبين أنه رسوله ، ونهاهم أن يقولوا ثلاثة ، وقال : انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، وهذا تكذيب لقولهم فى المسيح إنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه . ثم قال : ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ فنزه نفسه وعظمها أن يكون له ولد ، كما تقوله النصارى ، ثم قال : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ . فأخبر أن ذلك ملك له ليس فيه شئ من ذاته ، ثم قال : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ أى لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله تبارك وتعالى ، فمع هذا البيان الواضح الجلى ، هل يظن ظان أن مراده بقوله « وكلمته » أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به ، وأن قوله : ﴿ وروح منه ﴾ المراد به أنه حياته أو روح منفصلة من ذاته ..

ثم نقول أيضًا : أما قوله وكلمته ، فقد بين مراده أنه خلقه ب « كن » وفى لغة

العرب التى نزل بها القرآن يسمي المفعول باسم المصدر ، فيسمى المخلوق خلقًا لقوله : ﴿ هذا خلق الله ﴾ ويقال : درهم ضرب الأمير أى مضروب الأمير ، ولهذا يسمى المأمور به أمرًا ، والمقدور قدرة وقدرًا ، والمعلوم علمًا ، والمرحوم به رحمة .

كقوله تعالى : ﴿ وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ﴾ ، [الأحزاب : ٣٨] وقوله ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ ، [النحل : ١]

قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) : « يقول الله للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، ويقول للنار : أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ، وقال (٢) : إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة ، فيها يتراحم الخلق ويتعاطفون ، وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك ، فرحم بها الخلق » ؛ ويقال : للمطر والآيات هذه قدرة عظيمة ، ويقال : غفر الله لك علمه فيك ، أى معلومه ، فتسمية المخلوق بالكلمة كلمة من هذا الباب .

وقد ذكر الإمام أحمد فى (كتاب الرد على الجهمية) - وذكره غيره - أن النصارى الحلولية والجهمية المعطلة اعترضوا على أهل السنة ، فقالت النصارى :

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « التفسير » باب قوله تعالى وتقول هل من مزيد » (٨/٤٦٠ح٤٨٥٠) ورواه أيضاً برقم (٧٤٤٩)

ورواه مسلم فى كتاب « الجنة وصفة نعيمها » باب « النار يدخلها الجبارون » (٤/٢١٨٦ ، ٢١٨٧ح٢٨٤٦)

ورواه الترمذى فى كتاب « الجنة » باب « ما جاء فى احتجاج الجنة والنار » (٧/٢٨٢ ، ٢٨٣ح٢٦٨٦)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « التفسير » باب قوله تعالى « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » (٦/٤٦٨ ح١١٥٢٢)

(٢) « متفق عليه »

القرآن كلام الله غير مخلوق ، والمسيح كلمة الله فهو غير مخلوق ، وقالت الجهمية : المسيح كلمة الله وهو مخلوق والقرآن كلام الله فيكون مخلوقًا .

وأجاب أحمد وغيره : بأن المسيح نفسه ليس هو كلامًا ، فإن المسيح إنسان ، وبشر مولود من إمرأة ، وكلام الله ليس بإنسان ولا بشر ، ولا مولود من إمرأة، ولكن المسيح خلق بالكلام ، وأما القرآن فهو نفسه كلام الله ، فأين هذا من هذا ؟وقد قيل : أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ، وما من عاقل إذا سمع قوله تعالى فى المسيح عليه السلام إنه كلمته ألقاها إلى مريم ، ألا يعلم أنه المراد أن المسيح نفسه كلام الله ، ولا أنه صفة لله ولا خالق ، ثم يقال للنصارى : فلو قدر أن المسيح نفس الكلام ، فالكلام ليس بخالق ، فإن القرآن كلام الله ، وليس بخالق ، والتوراة كلام الله وليست بخالقة ، وكلمات الله كثيرة ، وليس منها شئ خالق ، فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجزأن يكون خالقًا ، فكيف وليس هو الكلام ، وإنما خلق بالكلمة، وخص باسم الكلمة ، فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذى خلق عليه غيره ، بل خرج عن العادة فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة بالبشر .

وقوله :﴿ بروح منه ﴾ لا يوجب أن يكون منفصلاً من ذات الله ، كقوله تعالى :﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه ﴾ ،[سورة الجاثية : ١٣].

وقوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾، [سورة النحل : ٥٣] .

=ورواه البخارى فى كتاب « الرقاق » باب « الرجاء مع الخوف » (١١/٣٠٧ح٦٤٦٩)
ورواه مسلم فى كتاب « التوبة » باب « فى سعة رحمة الله تعالى » (٤/٢١٠٨ح٢٧٥٢)
ورواه الترمذى فى كتاب « الدعوات » باب (١٠٧) (٩/٥٢٦ح٣٦٠٩)
ورواه ابن ماجه فى كتاب « الزهد » باب « ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة » (٢/١٤٣٥ح٤٢٩٣ ، ٤٢٩٤)

وقوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ، [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة * فيها كتب قيمة ﴾ ، [البينة ١-٣] .

فهذه الأشياء كلها من الله وهى مخلوقة ، وأبلغ من ذلك وح الله التى أرسلها إلى مريم ، وهى مخلوقة .

فالمسيح الذى هو روح من تلك الروح أولى أن يكون مخلوقًا ، قال تعالى : ﴿ فأسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويًا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًا ﴾، [سورة مريم : ١٧-١٩]

وقد قال تعالى : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ ،[سوة التحريم : : ١٢].

وقال : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾، [سورة الأنبياء : ٩١] . فأخبر أنه نفخ فى مريم من روحه ، كما أخبر أنه نفخ فى آدم من روحه ، وقد بين أنه أرسل إليها روحه ﴿ فتمثل لها بشراً سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك زكيًا * قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيًا * قال كذلك ، قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيًا فحمله ﴾ ، [مريم :١٧-٢٢] .

فهذا الروح الذى أرسله الله إليها ليهب لها غلامًا زكيًا مخلوق ، وهو روح القدس الذى خلق المسيح منه ومن مريم ، فإذا كان الأصل مخلوقًا فكيف الفرع الذى حصل به وهو روح القدس ؟ وقوله عن المسيح : ﴿ وروح منه ﴾ خص المسيح

بذلك لأنه نفخ فى أمه من الروح فحبلت به من ذلك النفخ ، وذلك غير روحه التى يشاركه فيها سائر البشر ، فامتاز بأن حبلت به من نفخ الروح فلهذا سمى روحًا منه .

ولهذا قال طائفة من المفسرين : روح منه ، أى رسول منه فسماه باسم الروح الرسول الذى نفخ فيها ، فكما يسمى « كلمة » يسمى « روحا » لأنه كون بالكلمة ، لاكما يخلق الآدميون غيره ، ويسمى روحا لأنه حبلت به أمه بنفخ الروح الذى نفخ فيها لم تحبل به من ذكر كغيره من الآدميين ، وعلى هذا فيقال : لما خلق من نفخ الوح ومن مريم سمى روحًا بخلاف سائر الآدميين ، فإنه يخلق من ذكر وأنثى ، ثم ينفخ فيه من الروح بعد مضى أربعة أشهر .

والنصارى يقولون فى أمانتهم : [تجسد من مريم ، ومن روح القدس] ، ولو اقتصروا على هذا وفسروا روح القدس بالملك الذى نفخ فيها ، وهو روح الله لكان هذا موافقا لما أخبر الله به ، لكنهم جعلوا روح القدس حياة الله ، وجعلوه ربًا وتناقضوا فى ذلك ، فإنه على هذا كان ينبغى فيه أقنومان : أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح .

وهم يقولون : ليس فيه إلا أقنوم الكلمة ، وكما يسمى المسيح كلمة لأنه خلق بالكلمة ، ويسمى « روحا » لأنه حل به الروح ، فإن قيل : فقد قال فى القرآن ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك ﴾ ، [الأنعام : ١١٤] وقال : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ ، [الأحقاف : ٢] .

وقد قال أئمة المسلمين وجمهورهم : [القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدا] وقال : فى المسيح ﴿ وروح منه ﴾ قيل : هذا بمنزلة سائر المضاف إلى الله إن كان عينا قائمة بنفسها أو صفة فيما كان مخلوقًا ، وإن كان صفة مضافة إلى الله كعلمه وكلامه ونحو ذلك كان إضافة صفة ، وكذلك مامنه إن كان عينًا قائمة أو صفة

قائمة تعين بغيرها كما فى السموات والأرض والنعم والروح الذى أرسلها إلى مريم ، وقال : ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ كان مخلوقًا ، وإن كان صفة لا تقوم بنفسها ولا يتصف بها المخلوق كالقرآن لم يكن مخلوقًا ، فإن ذلك قائم بالله ، وما يقوم بالله لا يكون مخلوقًا .

والمقصود هنا بيان بطلانه احتجاج النصارى ، وأنه ليس لهم فى ظاهر القرآن ولا باطنه حجة كما ليس لهم حجة فى سائر كتب الله ، وإنما تمسكوا بآيات متشابهات وتركوا المحكم ، كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ ، والآية نزلت فى النصارى فهم مرادون من الآية قطعًا ، ثم قال : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ ، وفيها قولان وقراءتان منهم من يقف عند قوله إلا الله ، ويقول : الراسخون فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه ، ولا يعلمه إلا الله .

ومنهم من لا يقف ، بل يصل بذلك قوله تعالى : ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند رربنا ﴾ [سورة آل عمران : ٧] ويقول : الراسخون فى العلم يعلمون تأويل المتشابه وكلا القولين مأثور عن طائفة من السلف ، وهؤلاء يقولون : قد يكون الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما في قوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا ﴾ ، [سورة الحشر : ١٠] . أى قائلين ، وكلا القولين حق باعتبار ، فإن لفظ التأويل يراد به التفسير ، ومعرفة معانيه. والراسخون فى العلم يعلمون تفسير القرآن ، قال الحسن البصرى: لم ينزل الله آية إلا وهو يحب أن تعلم في ماذا نزلت ، وماذا عنى بها ؟ وقد يعنى بالتأويل ما استأثر الله بعلمه من كيفية ما أخبر به عن نفسه ، وعن اليوم الآخر ، ووقت الساعة ،ونزول عيسى ، ونحو ذلك .

فهذا التأويل لا يعلمه إلا الله ، وأما لفظ التأويل إذا أريد به صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل يقترن به ، فلم يكن السلف يريدون بلفظ التأويل هذا ،

ولا هو معنى التأويل فى كتاب الله عز وجل. .

ولكن طائفة من المتأخرين خصوا لفظ التأويل بهذا ، بل لفظ التأويل فى الكتاب الله يراد به مايؤول إليه الكلام ، وإن وافق ظاهره كقوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل ﴾ ، ومنه تأويل الرؤيا كقول يوسف الصديق : ﴿ هذا تأويل رؤياى من قبل ﴾ ، وكقوله : ﴿ إلا نبأتكما بتأويله ﴾ ، [سورة يوسف : ٣٧].

وقوله : ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾، [سورة النساء : ٥٩] . وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أنه ليس للنصارى حجة لا فى ظاهر النصوص ولا باطنها ، كما قال تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ .

والكلمة عندهم هى جوهر ، وهى رب لا يخلق بها الخالق ، بل هى الخالقة لكل شئ ، كما قالوا فى كتابهم : [إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت فى مريم] ، والله تعالى قد أخبر أنه سبحانه ألقاها إلى مريم ، والرب سبحانه هوالخالق ، والكلمة التى ألقاها ليست خالقة ،إذ الخالق لا يلقيه شئ ، بل هو يلقى غيره ، وكلمات الله نوعان : كونية ، دينية .

فالكونية : كقوله للشئ كن فيكون .

والدينية : أمره وشرعه التى جاءت به الرسل ، وكذلك أمره وإرادته وإذنه وإرساله وبعثه ينقسم إلى هذين القسمين ، وقد ذكر الله تعالى تعالى إلقاء القول فى غير هذا ، وقد قال تعالى . ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ﴾ ،[سورة النساء : ٦٤].

وقال تعالى : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون * وألقوا إلى الله يومئذ

السلم ﴾ ، [سورة النحل : ٨٦، ٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم ﴾ [سورة الممتحنة : ١] .

وأما لقيته القول فلتلقاه ، فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه ، فإن هذا يقوله فيما يخاطبه به ، وإن لم يحفظه كمن ألقيت إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون ، وألقوا إليهم السلام وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم فى المخاطب ، فكذلك مريم إذا ألقى الله كلمته إليها ، وهى قول « كن » لم يلزم أن تكون نفس صفته القائمة به حلت فى مريم كما لم يلزم أن تكون صفته القائمة به حلت فى سائر من ألقى كلامه ، كما لا تحصل صفة كل متكلم فيمن يلقى إلى كلامه .

فصل فى الرد على أن فى عيسى طبيعتين

وأما قولهم : وعلى هذا المثال نقول : فى السيد المسيح طبيعتان :

طبيعة لاهوتية : التى هى طبيعة كلمة الله وروحه .

وطبيعة ناسوتية : التى أخذ من مريم العذراء واتحدت به ، فيقال لهم : كلام النصارى فى هذا الباب مضطرب مختلف مناقض ، وليس لهم فى ذلك قول اتفقوا عليه ، ولا قول معقول ولا قول دل عليه كتاب ، بل هم فيه فرق وطوائف كل فرقة تكفر الأخرى ، كاليعقوبية والملكانية والنسطورية ،ونقل الأقوال عنهم فى ذلك مضطربة ، كثيرة الاختلاف .

ولهذا يقال : لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا على أحد عشر قولا ، وذلك أن ماهم عليه من اعتقادهم من التثليث والاتحاد كما هو مذكور في أمانتهم لم ينطق به شئ من كتب الأنبياء ، ولايوجد لافي كلام المسيح ولا الحواريين ولا أحد من الأنبياء ، ولكن عندهم في الكتب ألفاظ متشابهة وألفاظ محكمة يتنازعون في فهمها ، ثم القائلون منهم بالأمانة ، وهم عامة النصارى اليوم من الملكانية

والنسطورية واليعقوبية مختلفون في تفسيرها ، ونفس قولهم متناقض يمتنع تصوره على الوجه الصحيح .

فلهذا صار كل منهم يقول ما يظن أنه أقرب من غيره ، فمنهم من يراعي لفظ أمانتهم ، وإن صرّح بالكفر الذي يظهر فساده لكل أحد كاليعقوبية ، ومنهم من يستر بعض ذلك كالنسطورية ، وكثير منهم وهم الملكانية بين هؤلاء وهؤلاء ، ولما ابتدعوا ما ابتدعوه من التثليث والحلول كان فيهم من يخالفهم في ذلك .

وقد يوجد نقل الناس لمقالاتهم مختلفًا ، وذلك بحسب قول الطائفة التي ينقل ذلك الناقل قولها ، والقول الذي يحكيه كثير من نظائر المسلمين يوجد كثير منهم على خلافه ، كما نقلوا عنهم ماذكره أبو المعالى وصاحبه أبو القاسم الأنصارى وغيرهما أن القديم واحد بالجوهر ، ثلاثة بالأقنوم ، وأنهم يعنون بالأقنوم : الوجود ، والحياة ، والعلم .

ونقلوا عنهم أن الحياة والعلم ليسا بوصفين زائدين على الذات موجودين ، بل هما صفتان نفسيتان للجوهر ، قالوا : ولو مُثّل مذهبهم بمثال لقيل : إن الأقانيم عندهم تنزل منزلة الأحال والصفات النفسية عند مثبتيها من المسلمين ، فإن سوادية اللون ولونيته صفتان نفسيتان للعرض ، قال : وربما يعبرون على الأقانيم بالأب والابن وروح القدس فيعنون بالأب الوجود وبالابن المسيح والكلمة ، وربما سموا العلم كلمة ، والكلمة علمًا ، ويعبرون عن الحياة بالروح ، قال : ولايريدون بالكلمة الكلام ، فإن الكلام عندهم من صفات الفعل ، ولايسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح واتحاده به ابنًا ، بل المسيح عندهم مع ماتدرع به ابن ، قالوا : ومن مذهبهم أن الكلمة اتحدت بالمسيح وتدرعت بالناسوت ، ثم اختلفوا في معنى الاتحاد فمنهم من فسره بالاختلاط والامتزاج ، وهذا مذهب طوائف من اليعقوبية والنسطورية والملكانية ، قالوا : إن الكلمة خالطت جسد المسيح ، ومازجتة كما مازج الخمر الماء أو اللبن ، قالوا : وهذا مذهب الروم ومعظمهم الملكانية ، قالوا : فمازجت الكلمة جسد المسيح

فصارت شيئًا واحدًا وصارت الكثرة قلة .

وذهبت طائفة من اليعاقبة إلى أن الكلمة انقلبت لحمًا ودمًا قالوا : وصارت شرذمة من كل صنف إلى أن المراد بالاتحاد ظهور اللاهوت على الناسوت ، كظهور الصورة في المرآة ، والنقش في الخاتم .

ومنهم من قال : ظهور اللاهوت على الناسوت كاستواء الإله على العرش عند المسلمين ، وذهب كثير من هذه الطوائف إلى أن المراد بالاتحاد الحلول ، قالوا وقد اختلفوا أيضًا في الجواهر والأقانيم فذهبت اليعقوبية والنسطورية إلى أن الجوهر ليس بغير الأقانيم .

ولا يقال : إنه هي ، صرحت الملكانية بأنه غير الأقانيم ، وآخرون قالوا : هو الأقانيم ، قالوا : وافترقت النصارى من وجه آخر ، فذهبت الروم إلى التصريح بإثبات ثلاثة آلهة ، وامتنعت اليعقوبية والنسطورية من ذلك في وجه والتزموه من وجه ، وذلك أنهم قالوا : الكلمة إله ، والروح إله ، والأب إله ، والثلاثة الأقانيم التى كل أقنوم إله ، إله واحد ، قالوا : وذهبت شرذمة من النصارى إلى أن عيسى كان ابنًا لله على جهة الكرامة ، فكما اتخذ إبراهيم خليلاً ، كذلك اتخذ عيسى ابنًا قالوا : وهؤلاء يقال لهم : الأريوسية . فهذا نقل طائفة من نظار المسلمين ، وهذا قول لمن قاله من النصارى ، وفيه ماهو مخالف لصريح أمانتهم ، وماعليه جمهورهم مثل قوله : إنهم لايسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح ابنًا ، بل المسيح مع ماندرع به ابن ، فإن هذا خلاف ماعليه فرق النصارى من الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، وخلاف ماتضمنته أمانتهم ، إذ صرحوا فيها بأن الكلمة ابن قديم أزلى مولود قبل الدهور ، وهذا صفة اللاهوت عندهم ، وفيها أشياء بقولها بعض النصارى لا كلهم ، وكذلك نقلهم عنهم أنهم لايريدون بالكلمة الكلام ، فإن الكلام عندهم صفة فعل ، وهذا قول طائفة منهم ومن اليهود ، وكثير منهم أو أكثرهم يقولون : إن كلام الله غير مخلوق وينكرون على من يقول : إنه مخلوق ، ونقلت طائفة أخرى منهم أبو الحسن بن

الزاغوني عنهم مايوافق هذا من وجه دون وجه ، فقالوا : اتفقت طوائف النصارى على أن الله ليس بجسم ، واتفقوا على أنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم ، وأن كل واحد من الأقانيم جوهر خاص يجمعها الجوهر العام ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : إن الأقانيم مختلفة في الأقنومية ، متفقة في الجوهرية .

وقال آخرون : ليست مختلفة في الأقنومية ، بل متغايرة ، وقال فريق منهم :

إن كل واحد منها لاهو الآخر ولاهو غيره وليست متغايرة ولامختلفة ، وزعموا أن الجوهر ليس هو غيرها إلا ماذكر عن طائفة من الملكانية ، فإنهم قالوا : إن الأقانيم هى الجوهر ، وإن الجوهر غير الأقانيم ، وزعموا أن الجوهر هو الأب والأقانيم الحياة وهي روح القدس والقدرة والعلم ، وأن الله اتحد بأحد الأقانيم الذي هو الابن بعيسى ابن مريم ، وكان مسيحًا عند الاتحاد لاهوتًا وناسوتًا حمل ، وولد ، ونشأ ، وقتل ، وصلب ، ودفن .

واختلفوا أيضًا فقالت النسطورية : إن المسيح جوهران أقنومان قديم ومحدث ، وأن اتحاده إنما هو بالمشيئة ، وأن مشيئتهما واحدة ، وإن كانا جوهرين .

وقالت اليعقوبية : لما اتحدا صار الجوهران : الجوهر القديم والجوهر المحدث جوهراً واحداً .

واختلفوا هاهنا فقال بعضهم : الجوهر المحدث صار قديمًا . وزعم آخرون أنهما لما اتحدا صارا جوهراً واحداً قديمًا من وجه محدثًا من وجه .

وقالت الملكانية : إن المسيح جوهران أقنوم واحد . وحكى عن بعضهم أنه أقنومان جوهر واحد ، وقال الأريوسية : إن الله ليس بجسم ولا أقانيم له ، وأن المسيح لم يصلب ولم يقتل ، وأنه نبي وحكى عن بعضهم أنه قال : المسيح ليس بابن لله ، وحكى عن بعضهم أنه ابن لله على التسمية والتقريب .

واختلفوا في الكلمة الملقاة إلى مريم ، فقالت طائفة منهم : إن الكلمة حلت في

مريم حلول الممازجة ، كما يحل الماء في اللبن فيمازجه ويخالطه ، فقالت طائفة منهم : إنها حلت في مريم من غير ممازجة ، كما أن شخص الإنسان يحل في المرآة ، وفي الأجسام الصقيلة من غير ممازجة .

وزعمت طائفة من النصارى أن الناسوت مع اللاهوت كمثل الخاتم مع الشمع يؤثر فيه بالنقش ، ثم لايبقى منه شئ إلا أثره ، قالت هذه الطائفة وأبو الحسن بن الزاغوني ، ومن معه ، واختلفت النصارى في الأقانيم ، فقال قوم منهم : هي جواهر ، وقال قوم : هي خواص ، وقال قوم : هي صفات ، وقال قوم : هي أشخاص ، والأب عندهم الجوهر الجامع للأقانيم ، والابن هو الكلمة التي اتحدت عند مبدأ المسيح ، والروح هي الحياة ، واجتمعوا على أن الاتحاد صفة فعل ، وليس بصفة ذات .

قالوا : واختلف قولهم في الاتحاد اختلافًا متباينًا ، فزعم قوم منهم أن الاتحاد هو : أن الكلمة التي هي الابن حلت جسد المسيح ، وقيل : هذا قول الأكثرين منهم .

وزعم قوم منهم أن الاتحاد : هو الاختلاط والامتزاج ، وقال قوم من اليعقوبية : هو أن كلمة الله انقلبت لحمًا ودمًا بالاختلاط ، وقال كثير من اليعقوبية والنسطورية : الاتحاد هو أن الكلمة والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط الماء بالخمر وامتزاجهما ، وكذلك الخمر باللبن .

وقال قوم منهم : الاتحاد هو أن الكلمة والناسوت اتحدا فصار هيكلاً واحدًا .

وقال قوم منهم : الاتحاد مثل ظهور صورة الإنسان في المرآة ، وكظهور الطابع في المطبوع مثل الخاتم في الشمع ، وقال قوم منهم : الكلمة اتحدت بجسد المسيح على معنى أنها حلته من غير مماسة ولاممازجة ، كما نقول : الله في السماء على العرش من غير مماسة ولاممازجة ، وكما نقول : إن العقل جوهر حال في النفس من غير مخالطة للنفس ولامماسة لها ، وقالت الملكانية : الاتحاد أن الاثنين صارا واحدًا ، وصارت

الكثرة قلة .

وهذا الذي نقله عنهم أبو الحسن الزاغواني هو نحو مانقله عنهم القاضي أبوبكر بن الطيب ، والقاضي أبو يعلى وغيرهما . وقال أبو محمد بن حزم : النصارى فرق منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالإسكندرية ومن قوله : التوحيد المجرد ، وأن عيسى عبد مخلوق . وأنه كلمة الله التي بها خلق السموات والأرض ، وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية ، وأول من تنصّر من ملوك الروم ، وكان على مذهب أريوس هذا .

قال : ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي ، وكان بطريار كاً بأنطاكية قبل ظهور الإسلام ، وكان قوله بالتوحيد المجرد الصحيح ، وأن عيسى عبدالله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر ، وأنه إنسان لا إلهية فيه ألبتة ، وكان يقول : لا أدرى ما الكلمة ولا روح القدس ، قال : وكان منهم أصحاب مقدنيوس كان بطرياركا بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين ابن قسطنطين باني القسطنطينية ، وكان هذا الملك أريوسيا كأبيه وكان من قول مقدنيوس هذا التوحيد المجرد ، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق إنسان نبى رسول كسائر الأنبياء عليهم السلام ، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله ، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان خلق الله كل ذلك ، قال : وكان منهم البرابرانية ، وهم يقولون : إن عيسى وأمه إلهان من دون الله تعالى ، قال : وهذه الفرق قد بادت وعمدتهم اليوم ثلاث فرق ، وأعظمها فرق الملكانية ، وهي مذهب جميع ملوك النصارى حيث كانوا حاشا الحبشة والنوبة ، ومذهب عامة أهل مملكة النصارى حاشا النوبة والحبشة ، ومذهب جميع نصارى أفريقية ، وصقلية ، والأندلس ، وجمهور الشام ، وقولهم إن الله ـ تعالى الله عن قولهم ـ ثلاثة أشياء : أب ، وابن ، وروح القدس كلها لم تتنزل ، وأن عيسى إله تام كله وإنسان تام ليس أحدهما غير الآخر ، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل ، وأن الإله منه لم ينله شئ من

ذلك ، وأن مريم ولدت الإله والإنسـان ، وأنهما معا شئ واحـد ابن الله ــ تعالى الله عن كفرهم .

وقالت النسطورية مثل ذلك سواء بسواء إلا أنهم قالوا : إن مريم لم تلد الإله ، وإنما ولدت الإنسـان وإن الله لم يلد الإنسـان وإنما ولد الإله ــ تعـالى الله عن كـفـرهم ــ وهذه الفـرقـة غـالبـة على الموصل والعـراق وفـارس وخـراسـان ، وهـم منسـوبين إلى نسطور ، وكان بطرياركاً بالقسطنطينية .

وقالت اليعقوبية : إن المسيح هـو الله نفسه ، وأن اللـه ـ تعالى عن عظيم كـفرهم ـ مـات وصلب وقتل ، وأن الـعالم بقى ثلاثة أيـام بلامدبر ، والفلـك بلامدبر ، ثم قـام ورجع كمـا كان والله عاد محـدثًا ، والمحدث عاد قديمًا ، وأنه ـ تعـالى ـ هو كان في بطن مريم محمولا به ، وهم في أعمال مصـر وجميع النوبة ، وجميع الحبشة ، وملوك الأمتين المذكورتين .

ومن أعلم الناس بمقـالاتهم من كان من علمـائهم ، وأسلم على بصيـرة بعد الخبرة بكتبهم ومـقالاتهم ، كالحسن بن أيوب ، الذي كتب رسـالة إلى أخيه على بن أيوب يذكـر فيـها سـبب إسلامـه ، ويذكر الأدلة على بطلان دين النصـارى ، وصحـة دين الإسلام ، قال في رسالتـه إلى أخيه لما كتب إليه يسأله عن سبب إسـلامه بعد أن ذكر خطبتـه : « ثم أعلمك أن ابتـداء أمرى في الشك الذي دخلني فيـمـا كنت عليـه ، والاستـبشـاع للقول به من أكثـر من عشـرين سنة ، لما كنت أقف عليه في المـقالة من فساد التـوحيد لله عز وجل بما أدخل فيـه من القول بالثلاثة أقانيم وغيـرها مما تضمنته شـريعـة النصـارى ، ووضع الاحتـجـاجـات التي لاتزكـو ولاتثبت في تنوير ذلك ، وكنت إذا تبـحرته وأجلت الفكر فـيه بان لي عـواره ونفرت نفـسي من قبـوله ، وإذا فكرت في دين الإسـلام الذي مَنَّ الله عـلـى به وجـدت أصـوله ثابتـــة ، وفروعـه مستقيمة ، وشرائعه جميلة .

وأصل ذلك لايختلف فـيه أحد ممن عـرف الله عز وجل منكم ومن غـيركم ، وهو

الإيمان بالله الحي القيوم ، السميع البصير ، الواحد الفرد ، الملك القدوس ، الجواد العدل إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وإله عيسى وموسى ، وسائر النبيين ، والخلق أجمعين ، الذي لا ابتداء له ، ولا انتهاء ولاضد ولاند ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، الذي خلق الأشياء كلها لا من شئ ولا على مثال ، بل كيف شاء وبأن قال لها : كوني ، فكانت على ما قدر وأراد وهو العليم القدير ، الرؤوف الرحيم ، الذي لايشبهه شئ ، وهو الغالب فلا يغلب ، والجواد فلا يبخل ، ولايفوته مطلوب ، ولا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور ، ومايلج في الأرض ومايخرج منها ، ومايتزل من السماء ومايعرج فيها ، فكل مذكور أو موهوم هو منه ، وكل ذلك به ، وكل له قانتون ثم نؤمن بأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، ونؤمن بموسى وعيسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ، لانفرق بين أحد منهم ، ونؤمن بالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وسائر الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ، ﴿ وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ﴾ ، ﴿ إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم * يصلونها يوم الدين ﴾ ، ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ : [سورة آل عمران : ١٨٢] .

قال : وكان يحملني إلف ديني ، وطول المدة والعهد عليه ، والاجتماع مع الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأقارب والإخوان والجيران وأهل المودات على التسويف بالعزم والتلبث عن إبرام الأمر ، ويعرض مع ذلك الفكر في إمعان النظر والازدياد في البصيرة فلم أدع كتاباً من كتب أنبياء التوراة والإنجيل والزبور ، وكتب الأنبياء والقرآن إلا نظرت فيه وتصفحته ، ولا شيئًا من مقالات النصرانية إلا تأملته ، فلم أجد للحق مدفعًا ، ولا للشك فيه موضعًا ، ولا للأناة والتلبث وجهًا ، خرجت مهاجرًا إلى الله عز وجل بنفسي ، هاربا بديني عن نعمة وأهل مستقر ومحل وعز ومتصرف في عمل ، فأظهرت ما أظهرته عن نية صحيحة وسريرة صادقة ، ويقين

ثابت ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وإياه نسأل أن لايزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب . قال : ولما نظرت في مقالات النصارى وجدت صنفًا منهم يعرفون بالأريوسية يجردون توحيد الله ويعترفون بعبودية المسيح عليه السلام ، ولايقولون فيه شيئًا مما يقول فيه النصارى من ربوبية ولابنوة خاصة ولاغيرهما ، وهم متمسكون بإنجيل المسيح مقرون بما جاء به تلاميذه ، والحاملون عنه .

فكانت هذه الطبقة قريبة من الحق ، مخالفة لبعضه في جحود نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ودفع ماجاء به من الكتاب والسنة ، قال : ثم وجدت منهم صنفًا يعرفون باليعقوبية ، ويقولون : إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين : إحداهما طبيعة الناسوت ، والأخرى طبيعة اللاهوت ، وأن هاتين الطبيعتين : تركبتا كما تركبت النفس مع البدن فصارتا إنسانًا واحدًا ، وجوهرًا واحدًا ، وشخصًا واحدًا . وإن هذه الطبيعة الواحدة ، والشخص الواحد هو المسيح وهو إله كله ، وإنسان كله ، وهو شخص واحد ، وطبيعة واحدة من طبيعتين .

وقالوا : إن مريم ولدت الله ـ تعالى الله عما يقولون ـ وإن الله مات وتألم وصلب متجسدًا ودفن وقام من بين الأموات ، وصعد إلى السماء فجاءوا من القول بما لو عرض على السماء لانفطرت ، أو على الأرض لانشقت ، أو على الجبال لانهدت فلم يكن لمحاجة هؤلاء وجه ، إذ كان كفرهم بما صرحوا به أوضح من أن يقع فيه الشك ، وكان غيرهم من النصارى كالملكانية والنسطورية يشهدون بذلك عليهم .

قال : ثم نظرت في قول الملكانية وهم الروم ، وهم أكثر النصارى فوجدتهم قالوا : إن الابن الأزلي الذي هو الله الكلمة تجسد من مريم تجسدًا كاملا كسائر أجساد الناس ، وركب في ذلك الجسد نفسًا كاملة بالعقل والمعرفة والعلم كسائر أنفس الناس ، وأنه صار إنسانًا بالنفس والجسد اللذين هما من جوهر الناس ، وإلها بجوهر

اللاهوت ، كمثل أبيه لم يزل وهو إنسان بجوهر الناسوت ، مثل إبراهيم وداود وهو شخص واحد لم يزد عدده ، وثبت له جوهر اللاهوت ، كما لم يزل وصح له جوهر الناسوت الذي لبسه من مريم ، وهو شخص واحد لم يزد عدده ، وطبيعتان ، ولكل واحد من الطبيعتين مشيئة كاملة ، فله بلاهوته مشيئة مثل الأب والروح ، وله بناسوته مشيئة مثل مشيئة إبراهيم وداود .

وقالوا : إن مريم ولدت إلهًا ، وأن المسيح ، وهو إسم يجمع اللاهوت والناسوت مات ، وقالوا : إن الله لم يمت والذي ولدت مريم قد مات بجوهر ناسوته ، فهو إله تام بجوهر لاهوته ، وإنسان تام بجوهر ناسوته ، وله مشيئة اللاهوت ومشيئة الناسوت ، وهو شخص واحد ، لانقول شخصان لئلا يلزمنا القول بأربعة أقانيم ، قال : فهؤلاء أتوا من ذلك بمثل ماأتت به اليعقوبية في ولادة مريم ـ تعالى الله عما يقول الظالمون ـ قالوا : إن المسيح ـ وهو اسم لاتشك جماعة النصارى أنه واقع على اللاهوت والناسوت ـ مات ، وأن الله لم يمت ، فكيف يكون ميت لم يمت ، وقائم قاعد في حال واحد ؟ وهل بين المقالتين فرق إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع ؟

قال : ثم نظرت في قول النسطورية فوجدتهم قالوا : إن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة ، وأن طبيعة اللاهوت التي للمسيح غير طبيعة ناسوته وأن طبيعة اللاهوت لما توحدت بالناسوت بشخصها الكلمة التي صارت الطبيعتان بجهة واحدة ، وإرادة واحدة واللاهوت لايقبل زيادة ولانقصاناً ، ولايمتزج بشئ والناسوت يقبل الزيادة والنقصان ، فكان المسيح بتلك إلهًا وإنسانًا ، فهو إله بجوهر اللاهوت الذي لايزيد ولاينقص ، وهو إنسان بجوهر الناسوت القابل للزيادة والنقصان .

وقالوا : إن مريم ولدت المسيح بناسوته ، وإن اللاهوت لم يفارقه قط منذ توحدت بناسوته .

وقال : فوجدنا اليعقوبية قد صرحوا بأن مريم ولدت الله ـ تعالى عما يصفه المبطلون ، ويقوله العادون ـ وأنه تألم وصلت ومات ، وقام بعد ثلاثة أيام من بين الموتى وهذا الكفر الذي تشهد به عليهم سائر ملل النصارى وغيرهم ؛ ووجدنا الملكانية قد حادوا عن هذا التصريح إلى ماهو دونه في الظاهر ، فقالوا : إن المسيح شخص واحد وطبيعتان ، فلكل واحدة من الطبيعتين مشيئة ، فله بلاهوته مشيئة مثل الأب والروح ، وله بناسوته مشيئة كمشيئة إبراهيم وداود . وأوهموا الواقف على قولهم أنهم مما اخترعوه من هذا الاختيار قد فرقوا بين اللاهوت والناسوت . ثم عادوا إلى قول اليعقوبية فقالوا : إن مريم ولدت إلها ، وأن المسيح وهو اسم يجمع بين اللاهوت والناسوت عند جماعتهم لايشكون في ذلك مات بالجسد ، وأن الله لم يمت والذي قد ولدته مريم قد مات بجوهر ناسوته ، فكيف يكون ميت لم يمت ؟ وهل بين المقالتين إلا مااختلفوا فيه من الطبائع فرق ؟ أو إذا كانوا قد اعترفوا بأن مريم ولدت الله ، وأن الذي ولدته مريم ، وهو المسيح الاسم الجامع للجوهرين ، اللاهوت والناسوت قد مات فهل وقعت الولادة والموت وسائر الأفعال ، التي تحكى النصارى أنها فعلت بالمسيح إلا عليهما فكيف يصح الذي عقل عبادة مولود من إمرأة بشرية قد مات ونالته العلل والآفات ؟ قلت : ومما يوضح تناقضهم أنهم يقولون : إن المسيح وهو اللاهوت والناسوت شخص واحد وأقنوم واحد ، مع قولهم إنهما جوهران بطبيعتين ومشيئتين فيثبتون للجوهرين أقنوماً واحداً ، ويقولون : هو شخص واحد ، ثم يقولون : إن رب العالمين إله واحد ، وجوهر واحد ، وهو ثلاثة أقانيم ، فيثبتون للجوهر الواحد ثلاثة أقانيم ، وللجوهرين المتحدين أقنوماً واحداً ، مع أن مشيئة الأقانيم عندهم واحدة ، والناسوت واللاهوت يثبتون لهما مشيئتين وطبيعتين .

ومع هذا هما عندهم شخص واحد ، وأقنوم واحد ، وهذا يقتضى غاية التناقض ، فسواء فسروا الأقنوم بالصفة ، أو الشخص ، أو الذات مع الصفة ، أو أي شئ قالوه ، وهو يبين أن الذين تكلموا بهذا الكلام ما تصوروا ماقالوه ، بل كانوا ضلالا جهالا ،

بخلاف مايقوله الأنبياء فإنه حق ، فلهذا لايوجد عن المسيح ، ولاغيره من الأنبياء مايوافق قولهم في التثليث ، والأقانيم والاتحاد ، ونحو ذلك مما ابتدعوه بغير سمع وعقل ، بل ألقوا أقوالاً مخالفة للشرع والعقل .

ثم قال الحسن بن أيوب : ثم وجدنا النصارى المعروفين بالنسطورية ، قد خالفوا اليعقوبية والملكانية في قولهم بشخصين لهما مشيئة واحدة ، وأن الطبيعتين اتحدتا فصارتا بجهة واحدة ، ثم عادوا إلى شبيه قولهم في أن مريم ولدت المسيح ، فإذا كانت ولدت المسيح فقد لزمهم ووجب عليهم الإقرار بأنها ولدت هذا اللاهوت والناسوت المتحدين .

وقد رجع المعنى إلى قول اليعقوبية إلا أنهم اختاروا لذلك ألفاظًا زوّقوها وقدروا بها التمويه على السامع ، ولم يصرحوا بالقول كتصريح اليعقوبية ، لأن المتحد بالشئ هو الممازج له والمجتمع معه حتى صار الذي مازجه وهو شيئًا واحدًا ، ثم أكدوا القول بإقرارهم أن الناسوت منذ اتحد باللاهوت لم يفارقه ، فما لم يفارق الشئ ، هل هو إلا أن يجري مجراه في سائر متفرقاته من ضر ونفع ، وخير وشر ، وحاجة وغنى .

قال : وأما قولهم : إن مريم ولدت المسيح بناسوته فهذه أغلوطة ، وإلا فكيف يولد ولد متحد بشئ آخر مجامع له دون ذلك الشئ ؟ وكيف يكون ذاك ، وهم يقولون : إنه لم يفارقه قط ! وهل يصح هذا عند أهل النظر أو ليس الحكم عند كل ناظر ؟ ومن كل ذي عقل يوجب أن تكون الولادة واقعة على اللاهوت والناسوت معًا بمعنى الاتحاد ، وبمعني الاسم الجامع للاهوت والناسوت وهو المسيح .

وكذلك الحمل بهما جميعًا وأن يكون البطن قد حواهما ، قال : فإن لجوا في الباطل ، ودافعوا عن قبيح هذه المقالة ، ومالوا إلى تحسينها بالتمويهات المشككة لمن قصرت معرفته فنحن نقيم عليها شاهدًا من أنفسهم لايمكنهم دفعه ، وذلك أن شريعة

إيمانهم التي ألفها لهم رؤساؤهم من البطاركة والمطارنة والأساقفة والأحبار في دينهم وذوي العلم منهم بحضرة الملك ، عند اجتماعهم من آفاق الأرض بمدينة قسطنطينة ، وكانوا ثلثمائة وثمانية عشر رجلاً ، يصفون أنهم نطقوا بها بروح القدس ، وهي التي لم تختلف جماعتهم عند اختلافهم في المغالاة فيها ، ولايتم لهم قربان إلا بها على هذا النسق الذي تبينه [نؤمن بالله الأب ، مالك كل شئ ، صانع مايرى وما لايرى ، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها ، وليس بمصنوع ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شئ ، الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وصار إنسانًا وحبل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب أيام قيطوس بن بيلاطوس ودفن وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجئ تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ، ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه روح ومجيئه وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة واحدة قديسية سليخية جاثليقية ، وبقيامة أبداننا ، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين] .

قال : فهذه الشريعة يجتمع على الإيمان بها ، وتبذل المهج فيها ، وإخراج الأنفس دونها جماهيرهم من الملكانية واليعقوبية والنسطورية .

وقد اعترفوا فيها جميعًا بأن الرب المسيح الذي هذه صفته على ما اقتصصناه منها الإله الحق من الإله الحق ، نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنسانًا وحبل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب ، قال : فهل في هذا الإقرار شبهة أو علقة يتعلق بها المعنت المدافع عن الحجة ؟ فتدبروا هذا القول يامعشر النصارى ، فإنه لايمكن أحدًا منكم أن يخرج عنه ، ولا أن يدفع ماصرح به فإنكم إن قلتم إن المقتول المصلوب هو الله ، فمريم على قولكم ولدت الله ـ سبحانه وتعالى عما يقولون ـ وإن قلتم إنه إنسان فمريم ولدت إنسانًا وفي ذلك أجمع بطلان شريعة إيمانكم

فاختاروا أي القولين شئتم ، فإن فيه نقض الدين .

قال : وقد يجب على ذوي العقول أن تزجرهم عقولهم عن عبادة إله ولدته مريم ، وهي إمرأة آدمية ، ثم مكث على الأرض ثلاثين سنة ، تجري عليه أحكام الآدميين من غذاء وتربية ، وصحة وسقم ، وخوف وأمن ، وتعلم وتعليم لايتهيأ لكم أن تدعوا أنه كان منه في تلك المدة من أسباب اللاهوتية شئ ، ولا له من أحوال الآدميين كلها من حاجتهم وضروراتهم وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم مخرج ، ثم أحدث بعد هذه المدة الطويلة ما أحدثه من إظهار أمر الله تعالى ، والنبوات والآيات الباهرة المعجزة بقوة الله تعالى ، وقد كان في غيره من الأنبياء مثلها وما هو أعلا منها ، فكانت مدته في ذلك أقل ثلاث سنين ، ثم انقضى أمره بما يصفون أنه انقضى به ، وينسبونه إليه من حبس وضرب وقذف وصلب وقتل فهل تقبل العقول مايقولون من أن إلهًا نال عباده منه مثل ماتذكرون أنه نيل منه ؟ فإن تأولتم أن ذلك حلّ بالجسم ، وليس بالقياس يحتمل ذلك لما شرحناه من معنى اتحاد اللاهوت به ؛ فليس قد وقع بجسم توحدت اللاهوتية به ، وحلت الروح فيه ، وقد أنجبه الله على ماتزعمون وتصفون لخلاص الخلق ، وفوض إليه القضاء بين العباد في اليوم الذي تجتمع فيه الأولون والآخرون للحساب ، وقد وجدناكم تؤثرون أخبارًا في قوم عرضوا التوابيت فيها شهد لكم بأن الأيدي التي بسطت إليها جفت أو هل نال أحدًا من الجزع والهلع والغم والقلق والتضرع إلى الله في إزالة ماحل به ، مثل مايحكي في الإنجيل أنه ناله ، ووجدنا الكتب تنبئ بأنه نيل من جورجيس ـ أحد من كان على دين المسيح صلى الله عليه وسلم ـ من العذاب الشديد بالقتل والحرق والنشر بالمناشير ما لم يسمع بمثله في أحد من الخلق ، ونال خلقًا كثيرًا من تلامذته أيضًا عذاب شديد .

وقيل : لما كان الملوك المحاربون لهم يسومونهم إياه من الرجوع عن أديانهم إلى الكفر الذي كان أولئك الملوك عليه فصبروا على ذلك ، واحتسبوا أنفسهم ، فلم يهربوا من الموت ، وقد كان يمكنهم الهرب من بلد إلى بلد ، والإستتار وإخفاء

أشخاصهم ، وما أظهروا في حال من تلك الأحوال جزعًا ولا هلعًا ، وهم بعض الآدميين التابعين له ، لأنه خفف عنهم ما كانوا ينالون به بتأييد الله عز وجل إياهم .

قال : ثم نقول قولاً آخر : قد يستدل على صحة هذه الشريعة من سقمها بأربعة أوجه ، لايقع في شئ منها شك ولاطعن ، ولازيادة ولانقصان ، وهي أصل أمر المسيح عندكم .

فأولها : البشرى التى أتى بها جبريل عليه السلام .

والثانية : قول يحيى بن زكريا الذي شهد له المسيح بأنه لم تقم النساء عن مثله .

والثالثة : النداء المسموع من السماء .

والرابعة : قول المسيح عن نفسه حين سأله يحيى عن شأنه ، والذي قال جبريل على ماثبت في إنجيلكم لمريم حين بشرها : [السلام عليك أيتها الممتلئة نعما ربنا معك أيتها المباركة في النساء ، فلما رأته مريم ذعرت منه ، فقال : لاترهبي يامريم فقد فزت بنعمة ربك فها أنت تحبلين وتلدين ابنا ، وتسميه يسوع ويكون كبيراً ويسمى ابن الله العلى ، ويعطيه الرب كرسي أبيه داود . ويكون ملكا على آل يعقوب إلى الأبد ، فقالت مريم : أنى يكون لي ذلك ولم يمسسني رجل ، قال لها الملك : إن روح القدس يأتيك ، أو قال يحل فيك وقوة العلي تحبلك ، من أجل ذلك يكون الذي يلد منك قديسًا ويسمى ابن الله العلى] . قال : فلم تر الملك قال لها : إن الذي تلدين ، وهو خالقك هو الرب كما سميتموه ، بل أزال الشك في ذلك بأن قال : [إن الله الرب يعطيه كرسي أبيه داود ، ويصطفيه ويكرمه ، وأن داود النبي أبوه ، وأنه يسمى ابن الله] وما قال أيضًا : [إنه يكون ملكا على الأرض] وإنما جعل له الملك على بنى إسرائيل فقط ، وقد علمتم أن من يسمى بابن الله كثير لايحصون ، فمن ذلك إقراركم بأنكم جميعًا أبناء الله بالمحبه وقول المسيح : [أبى وأبوكم ، وإلهى وإلهكم] في غير موضع من الإنجيل ثم تسمية الله يعقوب وغيره

بنيه خصوصاً ، فالسبيل في المسيح إذ لم تلحقوه في هذا الإسم بالجمهور أن يجري في هذه التسمية مجري الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار ، ونسبه الملك إياه إلى أبيه داود تحقق أن أباه داود ، وأن التسمية الأولى على جهة الاصطفاء والمحبة ، وأن حلول الروح عليه على الجهة التي قالها « متى » التلميذ للشعب عن المسيح في الإنجيل : [لستم أنتم متكلمين ، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم] .

فأخبر أن الروح تحل في القوم أجمعين ، وتتكلم فيهم ، وقال الملك في بشارته لمريم بالمسيح عليه السلام : إنه يكون ملكاً على آل يعقوب ، فخص آل يعقوب بتملكه عليهم دون غيرهم من الناس ، ولم يقل إنه يكون إلهًا للخلائق ، ومعنى قول جبريل عليه السلام لمريم : [ربنا معك] مثل معنى قول الله عز وجل لموسى وغيره من الأنبياء : ﴿ إني معكم ﴾ فقد قال ليوشع بن نون : [إني أكون معك ، كما كنت مع موسى عبدي] . فقول النصارى كلهم في مجارى لغتهم ومعاني ألفاظهم إن الله عز وجل وروح القدس مع كل خطيب وراهب وفاضل في دينه على هذه السبيل .

قال : وأما النداء الذي سمعه يحيى بن زكريا من السماء في المسيح ، وشهادة يحيى له فإن « متى » قال في إنجيله : [إن المسيح عليه السلام لما خرج من الأردن ، تفتحت له السماء ، فنظر يحيى إلى روح القدس قد نزلت على المسيح كهيئة حمامة ، وسمع نداء من السماء : إن هذا ابني الحبيب الذي اصطفيته] .

وقد علمنا وعلمتم أن المصطفى مفعول ، والمفعول مخلوق ، وليس يستنكف المسيح عليه السلام من الاعتراف بذلك عن الاعتراف بذلك في كل كلامه مازال يقول : [إلهي إلهكم وأبي أبيكم] ، وكلما يصحح به أنه عبد مرسل مربوب مبعوث مأمور يؤدى ماسمع ويفعل ما حد له ، ونحن نشرح هذا في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

ثم قال : وقد وجدنا المسيح عليه السلام ، احتاج إلي تكميل أمره بمعموديه يحيى له فصار إليه لذلك وسأله إياه فليس مرتبة المقصود بدون مرتبة القاصد الراغب ، وقال « لوقا » التلميذ في إنجيله [إن يحيى المعمداني أرسل إلى المسيح بعد أن عمده وسأله : أنت ذلك الذي تجئ أو تتوقع غيرك ؟] فكان جواب المسيح لرسله أن [أرجعوا فأخبروه بما ترون من عميان يبصرون ، وزمن ينهضون ، وصم يسمعون ، فطوبي لمن لم يغتر بي ، أو يزل في أمري] .

قال : فوجدنا يحيى مع محله وجلالة قدره عند الله عز وجل ، ثم ماشهد به المسيح له من أنه ما قامت النساء عن مثله قد شك فيه فاحتاج إلى أن يسأله عن شأنه ، ثم لم يكن من جواب المسيح له بشئ مما تصفون من الربوبية ، ولا قال : إني خالقك وخالق كل شئ ، كما في شريعة إيمانكم ، بل حذر الغلط في أمره والاغترار ، ولا كان من قوله أكثر مما ذكر أنه أظهره بنبوته من هذه الآيات التي يسبق إلى مثلها أكثر الأنبياء .

قال : ولا رأينا يحيى زاد في وضعه إياه لما قرظه وأعلاه ذكره مع تشككه في أمره وحاجته إلى مسألته عن حاله إلى أن قال : [هو أقوى مني ، وأني لا أستحق أن أحل معقد خفه] ولم يقل : إنه خالقي ، وقد يقول الرجل : الخير فيمن هو دونه مثل الذي قال يحيى فيه تواضعاً لله وخشوعاً ، كما قال المسيح في يحيى : [إنه ماقامت النساء عن مثله] .

قال : فتركتم ما أتت به الرسل والنبوات في المسيح وهو أصلكم الذي وقع عليه أبناؤكم ، وجعلتم لأنفسكم شريعة غيرها ، ومثل الذين عقدوا هذه الشريعة لكم مثل من آمن بنبوة رجل ينتفي من النبوة ، لأن المسيح عليه السلام يقول : إنه مربوب مبعوث ، يقول جبريل : إنه مكرم مصطفى ، وأن أباه داود ، وأن الله جعله ملكا على آل يعقوب ، ينادي مناد من السماء بمثل ذلك ، ويشهد يحيى ابن زكريا على مثله ، ويقولون : بل هو خالق أزلي إلا أنه يستر نفسه ، ويقول المسيح وغيره ممن

سمينا أنه معطي وأن الله معطيه ، ويقولون : بل هو رازق النعم وواهبها ، ويقول : إن الله أرسله ، وتقولون : بل هو الذي نزل لخلاصنا ، وتعتقدون سبب نزوله من السماء أنه أراد أن يخلصكم ، ويحتمل الخطيئة ، ويربط الشيطان فقد وجدنا الخلاص لم يقع ، قائمة لم تزل ، والشيطان أعتى ماكان لم يربط ، بل سلطه الله عليه على ماتقولون ، فحصره في الجبل أربعين يومًا يمتحنه ، وقال له في بعض أحواله معه : [إن كنت ابن الله فقل لهذه الصخور تصير خبزًا ، فقال له المسيح مجيبًا له : إنه مكتوب أن حياة الإنسان لاتكون بالخبز ، بل بكل كلمة تخرج من الله ، ثم ساقه الشيطان إلى مدينة بيت المقدس ، وأقامه على قرنه الهيكل ، وقال له : إن كنت ابن الله فارم بنفسك من هاهنا ، فإنه مكتوب إن الملائكة توكل بك ، لئلا تعثر رجلك بالحجر] .

قال يسوع ومكتوب أيضًا : [لاتجرب الرب إلهك]، ثم ساقه إلى جبل عال ، وأراه جميع مملكات الدنيا وزخارفها ، وقال له : إن خررت على وجهك ساجدًا لي جعلت هذا الذي ترى كله لك . قال له المسيح : [أغرب أيها الشيطان فإنه مكتوب اسجد للرب إلهك ، ولاتعبد شيئًا سواه] ، ثم بعث الله عز وجل ملكا اقتلع العدو من مكانه ورمى به في البحر ، وأطلق السبيل للمسيح .

وقال : أفلا يعلم من أن في عقله أدنى مسكة أن هذا الفعل لايكون من شيطان إلى إله ، ولو كان إلهًا لأزاله عن نفسه قبل نفسه قبل أن يأتيه الملك من عند ربه ، ولما قال : [أمرنا أن لانجرب الله ، وأن نسجد للرب ولا نعبد شيئًا سواه] ، وكيف لم يربط الشيطان عن نفسه قبل أن يربطه عن أمته ، وقال : فهذه أمور إذا تأملها المتأمل قبحت جدًا ، وكثر اختلافها واشتد تنقصها واضطرابها .

قال : مما يعجب منه أنكم تعتقدون الابن الأزلي اتحد بالمسيح فصارا بجهة واحدة ، ولم يفارقه قط منذ اتحد به ، ومكث على ذلك في بطن أمه تسعة أشهر ، ثم أقام مولودًا ، تغذى باللبن ، ومربوبًا صبيًا مغذى بالأغذية إلى أن بلغ ثلاثين سنة

لايظهر منه شئ من آلة الربوبية ، ولا أمر يوجب هذا المحل ، ولا كان بينه وبين نظرائه من الآدميين فرق ، ولاسطع منه نوره ، ولاظهرت له سكينة ولاحفته الملائكة بالتهليل ، ولا ألمّ به الشعث بعد ذلك فوق ماكان من الأنبياء قبله ، فقد كلم الله موسى من العوسجة كيف شاء فأشرق ماحولها نوراً وكلمه من طور سيناء ، فاضطرمت في الجبل النيران ، والتبس وجهه النور الساطع حتى كان يتبرقع إذا جلس مع بنى إسرائيل بعد ذلك ، لأنهم كانوا لايستطيعون النظر إليه ثم سأل موسى ربه عز وجل لما قرب منه فقال : ﴿ رب أرني أنظر إليك قال (لن تراني ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخرّ موسى صعقا فلما أفاق ﴾ من صعقته استغفر ربه فتاب عليه ، وتجلى مجد الله لجماعة من الأنبياء فرأوا حول مجده ربوات الملائكة .

وقال داود : [يارب إنك حيث عبرت ببلاد سينين تزلزت الأرض منك ، وانفطرت من هيبتك] وقال أيضاً كالمخاطب للبحر والجبال والمتعجب منها : [مالك أيها البحر هارباً ، وأنت يانهر الأردن لم وليت راجعًا ، ومالك أيتها الجبال تنفرين كالأبابيل ، وما لكن أيتها الشوامخ والهضبات تنزوان بزول الشياء] ، ثم قال كالمجيب عنهم من قدام الرب [تزلزت البقاع] .

قال : فإن كان المسيح هو الأزلى الخالق أو كان متحداً به فكيف لم ترجف بين يديه الجبال ، ولم تتصرف عن مشيئته الأنهار والبحار ، أو كيف لم تظهر منه آيات باهرات أجل من آيات الأنبياء قبله مثل المشي على متون الهوى ، والاضطجاع على أكتاف الرياح . والاستغناء عن المآكل والمشارب ، وإحراق من قرب منه من الشياطين والجن ، كما أحرق إيليا من قرب منه من جند أحاب الملك ويمنع الآدميين من نفسه ، ومافعلوا على زعمهم بجسمه ليعلم الناس أنه خلقهم ، أو أنه هيكل الخالق .

قال : ووجدناكم تقولون : إن الابن إنما يسمى ابن الله وكلامه ، لأنه تولد من الأب وظهر منه فلم نقف على معنى ذلك ، لأن شريعة إيمانكم تقول إن الروح أيضًا تخرج من الأب ، فإن كان الأمر كما تقولون : فالروح أيضًا ابن ، لأنها تخرج عن الله تعالى ، وإلا فما الفرق بينهما ؟

قال : ولم نفهم أيضًا قولكم إن الابن تجسد من روح القدس ، وإن روح القدس ساقه إلي البر يمتحنه الشيطان ، فما كانت حاجة الابن إلى أن تكون الروح وهي في قولكم مثله تدبره وتغيره من حال إلى حال ؟ أو ما علمتم أن المغير السابق المدبر فاعل والمسبوق المدبر مفعول به فالابن إذن دون الروح ، وليس كمثله لأن الأزلي لاينفك من الأزلي وهو مثله .

قال : وإن المسيح من روح القدس ، كما قال جبريل الملك لأمه مريم ، فلم سميتموه كلمة الله وابنه ، ولم تسموه روحه ، فإنه قال لها الملك : إن الذي تلدين من روح القدس ، والروح غير الابن ، ولو كان المعنى واحد لما قالت الشريعة : إنه تجسد من روح القدس ، وإن روح القدس ساقه إلى البر ، وإن روح القدس نزل عليه ولم تثلثون به في إيمانكم ، فتقولون : نؤمن بالأب والابن والروح القدس ؟

قال ووجدناكم تقولون أيتها النسطورية : إن لله علمًا وحكمة هما الابن ، وحياة هي الروح قديمين ، ولعلمه وحياته ذات كذات الله ، وذلك أن علم الله له علم وحياة ، ولحياته التي هي روحه علم وحياة ، وأن الله الأب لما رأى استيلاء العدو على خلقه ، ونكول الأنبياء عن مناوأته أرسل إليه ابنه الفرد وحبيبه ، وجعله فداء ووقاء للناس أجمعين ، وإن الله نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وصار إنسانًا ثم ولد ونشأ ، وعاش ثلاثين سنة يتقلب بين بني إسرائيل كواحد منهم يصلي في كنائسهم ، ويستن بسنتهم لايدعي دينًا غير دينهم ، ولاينتحل رسالة نبوة ولابنوة حتى إذا انقضت تلك السنون أظهر الدعوة ، وجاء

بالآيات الباهرة والبراهين المشهورة ، فأنكرته اليهود وقتلته وصلبته ، ثم صعد إلى السماء .

وصدقتم بشريعة الإيمان ، وكفرتم من خالفها ، ثم لم تلبثوا أن خلعتموها وانسلختم منها ، وقلتم إن المسيح جوهران وأقنومان جوهر قديم ، وجوهر حديث ، ولكل جوهر أقنوم على حياله ، وإن الله جوهر قديم يقوم بمعنيين ، فهو واحد يقوم بثلاثة معان ، وثلاثة لها معنى واحد ، كالشمس التي هي شئ واحد ، ولها ثلاثة معان : القرص ، والحر ، والنور .

فالمسيح هو الله ، وهو مبعوث غير أنه ليس بعبد ، فكان معنى قولكم هذا أن المسيح مولود لكنه ليس مفعولا به وهو مبعوث مرسل ، لكنكم تستحيون أن تسموه رسولا إذ كنتم لاتفرقون بين الله وبينه في شئ من الأشياء ، وأقبلتم على الملكانية واليعقوبية بالتكفير واللعن لقولهم : إن الله والمسيح شئ واحد ، ثم لم تلبثوا أن قدمتم المسيح على الله تبارك وتعالى ، وبدأتم به في التمجيد ورفعتم إليه تهاليلكم ورغائبكم في أوقات القرابين خاصة ، وهي أجل صلواتكم وأفضل محافلكم عندكم ، فإنه الإمام منكم على المذبح من مذابحكم وأهله مرعوبون فتتوقعون نزول روح القدس بزعمكم من السماء بدعائه .

فيفتح دعاءه ويقول : [ليتم علينا وعليكم نعمة يسوع المسيح ، ومحبة الله الأب ومشاركة روح القدس إلى دهر الداهرين] . ثم يختم صلاته بمثل ذلك ، فهذا تصريح بالشرك وتصغير لعظمة الله وعزته إن جعلتم النعم والمواهب لمن هو دونه ، ومن هو معطى ومخوّل من عند الله على قولكم ، وجعلتم لله بعد المسيح محبة ولروحه مشاركة .

قال : ووجدناكم قد عبتم على اليعقوبية قولهم : إن مريم ولدت الله – عز وجل عن ذلك – ، وفي شريعة الإيمان التي بيناها المجتمع عليها أن المسيح إله حق وأنه ولد

من مريم ، فما معني المنافرة ، وما الفرق وماتنكرون من قولهم إن المقتول المصلوب هو الله ، عز وجل عن ذلك ؟

وشريعة إيمانكم تقول : نؤمن بالرب المسيح الذي من خبره وحاله الذي ولد من مريم ، وتألم وصلب على عهد الملك « بيلاطس » النبطى ، ودفن وقام في اليوم الثالث ، أليس هذا إقراراً بمثل قولكم ؟ فتدبروا هذا القول يا أولى الألباب .

فإنكم إن قلتم إن المقتول المصلوب هو الله ، فإن مريم عندكم ولدت الله .

وإن قلتم : إنه إنسان فإن مريم ولدت إنسانًا وبطلت الشريعة فأي القولين اخترتموه ففيه نقض دينكم ، ثم عبتم على الملكانية قولهم : إنه ليس للمسيح إلا أقنوم واحد لأنه صار مع الأزلي الخالق شيئًا واحداً لافرق بينهما ، وقلتم بأن له أقنومين لكل جوهر أقنوم على حياله ، ثم لم تلبثوا أن رجعتم إلى مثل قولهم فقلتم : إن المسيح ، وإن كان مخلوقًا من مريم مبعوثًا ، فإنه هيكل لابن الله الأزلي ونحن لانفرق بينهما ، فإذا كان الأمر عندكم على هذا فما تنقمون على الملكية ، وما معنى الافتراق ، وقد رجعتم في الاتحاد إلى مثل قولهم إن هذا الأمر تحار فيه الأفهام .

فإن كانت الشريعة بمعني الأمانة عندكم حقًا ، فالقول ماقال يعقوب ، وذلك أنا إذا ابتدأنا من الشريعة في ذكر المسيح ، ثم نسقنا المعاني نسقًا واحداً ، وانحدرنا فيها إلى آخرها وجدنا القوم الذين ألفوها لكم قد صححوا أن يسوع المسيح هو ابن الله . وهو بكر الخلائق كلها ، وهو الذي ولد من مريم ليس بمصنوع وهو إله حق من إله حق من جوهر أبيه : وهو الذي أتقن العوالم وخلق كل شئ على يده ، وهو الذي نزل لخلاصكم فتجسد وحملته مريم وولدته وقتل وصلب ، فمن أنكر قول اليعقوبية لزمه أن ينكر هذه الشريعة التي تشهد بصحة قولهم وتلعن من ألفها .

قال : وإنما أخذت تلك الطائفة يعنى الذين وضعوا الأمانة بكلمات ، وذكروا أنهم وجدوها في الإنجيل مشكلات تأولت فيها ماوقع بهواها ، وتركت مافي الإنجيل من

الكلام البيّن الواضح الذي يشهد بعبودية المسيح وشهادته بذلك على نفسه ، وشهادة تلاميذه به عليه . فأخذت بالشكل اليسير وجعلت له ما أحببت من التأويل ، وألغت الواضح الكثير الذي لايحتاج إلى تأويل .

قال : فأما احتجاجكم بالشمس ، وأنها شئ واحد له ثلاثة معان وتشبيهكم مايقولونه في الثلاثة الأقانيم بها ، فإن ذلك تمويه لايصح لأن نور الشمس لايحد بحد الشمس ، وكذلك حرها لايحد بحد الشمس ، إذ كان حد الشمس جسما مستديراً مضيئًا مسخنًا دائراً في وسط الأفلاك دورانًا دائمًا ، ولايتهيأ أن يحد نورها وحرها بمثل هذه الصفة ، ولايقال : إن نورها أوحرها جسم مستدير مضئ مسخن دائم الدوران ، ولو كان نورها وحرها شمساً حقًا من شمس حق من جوهر الشمس كما قالت الشريعة في المسيح : إنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه لكان ماقلتم له مثلاً تامًا ، والأمر مخالف لذلك ، فلا يشبهه ولايقع القياس عليه والحجة منكم فيه باطلة .

قال : ووجدناكم تذكرون أن المسيح نزل من السماء فأبطل بنزوله الموت والآثام ، فإن العجب ليطول من هذا القول ، وأعجب منه مَنْ قَبلَه ، ولم يتفكر فيه ، وممن لم يستقبح أن يعتقد ديانة لله تبارك وتعالى على مثل هذا القول المحال البائن عما تشهد به العقول وتنبئ به المشاهدة ، ويدعو الناس إليها فما هو ببعيد من عقد ماهو أمحل وأبطل منها ، لأنه إن كانت الخطيئة بطلت بمجيئه فالذين قتلوه إذاً ليسوا خاطئين ولا مأثومين ، لأنه لا خاطئ بعد مجيئه ولا خطيئة .

وكذلك أيضًا الذين قتلوا حواريه وأحرقوا أسفاره غير خاطئين ، وكذلك من يراه من جماعتكم منذ ذلك الدهر إلى هذا الوقت يقتل ويسرق ويزنى ويلوط ويسكر ويكذب ويرتكب كل مانهي عنه من الكبائر وغيرها غير خاطئين ، ولا مأثومين .

فمن جحد ذلك فليرجع إلى التسبيحة التي تقرأ بعقب كل قربان ، وهو أن

[ياربنا الذي غلب بوجعه الموت الطاغي] .

وفي الأخرى التي تقال في اليوم الجمعة الثانية من الفصح : [إن فخرنا بالصليب الذي بطل به سلطان الموت وصرنا إلى الأمن والنجاة بسببه] . وفي بعض التسابيح [بصلوات ربنا يسوع المسيح بطل الموت ، وانطفأت فتن الشيطان ، ودرست آثارها] فأي خطيئة بطلت ؟ وأي فتنة للشيطان انطفأت أو أي أمر كان الناس عليه قبل مجيئه من المحارم والآثام تغير عن حالته .

قال : فإذا كان التمويه يقع فيما يلحقه كل أحد بالمعرفة والعيان فهو فيما أشكل من الأمور وفعل بالتأويلات التي تأولها أولئك المتأولون أوقع .

وإذا كنتم قبلتم هذا المحال الظاهر الذي لاخفاء به عن الصبيان ، فأنتم لما هو أعظم منه من المحال أقبل ، وهذا إنجيلكم يكذب هذا القول حيث يقول المسيح فيه : [ما أكثر من يقول لي يوم القيامة ياسيدنا أليس باسمك أخرجنا الشيطان فأقول : أغربوا عنى أيتها الفجرة الغاوون ، فما أن عرفتكم قط] فهذا خلاف قول علمائكم ماقالوا ووضعهم لكم ماوضعوا ، ومثله قوله [إنى جامع الناس يوم القيامة عن ميمنتي وميسرتي] .

[وأقول لأهل المسيرة إنى جعت فلم تطعمونى ، وعطشت فلم تسقونى ، وكنت غريباً فلم تأوونى ، ومحبوساً فلم تزورونى ، ومريضاً فلم تعودونى ، فاذهبوا إلى النار المعدة لكم من قبل تأسيس الدنيا] .

[وأقول لأهل الميمنة فعلتم بي هذه الأشياء ، فاذهبوا إلى النعيم المعد لكم من قبل تأسيس الدنيا] فهل أدخل أولئك النار إلا خطاياهم التي ركبوها وهل صار هؤلاء إلى النعيم إلا أعمالهم الجميلة التي قدموها بتوفيق الله إياهم فمن قال : إن الخطيئة قد بطلت فقد بهت وخالف قول المسيح ، وكان هو من الكاذبين .

قال : ويا أيها القوم الذين هم أولوا الألباب والمعرفة حيث ينسبونه إلى الربوبية

وينحلونه اللاهوتية ، ويجعلونه خالق الخلق أجمعين وإلههم ، بماذا ساغ ذلك لكم ، وما الحجة فيه عندكم ؟

هل قالت كتب النبوات فيه ذلك ، أو هل قاله عن نفسه أو قاله أحد عن تلامذته ، والناقلين عنه ، الذين هم عماد دينكم وأساسه ومن أخذتم الشرائع والسنن عنه ؟ ومن كتب الإنجيل وبيّنه ، بل قد أفصح في كل الإنجيل من كلامه ومخاطباته ووصاياه بما لايحصى كثرة بأنه عبد مثلكم ومربوب معكم ، ومرسل من عند ربه وربكم ومبدى ما أمر به فيكم ، وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته ووصفوه لمن سأل عنه .

وفي كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله عز وجل ونبي له قوة وفضل فتأولتم في ذلك أنه أخرج كلامه على معنى الناسوت ، ولو كان كما تقولون لأفصح عن نفسه بأنه إله كما أفصح بأنه عبد ولكنه ماذكره ولا ادعاه ، ولادعا إليه ولا ادعته له كتب الأنبياء قبله ولاكتب تلامذته ، ولاحكى عنهم ولا أوجبه كلام جبريل الذي أداه إلى مريم ، ولا قول يحيى بن زكريا ما قال ، قال : فإن قلتم إنكم استدللتم على ربوبيته بأنه أحيا الموتي وأبرأ الأكمه والأبرص ومشي على الماء وصعد إلى السماء وصيّر الماء خمراً ، وكثر القليل فيجب الآن أن ينظر إلى كل من فعل من هذه الأمور فعلاً فنجعله ربًا وإلهًا ، وإلا فما الفرق ؟

فمن ذلك أن كتاب « سفر الملوك » يخبر أن إلياس أحيا ابن الأرملة ، وأن اليسع أحيا ابن الإسرائيلية ، وأن « حزقيال » أحيا بشراً كثيراً ، ولم يكن أحد ممن ذكرنا بإحيائه الموتى إلهًا .

وأما إبراء الأكمه فهذه التوراة تخبر أن يوسف أبرأ عين أبيه يعقوب بعد أن ذهبت ، وهذا موسى طرح العصا فصارت حية لها عينان تبصر بهما ، وضرب بهما الرمل فصار قملا لكل واحدة منها عينان تبصر بهما ، ولم يكن واحد منهم بذلك

إلهًا .

وأما إبراء الأبرص فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن رجلا من عظماء الروم برص فرحل من بلده قاصداً اليسع عليه السلام ليبرئه من برصه ، فأخبر الكتاب بأن الرجل وقف بباب اليسع أيامًا لايؤذن له ، فقيل لليسع : إن ببابك رجلا يقال له « نعمان » وهو أجل عظماء الروم به برص ، وقد قصدك لتبرئه من مرضه ، فإن أذنت له دخل إليك فلم يأذن له ، وقال لرجل من أصحابه : أخرج إلى هذا الرجل ، فقل له : ينغمس في الأردن سبع مرات ، فأبلغ الرسول لنعمان ما أمره به اليسع ففعل ذلك ، فذهب عنه البرص ورجع قافلا إلى بلده فاتبعه خادم اليسع فأوهمه أن اليسع وجه به إليه يطلب منه مالا فسر الرجل بذلك ، ودفع إلى الخادم مالا وجواهرا ، ورجع فأخفي ذلك وستره .

ثم دخل إلى اليسع فلما مثل بين يديه ، قال له : تبعت نعمان وأوهمته عني كذا وكذا ، وأخذت منه كذا وأخفيته في موضع كذا ، إذ فعلت الذي فعلت به فليصر برصه عليك وعلي نسلك فبرص ذلك الخادم على المكان ، قال : فهذا اليسع قد أبرأ أبرص وأبرص صحيحا ، وهو أعظم مما فعل المسيح عليه السلام ، فلم يكن فعله ذلك إلها .

قال : وأما قولكم إنه مشى على الماء ، فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن إلياس عليه السلام صار إلي الأردن ومعه اليسع تلميذه فأخذ عمامته فضرب بها الأردن فاستيبس له الماء حتى مشى عليه هو واليسع ، ثم صعد إلى السماء على فرس من نور ، واليسع يراه ، ودفع عمامته إلى اليسع فلما رجع اليسع إلى الأردن ضرب بها الماء فاستيبس له حتى مشى عليه راجعًا ، ولم يكن واحد منهما بمشيه على الماء إلهًا ، ولا كان إلياس بصعوده إلى السماء إلهًا .

قال : وأما قولكم إنه صيَّر ماء خمرًا فهذا كتاب سفر الملوك يخبر بأن اليسع نزل

بامرأة إسرائيلية فأضافته وأحسنت إليه فلما أراد الإنصراف ، قال لها : هل لك من حاجة ؟ فقالت المرأة : يانبي الله إن على زوجي دينًا قد فدحه ، فإن رأيت أن تدعو الله لنا بقضاء ديننا فافعل .

فقال لها اليسع : اجمعي كل ماعندك من الآنية واستعيري من جيرانك جميع ماقدرت عليه من آنيتهم ، ففعلت ، ثم أمرها فملأت الآنية كلها ماء فقال : اتركيه ليلتك هذه ، ومضى من عندها فأصبحت المرأة ، وقد صار ذلك الماء كله زيتًا فباعوه فقضوا دينهم .

وتحويل الماء زيتًا أبدع من تحويله خمرًا ولم يكن اليسع بذلك إلهًا . وأما قولكم المسيح عليه السلام كثّر القليل حتى أكل خلق كثير من أرغفة يسيرة فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن إلياس نزل بامرأة أرملة وكان القحط قد عم الناس وأجدبت البلاد ومات الخلق ضرًا وهزلاً ، وكان الناس في ضيق ، فقال للأرملة : هل عندك من طعام ؟ فقالت : والله ماعندي إلا كف من دقيق في قلة أردت أن أخبزه لطفل لي ، وقد أبقنا بالهلاك لما الناس فيه من القحط .

فقال لها : احضريه فلا عليك ، فأتته به فبارك عليه فمكث عندها ثلاث سنين وستة أشهر تأكل هي وأهلها وجيرانها منه حتى فرج الله عن الناس ! فقد فعل إلياس في ذلك أكثر مما فعل المسيح لأن الياس كثّر القليل وأدامه ، والمسيح كثر القليل في وقت واحد ولم يكن إلياس بفعله هذا إلهاً . وقال : فإن قلتم إن هؤلاء الأنبياء ليس لهم صنع في هذه الأفعال ، وإن الصنع فيها والقدرة لله عز وجل ، إذ كان هو الذي أجراها على أيديهم فقد صدقتم ، ونقول لكم أيضًا كذلك المسيح ليس له صنع فيما ظهر على يديه من هذه الأعاجيب ، إذ كان الله هو الذي أظهرها على يديه ، فما الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء ، والحجة في ذلك ؟

قال : وإن قلتم : إن الأنبياء كانت إذا أرادت أن يظهر الله على أيديهم آية

تضرعت إلى الله ودعته وأقرّت له بالربوبية وشهدت على أنفسها بالعبودية .

قيل لكم : وكذلك سبيل المسيح سبيل سائر الأنبياء ، قد كان يدعو ويتضرع ويعترف بربوبية الله ويقر له بالعبودية ، فمن ذلك أن الإنجيل يخبر بأن المسيح أراد أن يحيى رجلاً يقال له العازر ، فقال : [يا أبي أدعوك كما كنت أدعوك من قبل فتجيبني وتستجيب لي ، وأنا أدعوك من أجل هؤلاء القيام ليعلموا] ، وقال : بزعمكم وهو على الخشبة [إلهي إلهي لم تركتني] ، وقال : [يا أبي اغفر لليهود مايعملون فإنهم لايدرون مايصنعون] .

وقال في إنجيل متي : [ياأبي أحمدك] ، وقال : [يا أبي إن كان بد أن يتعداني هذا الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا فلتكن مشيئتك] .

وقال أيضًا : [أنا أذهب إلى إلهي الذي هو أعظم مني] .

وقال : [لا أستطيع أن أصنع شيئًا ولا أتفكر فيه إلا باسم إلهي] . وقال يعنى نفسه : [لاينبغى للعبد أن يكون أعظم من سيده ، ولا للرسول أن يكون أعظم ممن أرسله] .

وقال : [إن الله لم يلد ولم يولد ولم يأكل ولم يشرب ولم ينم ولم يره أحد من خلقه ، ولايراه أحد إلا مات] .

والمسيح قد أكل وشرب وَوُلِدَ ورآه الناس فما ماتوا من رؤيته ، ولامات أحد منهم ، وقد لبث فيهم ثلاثا وثلاثين سنة .

قلت : وعامة ماذكره هذا عن الكتب تعترف به النصاري لكن بعضهم ينازعه في يسير من الألفاظ فنازعه هنا في قوله : [لاينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده] . وقال هذا إنما قاله المسيح للحواريين ، وذكر أنه لايعرف عنه لفظ لم يلد ولم يولد ولم يأكل ولم يشرب ، قال : وقال في إنجيل « يوحنا » : [إنكم متى رفعتم ابن البشر فحينئذ تعلمون أنى أنا هو وشئ من قِبَل نفسي لا أفعل ، ولكن كل

شئ كالذي علمني أبي] . وقال في موضع آخر : [من عند الله أرسلت معلماً] ، وقال لأصحابه : [اخرجوا بنا من هذه المدينة ، فإن النبي لايجل في مدينته] ، وأخبر الإنجيل أن امرأة رأت المسيح ، فقالت : إنك لذلك النبي الذي كنا ننتظر مجيئه ، فقال لها المسيح : [صدقت طوبي لك] وقال لتلامذته : [كما بعثني أبي كذلك أبعث بكم] . قال : فاعترف بأنه نبي وأنه مألوه ومربوب ومبعوث ، وقال لتلامذته : [إن من قبلكم وآواكم فقد قبلني ، ومن قبلني فإنما يقبل من أرسلني ومن قبل نبياً باسم نبي فإنما يفوز بأجر من قبل النبى] .

فبين هاهنا وفي غير موضع أنه نبي مرسل ، وأن سبيله مع الله سبيلهم معهم. وقال « متى » التلميذ في إنجيله يستشهد على المسيح بنبوة أشعيا عن الله عز وجل : [هذا عبدي الذي إصطفيته ، وحبيبي الذي ارتاحت إليه نفسي ، وأنا واضع روحي عليه ويدعوا الأمم إلى الحق] ، فلن يحتاج إلى حجة أوضح من هذا القول الذي جعلتموه حجة لكم ، فقد أوضح الله أمره وسماه عبداً ، واعلم أنه يضع عليه روحه ويؤيده بها ، كما أيد سائر الأنبياء بالروح فأظهروا الآيات المذكورة عنهم وهذا القول يوافق ما بشّر به جبريل الملك مريم حين ظهر لها ، وقال القول الذي سقناه في صدر كتابنا قال : وقال يوحنا التلميذ في الإنجيل عن المسيح عليه السلام : [إن كلامي الذي تسمعون هو كلام من أرسلني] . وقال في موضع آخر : [إن أبي أجلّ وأعظم مني] ، وقال أيضاً : [كما أمرنى أبي كذلك أفعل أنا ، أنا الكرم وأبي هو الفلاح] ، وقال يوحنا : [كما للأب حياة في جوهره ، فكذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في قينومه] قال : فالمعطِي خلاف المعطَى لامحالة والفاعل خلاف المفعول .

قال : وقال المسيح في إنجيل يوحنا : [إني لو كنت أنا الشاهد لنفسى على صحة دعواي لكانت شهادتي باطلة لكن غيري يشهد لي فأنا أشهد لنفسي ويشهد لي أبي الذي أرسلني] وقال المسيح لبنى إسرائيل : [تريدون قتلي ، وأنا رجل قلت لكم

الحق الذي سمعت الله يقوله] قال : وقال في الرجل الذي أقامه من الموتي : [يا أبي أشكرك على استجابتك دعائي وأعترف لك بذلك ، وأعلم أنك كل وقت تجيب دعوتي لكن أسألك من أجل هذه الجماعة ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني] ، قال : فأي تضرع وإقرار بالرسالة والمسألة والطلب للإجابة من الله عز وجل أشد من هذا أو أكثر قال : وقال في بعض مخاطبته لليهود ، وقد نسبوه إلى الجنون : [أنا لست بمجنون ، ولكن أكْرِمُ أبي ولاأحب مدح نفسي ، بل مدح أبي لأني أعرفه ، ولو قلت : إني لا أعرفه لكنت كذابا مثلكم ، بل أعرفه وأتمسك بأمره] ، قال : وقال داود في مزمور معة وعشرة [قال الرب لربي اجلس عن يميني حتي أضع أعدائك موطئًا لرجليك] .

[عصا العظمة تبعث الرب من صهيون وتبسط على أعدائك شعبك يامسيح يوم الرب في بهاء القدس من البدئ] .

[اليوم ولدتك ياصبي عهد الرب ولاتكذب إنك أنت الكاهن المؤيد يشبه ملكيز داق] قال : فهذه مخاطبة ينسبونها إلى اللاهوت ، وقد أبان داود في مخاطبته أن لربه الذي ذكره ربا هو أعظم منه وأعلى ، أعطاه ماحكيناه ومنحه ذلك وشهد عليه إن عصا العظمة تبعث ربه هذا من صهيون وسماه صبيًا محققًا لقوله الأول : اليوم ولدتك . ونسقًا على أول كلامه وهو ربه ووصف أنه الكاهن المؤيد الذي يشبه ملكيز داق . قلت : قالوا : وهذا الكاهن هو الذي ذكره في التوراة إن الخليل أعطاه القربان ، وإذا كان المسيح مشبها به مع تسميته كاهناً كان ذلك من أعظم الأدلة على أنه مخلوق . قال : فأما قوله [من البدئ ولدتك] فهو يشبه قول داود [تبنني على نفسه من البدئ ذكرتك وهديت كل أعمالك] ، وبعضهم يقول : لفظ النص : [إن الرب يبعث عصاه من صهيون] قال : وقال شمعون الصفا رئيس الحواريين في الفصل الثاني من قصصهم : [يارجال بنى إسرائيل اسمعوا مقالتي إن يسوع الناصرى رجل ظهر لكم من عند الله بالقوة والأيدي والعجائب التي أجراها على

يديه وإنكم أسلمتوه وقتلتموه فأقام الله يسوع هذا من بين الأموات] .

قال : فأي شهادة أبين وأوضح من هذا القول وهو أوثق التلاميذ عندكم يخبر كما ترون أن المسيح رجل وأنه من عند الله وأن الآيات التي ظهرت منه بأمر الله أجراها علي يديه وأن الذي بعثه من بين الموتى هو الله عز وجل ، قال : وقال أيضًا في هذا الموضع : اعلموا أن الله جعل يسوع الذي قتلتموه ربًا ومسيحًا ، قال : فهذا القول يزيل تأويل من لعله أن يتأول في الفصل الأول أنه أراد بقوله الناسوت ، لأنه يقول : إن الله جعله ربًا ومسيحًا ، والمجعول مخلوق مفعول ، قال أبو نصر : وإنما سمي ناصرى ، لأن أمه كانت من قرية يقال لها « ناصرة » في الأردن ، وبها ، سميت النصرانيـة .

قـال : وقد سمى الله جل ثناؤه يوسف ربًا قال داود في مزمور مئه وخمسة : [وللعبودية بيع يوسف ، وشدوا بالكبول رجليه ، وبالحديد دخلت نفسه حتى « صدقت كلمته قول الرب جربه بعث الملك فخلاه وصيره مسلطًا على شعبه ، وربًا على بنيه ومسلطًا على فتيانه] .

وقال لوقا في آخر إنجيله : إن المسيح عرض لعملوقا ولوقا تلميذه جبريل في الطريق وهما محزونان فقال لهما ، وهما لايعرفانه : مابالكما محزونين ؟ فقالا : كأنك أنت وحدك غريب ببيت المقدس إذ كنت لاتعلم ماحدث فيها في هذه الأيام من أمر يسوع الناصري ، فإنه كان رجلا نبيًا قويًا في قوله وفعله عند الله وعند الأمة أخذوه وقتلوه] على قولهم فيه .

قال : فهذا قوله وأقوال تلاميذه قد تركتموها وعقدتم على بدع ابتدعها لكم أولوكم تؤدي إلى الضلالة والشرك بالله جل ثناؤه . وقال داود في المزمور الثاني في زبوره مخاطبًا لله ومثنيًا على المسيح : [من الرجل الذي ذكرته والإنسان الذي أمرته وجعلته دون الملائكة قليلا وألبسته المجد والكرامات ؟] ، وقال في المزمور

الثاني : [قال لي الرب : أنت ابني وأنا اليوم ولدتك سلني فأعطيك] ، فقوله ولدتك دليل على أنه حديث غير قديم ، وكل حادث فهو مخلوق ، ثم أكد ذلك بقوله : [اليوم] فحد باليوم حداً لوالدته أزال به الشك في أنه ماكان قبل « اليوم » ودل بقوله : « سلني فأعطيك » علي أنه محتاج إلى المسألة غير مستغن من العطية ، قال : فهذا ماحضرنا من الآيات في تصحيح خلق المسيح وعبوديته وبطلان مايدعونه من ربوبيته ، ومثله كثير في الإنجيل لايحصي ، فإذا كانت الشهادات منه على نفسه ، ومن الأنبياء عليه ومن تلاميذه بمثل ماقد بيناه في هذا الكتاب ، وإنما اقتصرنا على الاحتجاج عليكم من كتبكم ، فما الحجة فيما تدعونه له ومن أي جهة أخذتم ذلك واخترتم الكلام الشنيع الذي يخرج عن المعقول ، وتنكره النفوس ، وتنفر منه القلوب ، الذي لايصح بحجة ولاقياس ولاتأويل على القول الجميل الذي تشهد به العقول وتسكن إليه النفوس وتشاكل عظمة الله وجلاله .

قال : وإذا تأملتم كل مابيناه تأمل إنصاف من أنفسكم وإشفاق عليها علمتم أنه قول لايحتمل أن يتأول فيه للناسوت شيئًا دون اللاهوت .

قال : فإن قلتم : إنه يثبت للمسيح البنوة بقوله [أبي وأبيكم – وياأبي – وبعثني أبي] قلنا : فإن كان الإنجيل أنزل على هذه الألفاظ لم تبدل ولم تغير ، فإن اللغة قد أجازت أن يسمى الوليّ ابنًا ، وقد سماكم الله جميعًا بنيه ، وأنت لستم في مثل حاله .

ومن ذلك أن الله عز وجل قال لإسرائيل في التوراة : [أنت ابني بكري] وقال لداود في الزبور : [أنت ابني وحبيبي] وقال المسيح في الإنجيل للحواريين : [أريد أن أذهب إلي أبي وأبيكم وإلهى وإلهكم] فسمى الحواريين أبناء الله وأقر بأن له إلهًا هو الله ، ومن كان له إله فليس بإله كما تقولون ، فإن زعمتم أن المسيح إنما استحق الإلهية بأن الله سماه ابنًا فنلتزم ذلك ، ونشهد بالإلهية لكل من سماه الله ابنًا وإلا فما الفرق ؟

قال : فإن قلتم : إن إسرائيل ودواد ونظرائهما إنما «سُمُّوا أبناء لله على جهة الرحمة من الله لهم ، والمسيح ابن الله على الحقيقة ، تعالى الله عن ذلك .

قلنا : يجوز لمعارض أن يعارضكم ، فيقول لكم ماتنكرون أن يكون إسرائيل وداود ابنى الله على الحقيقة ، والمسيح ابن رحمة ، وما الفرق ؟

فإن قلتم : إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن المسيح جاء إلى مقعد فقال له : [قم فقد غفرت لك] فقام الرجل ، ولم يدع الله في ذلك الوقت .

قلنا لكم : هذا إلياس أمر السماء أن تمطر فمطرت ، ولم يدع الله في ذلك الوقت ، وكذلك اليسع أمر نعمان الرومي بأن يغتمس في الأردن من غير دعاء ولاتضرع ، على أنا وجدناه في الإنجيل قد تضرع ، وسأل مسائل قد تقدم ذكرها .

وقال في بعض الإنجيل : [يا أبي أشكرك علي استجابتك دعائي ، وأعلم أنك في كل وقت تجيب دعوتي ، لكن أسألك من أجل هذه الجماعة ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني] .

فإن قلتم : إن الغفران من الله عز وجل ، وإن المسيح قال لبعض بني إسرائيل : [قم فقد غفرت لك] والله هو الذي يغفر الذنوب .

قلنا : فقد قال الله في السفر الخامس من التوراة لموسى : [اخرج أنت وشعبك الذي أخرجت من مصر وأنا أجعل معكم ملكا يغفر ذنوبكم] .

فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه غفر ذنوب المقعد ، فالملك إذًا إله لأنه يغفر ذنوب بنى إسرائيل ، وإلا فما الفرق ؟!

فإن قلتم : إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن الله سبحانه ربًا فقال : [ابن البشر رب السبت] .

قلنا : فهذه التوراة تخبر بأن لوطًا عليه السلام لما رأى الملكين قد أقبلا من البرية

لهلاك قومه قال لهما : [ياربى مهلاً إلى منزل عبدكما] ، وقد تقدم لنا الاحتجاج في هذا الكتاب ربًا من يوسف وغيره : فإن كان المسيح إلهًا لأنه سمى ربًا فهؤلاء إذًا آلهة لأنهم سموا بمثل ذلك .

فإن قلتم : إن الأنبياء قد تثبت على إلهية المسيح فقال أشعيا : [العذاراء تحبل وتلد ابنًا ويدعى اسمه « عمانويل »] وتفسيره « معنا إلهنا » .

قلنا : قيل : إن هذا اسم يعاره السيد الشريف من الناس ، وإن كان الله عز وجل المنفرد بمعنى الإلهية جل ثناؤه فقد قال الله في التوراة لموسى عليه السلام : [قد جعلتك لهارون إلهًا وجعلته لك نبيًا] .

وقال في موضع آخر : [قد جعلتك ياموسى إلهًا لفرعون] ، وقال داود في الزبور لمن كانت عنده حكمة : [كلكم آلهة ومن العلية تدعون] .

فإن قلتم : إن الله عز وجل جعل موسى إلهًا لهارون علي معنى الرياسة عليه .

قلنا : وكذلك قال أشعيا في المسيح إنه إله لأمته على هذا المعنى ، وإلا فما الفرق؟

فإن قلتم : إن المسيح قد قال في الإنجيل : [من رآني فقد رأى أبى وأنا وأبي واحد] .

قلنا : إن قوله [أنا وأبي واحد] إنما يريد به أن قبولكم لأمري هو قبولكم لأمر الله ، كما يقول رسول الرجل : أنا ومن أرسلني واحد ، ويقول الوكيل : أنا ومن وكلني واحد ، لأنه يقوم فيما يؤديه مقامه ، ويؤدي عنه ما أرسله به ويتكلم بحجته ، ويطالب بحقوقه ، وكذلك قوله : [من رآني فقد رأى أبى] يريد بذلك أن من رأى هذه الأفعال التي أظهرها فقد رأى أفعال أبى .

فإن قلتم : إن المسيح قد قال في الإنجيل : [أنا قبل إبراهيم] فكيف يكون قبل

إبراهيم ، وإنما هو من ولده ؟ ولكن لما قال قبل إبراهيم ، علمنا ما أراد أنه قبل إبراهيم من جهة الإلهية .

قلنا : هذا سليمان بن داود يقول في حكمته : [أنا قبل الدنيا وكنت مع الله حيث بدأ الأرض] ، فما الفرق بينه وبين من قال : إن سليمان ابن الله وإنه إنما قال أنا قبل الدنيا بالإلهية ، وقد قال داود أيضًا في الزبور : [ذكرتك من البدء يارب في البدء ، وهديت بكل أعمالك] .

فإن قلتم : إن كلام سليمان بن داود متأول لانهما من ولد إسرائيل ، وليس يجوز أن يكونا قبل الدنيا .

قلنا : وكذلك قول المسيح أنا قبل الدنيا متأول ، لأنه من ولد إبراهيم ولايجوز أن يكون كان قبل إبراهيم ، فإن تأولتم تأولنا وإن تعلقتم بظاهر الخبر في المسيح تعلقنا بظاهر الخبر في سليمان وداود ، وإلا فما الفرق ؟

وقد قدمنا هذا الاحتجاج على تأويلكم لتعلموا بطلان ماذهبتم إليه على أنه تأويل غير واقع لحقه ، وإنما حقه أن يكون هذا الاسم يعنى « عمانويل » لما وقع على المسيح كان معناه أنه أخبر عن نفسه بأن « إلهنا معنا » يعنى أن الله معه ، ومع شعبه معينًا وناصراً .

ومما يصحح ذلك أنكم تتسمون به ، ولو كان المعنى ماذهبتم إليه لما جاز لأحد أن يتسمى به ، كما لم يجز أن يتسمى بالمسيح لأنه مخصوص بمعناه .

فإن قلتم : إن تلاميذ المسيح كانوا يعملون الآيات باسم المسيح .

قلنا لكم : فقد قال الله عز وجل ثناؤه ليحيى بن زكريا [قد أيدتك بروح القدس وبقوة إلياس ، وهي قوة تفعل الآيات] فأضاف القوة إلى الياس .

فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه فعلت الآيات باسمه ، فما الفرق بينكم وبين من

قال : إلياس إله ، فإنه فعلت بقوته الآيات ؟. فإن قلت : إن الخشبة التي صلب عليها المسيح على زعمكم ألصقت بميت فعاش ، وإن هذا دليل على أنه إله ، قلنا لكم ، فما الفرق بينكم وبين من قال : إن اليسع إله ؟ واحتج فى ذلك بأن كتاب سفر الملوك يخبر بأن رجلا مات فحمله أهله إلي المقبرة ، فلما كانوا بين القبور رأوا عدواً يريد أنفسهم فطرحوا الميت عن رقابهم وبادروا إلى المدينة ، وكان الموضع الذي ألقوا عليه الميت قبر اليسع ، فلما أصاب ذلك الميت تراب قبر اليسع عاش ، وأقبل يمشى إلي المدينة ، فإن زعمتم أن المسيح إله لأن الخشبة التي ذكروا أنه صلب عليها ألصقت بميت فعاش ، فاليسع إله لأن تراب قبره لصق بميت فعاش .

فإن قلتم إن المسيح كان من غير فحل .

قلنا لكم : قد كان كذلك ، وليس أعجوبة الولادة توجب الإلهية لا الربوبية ، لأن القدرة في ذلك للخالق تبارك وتعالى لا للمخلوق ، وعلى أنه يوجدكم . لأن حواء خلقت من فحل بلا أنثي ، وخلق أنثي من ذكر بلا أنثي أعجب من ذكر من أنثي بغير ذكر ، وأعجب من ذلك أن آدم خلقه الله من تراب ، وخلق بشر من تراب أعجب وأبدع من خلق ذكر من أنثى بلا فحل ، فما الفرق ؟.

قال : وهذه الأسباب التي ذكرناها كلها هي الأسباب التي تتعلقون بها في نحلتكم المسيح الربوبية وإضافتكم إليه الإلهية ، وقد وصفناها على حقائقها عندكم وقبلنا قولكم ، وإن كنا لانشك في أن أهل الكتب قد حرّفوا بعض مافيها من الكلالم عن مواضعه ، وأوجدناكم بطول ماتنتحلونه ، وفساد ما تتأولونه من الكتب التي في أيديكم التوراة والزبور والأنبياء والإنجيل ، فما الذي يثبت الحجة بعد ذلك لكم ؟ قال : وقد قال السيد المسيح في الإنجيل لتلاميذه لما سألوه عن الساعة والقيامة : [إن ذلك اليوم ، وتلك الساعة لايعرفه أحد ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن أيضاً ، ولكن الأب وحده يعرفه] . قال : فهذا إقرار منه بأنه منقوص العلم وأن الله تبارك وتعالى أعز وأعلم منه ، وأنه خلافه وأعلا منه ، وقد بين بقوله أحد عمومه بـــذلـك

الخلق جميعًا ، ثم قال : [ولا الملائكة] وعندهم من علم ما ليس عند أهل الأرض ، ثم قال : [ولا الابن] ، وله من القوة ما ليس لغيره وشهد قوله هذا شهادة واضحة عليه بأنه لايعلم كل مايعلمه الله ، بل ما علمه الله إياه وأطلعه على معرفته وجعله له وأنه لقصور معرفته بكل الأشياء ليس بحيث يصفونه من الربوبية ، وأنه هو الله ومن جوهر أبيه - تعالى الخالق لكل شئ علواً كبيراً - ولو كان إلهًا كما يقولون : لعلم مايعلمه الله من سائر الأشياء وسرائر الأمور وعلانيتها ، إذا كان هذا المعنى ليس من الكلام الذي إذا سئلتم عنه تعلقتم بأنه قيل للناسوت دون اللاهوت .

قلت : مقصوده بذلك أنه صرح بأنه لايعلمه أحد ، ثم خص الملائكة بالذكر ، لئلا يظن أن أحداً منهم يعلمه ، فقال : [ولا الملائكة الذين في السماء] ثم قال : [ولا الابن يعرفه ، وأن الأب وحده يعرفه] فنفى معرفة الابن وأثبت أن الأب وحده يعرفه ، ومراده بالابن المسيح فعرف أن المسيح لايعرفه وأثبت أن الرب يعرفه دون الابن .

ودل ذلك على أن لفظ الابن عند المسيح ، إنما يراد بها الناسوت وحده إذ كان لايجوز نفي العلم عن اللاهوت ، فإن اللاهوت يعلم كل شئ ، وقد دل ذلك على أن قوله : [عمدوا الناس باسم الأب والابن] ، والمراد به الناسوت وحده ، كما أريد بلفظ الابن في سائر كلامه وكلام غيره ، لم يرد قط أحد منهم بلفظ الابن اللاهوت ، بل اطلاق الابن على اللاهوت مما ابتدعته النصارى ، وحملوا عليه كلام المسيح فابتدعوا لصفات الله أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، وحملوا عليها كلام المسيح وإنما يحمل كلام الأنبياء عليهم السلام وغيرهم على معنى لغتهم التي جرت عادتهم بالتكليم بها لاعلى لغة يحدثها من بعدهم ، ويحمل كلامهم عليها .

قلت : فإن هذا الذي فعلته النصارى وأشباههم بفتح باب الإلحاد في كتب الله المنزلة ، وقد قال تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لايخفون علينا أفمن يُلقي في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ [فصلت : ٤٠] وذلك أن كل من اعتقد

معاني برأيه يمكنه أن يعبر عنها بألفاظ تناسبها بنوع مناسبة ، وتلك الألفاظ موجودة في كلام الأنبياء عليهم السلام لها معان أخر ، ويجعل تلك الألفاظ دالة على معانية التي رآها ، ثم يجعل الألفاظ التي تكلمت بها الأنبياء . وجاءت بها الكتب الإلهية أرادوا بها معانيه هو ، وهكذا فعل سائر أهل الإلحاد في سائر الكتب الإلهية كما فعلته النصارى مثل ماعمدت الملاحدة المتبعون لفلاسفة اليونان القائلون بأن هذه الأفلاك قديمة أزلية لم تزل ولاتزال ، وأن الله لم يتكلم بالتوراة ولاغيرها من الكتب الإلهية ، ولا هو عالم بالجزئيات لابموسى بن عمران ولابغيره ، ولاهو قادر أن يفعل بمشيئة ولايقيم الناس من قبورهم ، فقالوا : خلق وأحدث وفعل وصنع ونحو ذلك يقال على الإحداث الذاتي ، والإحداث الزماني .

فالأول : هو إيجاب العلة لمعلومها المقارن لها في الزمان .

والثاني : إيجاد الشيئ بعد أن لم يكن ، ثم قالوا : ونحن نقول : إن الله خلق السموات والأرض ومابينهما وأحدث ذلك وأبدعه وصنعه . كما أخبرت بذلك الأنبياء عليهم السلام ، لكن مرادهم بذلك الاحداث الذاتي وهو أن ذلك معلول له لم يزل معه .

فيقال لهم : لم يستعمل أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل ولا أحد من سائر الأمم لفظ الخلق والإحداث إلا فيما كان بعد عدمه وهو ما كان مسبوقًا بعدمه ووجود غيره . ومعنى هذا اللفظ معلوم بالاضطرار في جميع لغات الأمم ، وأيضًا فاللفظ المستعمل في لغة العامة والخاصة لايجوز أن يكون معناه ما لا يعرفه إلا بعض الناس ، وهذا المعني الذي يدعونه لو كان حقًا لم يتصوره إلا بعض الناس ، فلا يجوز أن يكون اللفظ العام الذي تداوله العامة والخاصة موضوعًا له ، إذا كان هذا يبطل مقصود اللغات ، ويبطل تعريف الأنبياء للناس ، فكيف وهو باطل فى صريح المعقول ، كما هو باطل في صحيح المنقول ، فإنه لم يعرف أن أحداً قط عبر عن القديم الأزلى الذي لم يزل موجوداً ، ولايزال بأنه محدث أو مخلوق أو مصنوع أو

مفعول ، فهذا الذي ذكرتموه كذب صريح على الأنبياء عليهم السلام ، لتوهموا الناس أنكم موافقون لهم والكتب الإلهية كالتوراة والقرآن مصرحة بأن الله خلق السموات والأرض ومابينهما في ستة أيام ، والقديم الأزلي لايكون مخلوقًا في ستة أيام ، وكذلك الكتب الإلهية كالتوراة والقرآن قد أخبرت بتكليم الله لموسى ، وبندائه إياه من الطور من الشجرة ، وفي التوراة إنها شجرة العليق .

وأخبرت بأن موسى عليه السلام كان يلقي عصاه فتصير حية تسعى ، ويخبر بأن الله فلق له البحر ، فقال الملاحدة : إن الشيء الثابت يسمى طوراً ، فإنه ثابت كالجبل والقلوب تسمى أودية ، وإظهار العلوم بتفجير ينابيع العلم والحجة المبتلعة كلام أهل الباطل هي عصا معنوية ، فمراد الكتب بالطور العقل الفعال الذي فاض منه العلم علي قلب موسى عليه السلام ، والوادي قلب موسى ، والكلام الذي سمعه موسى من سماة عقله ، وتلك الأصوات كانت في نفسه لافي الخارج ، والملائكة التي رآها كانت أشخاصاً نورانية تمثلت في نفسه لافي الخارج ، والبحر الذي فلقه هو بحر العلم ، والعصا كانت حجته غلب على السحرة بحجتة العلمية فابتلعت حجته شبههم التي جعلوها حبالا يتوسلون بها إلى نيل أغراضهم ، وعصا يقهرون بها من يجادلونه .

أفليس من قال مثل هذا الكلام يعلم بالاضطرار أنه يكذب على الكتب الالهية التي أخبرت بقصة موسى كالتوراة والقرآن ، وأنه ليس مراد الرسل بما أخبروا به من قصة موسى هذا ، بل صرحوا بأن موسى سمع نداء الله له ، وأنه كلّمه من الطور طور سيناء الذي هو الجبل ، وقلب عصاه التي كان يهش بها على غنمه ثعبانًا عظيمًا ، وفلق له البحر ، وغرق فيه آل فرعون فغرقوا وماتوا فيه وهلكوا ، وأمثال هذا من تحريفات الملاحدة كثير .

فهكذا النصارى حرفوا كتب الله وسموا صفة الله القديمة الأزلية التي هي علمه أو حكمته ابنًا ، وسموها أيضًا كلمة وسموا صفته القديمة الأزلية التى هى حياته روح

ليسوع خبر ابنتـه وما ينالهامن الشيطان ، وأنه قد قدمها إلى تلاميذه ، فلم يستطيعوا أن يخرجوه ، وقد كان جعل لهم ذلك وغيره فأخرجه هو منها .

وقال فى الإنجيل ، وهو يذكر الأمثال التى ضربها لرؤساء الكهنة إنهم سمعوها منه علموا أنها شأنهم ، فهموا أن يأخذوه ، ثم فرقوا من الجموع لأنها كانوا ينزلونه مثل النبى .

وقال فى الإنجيل : [لما جاءته أم ابنى زندا . وكانت من تلامذته مع ابنيها ، فقال لهـا : مـا تريدين ؟ قـالت : أريد أن تجلس ابناى أحـدهمـا عـن يمينك ، والآخر عن شمالك فى ملكوتك ، فقـال : ليس إلى ذلك سبيل ، لأنه ليس لى أن أعطيه ، ولكن من وعد له أبى] .

قال الحسن بن أيوب : فمـا يكون يا هؤلاء أفصح وأبين وأوضح من اجتمـاع هذه الشواهد لكم فى كتبكم ما رضيتم بقوله فى نفسه ، ولا بقول تلامذته فيه ، ولا بقول من تنبأ عليه من الأنبيـاء ، ولا قول جموعه الذين تولوه لمن سألهم من مـخالفيهم عنه وتركتم ذلك كله ، وأخذتم بآراء قوم تأولوا لكم على علمكم فإنهم قد اختلفوا أيضاً فى الرأى ، فقال كل قوم فى المسيح ما اختاروا ، واتبع كلا منهم طائفة قالوا بقولهم ثم سلك من بعـدهم سـبيل الآباء فى الاقـتداء بهم ، فـبينوا لنا حـجتكم فى ذلك وهيهات من حجة ، ونحن نستوهب الله العصمة والتوفيق منه .

قال : ومما يشبـه ما تقدم قولهم لتـلاميذه فى إنجيل لوقا : [فأما أنتم الذين صـبرتم معى فـى بلائى ومخازى ، فـإن أعدكـم كـما وعـدنى أبى الملكوت لتأكلوا وتـشربوا معى على مـائدتى فى ملكـوتى] فبين أن الله عـز وجل ثناؤه وعـده أن يجـعله فى ملكوت السماء يـأكل ويشرب مع تلاميذه على مائدته ، وهـذا مما لا شك لكم فيه ، وهو مخـالف لقولكم فيـما يصيـر إليه ، وفى الأكل والشرب والنعيـم هناك ، ثم قوله لشـمعـون حين أتته الجـموع فـأخذوه : [أم يظن أنى لست قـادراً أن أطلب إلى أبى

فيقيم لي اثنى عشر جنداً من ملائكته أو أكثر ، ولكن كيف يتم الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون] ، ولم يقل : إني قادر أن أدفعهم عن نفسي ، ولا أبي آمر الملائكة أن يمنعوا عني ، كما يقول من له القدرة والأمر .

قال : ونجدكم تقولون في المسيح عليه السلام : إنه مولود من أبيه أزلي ويجب على المدعي القول أن يثبت الحجة فيه ، ويعلم أنه مطالب بإيضاحها لا سيما في مثل هذا الخطب الجليل الذي لا يقع التلاعب به ، ولا تجترئ النفوس على ركوب الشبهات فيه ، والطويل لمن تأول في ذلك تأويلاً لا حقيقة له ، فإنه يهلك نفسه ، ومن كان من الناس معه ممن يتبع قوله إن كان هذا الابن أزلياً على ما في شريعة إيمانكم ، فليس بمولود ، وإن كان مولوداً فليس بأزلي ، لأن اسم الأزلية إنما يقع على من لا أول ولا آخر .

ومعنى المولود أنه حادث مفعول ، وكل مفعول فله أول ، فكيف ما أردتم القول فيه كان بطلان الشريعة ، قال : ونسألكم أيضًا عن واحدة لم سميتم الأب أبًا ، والابن ابنًا ، فإنه إن كان وجب للأب اسم الأبوة لقدمه فالإبن أيضًا يستحق هذا الاسم بعينه إذ كان قديمًا مثله . وإن كان الأب عالمًا عزيزًا فهو أيضًا عالم عزيز تشهد له شريعة الإيمان له بذلك في قولها إنه خلق الخلائق كلها ، وأتقنت على يده وأنه نزل لخلاصكم ، ومن قدر على ذلك لم يكن إلا عالمًا عزيزًا ، فهذه المعاني التي ذكرناها تبطل اسم الأبوة والبنوة ، وفي إبطالها بطلان الشريعة التي تقول ولد من أبيه ، وإلا فإن كان الأب والابن متكافئين في القدم والقدرة ، فبأي فضل وسلطان للأب عليه أمره ونهاه فصار الأب باعثًا والابن مبعوثًا والأب متبوعًا مطاعًا .

ومما يشهد بصحة قولنا وبطلان ما تأوله أو لوكم في عبودية المسيح أن « متى » التلميذ حين بنى كتابه الإنجيل أول ما ابتدأ به أن قال كتاب مولد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم فنسبه إلى من كان منه على الصحة ، ولم يقل : أنه ابن الله ، ولا إنه إله من إله ، كما يقولون . فإن قلتم : إن تسمية يسوع للناسوت الذي قد جعلتموه

وقال تعالي : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، [سورة الاخلاص].

فكما نزه نفسه عن الولادة نزه نفسه عن اتخاذ الولد .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئًا إدًّا * تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخرُّ الجبال هدًا * أن دعوا للرحمن ولداً * وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ ، [سورة مريم : ٨٨ – ٩٥]

قال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ ، [سورة النساء : ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذا أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٠] .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) : « يقول الله تعالى : كذّبنى ابن آدم ومايبنغي له ذلك ، وشتمني ابن آدم وماينبغي له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله أنى يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : إنّى اتخذت ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

---

(١) « صحيح » عن أبى هريرة
رواه البخارى فى كتاب « التفسير » باب « سورة » « قل هو الله أحد » (٨/٦١١ح٤٩٧٤)
ورواه أيضاً برقم (٤٩٧٥)
ورواه النسائى فى كتاب « الجنائز » باب « أرواح المؤمنين » (٤/١١٢)
ورواه أيضاً فى الكبرى « النعوت » (٤/٣٩٥ح٧٦٦٧)وفى الباب عن « ابن عباس »
=
(٢) « متفق عليه » عن « أبى موسى الأشعرى »

وفي الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : « ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ، إنهم ليجعلون له ولداً وشريكا ، وهو يرزقهم ويعافيهم » .

ولهذا كان معاذ بن جبل يقول : لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر . فجاءت هذه الشريعة الحنيفية القرآنية حرمت أن يتكلم في حق الله باسم ابن أو ولد سداً للذريعة ، كما منعت أن يسجد أحد لغير الله ، وإن كان على وجه التحية ، كما منعت أن يصلى أحد عند طلوع الشمس وغروبها ، لئلا يشبه عباد الشمس والقمر ، فكانت بسدها للأبواب التي تجعل لله فيها الشريك والولد أكمل من غيرها من الشرائع كما سدت غير ذلك من الذرائع مثل تحريمها قليل المسكر ، لأنه يجر إلى كثيره ، فإن أصول المحرمات التي قال فيها : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن - منها - والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ ، [سورة الأعراف : ٣٣] .

مما اتفقت عليه شرائع الأنبياء بخلاف تحريم الطيبات عقوبة ، فإن هذا جاء في شرع التوراة دون شرع القرآن ، فإن الله أحلَّ لأمه محمد الطيبات ، وحرَّم عليهم الخبائث ، وكذلك تكميل التوحيد من كل الوجوه ، وسد أبواب الشرك من كل الوجوه جاءت به هذه الشريعة مع اتفاق الأنبياء على إيجاب التوحيد وتحريم أن

=رواه البخارى فى كتاب « الأدب » باب « الصبر فى الأذى » (٥٢٧/١٠ح٦٠٩٩)
ورواه البخارى أيضاً فى كتاب « التوحيد » باب قوله تعالى « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (٣٧٢/١٣ح٧٣٧٨)
ورواه مسلم فى كتاب « المنافقين »باب « لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل » (٢١٦٠/٤ح٢٨٠٤)
ورواه النسائى فى الكبرى في كتاب « النعوت » باب قوله تعالى : « هو الرزاق »(٤٠٦/٤ح٧٧٠٨)
ورواه أيضاً برقم (١١٣٢٣، ١١٤٤٥)

يجعل لله شريك أو ولد ، فإذا كان مراده المسيح عليه السلام بالابن هو الناسوت ، وهو لم يسم اللاهوت ابنًا وقد ذكر أن الابن لايعلم الساعة ، فتبين بذلك أن المسيح هو الناسوت وحده وأنه لايعلم الساعة ، وهذا هو الحق وإن قالوا مراده بالابن اللاهوت والناسوت لزم من ذلك أن اللاهوت أو اللاهوت والناسوت لايعلم الساعة ، وهذا باطل ، وكذب وهو أيضاً مناقض لقولهم .

فدل هذا النص من المسيح مع سائر نصوصه ونصوص الأنبياء على أن مسمى الابن هو الناسوت وحده ، وأنه لايعلم مايعلمه الله ، وذلك صريح في أنه مخلوق ليس بخالق ، ولايجوز أن يكون هذا خطأنا للناسوت المتحد باللاهوت دون اللاهوت . كما يتأوله بعض النصارى ، لأن كل ماعلمه اللاهوت المتحد بالمسيح علمه الناسوت ، ولأن الناسوت ليس هو الابن عندهم دون اللاهوت المتحد به ، بل اسم الابن عندهم هو اللاهوت ، ولأجل الاتحاد دخل فيه الناسوت ، ولأنه لم يثبت إلا علم الأب وحده لم يستثن على الإبن الأزلى عندهم ، بل نفي علم ماسوى الأب به ، وهذا مناقض بقولهم من كل وجه .

فصل في بطلان ما قاله النصارى في المسيح

قال الحسن بن أيوب : ومثل هذا أنه لما خاطبه الرجل على ماكتب في الإنجيل فقال : أيها الخبر ، فقال ليس الخبر إلا الله وحده ، قلت : وبعضهم يترجمه أيها الصالح فقال : ليس الصالح إلا الله وحده ، قال : ومثله قوله في الإنجيل [إني لم آت لأعمل بمشيئتي لكن بمشيئة من أرسلني] قال : ولو كانت له مشيئة لاهوتية كما يقولون لما قال هذا القول فقد أبطل به ماتدعونه في ذلك ، قال : ثم أنتم مع ذلك تدعون أن المسيح كلمة الله ، ومن قوة الله غير بائنة ولامتصلة عنه ، وتشهدون عليه فى الإنجيل بقوله إنه يصعد السماء ، ويجلس عن يمين أبيه ، ويدين الناس يوم القيامة ، ويجازيهم بأعمالهم ، ويتولى الحكم بينهم وأن الله عز وجل منحه ذلك إذ كان لا يراه أحد من خلقه فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فإن كان هذا الجالس للحكومة

بين العالمين يوم الدين والقاعد عن يمين أبيه هو شخص قائم بذاته لا يشك فيه هو الجسد الذى كان فى الأرض المتوحد به الربوبية ، فقد فصلتم بين الله تبارك وتعالى وبينه ، وبعضتموه باجتماعهما فى السماء شخصين متباينين أحدهما عن يمين صاحبه ، وهذا كفر وشرك بالله عز وجل ، وإن كان جسداً خالياً من الإلهية ، وهى الكلمة ، وقد عادت إلى الله كما بدت منه فقد زال عنه حكم الربوبية التى تنتحلونه إياها .

قال : ونسألكم عن واحدة نحب أن تخبرونا بها أصل ما وضعتموه من عبادة الثلاثة الأقانيم التى ترجع بزعمم إلى جوهر واحد ، وهو اللاهوت ما هو ؟ ومن أين أخذتموه ؟ ومن أمركم به ؟ وفى أى كتاب نزل ؟ وأى نبى تنبأ به ، أو أى قول للمسيح تدعونه فيه ؟ وهل بنيتم أمركم فى ذلك إلا على قول « متى » التلميذ عن المسيح عليه السلام أنه قال لتلاميذه حيث أراد أن يفارقهم [اذهبوا فعمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس] .

قال : وهذا كلام يحتمل معناه ـ إن كان صحيحاً ـ أن يكون ذهب فيه بأن يجمع هذه الألفاظ إلى أن تجتمع لهم بركات الله وبركة نبيه المسيح وروح القدس التى يؤيد بها الأنبياء والرسل ، وقد نراكم إذا أردتم الدعاء بعضكم لبعض قلتم صلاة فلان القديس تكون معك ، ومعنى الصلاة الدعاء ، واسم فلان النبى يعينك على أمورك .

وكما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ ، [سورة النساء : ٥٩] يقرن طاعته بطاعة نبيه وأولى الأمر من المسلمين ، أفنقول فلذلك إنهم جميعاً آلهة ؟

قال : وقد يجوز أن يكون له معنى يدق عن الوقوف عليه بغير التأويل ، إن لم يكن معناه ما قلناه ، أو يكون المسيح عليه السلام ذهب فيه إلى ما هو أعلم به ، فلم حكم بأنه ذهب إلى أن هذه الأسماء لما أضافها إلى الله صارت آلهة ، وجعلتم لها

أقانيم لكل اسم أقنوم بعينه ، وهو شخص ، وكيف استجزتم ما أشركتموه مع الله بالتأويل الذى لا يصح .

وإذا قلتم بثلاثة أقانيم كل أقنوم بذاته ، فلابد من أن تعترفوا ضرورة بأن كل أقنوم منها سميع حى بصير عالم حكيم منفرد بذاته ، كما يقولون فى المسيح : إنه جالس عن يمين أبيه فتراكم أخذتم الأقنومين اللذين أحدثتموهم مع الله من جهة أن الله حكيم حى فحكمته الكلمة وهى المسيح وروحه وروح القدس ، وهذه صفة من صفات الله مثلها كثير ، لأنه يقال حكيم عليم سميع بصير حى قدير .

وكذا ربنا تعالى وإن كانت صفاتنا إياه لا تلحق صفاته ، ولا تبلغ كنه مجده إلا بالتمثيل لعظمته وعزته وجلاله وعلوه فنحلتم صفاته التى هى معناه وليست سواه غيره وجعلتموه أقانيم لكل واحد من الحياة والحكمة وسائر الصفات مثل الذى له ، وما فيها أقنوم له صفة إلا ويحتمل على قياس قولكم أن تكونوا صفته مثله ، فإذا كانت هذه الأقانيم آلهة ، وكل صفة إله ، وهى من جوهره فيجب أن تكون كل صفة لكل واحد من الثلاثة الأقانيم إلهاً مثله إذ كان من جوهره فيتسع الأمر فى ذلك حتى لا يكون له غاية ولا نهاية .

قال : وإذا قلتم بثلاثة أقانيم هى فى السماء من جوهر قديم أفليس يلزمكم الإقرار بثلاثة آلهة ، لأن الأقانيم أشخاص يوماً إليها ، ويقع الحد عليها ، وإلا فما الحجة وأنتم تذكرون فى بعض احتجاجكم أنها ثلاثة ترجع إلى واحد غير متبعضة ولا منفصلة وتشبهونها فى اجتماعها وظهور ما يظهر منها بالشمس ، وقد نراكم عقدتم شريعة إيمانكم على أن المسيح إله وإنسان متحدين وأنه يصعد إلى السماء ويجلس عن يمين أبيه ، والجالس عن يمين صاحبه أليس هو منفصلا عنه مفروزاً عنه ؟ فكيف يصح على هذا القول قياس ، أو يصح به عقد دين ؟ تقولون مرة مجتمع ، ومرة منفصل ، وما شبهتموه به من الشمس ، فقد تقدم شرحنا لبطلان الحجة فيه ، وأنه لا يكون قياسه القياس الذى تعلقتم به .

على أنا وجدناكم تقولون فى معنى التثليث : إن الذى دعاكم إليه ما ذكرتم أن « متى » التلميذ حكاه فى الإنجيل عن المسيح عليه السلام ، إذ قال لتلاميذه : [سيروا فى البلاد ، وعمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس] وأنكم فكرتم فى هذا القول بعقولكم فعلمتم أن المراد بذلك أنه لما أن ثبت حدوث العالم علمتم أن له محدثا فتوهمتموه شيئاً موجوداً ، ثم توهمتموه حياً ناطقاً لأن الشئ ينقسم لحى ، ولا حى ، والحى ينقسم لناطق ، ولا ناطق .

وأنكم علمتم بذلك أنه شئ حى ناطق فأثبتم له حياة ونطقاً غيره فى الشخص وهما فى الجوهرية .

فنقول لكم فى ذلك إذا كان الحى له حياة ونطق فأخبرونا عنه أتقولون إنه قادر عزيز أم عاجز ذليل ؟

فإن قلتم : لا بل قادر عزيز ، قلنا : فأثبتوا له قدرة وعزة كما أثبتم له حياة وحكمة .

فإن قلتم : لا يلزمنا ذلك لأنه قادر بنفسه عزيز بنفسه ، قلنا لكم : وكذلك ، فقولوا إنه حى بنفسه ، وناطق بنفسه ، ولا بد لكم مع ذلك من إبطال التثليث أو إبطال التخميس ، وإلا فما الفرق ، وهيهات من فرق .

وقال الحسن أيوب أيضاً : إنا كلما تأملنا معكم فى نسبة المسيح عليه السلام إلى الإلهية وعبادتكم له مع الله على الجهة التى تذهبون إليها وطلبنا لكم الحجة فى ذلك من كتبكم ، إزددنا بصيرة فى استحالة ذلك ، ووضعكم له من القول ما لا يثبت لكم به حجة ولا يشهد به لكم شئ من كتبكم ، ووجدنا أبين ما جاء فى المسيح وصحة أمره فيما أتى به ما قال « متى » التلميذ [إنه لما جاء يسوع إلى أرض قيسارية سأل تلاميذه فقال : ماذا يقول الناس فى أنى ابن البشر ؟ فقالوا منهم من يقول : إنك يوحنا المعمدانى ، وآخرون يقولون : إنك أرميا أو أحد الأنبياء] .

[فقال لهم يسوع : فأنتم ماذا تقولون ؟ فأجابه سمعان الصفا وهو رئيسهم فقال : أنت المسيح ابن الله الحق فأجابه المسيح ، وقال : طوبى لك ياسمعان ابن يونان إنه لم يطلعك على هذا لحم ولا دم ، ولكن أبى الذى فى السماء] .

وحكى لوقا فى إنجيله هذا الخبر فقال : إن سمعان أجابه فقال : [أنت مسيح الله] ولم يقل ابن الله فهذا كلام تلميذه الرئيس فيه وأرضاه ما قال .

وقوله : إنه لم ينطق بذلك إلا ما أوحاه الله فى قلبه ولم ندفعكم قط عن أنه مسيح الله ، ولا عن أنه كما تقولون فى لغتكم إنه ابن الله بالرحمة الصفوة مع الاختلاف الواقع فى ذلك فى الإنجيلين ، وقد قال : مثل ذلك فيكم جميعاً [إن الله إلهى وإلهكم وأبى وأبوكم] فتعمل على احتجاجكم بأنه ليس مثلكم فى معنى النبوة ونجعله مثل من سمى فى الكتب إبنا على جهة الإصطفاء والمحبة مثل إسرائيل وغيره بل قد خص إسرائيل بأن قال عز وجل : [أنت إبنى بكرى] . وهذا كلام له مذهب فى اللغة القديمة التى جاءت بها الكتب ، وليست بموجبة الإلهية إذ كان قد شاركه فى هذا الاسم غيره فلم لا جعلتموه كما جعل نفسه ؟

ومما يؤكد المعنى فى ذلك ويزيل تأويل من يتأول له ما لم يدعه ولم يرض به قوله فى علم الساعة : [إن ذلك شئ لا يعلمه أحد من الخلق ولا الملائكة المقربون ولا الابن - يعنى نفسه - إلا الأب وحده] ، ثم قال للرجل الذى أتاه فقال له [أيها العالم الصالح ، أى الأعمال خير لى ، الذى تكون لى حياة إلى يوم الدين ؟ فقال له : لم تقل لى صالحاً ، ليس الصالح إلا الله وحده] فاعترف لله بأنه واحد لا شريك له ، ونفى عن نفسه فلم يجعلها - ولا أحد من الخلق - أهلا لذلك .

وقوله للمرأة التى جاءته فقالت : أنت ذلك النبى الذى كنا ننتظر مجيئه .

فقال لها المسيح [صدقت طوبى لك] ثم قال الشيطان حين اختبره فسامه أن يلقى نفســه من رأس الهيكل ، فقال : أمرنا أن لا نجرب الرب ثم سامة أن يسجد له

، فقــال : [أمرنا أن لا نسجد إلا لله وحده ولا نعبد سواه] ثم صلاته فى غير وقت لله ، وآخرها الليلة التى أخذته اليهـود فيـها ، فإذا كـان إلهاً كمـا زعمتـم فلمن كان يصلى ويسجد ؟

ثم قول الجموع الذين كـانوا معه حين دخل أورشليم ، وهى مدينة بيت المقدس على الأتان لمن كـان يسـأله عن أمره لما راجت المدينه به : هذا هو يسـوع الناصـرى النبى الذى من الناصرة . ثم قوله فى بعض الإنجيل : [اخرجوا بنا من هذه المدينة فإن النبى لا يبجل فى مديـنته] ، وفى موضع آخر إنه قال : [لا يهـان نبى إلا فى مدينته وفى بيته وأقاربه] .

وقـوله فى بعض خطبـه : [إن هذا الجيل السوء يريـد آية لا يعطى إلا آية يونس ، كمـا كان يونس لأهل « نينوى » كذلك يكون ابن البـشر لهذا الجيل ، رجال نينوى يقدمون فى الدين مع هذا الجيل فيخصمونهم لأنهم تابوا على قول يونس النبى ، وإن ها هنا أفضل من يونس] .

ثم قـول داود فى نبوته عليـه السلام : [من هذا الرجل الذى ذكـرته وجعلـته دون الملائكة قليلاً] ثم قول تلاميذه فيه ما شرحناه فى صدر كتابنا هذا ما تقدم ووصفهم أنه رجل أتى من عند الله بالأيدى والقوة .

ومما يشبـه ذلك أنه لما قدم تلاميذته فركـبوا السفـينة ، وقال لهم : [امضـوا فإنى ألحق بكم فأتاهم يمشى على البحر فلمـا رأوه فى تلك الحال قالوا : ما هذا الحال ويح ، ومن الغرق صاحوا ، فقال لهم يسوع اطمئنوا ولا تخافوا أنا هو ، فأجابه شمعون الصفا ، وقال له : يارب إن كنت أنت هو فـأذن لى آتيك على الماء . فقال له : تعال فنزل سمـعان إلى الماء ليـمشى عليه ، فلم يسـتطع وجـعل يغرق ، فصـاح ، وقال : يارب أغثنى فبـسط يده يسوع فـأخذه ، وقـال له تشككت يا قليل الأمانـة ؟] قال فبان بذلك عجـز المسيح عن إتمام ما سأله شمعون الصفـا ومثله قول الرجل الذى قال

القدس ، وتسمية هذه الصفات بهذه الأسماء لا توجد في شئ من كلام الأنبياء ولا غيرهم ، ولايعرف أن أحداً قط لا من الأنبياء ولا غيرهم سمى علم الله القائم به ابنه ، بل ولا سمى علم أحد من العالمين القائم به ابنه ، لكن لفظ الإبن يعبر به عمن وُلِدَ الولادة المعروفة ، ويعبر به عمن كان هو سبباً في وجوده ، كما يقال ابن السبيل لمن ولدته الطريق ، فإنه لما جاء من جهة الطريق جعل كأنه ولده .

ويقال لبعض الطير ابن الماء ، لأنه يجئ من جهة الماء ، ويقال : كونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن الابن ينتسب إلى أبيه ويحبه ، ويضاف إليه أي كونوا ممن ينتسب إلى الآخرة ويحبها ، ويضاف إليها ، وهذا اللفظ موجود في الكتب التي بأيدى أهل الكتاب في حق الصالحين الذين يحبهم الله ويربيهم كما ذكروا أن المسيح قال : [أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم] وفي التوارة : إن الله قال ليعقوب : [أنت ابني بكري] .

ونحو ذلك مما يراد به إذا كان صحيحاً له معنى صحيح ، وهو المحبة له والاصطفاء والرحمة له ، وكان المعني مفهوماً عند الأنبياء عليهم السلام ، ومن يخاطبونه ، وهو من الألفاظ المتشابهة ، فصار كثير من أتباعهم يريدون به المعنى الباطل.

وزعم كثير من الكفار أن لله سبحانه وتعالى بنين وبنات ، وأن الملائكة بناته ، وبعض من يقول بقدم العالم من المتفلسفة يقولون العقول العشرة هي بنوه، والنقوش الفلكية هي بناته ، وهي متولدة عنه لازمة لذاته ، فجاء القرآن الذي هو أفضل الكتب وأكملها بإبطال هذه المعاني ، ومنع استعمال هذا اللفظ في حق الله تعالى فنزه الله عن أن يتخذ ولداً ، كما نزهه عن أن يكون له ولد ، والأولى من باب تنزيهه عن الأفعال المذمومة ، وهذا على قول جماهير المسلمين وغيرهم الذين ينزهون الله ويقدسونه عن الأفعال القبيحة التي لاتليق به ، بل تنافي ماوجب له من الكمالات في أفعاله ، كما وجب له الكمال في ذاته وصفاته ، وأما من كان من المسلمين وغيرهم

لاينزه الله عن فعل من الأفعال إلا ما كان ممتنعًا لذاته ، فأما الممكن المقدور فيقول : لايعلم انتفاؤه إلا بالخبر أو بالعادة المطردة التي يمكن انتقاضها فهذا لايبقي معه ماينفي به عن الله الأفعال المذمومة القبيحة ، والكتب الإلهية قد نزهت الرب عز وجل عن الأفعال المذمومة كما نزهته عن صفات النقص ، كقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٦ : ٢٧] .

وقال تعالى ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافي السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] .

كما قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٠٠] .

وقال تعالى : ﴿ وقل الحمدلله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذلّ وكبره تكبيراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ١١١] .

وقال تعالى عن المؤمنين : ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩١] .

وقال تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شئ فقدّره تقديراً ﴾ ، [سورة الفرقان : ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وماكان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٩١ ، ٩٢] .

وقال تعالى : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٥١ ، ١٥٢] .

حجة بينكم وبين كل من التمس الحجة منكم عند الانقطاع فيما يعترف به المسيح من العبودية ، فقد نسق متى اسم يسوع الذى هو عندكم اسم للناسوت المسيح الذى هو جامع الناسوت واللاهوت ، فأى حجة فى إبطال هذا التأويل أوضح من هذا .

ومما يصحح قولنا ويؤكده قول جبريل الملك لمريم عند مخاطبته إياها إنه ابن داود على ما ثبت من ذلك فى الإنجيل ، قال : ووجدناكم قد ذكرتم فى شريعة الإيمان أن يسوع المسيح بكر الخلائق .

فإن كنتم ذهبتم فى ذلك إلى أنه على نحوها يسمى أول ولد الرجل و كبيرهم فجائز . وهو محقق لقولنا فى عبوديته ، وإن كنتم أردتم بذكر البكر أنه أول قديم . فلسنا نعرف للبكر معنى فى لغة من اللغات إلا للأكبر من الأخوة ، والأول من الولد وبكر الخلائق لا يكون إلا من الخلائق.

كما أن بكر الرجل والمرأة لا يكون إلا من جنسهما ، وباكورة الثمار لا يكون إلا ثمرة ، ولأن من المحال أن يقول قائل بكر ولد آدم ملك من الملائكة ، وكذلك من المحال أن يكون بكر المصنوعات ليس بمصنوع وبكر المخلوقات ليس بمخلوق .

وقد قال الله تعالى فى التوراة : [يا ابنى بكرى] أى إسرائيل ، وقال فى آخر : [إنه نظر بنو الله إلى بنات الناس فشغفوا بهن] ، فهل يوجب لآل إسرائيل الإلهية بهذا القول؟

قال : وقلتم : إن المسيح ولد من أبيه قبل العوالم ، وليس بمصنوع فليس يخلو الأب من أن يكون أولد شيئًا موجودًا أو غير موجود . فإن كان لم يزل موجودًا فإن الأب لم يلد شيئًا . وإن كان غير موجود ، وإنما هو حادث لم يكن فهو مخلوق كما قلنا . قال : ومما يبين قولنا فى خلق المسيح : إن هذا الإسم إنما وقع له ، لأنه مسح للنبوة والخير ، وما سحه الله تبارك وتعالى ، وقد قال داود فى زبوره قولا يشهد على ذلك بعينه : [من أجل هذا البر مسحك الله إلهك أكثر مما مسح به نظراءك] ،

فأبـان داود بهذه الآية معنى المسح بإنجيله ، وأن مـا سحـه الله إلهه ، وإنه مـصطفى مكرم بزيادة على نظرائه ، وقال داود أيضًا فى مزمـور إحدى وثلاثين يخاطب الله : [من أجل داود عبدك لا يغلب وجه مسيحك عهـد الرب لداود بالحق ، ولا يرجع عنه] يعنى بمسيحه نفسه لأن الله مسحه للنبوة والملك ، وقد قـال فى مثل هذا فى غير موضع من زبوره [فسمى نفسه مسيح الله] ، وإذا نظر فى الإنجيل .

وكتب « بولص » وغيره ممن يحتج به النصارى وجد نحواً من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح ، وكلها تـنطق بمعبودية المسيـح ، وإنه مبـعوث مـربوب ، وأن الله اختـصه بالكرامات ، مـا خلا آيات يسيـرة مشكلات قد تأولهـا كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم ، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد ، وتركوا المعظم الذى ينطق بعبـوديته ، فلو كـانوا قصـدوا الحق لردوا تلك المشكلات الشاذة اليسيرة التى يوجد لها من التأويل خلاف ما يتأولونه على الواضحات الكثيرة التى قد بانت بغير تأويـل ، لأنه إنما يجب أن يقاس الجزء على الكل ، ويستـدل على ما غاب بما حضر ، وعلى ما أشكل بما ظهر ، فـمن تلك الآيات المشكلات ما قد ذكرناه فى كتابنا هذا وبينا معناه والحجة فيه ، وأنه ليس كما تأولوه .

ومنهـا ما يحكـمون عن المسيح أنه قـال : [أنا بأبى] ، وقد فـسر المسيح عليـه السـلام ذلك ، وكـشفـه قـال « يوحنا » فى إنجيله : إن المـسيـح تضـرع إلى الله فى تلاميذه ، وقال : [يا أيها الرب القدوس احفظهم بإسمك الذى اعطيتنى ليكونوا هم أيضًا واحدًا ، كما أنا شئ واحد ، وكـما أنك أرسلتنى إلى العالم ، وكذلك أرسلهم أنا أيضًا ، ثم قال بعد هذا أيضًا : إنى قد منحتـهم من المجد الذى أعطيتنى ومنحتنى ، ليكـونوا أيضًا شيئًا واحـدًا كمـا أنا شئ واحد ، فـأنابهم ، وأنت بى] قال : هو معنى ذلك أنه قال أنت لى كما أنا مع تلاميذى ولهم .

قلت : أو أراد إنك بى هديت الخلق وعلمتـهم وأنا أهديهم وأعلمـهم ، والباء للسببيـة ، فإن الله يرسله هدى عبـاده وعلمـهم ، والرسل علمـوا الغـائبين عنهم ،

فالحاضرين الذين بلغوا عنهم ، قوله بلغوا عنهم ، وقوله ليكونوا شيئًا واحدًا : أراد به اتفاق صدقهم وأمرهم ومرادهم ، وهذا مفسر ، وقد قال : ليكونوا هم شيئًا واحدًا ، كما أنا شئ واحد فقد طلب لهم مثل ما حصل له ولربه .

وهذا يبين أن قوله كما أنا شئ واحد أى أنا موافق فى أمرك ونهيك ومحبتك ورضاك ، لم يرد بذلك اتحاد ذاته به ، كما يرد أن تتحد ذوات بعضهم ببعض ، فإنه طلب لهم مثل ما حصل له من الموافقة لأمر الله ونهيه ومحبته ورضاه ، قال : أو يكون ذهب فيه إلى معنى دقيق لا يعرفه إلا أنه قد بطل على كل حال بهذا القول تأويلكم مما زجته عز وجل فى اللاهوت بقوله فى تلاميذه : إنه بهم ، كما أن أباه به ، لأنه إن تأول متأول فى هذا المعنى أنه ذهب فى بعض وصفه بأبيه ، وأن أباه به إلى مشاركته فى اللاهوت فقد قال فى تلاميذ مثل هذا القول ، فيجب أن يكونوا على هذا القيساس شركاء فى المحل ، وهذا ما لا يكون ، ولا يجترى على القول به أحد .

قال : ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها وعبودتها ومعبودها واحدًا ، يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام ، وتلامذته ، وإنجيله ، وسننه ، وشرائعه ، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف ، فمنهم من يقول : إنه عبد ، ومنهم من يقول : إنه إله ومنهم من يقول : إنه ولد ، ومنهم من يقول : إنه أقنوم وطبيعة ، ومنهم من يقول : إنه أقنومان وطبيعتان .

وكل يكفر صاحبه : ويقول : إن الحق فى يده ، وكلهم لا يأتى من الكتاب بحجة واضحة يثبت بها دعواه ، ولا من قياسه لنفسه وتأويله بما يصح له عند المناظرة وإنما يرجع فى دينه واعتقاده إلى ما تأوله المتأولون ، بما يخالف إنجيلهم ، وكتبهم بالهوى والعناد من بعضهم . فهم يشركون بالله على التأويل ولا شريك له ويدعون له ولدًا من جهة ما أحدثوا لأنفسهم ، سبحانه أنى يكون له ولد !!!

إنتهى الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث

إن شاء الله

فهرس الجزء الثانى من
كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

صفحة

* فصل فى بطلان قياس كتبهم على القرآن ٣
* فصل فى أن الغلط إنما وقع فى الترجمة ١٧
* فصل فيما حدث فى التوراة من تغيير ٢٠
* فصل فيما حدث فى الإنجيل من تبديل ٢٢
* فصل فى كيفية التغيير الذى حدث فى الإنجيل ٢٧
* فصل فى قوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) ٢٩
* فصل فى أن دين الأنبياء كلهم واحد ٣٤
* فصل فى قوله تعالى : (لا حجة بيننا وبينكم) ٣٦
* فصل فى دعوى النصارى أن الإسلام دين عربى ٤٠
* فصل فى مجادلة أهل الكتاب ٤٤
* فصل فى وعيد الله لأهل الكتاب بسبب ما أحدثوه فى كتبهم من تبديل ٤٥
* فصل فى كيفية الإيمان بما جاء به الأنبياء ٥٠
* فصل غلو النصارى فى الدين ٥١
* فصل فى غلو اليهود فى الدين ٥٣
* فصل فى بطلان الاستدلال بالمتشابه ٥٧
* فصل فى ادعاء النصارى أن القرآن مدحهم ٦٥
* فصل فى ادعاء النصارى من تأييد الكتب السماوية لدينهم ٦٨
* فصل فى بطلان ما استدلوا به ٧٣
* فصل فى فيما بشر به القرآن مريم من ولادة المسيح ٧٩
* فصل فى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم للنصارى للدخول

صفحة

فى الإسلام ٨٠
* فصل فى دعوة النصارى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شاكا فيما جاء به ٨١
* فصل أن الرسول لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ٨٣
* فصل فى دعوى النصارى أنهم هم المعينوى بقوله « صراط الذين أنعمت عليهم » ٨٧
* فصل فى القول فى بطلان التثليث ٩٧
* فصل فى تقسيم الأشياء ١١٢
* فصل فى رد دعوى النصارى أن الحى قسمين ١١٥
* فصل فى بطلان كون الثلاثة إله واحد ١٢٠
* فصل فى معنى روح القدس ١٢٩
* فصل فى الروح ١٣٢
* فصل فى عدم خصوصية روح القدس بالمسيح ١٣٣
* فصل فى تحريف روح القدس فى الإنجيل ١٣٤
* فصل فى إبطال دعوى أن حياة الله تسمى روحًا ١٣٦
* فصل فى قوله : (وكلمته باقية إلى الأبد) ١٣٩
* فصل فى معنى التعميد باسم الأب والابن ١٤١
* فصل فى عدم حجية ما ادعوه من الأقانيم ١٤٣
* فصل فى بطلان دعوى تأييد القرآن لهم ١٤٤
* فصل فى محاولتهم تحريف القرآن ١٤٨
* فصل فى معنى كلمة الله ١٥٠
* فصل فى معنى : (فنفخنا فيها من روحنا) ١٥١

صفحة

* فصل فى معنى القرآن كلام الله ١٥٢
* فصل فى الصفات الجوهرية وهل يجرى مجري الأسماء ؟ ١٥٣
* فصل فى قولهم فى تباين الصفات وتوافقها ١٦٣
* فصل فيما قالوه فى التثليث ١٦٥
* فصل فى تناقض ما قالوه مع ما فى الأمانة ١٦٥
* فصل فيما قالوه من التجسيم والحلول ١٧٠
* فصل فى ادعوه من ظهوره فى عيسى ابن مريم ١٨٥
* فصل فى أنه لا دليل على حلول ذاته واتحاده بالمسيح ١٩٧
* فصل فيما تأوله اليهود فى البشارة بالمسيح ١٩٨
* فصل فى الفرق بين المسيح والمسيخ ١٩٨
* فصل فى أن عيسى ليس بدعا من الرسل ١٩٩
* فصل فى أن ما جاء فى الأنجيل نظير ما فى التوراة ٢٠١
* فصل فى معنى حلول الله ٢٠٣
* فصل فيما يوافق المسلمون النصارى ٢٠٦
* فصل فى شهادة الرب ٢٠٩
* فصل فى أن كل ما ذكروه حجة عليهم ٢١١
* فصل فى الموهم التشبيه من آيات الكتب النبوة ٢١٨
* فصل فى معنى : « عما نويل » ٢٢٥
* فصل فى التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم ٢٢٧
* فصل فى أن روح القدس هو روح الله ٢٢٨
* فصل فى أن المسيح إنما هو رب الملائكة ٢٢٩
* فصل فى شهادة علمائهم على التحيف ٢٣١

صفحة

* فصل فيما بدله اليهود وغيروه وكفروا به ٢٣٩
* فصل فى البدع التى أحدثتها النصارى ٢٤٢
* فصل فى الفرق بين المشابهة والمماثلة ٢٤٤
* فصل فى أن الصفة ليست ابنا ٢٥٠
* فصل فى معنى الرب ٢٥١
* فصل فى معنى الابن ٢٥٢
* فصل فى بطلان ما استدلوا به على التعدد ٢٥٣
* فصل فى أن الرب لا يتعدد وإنما الذى يتعدد هو التقديس ٢٥٥
* فصل فى معنى قوله : تثلث لك ٢٥٧
* فصل فى المسيح الذى تنتظره اليهود ٢٥٨
* فصل فيما ذهب إليه النصارى من الأقانيم ٢٥٨
* فصل فى الكلمة وأنها صفة الرب ٢٦٢
* فصل فى عدم تناقض القرآن ٢٧٣
* فصل فى ما ذهب إليه النصارى من اتحاد اللاهوت والناسوت ٢٧٩
* فصل فى امتناع كون المسيح إلهًا ٢٩٣
* فصل فى كلمة الله ما هى ؟ ٣٠٢
* فصل فى مثل عيسى عند الله كمثل آدم ٣٠٨
* فصل فى الرد على أن فى عيسى طبيعتين ٣٢٢
* فصل فى أن المسيح إنما هو رب الملائكة ٣٢٦
* فصل فى بطلان ما قاله النصارى فى المسيح ٣٦٥